شؤون فلسطينية

٣٨

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

قضايا إسرائيلية

مَلَف يُعنَى بالشؤون الإسرائيليّة والصّهيونيّة
يَصدر عَن مَركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية
رئيس التحرير : صبري جريس

« قضايا اسرائيلية » ملف اخباري تحليلي ، يتابع الشؤون الاسرائيلية والصهيونية ، الداخلية والخارجية ، مع امتداداتها وابعادها داخل اسرائيل وداخل الحركة الصهيونية ، وفي العلاقات بين اسرائيل ودول العالم ، وتأثير كل ذلك على الصراع العربي الاسرائيلي .

« قضايا اسرائيلية » موجه بشكل خاص الى المسؤولين العرب ذوي العلاقة المباشرة وغير المباشرة بقضايا الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وموجه كذلك الى جميع الباحثين العرب والمتابعين لقضايا هذا الصراع ، من كتاب وصحفيين ومعلقين .

« قضايا اسرائيلية » يقدمه قسم الدراسات الاسرائيلية والصهيونية في مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ، من خلال متابعته لكل ما يصدر في اسرائيل من صحف يومية ومجلات ودوريات متخصصة ونشرات وكتب ، وما تبثه الاذاعة الاسرائيلية من انباء وبرامج .

« قضايا اسرائيلية » يصدر مرة كل اسبوعين ، كل يوم خميس ، ما لم تطرأ احداث تلزم صدوره بكثافة اكبر ، ويوزع على المشتركين فقط .

« قضايا اسرائيلية » ملف يقرأ ويحفظ ، ويلحق به فهرس سنوي مبوب يجعل منه مرجعا يسهل التعامل معه والافادة منه .

بدل الاشتراك السنوي : للحكومات ـ ٩٠ ل.ل. ، للمؤسسات ـ ٦٠ ل.ل. للافراد ـ ٣٠ ل.ل.

قسيمة اشتراك

الى مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية (ص.ب ١٦٩١ ـ بيروت)

ارجو اعتباري مشتركا في ملف « قضايا اسرائيلية » وذلك اعتبارا من .....

.....

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٨ — تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٦٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

صفحة ٤ شؤون فلسطينية : **تلك الحرب هذه الحرب** ، محمود درويش .

٧ **قضية فلسطين على جدول اعمال الامم المتحدة** ، الدكتور جورج طعمه .

١٦ **فلسطين في الامم المتحدة : خطوة نضالية** ، منير شفيق .

٢٥ **ولكن للشهادة وجها آخر** ، المطران جورج خضر .

٢٩ **استراتيجية المستقبل العربية في ضوء الحرب الرابعة** ، المقدم الهيثم الايوبي .

٤١ **اسرائيل بعد سنة من تشرين** ، صبري جريس .

٥٢ **الثورة الفلسطينية في الحرب الرابعة: توظيف الخبرات واجتياز العقبات**، عصام سخنيني .

٥٧ **قتال المدرعات في الحرب الرابعة** ، محمود عزمي .

٧٣ **عودة الى الوحدة العربية** ، الدكتوران اسعد عبد الرحمن وهاني فارس.

٩٢ **سداسية الايام الستة والوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل** ، اميل حبيبي .

١١٧ **باجس ابو عطوان : مات البطل .. عاش الجبل** ، معين بسيسو .

١٤١ **السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في المناطق المحتلة : أسس لامبريالية جديدة** (الحلقة الثانية) ، شيلا ريان .

١٥٤ **الاساليب الجديدة في مواجهة العمل الفدائي** ، عبد الحفيظ محارب .

١٦٤ **مراجعات** : الفلسطينيون والمشكلة العربية ــ الاسرائيلية ، ماجد نعمه. التوسع الاسرائيلي: عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلي (يونيو ١٩٦٧ ــ اكتوبر ١٩٧٣) ، محمد علي العويني . القضية الفلسطينية ، رجا جورج. حرب رمضان : الجولة العربية ــ الاسرائيلية الرابعة (اكتوبر ١٩٧٣) ، هـ.أ.

١٧٨ **تقريران** : (١) الغرب بعد حرب تشرين الاول ، عقيل هاشم. (٢) ايران، الحل « البديل والمكمل » لاسرائيل ، سلمى حداد .

١٩١ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا . (٣) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) اسرائيليات . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، هـ.أ. جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٨/١٦ ــ ١٩٧٤/٩/١٥ ، غازي خورشيد .

تلك الحرب
هذه الحرب

● مضى عام ، ولا نقول : تلك الحرب .

هذه الحرب ما زالت دائرة منذ ما يزيد عن ربع قرن . وما حدث في تشرين الماضي لم يكن حربا جديدة . وما سيحدث في المستقبل ، القريب أو الاقل قربا ، لن يكون حربا جديدة . انه استمرار لتلك الحرب ــ هذه الحرب . ولذلك ، فان أبناء جيلنا لا يؤرخون بقدر ما يصنعون تاريخا . لا يحتفلون بذكرى حرب بقدر ما يعدون مقومـــات النصر في هذه الحرب المستمرة .

من واجب أبناء هذا الجيل أن يتلافوا الوقوع في الخطأ الناجم عن وضع الفواصل الميكانيكية بين البدايات والنهايات . ولكن، بوسعنا ان نسجل ، وبدون أناقة التردد ، أن ما حدث في تشرين الماضي كان أول نقطة انعطاف مؤثرة في سير المعارك ، حددت مصير الصراع على أرض الواقع الى مرحلة قادمة مرئية تنطوي على حد ما من الانسجام بين القدرة العملية العربية وبين المعاني التاريخية التي يمثلها صراعنا مع العدو .

ولعل هذا الانسجام الذي كنا نفتقده بمأساوية هو الذي يدفعنا الى التمسك بمصداقية القول اننـــا نقف على مدخل نهـــاية الهزيمة العربية المشروطة بايصال العدو الى بداية النهاية .

لم نعد قادرين على امتصاص المزيد من الهزائم . ولم يعد العدو مؤهلا لانجاز المزيد من الانتصارات . هذا هو كشف الحساب التاريخي الذي مكن الامة العربية من تحقيق نقطة الانعطاف المؤثرة في سير الصراع .

لقد وجد العدل قوته الضرورية لتمكينه من البقاء ومن ممارسة الادعاء في الحياة والجدارة . وفي الوقت ذاته ، كان من المحتم أن تجري عملية فتك بالجريمة التي استطاعت القوة ، وحدها ، أن تكسبها المقدرة على ادعاء الحق وممارسة الدفاع . هذه هي أوراق الاعتماد التي نقدمها الى محكمة التاريخ .

كان تفاؤلنا تاريخيا . والآن صار تفاؤلنا تاريخيا وعمليا . ليس التفاؤل هو أن نصدق التاريخ . ولكن التفاؤل هو أن نصدق قدرتنا على المشاركة في عملية سير التاريخ الى أمام . وستجري محاولات كثيرة لفك ارتباطنا بهذه القناعة .. ستجري محـــاولات لوضع الفوارق بين حاملة طائرات الامبريالية وبين الامبريالية ذاتها ، لدفع حركة التحرر العربية الى اجراء تعديلات على أهدافها تتفق مع صناعة هذا الفارق المصطنع ولكن تفاؤلنا يتغلب في النهاية ، لانه ليس بوسع الجماهير العربية أن تضحي ، بهذه السهولة ، بمحتوى أهداف نضالها ومبادئها وشعاراتها . وليس بوسعها أن تنسجم مع نغمة القول بسقوط العقائد تبريرا لعملية استبدال أصدقاء الجبهة الكفاحية بالاعداء .

ليست هذه الحرب آخر الحروب ، لاننا نكتشف أن توقف عملية الحرب يرادفه توقف عملية صنع السلام . وبقدر ما تنمو القدرة العربية على خوض حرب الحرية والتحرير تزداد امكانية نمو السلام .

ليست تلك مفارقة ، لانه ليس بوســـع أي نصر اسرائيلي أن يفرض السلام على العرب ، بعكس النصر العربي الذي يشكل ، وحده ، قاعدة السلام الحقيقي .

ومن هنا تكون الحرب العربية على العدوان الصهيوني هي المتتالية التي توصل الى سلام العدل والحق . ومن هنا أيضا يكون تجميد اشكال الصراع مع الصهيونية وأدا تدريجيا للسلام ذاته ، لانه يشكل مظهرا من مظاهر التسامح مع نمو الخطأ والخطيئة .

لقد أثبتت تجربة العام الماضي صعوبة الحسم بسبب تشابك الابعاد الدولية للصراع العربي ـــ الاسرائيلي . ولكن الاهم من ذلك انها أثبتت عبثية انتظار السلام ـــ كما يريده العرب ـــ عن طريق اللاحرب . فكلما ارتقى مستوى القدرة العربية على خوض الصراع وادارته كلما تحسنت شـــروط الاقتراب مـــن السلام القائم علـــى احترام حقـــوق العـــرب والفلسطينيين . وهكذا ، فان العرب يمضون الى السلام الحقيقي حين يذهبون الى الحرب .

وأهم من ذلك ايضا ، ان تجربة العام الفائت أثبتت استحالة توصل الشروط العربية للسلام الى أية منطقة اقتراب مـــن الشروط الاسرائيلية للسلام في المستوى الراهن من هزيمة الامن الاسرائيلي .

ودلت على أن المضي في الصراع العربي ــ الاسرائيلي الى مرحلة أعلى يكشف عن استحالة تحقيق معـــادلة التسوية العربية ــ الاسرائيليـــة بواسطة القفز عن الصخـــرة الكبرى التي تكسر هـــذه التسوية وهي : القضية الفلسطينية .

أي : ان كل تصاعد في الصراع العربي ــ الاسرائيلي في اتجاه الحل المتوقع يشكل اقترابا من العقبة التاريخية ــ فلسطين ، ويكشف لضعيفي الذاكرة انها هي أصل الصراع . وان كل اقتراب من هذه العقبة يشكل في الوقت ذاته ابتعادا عن امكانية التسوية العربية ــ الاسرائيلية . وهذه المفارقة تعني أن كل ما يبدو أنه ملامح نهاية للحرب ليس في الواقع الا بداية جديدة للحرب .

مضى عام ، ولا نقول : تلك الحرب .

كانت الشهور الاخيرة هدنة مؤقتة يرتب كل طرف من أطراف الصراع فيها مقومات جديدة لالحاق الهزيمة بالطرف الآخر . « القلعة الاسرائيلية أعلى التل » تزيد تحصينها لتعود الى ممارسة دورها الذي اعتقد فرسانها أنه غير قابل للفتك . هذا الدور هو القضاء على روح تشرين ، وبعث روح حزيران . ولقد شهد العام الفائت هذه الحرب الاسرائيلية لاعادة روح حزيران في نفوس الاسرائيليين المنكوبة ، ولفرضها على النفوس العربية الحية .

وعلى الطرف المواجه ، كانت الجماهير العربية تتمسك بروح تشرين ــ رمز القدرة على خوض الصراع اذا أتيحت الفرصة الحرة ، وتتحرر من روح حزيران ، رمز الهزيمـــة والاغتراب . وكـــان العرب يعثرون ، في نفوسهم وفي ترابهم ، على ثروة هائلة تتلاءم مع طموحهم الى الحضـــور المشرف في هذا العصر .

ليس بوسع العرب أن يهزموا . ولكن ليس بوسعهم أن يحققوا السلام الا اذا استمروا في خوض الصراع مع الصهيونية وحلفائها . وليس بوسع السلام أن يظهر في أفق الشرق الاوسط الا اذا بزغت شمس فلسطين .

(محمود درويش)

قضية فلسطين على جدول اعمال الامم المتحدة

الدكتور جورج طعمه

عندما يتناول القراء هذا العدد من « شؤون فلسطينية » تكون الجمعية العامة للامم المتحدة التي افتتحت في ١٧ أيلول (سبتمبر) الماضي دورة انعقادها العادية التاسعة والعشرين قد بتت سلبا أو ايجابا — في طلب ادراج بند اضافي على جدول أعمالها هو « قضية فلسطين » . وقد سبق الطلب هذا اجتماع مجلس الجامعة العربية ابتداء من ١ أيلول (سبتمبر) الى ٥ منه في القاهرة اتخذ فيه قرارا بالاجماع بالتقدم بهذا الطلب . وفي ١٢ منه قدمت الوفود العربية في الامم المتحدة رسالة للامين العام للمنظمة تطلب فيه ادراج بند مستقل على جدول أعمال الدورة . وتقضي لائحة الاجراءات الداخلية ان تصوت الجمعية على الادراج بعد أيام من افتتاحها .

ماذا يعني هذا الطلب ؟ ثمة عدد من الاسئلة ترتبط بهذا السؤال نورد منها :

١) الم تكن قضية فلسطين مطروحة في الامم المتحدة ومدرجة على جدول أعمالها . كيف أدرجت وكيف طويت وكيف تبدلت ؟

٢) ما معنى أن تكون المنظمة قد صوتت بين ١٩٤٧ و١٩٧٣ بأجهزتها الرئيسية — الجمعية العامة ومجلس الامن وبعض المنظمات الاختصاصية كاليونسكو وغيرها — على ما يقرب من ثلاثمائة قرار أكثر مما صوتت على أية قضية أخرى ؟ وهل هنالك حاجة لقرار اضافي جديد ؟

٣) هل القضية مجرد قضية اجرائية — أي ادراج بند على جدول الاعمال — أم تتعداها الى علاقة أساسية بجوهر الموضوع ؟ وهل ثمة علاقة بين صياغة البند والقرار الذي يتخذ بصدده ؟

٤) ما هي العلاقة بين البند المدرج والعوامل الفاعلة في القرار واتخاذه وتكوينه ؟ كيف أقصي الشعب الفلسطيني عن المساهمة في صنع القرار واتخذت القرارات نيابة عنه على أفضل شكل ؟

٥) هل يمكن اعتبار ادراج بند مستقل على جدول الاعمال منطلقا جديدا لمعالجة جديدة لقضية فلسطين في اطار الامم المتحدة تعبر عن التطورات الجذرية التي طرأت في الحقل الدولي واتخاذ قرارات ملائمة ؟

٦) ما هي الابعاد السياسية لهذه المرحلة في المنظمة ؟ هل يمكن أن تكون مقدمة للتصفية أو انطلاقا لوضع الامور في قلب التطور التاريخي الذي تجتازه الامة العربية ؟

---

* راجع المقالات الثلاث التالية : لجورج طعمه (١) كيف طويت « قضية فلسطين » في جدول اعمال الامم المتحدة (٢) وحدها قضية فلسطين أخضعت صياغتها لتزييف وشطب (٣) المطلوب ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل في جدول الاعمال . النهار — بيروت ١٣ و ١٤ و ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ .

هذه الاسئلة برمتها ــ وغيرها مما يثار ــ يمكن ارجاعها لاربعة منطلقات أساسية: اجرائية ، قانونية ، تاريخية وسياسية . وان أي واحدة منها لا يمكن فهمها والاحاطة بها بدقة وشمول دون ربطها ربطا محكما بعضها ببعض . فهي موضوع واحد . وقضية كلية كاملة . والموضوع الذي نحن بصدد اثارته وتوضيحه ليس بحثا اكاديميا أو رياضة عقلية أو مما يقع في مواطن الجدل ولكنه يتصل بجذور المأساة التي نعيشها في الحاضر ورؤى المستقبل الذي نتطلع اليه . ووراء الاحداث والحقائق التي سأوردها ربع قرن من التآمر الدولي كما وجد سبيله الى المنظمة الدولية وأغرق الحق العربي في لا أخلاقية العمل السياسي .

لنأخذ الساعة التي نحن فيها نقطة الانطلاق في البحث : وزع الامين العام للمنظمة جدول الاعمال للجمعية العامة لدورتها التاسعة والعشرين في ٥ شباط (فبراير) ١٩٧٤ الوثيقة A/٩٦٠٠) وفي ما يلي حصر البنود الخاصة بقضايا الوطن العربي :

البند ٣٩ وكالة الاونروا ــ وتشمل :

أ ــ التقرير السنوي للمفوض العام للاونروا .

ب ــ تقرير الفريق العامل من أجل تمويل الوكالة .

ج ــ تقرير لجنة التوفيق من أجل فلسطين .

د ــ تقرير الامين العام .

البند ٤١ ــ تقرير اللجنة الخاصة لبحث الممارسات الاسرائيلية في المناطق المحتلة وتأثيرها على حقوق الانسان .

البند ٨٩ ــ الارهاب الدولي .

فأين بند « قضية فلسطين » بين هذه البنود ؟ ولم يظهر بينها بند « الوضع في الشرق الاوسط » الذي كان رقمه ٢٢ على جدول أعمال الدورة الماضية والذي أدرج منذ صيف ١٩٦٧ . ربما لان قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ تاريخ ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ قد نقل هذا البند لمؤتمر جنيف فلن تنظر فيه الجمعية في دورتها الحالية وعلى الاقل حتى كتابة هذا المقال .

لكن « قضية فلسطين » كانت البند الوحيد الذي أدرج على جدول أعمال الدورة الاستثنائية الاولى للجمعية العامة التي عقدت من نيسان (ابريل) لأيار (مايو) ١٩٤٧ بناء على طلب الوفد البريطاني باعتباره ممثلا للدولة المنتدبة . واستمر ادراجها مع القضايا التي تفرعت عنها خلال خمس دورات متعاقبة على الشكل التالي : ــ أوردها تماما كما وردت في جداول الاعمال المتعاقبة :

الدورة الثانية ــ ١٦ ايلول (سبتمبر) ــ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ :

١ ــ قضية فلسطين .

٢ ــ تقرير اللجنة الخاصة عن فلسطين .

٣ ــ انهاء الانتداب على فلسطين والاعتراف باستقلالها كدولة .

الدورة الثالثة ــ ٢١ ايلول (سبتمبر) ــ ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ :

ــ فلسطين .

ــ تقرير الوسيط الدولي للامم المتحدة . بند اقترحه الامين العام .

الدورة الرابعة ــ ٢٠ أيلول (سبتمبر) ــ ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٩ :

ــ فلسطين .

أ ــ اقتراحات بنظام دولي دائم لمنطقة القدس ــ تقرير لجنة التوفيق الدولية من أجل فلسطين .

ب ــ حماية الاماكن المقدسة : تقرير لجنة التوفيق الدولية من أجل فلسطين .

ج ــ مساعدة لاجئي فلسطين : تقرير الامين العام .

الدورة الخامسة ــ ١٩ ايلول (سبتمبر) ــ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ :

ــ فلسطين .

أ ــ قضية نظام دولي لمنطقة القدس وحماية الاماكن المقدسة : تقرير خاص لمجلس الوصاية .

ب ــ مساعدة لاجئي فلسطين ــ تقرير مدير وكالة الاونروا .

ج ــ اعادة لاجئي فلسطين ودفع التعويض المستحق لهم : تنفيذ قرار الامم المتحدة في هذا الموضوع .

الدورة السادسة ــ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ ــ ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٢ :

ــ فلسطين

أ ــ تقرير لجنة التوفيق من أجل فلسطين .

ب ــ مساعدة لاجئي فلسطين : تقارير اللجنة الاستشارية للاونروا .

وهكذا يبدو بوضوح ــ من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥١ ــ ان جميع القضايا المتفرعة عن القضية الرئيسية الام كتقرير اللجنة الخاصة وانتهاء الانتداب وتقريـر الوسيط والقدس والنظام الدولي فيها وحماية الاماكن المقدسة وتقارير مدير وكالة الاونروا وغيرها من التقارير المتعلقة باغاثة اللاجئين وتقارير لجنة التوفيق كانت كلها تدرج تحت بند رئيسي هو « قضية فلسطين » .

وفي الدورة السابعة للجمعية العامة المنعقدة من ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) الى ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٢ جرى التحول الكبير عن التقليد الثابت الذي اتبعته المنظمة منذ عام ١٩٤٧ والذي أدى الى طي بند « قضية فلسطين » في جدول أعمال المنظمة . فقد قدم الامين العام للمنظمة تريغفـــي لي ، المعروف بولائه للصهيونيـــة واسرائيل ، والذي امتدت ولايته كأمين عام مـــن ١ شباط (فبراير) ١٩٤٦ الى ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ اذ خلفه داغ همرشولد ، قدم جدول اعمال تضمن البند التالي فقط :

« تقرير مدير الاونروا عن لاجئي فلسطين » (البند رقم ١٩) . وقد تنبهت الوفود العربية لاسقاط بند قضية فلسطين من جدول الاعمال فطلبت ادراج البند التالي « لجنة التوفيق لفلسطين وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة » (البند رقم ٦٧) وتبع وفد اسرائيل الوفود العربية مباشرة فطلب ادراج بند « شكوى حول خرق الدول العربية لالتزاماتها بموجب الميثاق وقرارات الامم المتحدة واحكام اتفاقات الهدنة المعقودة مع اسرائيل والتي تلزمها أن تمتنع عن سياسة العداء وان تسعى الى التوصل الى اتفاق من أجل اقامة علاقات سلمية مع اسرائيل » (البند رقم ٦٨) وقد أحيلت البنود الثلاث الى اللجنة السياسية الخاصة فناقشتها .

وكانت المناورة الاسرائيلية تقوم على ما يلي : من جهة حذفت قضية فلسطين كبند مستقل على جدول الاعمال . ومن جهة أخرى أخذت الدول المؤيدة لاسرائيل (أوروبا الغربية وأميركا اللاتينية) المبادهة فتقدمت بمشاريع قرارات تؤكد فيها ضرورة **التفاوض المباشر** بين اسرائيل والدول العربية الاعضاء في الامم المتحدة — في غياب شعب فلسطين — من أجل عقد صلح معها دون أن تأخذ بعين الاعتبار القرارات السابقة التي صوتت عليها المنظمة بل أن تكون نقطة الابتداء « الامر الواقع » الذي حققته اسرائيل . وقد شهدت المنظمة في تلك الدورة السابعة جدلا حاميا بين الوفود العربية من جهة والوفود المؤيدة لاسرائيل ووفد اسرائيل من جهة ثانيـة كانت نتيجتها نجاح المشروع الاسرائيلي بالدعوة للمفاوضة المباشرة في اللجنة السياسية الخاصة وفشله في الجمعية العامة اذ غيرت وفود الدول الاشتراكية شكل تصويتها من امتناع الى ضد وطلب رئيس الجمعية العامة تطبيق المادة ١٨ من الميثاق على التصويت التي تقتضي بضرورة الحصول على ثلثي الاعضاء باعتبارها قضية هامة .

والحصيلة النهائية ان القرار القاضي بالمفاوضات المباشرة الذي حاربت اسرائيل من أجله قد هزم في الجمعية العامة لكن النتيجة النهائية جاءت ضد المصلحة العربية . فقد طويت قضية فلسطين كبند مستقل من جدول الاعمال تحت تأثير الابتزاز الاسرائيلي . ولم يعد يظهر على جدول الاعمال منذ الدورة السابعة وحتى الدورة التاسعة والعشرين غير بند « التقرير السنوي للمفوض العام لوكالة الاغاثة » وما أضيف اليه من بنود خاصة بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ اذ انعقدت الجمعية العامة للنظر في مادة طلب ادراجها الاتحاد السوفييتي وهي « **الوضع في الشرق الاوسط** » . وقد عددت البنود المدرجة للدورة (٢٩) في مطلع هذه المذكرة .

قضية فلسطين في مجلس الامن

كان الوضع القانوني لقضية فلسطين في مجلس الامن أفضل منه في الجمعية العامة . ذلك ان جميع القضايا بلا استثناء المتفرعة عن قضية فلسطين ابتداء من ربيع ١٩٤٧ وجميع شكاوى الحكومات العربية ضد اسرائيل التي نظر فيها مجلس الامن من ١٩٤٩ الى ١٩٦٦ بما فيها قضية حرية الملاحة في قناة السويس قد أدرجت كلها تحت بنـد « قضية فلسطين » .

ولكن عندما انعقد مجلس الامن ابتداء من ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٧ بدعوة من كندا والدنمارك — العضوين في المجلس — للنظر في خطـورة الوضع في الشرق الاوسط والنزاع العربي الاسرائيلي فقد ظهر جدول الاعمال يتضمن ذكر الرسالة التي قدمت اليه من العضوين دون أية اشارة لقضية فلسطين كما جرت العادة حتى ذلك اليوم . ثم أدرجت رسالتان أخريان على جدول الأعمال احداهما من الجمهورية العربية المتحدة والاخرى من المملكة المتحدة . وقد أثار الدكتور محمد الفرا في جلسة المجلس المنعقد في ٣١ أيار ١٩٦٧ كيف ان جدول الاعمال لاول مرة في تاريخ المجلس لا يدرج مناقشاته تحت بند « قضية فلسطين » وأيده مندوبون آخرون في ذلك . لكن الحرب التي شنتها اسرائيل في ٥ حزيران (يونيو) من تلك السنة جعلت قضية الادراج على جدول الاعمال أمرا ثانويا . ثم انعقدت الجمعية العامة في دورتها الاستثنائيـة الطارئة الخامسة في حزيران ١٩٦٧ وعندما عاود مجلس الامن اجتماعاته في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ فقد كان البند المدرج على جدول أعماله هو نفس بند « الوضع في الشرق الاوسط » الذي نظرت فيه الجمعية العامة . وعندما عرض ونوقش وصوت على القرار ٢٤٢ فقد كان ذلك على أساس البند السابق لا على أساس قضية فلسطين .

وعلى ذلك فان جدول أعمال مجلس الامن طوى عام ١٩٦٧ قضية فلسطين كما طوته الجمعية العامة من قبل ثم جاء القرار ٢٤٢ الذي تـم التصويت عليه فحول قضيـة فلسطين لقضية لاجئين اذ أن كل ما ورد فيه هو ما نصت عليه الفقرة التنفيذية الثانية منه (المقطع ب) التي تقول « ان مجلس الامن يؤكد ضرورة ايجاد تسوية عادلة لقضية اللاجئين » .

وقد أوردت خصيصا الوضع القانوني للبند في مجلس الامن لاظهار التباين والتناقض الصارخين بين الجمعية العامة ومجلس الامن وموقف كل منهما من البند . فحين طوي البند من جدول أعمال الجمعية العامة من ١٩٥٢ كما أظهرنا استمر ادراجه في جدول أعمال مجلس الامن حتى ١٩٦٦ وطوي أيضا في عام ١٩٦٧ . وهذا ليس فقط دليلا على التخبط الذي تعمل فيه الامم المتحدة . فجهاز رئيسي كالجمعية العامة يطوي بندا معينا وجهاز رئيسي آخر كمجلس الامن يستمر في ادراجه . ولكنه مثال على أصابع التآمر داخل المنظمة التي تلاحق قضية فلسطين لطمسها . ومثل هذه المفارقات داخل المنظمة كثيرة مما يمكن بل يجب ايراده في أي بحث أوسع في الموضوع ولكنني اكتفيت بهـذا المقدار الان .

مثال على العلاقة بين البند وصياغته والقرار المتخذ

وكمثال على أهمية وجود البند وعلاقته بالقرار الذي يصوت عليه والمناقشات التي تدور حوله واتجاهاتها نأخذ آخر بند من البنود التي أدرجت على جدول أعمال الامم المتحدة مما تفرع عن قضية فلسطين . فعلى اثر حادث ميونيخ طلب الامين العـام فالدهايم في ٨ ايلول ١٩٧٢ ادراج بند جديد في جدول أعمال الجمعية العامة عنوانه « اجراءات منع الارهاب وغيره من أنواع العنف التي تهدد أو تودي بحياة الابرياء أو تعرض للخطر الحريات الاساسية » .

وبعد مناقشات طويلة وحادة نجح سفير المملكة العربيـة السعودية السيد جميل البارودي في ادخال اضافة على البند الذي اقترحه الامين العام هي الآتية :

« ودراسة الاسباب وراء تلك الانواع من الارهاب وأعمال العنف الكامنة في البؤس والاحباط والاسى واليأس التي تتسبب في قيام بعض الناس بالتضحية بأرواح البشر بما فيها أرواحهم في محاولة لاجراء تغييرات جذرية » .

واذا انت قرأت الان صياغة البند بكاملـه ـــ أي البند كما اقترحه الامين العـام فالدهايم مضافا اليه ما اقترحه السفير البارودي واقرته الجمعية العامة ـــ لاتضح لك الفارق الكبير بين شكله الاول وشكله الاخير المكتمل . وقد كان من نتائج الاضافـة العربية انها غيرت اتجاه المناقشات ، لانها جعلت أمرا محتما العودة الى تلك الاسباب العميقة الكامنة في البؤس واليأس ـــ أي الى جذور المأساة العربية الحديثة ـــ كما تتمثل في فلسطين وانها وجهت القرار الاخير الصادر عن الجمعية العمومية الرقم ٣٠٢٤ (الدورة ٢٧) تاريخ ١٨ كانون الاول ١٩٧٢ في اتجاه مفيد للعرب بحيث تضمن في قسمه التنفيذي الفقرات الثلاث الاتية :

١ ـــ تحث (أي الجمعية العمومية) الدول على تكريس عنايتها الفورية لايجاد حلول عادلة سلمية للاسباب الاساسية التي تؤدي الى أعمال العنف .

٢ ـــ تعيد التأكيد على الحق الثابت في تقرير المصير والاستقلال لجميع الشعوب الواقعة تحت الاستعمار وانظمة التمييز العنصري وانواع السيطرة الاجنبية الاخرى ، وتدعيم شرعية نضالها ، خصوصا نضال الحركات التحررية ، وذلك وفقا لاغراض

ميثاق الامم المتحدة ومبادئه وسواه من قرارات أجهزتها ذات الصلة بالموضوع .

٣ ــ تدين استمرار أعمال القمع والارهاب التي تقوم عليها الانظمة الارهابية والعنصرية في انكار حق الشعوب الشرعي في تقرير المصير والاستقلال ، وغيرهما من حقوق الانسان وحرياته الاساسية .

وانها بالنتيجة جعلت عددا من الدول التي كانت متحمسة لادراج بند « الارهاب » على جدول أعمال الجمعية العمومية تصوت ضد القرار السابق وجعلت بعضها الاخر يستنكف عنه . وقد طلب القرار في فقرته الثامنة من الامين العام تقديم دراسة تحليلية الى الدورة الثامنة والعشرين للجمعية العمومية وقد فعل ، وجاء التقرير متضمنا أقساما تتناول نواحي شتى من الاسباب الخفية المؤدية الى « البؤس والاحباط والاسى واليأس » والتي ما كانت لتوجد في التقرير لولا صياغة البند على الشكل الاخير الذي صيغ فيه والذي اوردناه .

*

لا أعتبر هذا البحث الموجز جدا أكثر من كوة صغيرة فتحت ليطل القارىء العربي منها على ربع قرن من التآمر والغموض والابهام في اطار المنظمة وخارجها الذي رافق قضية فلسطين . لكن الماضي ليس أكثر من جسر نعبر منه للمستقبل وعلى ذلك نطرح السؤال الاخير: ما هي الابعاد السياسية لهذه المرحلة في المنظمة وما هي التوقعات من ادراج بند مستقل عن قضية فلسطين على جدول الاعمال ؟ هل يمكن ان يكون ذلك مقدمة لتصفية نهائية كما قال البعض او انطلاقا جديدا لوضع الامور في قلب التطور التاريخي الذي تجتازه الامة العربية ويجتازه العالم ؟

١ ــ ليس الطلب العربي في حقيقته ادراج بند جديد بل اعادة بند كان مدرجا لسنوات ثم صفي وطوي . فالموضوع اذن هو تصفية التصفية واعادة الامور الى نصابها الذي يجب ان تكون عليه . وكل شيء يتوقف بالضرورة على ما نريد وعلى انعكاس الفعل والادارة في طلب ما هو حق في ذاته وحق لنا .

٢ ــ كان رد الفعل الاسرائيلي حتى الان عنيفا . فبعد اتخاذ مجلس الجامعة العربية قراره وحتى اليوم ما زالت ردود الفعل الاسرائيلية تظهر يوما بعد يوم . نورد على سبيل المثال لا الحصر ما ذكرته هآرتس في ٩/٢ من ان « خطوة الجامعة العربية ستكون اختبارا للولايات المتحدة» ودعت الصحيفة الحكومة للقيام بنشاط واسع لاحباط المسعى العربي ، وقالت صحيفة اومر في اليوم ذاته « ان المهمة الرئيسية للاعلام الاسرائيلي يجب ان تكون تذكير العالم بنوايا العرب حين يتحدثون عن الكيان الفلسطيني ».واكدت ضرورة التوضيح ان وراء هذه الصيغة نية لابادة اسرائيل. وهذا هو ــ على حد زعم الصحيفة ــ « هدف جامعة الدول العربية في الجمعية العمومية المقبلة في الامم المتحدة » . وعلق الدكتور يهوشاع بورات من محطة اذاعة اسرائيل في ٩/٣ بما يلي :

« أعتقد ان الدوافع مختلفة ، اولا هناك الدافع الفلسطيني للحصول على اعتراف دولي صريح ، بالنسبة لحقوقهم القومية ، وحق تقرير المصير في ارض اسرائيل . وثانيا : تطرح هذا المشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، فالى جانب النقاش ، سيعملون ليس فقط لاتخاذ قرار ، بل أكثر من ذلك فسوف تسعى منظمة التحرير للحصول على مكانة مراقب في النقاش بحجة ان الامر يتعلق بها ، تماما مثلما حصلت الوكالة اليهودية على هذه المكانة عشية مناقشات الجمعية العامة حول موضوع ارض

اسرائيل عام ١٩٤٧(١). وثمة عامل آخر لا يقل أهمية ، وهو من جانب الدول العربية الاخرى وبما في ذلك الدول الراديكالية ، فيما يتعلق بموقف اوروبا الغربية الحقيقي وموقف الولايات المتحدة ، لان من الواضح ماذا سيكون موقف العالم الثالث والدول الشيوعية .

« وعلى ضوء هذا الضغط الدبلوماسي ، يأمل العرب ان تقترب الولايات المتحدة واوروبا الغربية ودول اميركا اللاتينية قليلا من الموقف العربي ، بحيث سيكون صعبا على هذه الدول معارضة المشروع الذي يمنح الشعب الفلسطيني حق تقرير مصيره ... ».

وفي ٩/٤ علق تدمور من ذات محطة الاذاعة بما يلي :

« وبالنسبة لحكومة اسرائيل فان الاوساط السياسية تنظر الى الموضوع بخطورة بالغة ، لان هناك خطرا من ان تؤدي هذه الخطوة الى كسب تأييد ما يقارب المائة دولة، فحول كل قضية عربية متطرفة توجد للعرب أغلبية مطلقة في الجمعية العامة . ومغزى هذا القرار سيكون منح مكانة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ويعترف بها كحركة تحرير وطني ، وتعطى مكانة مراقب في الامم المتحدة ، وبعدها تشترك في المناقشات، والخطوة التالية ستكون تأليف حكومة ، واقامة دولة فلسطينية » .

وتحدث ألون في الكنيست بتاريخ ٩/٩ عن خطورة طرح الموضوع في الجمعية العامة ومناقشته والقرارات التي ستتخذ بصدده وابعادها السياسية وضرورة محاربتها على المستوى الحكومي . وفي ٩/١٠ اورد مراسل اسرائيلي من واشنطن ان هذا الموضوع سيكون بين النقاط العشر التي سيبحثها رابين مع الرئيس الاميركي ووزير خارجيته . وقياسا على ذلك يتوقع ان تستمر اسرائيل بحركة اعلامية مسعورة وان تبذل جهودا محمومة لمحاربة القرار العربي .

٣ — قضية فلسطين ككل قضية تاريخية كبرى قائمة بذاتها تنتهي في المحط الاخير الى الشعب العربي الفلسطيني وحقوقه . وقضية الحق العربي في فلسطين قضية أساسية مطروحة على ساحة البحث والسياسة والفكر وما زالت تنتظر معالجة حازمة مسؤولة . فالمجابهة فيها مجابهة تاريخية واخيرة . والذي يهمنا ان نؤكده الان ان حقوق شعب فلسطين مهما كانت الصفة التي وصفت بها « وطنية » او « تاريخية » او « مشروعة » او « طبيعية » او « اساسية » ثابتة لا يمكن التنازل عنها ، يجب ان تكون اثارتها في اطار « قضية فلسطين » ويجب ان تبتدىء بالضرورة بالكشف عن التآمر الذي أدى الى طي قضية فلسطين . فالمقصود اولا واخرا من هذا التآمر الدولي كان طمس هذه الحقوق في عملية الاغتيال « الجيو — سياسي » الذي تعرضت له فلسطين وشعبها . وعندما يتم اعادة ادراج البند وتأتي مرحلة المناقشة الجوهرية التي لا ريب انها آتية يتم بحث هذه الحقوق وتوضيحها والدفاع عنها لا في فراغ او بصورة هامشية بل في النطاق الطبيعي والتاريخي والقانوني الذي يجب ان تبحث فيه وهو قضية فلسطين باعتبارها قضية ارض وشعب واستعمار استيطاني وقضية حق تؤيده الشرائع الدولية والتطورات التاريخية . ومع هذه المرحلة يزول الغموض والالتباس اللذان رافقا بحث القضية خلال عشرات من السنين .

---

١ — حصلت الهيئة العربية العليا على ذات الحق وفي ذات الدورة بموجب القرار رقم ١٠٥ (الدورة الاستثنائية — ١) ، تاريخ ٧ ايار (مايو) ١٩٤٧ .

٤ ــ العالم بعد حرب تشرين (اكتوبر) ليس هو العالم الذي كان قبل هذه الحرب المجيدة . فهي بأي مقياس منعطف كبير حاسم ونقطة تحول ليس في تاريخنا فحسب بل في تاريخ العالم بأسره . لقد شقت الامة العربية طريقها الى مركز قوة جديد ولا بد لهذا المركز ان يعبر عن ذاته في ابعاد وقرارات جديدة تؤخذ على أعلى المستويات من قومية ودولية .

٥ ــ أما على المستوى العربي والدولي فان المراحل التي ستمر بها قضية عرض فلسطين كقضية قائمة بذاتها في المنظمة من أعلى المنابر الدولية واحدى الجبهات التي كتب ان تخوض المعركة فيها ــ مؤكدا ان الجبهة الرئيسية تظل الجبهة الداخلية ــ ستؤدي ، بل يجب ان تؤدي الى استــلال اعتراف بالشــعب الفلسطيني وممثليه الشرعيين الوحيدين . وأهم ما في هذه النتائج ان يصبح الفلسطينيون هم الطرف الاول في صنع القرار ــ أي قرار ــ بعد ان كانوا غائبين عنه ــ نتيجة ــ كما يقول الاستاذ عصام سخنيني في مقال رائع ــ « لتراكم الممارسات التاريخية المضنية التي فرض فيها على الفلسطينيين ان يكونوا غائبي التاثير عن دائرة صنع القرار وأوكل هذا الدور لغيرهم بالانابة فانتفت بذلك مصلحة الشعب الفلسطيني الحقيقية واغتيلت أحيانا وكانت في أحسن أحوالها مصلحة تابعة ومشتقة غير أصيلة » . او مقضي عليها في « انتحار احتفالي »(١).

*

البعد التاريخي هو في النهاية وفي المحط الاخير أعلى مستوى يطل الانسان من شرفته على مصيره . ادراج قضية فلسطين كقضية مستقلة ومناقشتها اجرائيا وجوهريا وما يسبق ذلك وما يتبعه تظل كلها في اطار الدبلوماسية السطحية الزائلة الزائفة اذا لم نرتفع بها الى مستوى التاريخ . وهي في قلب التاريخ شئنا أم أبينا أي في مستوى القدر والمصير . وعلى هذا المستوى فان ما يتم اليوم في أعمق معانيه هو ان فلسطين بالرغم من التآمر والتزييف والنفاق والمتاجرة تثبتت بالوجود . ومن حيث انها مأساة انسانية فقد حملت صليبها اجيال عربية كثيرة سبقتنا وسيحمل هذا الصليب أجيال ستلحقنا ، لانها قضية قدر وحق مطلق أي قضية الانسان من حيث هو انسان . لقد كانت حتى اليوم قضية خاسرة تحارب الاغتيال والفناء والانتحار الجماعي. ولكن للقضايا الخاسرة الكبرى في التاريخ وهج سحري وصوفية خفية لا تدركها الا المعاناة المأسوية للالم والتفاعل معها الى ان تتحول الى قضايا رابحة . وفي أي منعطف انساني كبير تجد الالم المهدور المسحوق يتحول الى نور مشع . أمام المأساة والحق تصبح الدبلوماسية لعبة أطفال ويصبح مسرحها ملعبا تتحرك عليه دمى . أمام الكآبة والمرارة والانسحاق يصبح الكلام اللبق زيفا وبهلوانية . أمام الاقتلاع والتشرد والحكم بحد السيف تصبح المراكز والمناصب ثيابا بالية يقذف بها القدر في سلة قمامة التاريخ . أمام دم الطفل ودمعة الام وذبح الشهيد أشعر ان الانسانية كلها تشارك في الجريمة : جريمة الاقتلاع والشتات والنفي والاضطهاد . ولا بد ان تأتي الساعة التي يتحرك فيها ضمير الانسان الذي يتحمل الخطأ لحد ثم يثور وعندها تصبح الثورة ثورة انسانية تاريخية . وتصبح ثورة فلسطين وفيتنام وانغولا وموزامبيق وروديسيا وناميبيا وثورات العبيد المعذبين في الارض وهجا حارا محرقا يتناول كل انسان . ثورة التاريخ التي تأخذ الافــــراد

---

١ ــ عصام سخنيني ، مكونات القرار في المجلس الوطني الفلسطيني « الدورة الثانية عشرة » **شــؤون فلسطينية** ، العدد ٣٥ ، تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، ص ٤ .

والجماعات أوعية عابرة لتفصح فيها ومن ضمنها عما هو ازلي وأبدي وخالد .

ومن هذه البقعة الصغيرة من الارض التي اسمها فلسطين والتي شدت أنظار البشرية اليها منذ آلاف السنين ومنذ ان سجل التاريخ سطوره الاولى والتي شهدت عذاب الانسان ولوعة المؤمنين وتحرق المضطهدين يعود التاريخ ليشد انظار البشرية اليها وليفرض عليها المشاركة في حمل الصليب وفي عبور جديد .

كيف تتحول القضايا الخاسرة المريرة الى قضايا رابحة سؤال لا يمكن ان نبصر جوابه الا من خلال اشعاع الرؤى المعذبة المريرة .

ولا صلة لنا في ذلك فالتاريخ بثقله وقدره وجلاله يمر بطريقنا .

JERUSALEM
AT THE UNITED NATIONS

by

Dr. George Tomeh

Published by the Palestine Research Center,
P. O. Box 1691 — Beirut

Price 2 L.L. for a copy
Plus postal charges : 0,50 L.L. Arab World
1 L.L. Europe
2,50 L.L. Other Countries.

فلسطين في الامم المتحدة : خطوة نضالية

منير شفيق

اثيرت تقولات كثيرة حول موضوع ادراج « قضية فلسطين » في جدول اعمال الدورة القادمة (دورة ٢٩ لعام ١٩٧٤) للجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة . وقد رأى البعض ان محاولة ادراج القضية ، في هذا الوقت ، يخدم مساعي التسوية وذلك عن طريق اخذ قرار من الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة يؤكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، ومن ثم يكون ذلك نقضا للفقرة الواردة في قرار مجلس الامن ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ ، التي تعتبر ان المسألة الفلسطينية تتلخص بايجاد حل عادل للاجئين . اي أن انتزاع قرار من الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة باعتبار الفلسطينيين شعبا متساوي الحقوق مع بقية الشعوب ، وله حق تقرير المصير ، وفقا لميثاق الامم المتحدة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان ، يبطل تلقائيا الفقرة الوارد ذكرها من قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . لان الجمعية العمومية لهيئة الامم سلطة أعلى من مجلس الامن .

ولكن ، اذا كان ادراج قضية فلسطين في الدورة القادمة للجمعية العمومية واتخاذ قرار يعتبر الفلسطينيين شعبا له حق تقرير المصير ، وليس مجرد كومة من اللاجئين ، يخدم مثل ذلك الغرض ، من بعض النواحي ، فهذا لا يعني ، بأي حال من الاحوال ، عدم رؤية الجوانب الاخرى الاهم من مسألة ادراج « قضية فلسطين » في الدورة القادمة .

سوف نلاحظ فورا مع استعراض تاريخ ادراج « قضية فلسطين » في دورات الجمعية العومية ان علية حذف هذا البند « قضية فلسطين » من جدول أعمال الجمعية العمومية جاء :

١ ــ نتيجة تآمر الامبريالية والكيان الصهيوني من أجل طمس القضية الفلسطينية وتحويلها الى قضية لاجئين اي استبدال أصل المسألة بأحد فروعها .

٢ ــ نتيجة التراجع الرسمي العربي الذي كان واقعا في ذلك الحين ، بمعظمه ، تحت تأثير النفوذ الامبريالي .

٣ ــ تمشيا مع ما كان يجري في البلاد العربية من أوائل الخمسينات حتى منتصف الستينات من عملية تغييب للشعب الفلسطيني عن تحمل مسؤولية قضيته وتحرير فلسطين .

ان موقف العدو الصهيوني من مسألة اعادة ادراج «قضيةفلسطين» الى جدول أعمال الجمعية العمومية ، يلقي ضوءا على خطورة هذه الخطوة بالنسبة للكيان الصهيوني ، لانها ستفتح من جديد ملف الاغتصاب الصهيوني لفلسطين من حيث أتى . بل يجب أن تفتح ملف هيئة الامم ومجلس الامن من جهة قراراتهما التي أجحفت بحق الشعب الفلسطيني ، وقضية فلسطين ، بمخالفة صريحة لميثاق هيئة الامم نفسها حيث اخذت هيئة الامم ومجلس الامن ــ وهذا ليس من حقهما ــ قرارات في عام ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨

حول تقرير مصير فلسطين بديلا عن شعبها العربي الفلسطيني ، وهو أمر لا يسمح به منطوق بنود ميثاق هيئة الامم والاعلان العالمي لحقوق الانسان . هذا فضلا عن ضرورة فتح ملف التاريخ الاسود للامبريالية العالمية بالنسبة لهذه القضية . ومن هنا فان حكومة رابين سارعت باستدعاء تكواع مندوبها الدائم في هيئة الامم (رأأ ١٥/٨/ ٧٤) ، وشكلت لجنة على أعلى مستوى تضم وزراء وخبراء (من بينهم ايغال آلون) من أجل وضع مخطط لاحباط مسألة ادراج قضية فلسطين في الدورة القادمة للجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، او احباط أية مشاريع قرارات يمكن ان تمس صلب قضية فلسطين في حالة الفشل في الحيلولة دون ادراج بند « قضية فلسطين » كبند مستقل في دورة ٢٩ لعام ١٩٧٤ .

ان ما نقدم لا يستهلك كل ما يمكن قوله في هذا المجال حيث سيستكمل ذلك بعد استعراض تاريخ ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل منذ عام ١٩٤٧ حتى الان .

اولا : مرحلة ١٩٤٧ ــ ١٩٥٢

ادرجت « قضية فلسطين » كبند مستقل ، لاول مرة ، في دورة الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، من قبل بريطانيا في ٢ نيسان ١٩٤٧ ، وعقدت دورة خاصة للجمعية العمومية في شهر نيسان لتحضير الوثائق الضرورية للدورة العادية في أيلول من العام نفسه . وهكذا ادرجت القضية الفلسطينية على جدول اعمال الجمعية العمومية في الدورة الخاصة الاولى في نيسان ١٩٤٧ ، تحت بند مستقل يحمل العنوان **((قضية فلسطين))** .

ومنذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٢ عالجت الجمعية العمومية في دوراتها السنوية كل القضايا المتعلقة بقضية فلسطين تحت بند « قضية فلسطين » الذي بقي مدرجا ، على هذه الصورة ، في جدول أعمالها . أي ادرجت تحت هذا البند كل القضايا المتفرعة عن الاصل (قضية فلسطين) . ولهذا تناولت تلك الدورات المواضيع التالية :

١ ــ الدورة الثانية عام ١٩٤٧ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » موضوع « حكومة فلسطين المقبلة » .

٢ ــ الدورة الثالثة (أ) عام ١٩٤٩ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » تقرير الوسيط الدولي عن فلسطين ، وشملت المناقشة اقتراحا قدمه الامين العام للمنظمة يتعلق بمساعدة اللاجئين العرب الفلسطينيين وقد تناول موضوعه الجزء الثالث من تقرير الوسيط الدولي .

٣ ــ الدورة الثانية (ب) عام ١٩٤٩ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » موضوعان :

أ) المساعدة للاجئي فلسطين .

ب) مسألة اقامة نظام دولي لمدينة القدس وحماية الاماكن المقدسة .

٤ ــ الدورة الرابعة عام ١٩٥٠ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » المواضيع التالية :

أ) مسألة اقامة نظام دولي لمدينة القدس وحماية الاماكن المقدسة . تقرير لمجلس الوصاية .

ب) تقرير مدير وكالة الغوث : مساعدة اللاجئين الفلسطينيين .

ج) اعادة اللاجئين الفلسطينيين ودفع التعويضات المستحقة لهم . وموضوع تنفيذ قرارات الجمعية العمومية حول اعادة اللاجئين الفلسطينيين ودفع التعويضات المستحقة لهم .

د) تقرير لجنة التوفيق التابعة للامم المتحدة عن فلسطين .

٥ ــ الدورة الخامسة من ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ الى ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ :

لم تبحث فيها اية قضية عدا مشكلة كوريا .

٦ ــ الدورة السادسة ، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ ــ ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٢ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » المواضيع التالية :

أ) تقرير لجنة التوفيق الدولية التابعة للامم المتحدة عن فلسطين .

ب) تقرير من مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) واللجنة الاستشارية للاونروا حول مساعدة اللاجئين الفلسطينيين .

ثانيا : حذف بند « قضية فلسطين » من دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة :

شهدت الدورة السابعة للجمعية العمومية توقف ادراج القضايا المتفرعة عن القضية الفلسطينية تحت البند « قضية فلسطين » . بل اسقط هذا البند ، وحلت محله القضايا الفرعية كبنود قائمة بذاتها . وقد بحثت الدورة السابعة لعام ١٩٥٢ المواضيع التالية :

أ) لجنة التوفيق الدولية التابعة للامم المتحدة عن فلسطين ، وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة . (ادرجت تحت بند الرقم ٦٧) .

ب) شكوى من « اسرائيل » حول خرق الدول العربية لاتفاقات الهدنة وميثاق قرارات الامم المتحدة . (ادرجت تحت بند الرقم ٦٨) .

ج) تقرير مدير وكالة الاغاثة (ادرج تحت بند الرقم ٢٠) .

اما الدورة الثامنة ١٩٥٣ ، فقد بحثت موضوعا واحدا فقط تحت بند الرقم ١٩ ، وهو تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) .

وهكذا منذ الدورة السابعة ١٩٥٢ ، حتى الان حذف بند « قضية فلسطين » من دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم . ولكن كيف حدث ذلك ؟

لقد استند الامين العام للامم المتحدة (تريغفي لي حينئذ عام ١٩٥٢) الى المادة ١٢ من لائحة النظام الداخلي للامم المتحدة ، التي تنيط به مهمة وضع جدول الاعمال للجمعية العمومية لاقراره ، فلم يضع بند « قضية فلسطين » واستبدله ببند يحمل عنوان « تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) » ، وبهذا قلب الموضوع المتفرع عن قضية فلسطين الى موضوع قائم بذاته بدل ان يدرج كفرع تحت اصل ، كما جرت العادة في الدورات السابقة . وحذف الموضوع الاصل حذفا تاما .

كان رد وفود الدول العربية الاعضاء في هيئة الامم انذاك ــ مصر ، سوريا ، العراق ، السعودية ، لبنان ، اليمن ــ ان استندت الى المادتين ١٤ ، ١٥ من لائحة

النظام الداخلي للامم المتحدة ، التي تعطي الحق للدول الاعضاء في هيئة الامم طلب ادراج اية مواد الى جدول الاعمال قبل ثلاثين يوما من انعقاد دوره الجمعية العمومية لاقرارها ، ومن ثم احالتها على المناقشة ، فتقدمت تلك الوفود بطلب ادراج مادة اضافية على جدول الاعمال تحت بند « لجنة التوفيق الدوليه لفلسطين وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة » . لكن هذا الرد لم يثر مسالة حذف بند «قضية فلسطين» ولم يقدم كموضوع متفرع تحت بند « قضية فلسطين » . وكانت هذه خطوة تراجعية واضحة من هذه الزاوية رغم أن اثارة موضوع لجنة التوفيق الدولية وعملها في ضوء قرارات هيئة الامم أريد منه معالجة قضيه فلسطين بكاملها من خلال مناقشة أعمال لجنة التوفيق الدولية . وفي المقابل تقدم وفد الكيان الصهيوني بطلب ادراج بند مضاد تضمن شكوى على الدول العربية زاعما انها أخلت بالتزاماتها وخرقت اتفاقات الهدنة . والحق بمذكره تفسيرية طرحت موضوع المفاوضات المباشرة من أجل اقامة علاقات سلمية مع « اسرائيل » . وبهذا غرقت المناقشات في بحث المواضيع الفرعية، الامر الذي اسفر عن عدم خروج الدورة السابعة للجمعية العامة بأي قرار يتناول القضية الفلسطينية وكان القرار الوحيد الذي اتخذ حول اجراء تعديلات مالية في موازنة وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) . لقد اعتبرت الدول العربية نتائج هذه الدورة مرضية ما دام مشروع المفاوضات المباشرة قد هزم في الجمعية العمومية أما تغييب القضية الفلسطينية وشطبها ، ثم استبدالها في دورات الجمعية العمومية ببند « تقرير مدير وكالة الاغاثة (الاونروا) » فلم تعتبره الدول العربية هزيمة سياسية خاصة ، وان ذلك جاء في ظروف ما شهدته مرحلة الخمسينات في البلاد العربية من تغييب للشعب الفلسطيني في تحمل مسؤولية قضيته . ولا يمكن أن نسقط هنا دور النفوذ الامبريالي في البلاد العربية وفي هيئة الامم باسقاط قضية فلسطين كبند على جدول اعمال دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة .

ولهذا عندما جاءت الدورة الثامنة للجمعية العمومية ، عام ١٩٥٣ ، أدرج على جدول الاعمال بند واحد فقط حمل الرقم ١٩ هو « تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم » . ولم تعترض الوفود العربية واستمرت بعد ذلك في عدم المطالبة بطر ح« قضية فلسطين » في بند مستقل ، اي تحولت قضية فلسطين من قضية شعب اغتصب وطنه ، ومسألة حق تقرير مصير ، وقضية تحرر وطني ونضال ضد الاستعمار الاستيطاني والعنصرية الى قضية لاجئين !!

بقي حال « قضية فلسطين » على هذا المنوال تحت سدة هيئة الامم المتحدة حتى اليوم ـ مع ملاحظة التطور الذي حصل في الدورات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ في السنوات ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ على التوالي . ولكن قبل بحث هذه التطورات يجب أن يلاحظ أن الوضع في مجلس الامن كان مختلفا ما بين ١٩٥٢ الى ١٩٦٧ حيث بقي موضوع « قضية فلسطين » بندا مدرجا على جدول أعماله ، وكانت تدرج تحت هذا البند كل القضايا المتفرعة عن قضية فلسطين ـ على سبيل المثال ، الشكاوى التي كانت تتقدم بها كل من الدول العربية والعدو الصهيوني على الآخر . ولكن هذا البند شطب أيضا من جدول أعمال مجلس الامن منذ ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٧ على اثر اندلاع الازمة التي انتهت بحرب حزيران ١٩٦٧ حيث أدرجت جميع الرسائل التي تناولت تلك الازمة تحت بند مستقل يجمعها كلها وليس تحت بند « قضية فلسطين » . وقد جرت محاولات ، في حينه ، لادراج هذه المواضيع تحت بند « قضية فلسطين » . ولكن بعد حرب الخامس من حزيران أصبح البند « البديل » لبند « قضية فلسطين » يحمل العنوان « الوضع في الشرق الاوسط » ، وهو البند الذي أدرج تحته

قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢، بتاريخ ١٩٦٧/١١/١٦ . وقد كرس هذا القرار معالجة قضية فلسطين ــ قضية شعب فلسطين ــ باعتبارها قضية لاجئين !!.. أي حدث في مجلس الامن في عام ١٩٦٧ ، ما حدث في الجمعية العمومية في عام ١٩٥٢ . بل كان ذلك، في هذه المرة ، ضربة أقسى موجهة ضد الشعب الفلسطيني وقضيته تسددها دول مجلس الامن في ظروف عدوان حزيران ١٩٦٧ ، وتجدد اندلاع الثورة الفلسطينية. أي في ظروف أصبح فيها العدوان الصهيوني على فلسطين والارض العربية أكثر افتضاحا من أي وقت سابق ، وأصبح فيها صوت الشعب الفلسطيني عاليا . لان هذه الظروف كان يجب أن تعيد القضية الفلسطينية الى الجمعية العمومية لهيئة الامم ، على صورتها الصحيحة ، لا أن تغيبها عن مجلس الامن أيضا .

ثانيا ــ الشعب الفلسطيني وقرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٣ :

كان من نتائج اندلاع الثورة الفلسطينية وتصاعدها ، وتراكم نجاحاتها ، أن أحدثت تغييرا أساسيا وجوهريا في الوضع بالنسبة للقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، حيث أبرزت الشخصية الفلسطينيه المستقلة ممثلة بالمقاتل الفلسطيني الذي يناضل من اجل تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني متمثلا بالكيان الصهيوني . واعادت قضية شعب فلسطين من قضية لاجئين في نظر مجلس الامن وهيئة الامم الى قضية شعب ثابت الحقوق الوطنية ، وله حق تقرير المصير . وادخلت قضية النضال الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني ضمن قضايا التحرر الوطني والنضال ضد الاستعمار والتمييز العنصري . وقد انعكست هذه الانجازات ، على درجات متفاوتة ومتصاعدة ، في مجالات عدة ، عربيا وعالميا ، بما في ذلك هيئة الامم المتحدة . ويمكن أن نرى هذا الانعكاس وتصاعده من خلال مراجعه منجزات دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة في الاعوام ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ .

١ ــ الدورة الرابعة والعشرون ، عام ١٩٦٩ :

لقد أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارا في ١٩٦٩/١٢/١٠ في الدورة ٢٤ ، حمل رقم ٢٥٣٥ ب ، تحت بند « التقرير السنوي لمدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) » ، نص على أن « الجمعية العمومية اذ تقر بأن مشكلة اللاجئين العرب نشأت عن انكار حقوقهم الثابتة التي لا يمكن التخلي عنها المقررة في ميثاق الامم المتحدة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان ، تعود فتؤكد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين » . وكان هذا القرار أول انتقالة جديدة بقرارات الجمعية العمومية من حيث الاقرار بأن اللاجئين الفلسطينيين **شعب له حقوق ثابتة وفقا لنصوص ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .**

٢ ــ الدورة الخامسة والعشرون ، عام ١٩٧٠ :

جاء قرار الجمعية العمومية في الدورة ٢٥ عام ١٩٧٠ تحت بند « تقرير مدير الاونروا » تأكيدا للقرار السابق ٢٥٣٥ ب ، ولكن مفصلا الحقوق الثابتة بما نصه « ضرورة الاخذ بمبدأ تساوي الشعوب في الحقوق وحقها في تقرير المصير المكرس في المادتين ١ و ٥٥ من ميثاق الامم المتحدة .. » واعترفت الجمعية العمومية « لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق ، وبحق تقرير المصير وفقا لميثاق الامم المتحدة » . ان هذه الاضافات تعتبر خطوة متقدمة على القرار رقم ٢٥٣٥ ب .

وتحت بند « الوضع في الشرق الاوسط » من الدورة ٢٥ نفسها ، قررت الجمعية

العمومية في الفقرة ٣ انها « تعترف ان احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر لا غنى عنه من أجل اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » .

أما القرار الثالث الذي اتخذته الجمعية العمومية في الدورة ٢٥ فقد جاء في اثناء بحث قضية الاستعمار وحق تقرير المصير للشعوب ، حيث اعتبرت الجمعية العمومية قضية فلسطين من جملة القضايا الاستعمارية ، واعتبرت نضال شعب فلسطين كفاحا مشروعا ضد استعمار أجنبي ، حيث جاء في القرار بعد مقدمة حول أهمية « التحقيق العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير وضرورة الاسراع في منح الاستقلال للشعوب والبلاد المستعمرة » ، ثم بعد ذلك التأكيد على « شرعية نضال الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، والمعترف بحقها في تقرير المصير ، لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها » — هنا اشارة واضحة لحق استخدام الكفاح المسلح . وجاء في القرار المذكور أن الجمعية العمومية : « تدين تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب المعترف لها بذلك خصوصا شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » .

٣ — الدورات ٢٦ عام ١٩٧١ ، ٢٧ عام ١٩٧٢ ، ٢٨ عام ١٩٧٣ :

لقد أكدت الدورات ٢٦ عام ١٩٧١ ، ٢٧ عام ١٩٧٢ ، ٢٨ عام ١٩٧٣ ما جاء ذكره من قرارات في الدورة ٢٥ عام ١٩٧٠ مضافا اليها تعبير الجمعية العمومية عن « قلقها البالغ لعدم السماح لشعب فلسطين بالتمتع بحقوقه الثابتة التي لا يمكن التخلي عنها ، ولعدم ممارسته حق تقرير المصير » (الدورة ٢٦) . وكررت ذلك في الدورة ٢٨ (عام ١٩٧٣) بالفقرة ٢ من القرار رقم ٣٠٨٩ — « تعرب مرة اخرى عن قلقها العميق بشأن حرمان اسرائيل لشعب فلسطين من التمتع بحقوقه الثابتة ومن ممارسة حقه في تقرير المصير » . وأعلنت الجمعية العامة في القرار نفسه فقرة ٣ «ان الاحترام الكامل لتحقيق الحقوق الثابتة لشعب فلسطين ، وخاصة حقه في تقرير المصير ، لازم من أجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » . هنا يلاحظ ان هذه القرارات تنقض ما جاء في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ في فقرته التي تعتبر المسألة الفلسطينية مشكلة لاجئين . أي يمكن استغلالها في مساعي التسوية لمن يريد ذلك . ومن ثم لا تضيف في هذا المضمار عملية ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل اضافة نوعية . ولهذا يبقى التخوف من ادراجها ثانويا اذا ما قيس بالضربة التي يوجهها الى سياسات العدو الصهيوني .

ان الدورات المذكورة أعلاه من ٢٤ عام ١٩٦٩ الى ٢٨ عام ١٩٧٣ تظهر بوضوح ما حصل من تقدم في وضع القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني في قرارات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، وان كان ذلك ، حتى الان ، **أقل مما هو من حق الشعب الفلسطيني سواء في شكلها أو محتواها** . ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك القرارات أدخلت تحت بنود مختلفة ، على سبيل المثال بند « تقرير مدير الاونروا » او بند « الوضع في الشرق الاوسط » مع بقاء التغييب للبند الخاص المستقل « قضية فلسطين » .

ثالثا : القضايا المتفرعة عن قضية فلسطين :

لا بد من الاشارة الى أن التصعيد الذي حصل في قرارات الجمعية العمومية بالنسبة لحقوق الشعب الفلسطيني ما بين الدورات ٢٥ الى ٢٨ ، رافقه تصعيد آخر فيما يتعلق بقرارات تتناول مواضيع متفرعة عن القضية الفلسطينية مثل :)

أ) حق العودة للفلسطينيين لاجئي ١٩٤٨ ، والمرحلين عام ١٩٦٧ .

ب) ممارسات « اسرائيل » في المناطق المحتلة .

ج) وحقوق العرب في التعويض واستعادة الاملاك .

أ) حق العودة للفلسطينيين لاجئي ١٩٤٨ ، والمرحلين ١٩٦٧ :

كانت الجمعية العمومية في الدورة الثالثة عام ١٩٤٨ قد أصدرت قرارا رقم ١٩٤ اكد حق لاجئي ١٩٤٨ الفلسطينيين بالعودة الى وطنهم . ولكن الجمعية في دورتها السادسة أخذت قرارا بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ، حمل الرقم ٥١٣ خصص بموجبه مائتا مليون دولار (٢٠٠ مليون دولار) لاعادة توطين اللاجئين في البلاد العربية خلال ثلاث سنوات . وقد وجه هذا القرار ضربة للقرار ١٩٤ ، وقد لقي تجاوبا في ذلك الوقت مع أغلب الدول العربية التي كانت رازحة تحت النفوذ الامبريالي . ولم يحبطه سوى النضال الشجاع الحازم الذي خاضه الشعب الفلسطيني وحركة التحرر العربية ضد مشاريع التوطين .

عادت الجمعية العمومية في دورتها ٢٨ عام ١٩٧٣ فأكدت قرارها ١٩٤ لعام ١٩٤٨، بالقرار رقم ٣٠٨٩ ب . وأضافت عليه في الفقرة ٣ من القرار ٣٠٨٩ هـ « ان تمتع اللاجئين الفلسطينيين العرب بحقهم في العودة الى موطنهم وممتلكاتهم والذي اعترفت به الجمعية العامة بالقرار ١٩٤ (٣) في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨، والذي كررت الجمعية العامة تأكيده منذ ذلك التاريخ ، هو أمر لا غنى عنه من أجل تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ، ومن أجل ممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير » .

أما فيما يتعلق بالمرحلين العرب الفلسطينيين عام١٩٦٧فقد كررت الجمعية العمومية في الدورة ٢٨ ، عام ١٩٧٣، في قرارها رقم ٣٠٨٩ ــ ج ، تأكيد حق اولئك المرحلين « في العودة الى مساكنهم ومخيماتهم » كما عبر القرار المذكور عن « الاسف بشدة لرفض السلطات الاسرائيلية اتخاذ الخطوات الكفيلة بعودة مرحلي ١٩٦٧ » .

ب) ممارسات « اسرائيل » في المناطق المحتلة :

لقد توصلت الدورة ٢٨ عام ١٩٧٣ للجمعية العامة الى قرارات هامة بالنسبة لوضع السكان المدنيين في المناطق المحتلة معتبرة ان اتفاقيات جنيف تنطبق عليهم حيث نص القرار رقم ٣٠٩٢ في فقرتيه ١ و ٢ بأن الجمعية العمومية :

« ١ ــ تؤكد ان اتفاقيات جنيف الخاصة بحماية الاشخاص المدنيين في زمن الحرب المؤرخة في ١٢ آب ١٩٤٩ تنطبق على المناطق العربية التي احتلتها اسرائيل منذ العام ١٩٦٧ » ...

« ٢ ــ تطلب من سلطات الاحتلال الاسرائيلية ان تحترم مواد تلك الاتفاقية في المناطق العربية المحتلة وتلتزم بها » .

كما وردت مناشدات بهذا الصدد في أكثر من فقرة في تلك الدورة . هذا فضلا عن قرارات أصدرتها الجمعية العمومية في الدورة المذكورة :

« أ) تستنكر رفض اسرائيل الدائم السماح للجنة الخاصة بدخول المناطق المحتلة» .

« ب) تعبر عن قلقها الشديد لانتهاك اسرائيل اتفاقية جنيف » وتطلب منها الكف فورا عن هذه الانتهاكات .

« ج) تعلن ان سياسات اسرائيل في الضم والاستيطان وتغيير طابع المناطق المحتلة المادي وتركيبها السكاني وبنيتها الدستورية أو وضعها ، أو وضع اي جزء منها ، هي انتهاكات للقانون الدولي والاتفاقات الراهنة ولقرارات هيئة الامم المتحدة » .

« د) تحث جميع الدول على الاحجام عن أي عمل قد تستغله اسرائيل في تنفيذ سياساتها في استعمار المناطق المحتلة » . . . « تناشد جميع الدول والمنظمات الدولية والوكالات المتخصصة عدم الاعتراف بأية تغييرات تجريها اسرائيل في المناطق المحتلة ، وأن تتجنب القيام بأي عمل ، بما في ذلك أعمال المساعدة ، التي يمكن ان تستخدمها اسرائيل للاستمرار في سياساتها وممارساتها المشار اليها في هذا القرار » . (الدورة ٢٨ ، عام ١٩٧٣ ، القرار رقم ٣٠٩٢ ب — الفقرات أ ، ب ، ج ، د) .

ج) **حقوق العرب في التعويض واستعادة الاملاك :**

صدر قرار من الدورة ٢٨ لعام ١٩٧٣ عن الجمعية العمومية ينص على ان الجمعية العمومية :

« ١ — تؤكد حق الدول والشعوب العربية التي وقعت أراضيها تحت الاحتلال الاجنبي في السيادة الدائمة على جميع مواردها الطبيعية » . .

« ٢ — تؤكد مجددا على ان جميع الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لاستغلال الموارد البشرية والطبيعية في المناطق العربية المحتلة هي اجراءات غير شرعية . وتدعو اسرائيل الى وقف هذه الاجراءات فورا » . .

« ٣ — تؤكد حق الدول والشعوب العربية التي وقعت أراضيها تحت الاحتلال الاسرائيلي في استعادة تلك الموارد الطبيعية ، والتعويض الكامل عن استغلالها ونهبها والاضرار بها ، كذلك عن استغلال الموارد البشرية واستخدامها في المناطق المحتلة » (الدورة ٢٨ عام ١٩٧٣ ، القرار رقم ٣١٧٥ الفقرات ١ ، ٢ ، ٣) .

خلاصة :

ان هذه المراجعة التاريخية لمسألة ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل على جدول أعمال دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، وان مراجعة التقدم الذي حصل خلال دورات الجمعية العمومية من ١٩٦٩ الى ١٩٧٣ تؤكدان حقيقتين الاولى ، ان اعادة ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل في جدول اعمال الجمعية العمومية يعيد الامور الى نصابها بحيث تبحث القضية بكليتها ومن جذورها وليس من خلال بعض تفرعاتها « كتقرير مدير الاونروا » او « الوضع في الشرق الاوسط » ، او « خرق اسرائيل لحقوق الانسان في المناطق العربية المحتلة » . الامر الذي يسلط الاضواء عليها كقضية الاصل ، خاصة ، في حالة وجود ممثلين حازمين للشعب الفلسطيني يطرحون قضيته من حيث الاساس وبعمق وقوة . واما الحقيقة الثانية ، فتنبع من ان هذا الادراج يسدد ضربة قاسية للمخططات الصهيونية والامبريالية التي عمدت الى طمس قضية فلسطين ، وانكار حقوق شعب فلسطين ، وتحويل القضية الى صراع بين الدول العربية وبين الكيان الصهيوني فقط . ولا علاقة للشعب الفلسطيني بالمسألة ، عدا كونه « كومة لاجئين » . وتضع هذه المخططات في قفص الاتهام .

ان ادراج « قضية فلسطين » على جدول اعمال الجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة ينسجم مع النجاحات التي حققتها الثورة الفلسطينية ، ونضال الشعب الفلسطيني وتضحياته ، على النطاقين العربي والعالمي ، في تأكيد الشخصية الفلسطينية ، واعادة قضية فلسطين من قضية لاجئين الى قضية حق تقرير مصير ، وقضية تحرر وطني ، وقضية نضال ضد الاستعمار الاستيطاني والتمييز العنصري . كما ان ذلك ينسجم مع نجاحات حركة التحرر العربي ومنجزاتها ، ومع ما طرأ من تغييرات ايجابية على الوضع العالمي ، خاصة ، في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية ،

وفي داخل هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن . فضلا عن ان هذا الادراج يأتي استمرارا للتقدم الذي تصاعد في قرارات الدورات من ٢٤ الى ٢٨ للجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة .

على ان النجاح في ادراج « قضية فلسطين » في الدورة ٢٩ ، عام ١٩٧٤ للجمعية العمومية لا بد من ان يستكمل بطرح القضية من قبل وفد فلسطيني مناضل طرحا قويا وحازما ، يأخذ موقفا هجوميا على الكيان الصهيوني من حيث أتى ، وليس فقط ، الهجوم على سياساته العدوانية ، او استمراره في احتلال بعض فلسطين ، او خرقه لقرارات الامم ومجلس الامن . وهذا يتطلب ان يقوم الوفد الفلسطيني بمناقشة قضية فلسطين من جذورها وفضح الحيف الذي لحق بالشعب الفلسطيني نتيجة قيام دولة الكيان الصهيوني الذي يشكل وجوده وبقاؤه جذر المشكلة . مما يجعل الحل الوحيد العادل الذي ينسجم مع ميثاق هيئة الامم المتحدة ، والاعلان العالمي لحقوق الانسان هو ممارسة الشعب الفلسطيني لحق تقرير المصير على كامل ترابه الوطني ، واقامة الدولة الديمقراطية على كل فلسطين . كما لا بد من التعريض بقرارات هيئة الامم التي قضت بتقسيم فلسطين ، بمخالفة صريحة لميثاق هيئة الامم المتحدة الذي يعطي الشعوب حق تقرير مصير اوطانها ، وليس اية قوة خارجية ، بما في ذلك هيئة الامم المتحدة . ويستتبع هذا الطرح المطالبة بطرد دولة الكيان الصهيوني من عضوية هيئة الامم المتحدة اسوة برفض عضوية الدول الاستعمارية الاستيطانية العنصرية كجنوب افريقيا وروديسيا .

على هذه الصورة يصبح ادراج « قضية فلسطين » على جدول اعمال الجمعية العمومية خطوة نضالية ذات مغزى هام فلسطينيا وعربيا وعالميا .

P. L. O. : The Representative of The Palestinians

by

Isam Sakhnini

31 pages

Price : 1 L.L. for a copy, plus postal charges :

0.50 L.L. Arab world, 1 L.L. Europe, 2.50 L.L. Other countries.

Published by the Palestine Research Center,
P. O. Box 1691, Beirut.

.. ولكن للشهادة وجها آخر

المطران جورج خضر

مرة رأيت وجهه الاسمر وكأنه طالع من البداوة ، وليد للصحراء قديم . ودار حديث بيننا عن الكنيسة التي كان يشيدها في القدس وعن الفن البيزنطي الذي أراده حلة لها. موضوع طقوسي جمالي كان يقربنا ولم يكن يدور في خلدي انه يتعاطى الشأن القومي . ولكن توقيفه ومحاكمته جعلاه موضوعيا واحدا من كوكبة رهابين كانوا في الشرق ، قديمه وحديثه ، روادا لانتفاضات الوطن كأن الصدق يحتاج الى الخروج من الهيكل لان الهيكل في تأهبه كوني .

من يكون الرجل ؟ هل هذا مهم ؟ كل مولود يولد مرتين من أمه ومن السماء على قدر ما تناثرت فيه ومضات الحقيقة . وتولد بنضالها دنى . فالاسقف صار مقاوما فدخل برعاية قومه وغير قومه من الباب الواسع . والراعي ، في الكتاب ، ضحية . والذبائح يزكيها الله . الا تعني لفظة كبوجي التركية حاجب السلطان ؟ ان هذا الاسقف العربي بدا ، في أيام من كفاحنا ، مدخل الناس الى سلطان الحرية .

كان هاجس هذا الحبر الشرقي أن تبقى المسيحية العربية في القدس . هذه المسيحية كان يراها في اضمحلال حتى النزاع ويتألم لذلك ويصلي . ومعنى ذلك كثير . فالمسيحية المقدسية عربي شعبها ، أجنبية رئاساتها . ولكن أجنبيا كبيرا هو المونسنيور لويدجي ، السفير البابوي السابق ، تكلم عن الرابط العضوي بين المسيحية في فلسطين والثقافة العربية .وكان دور الخيرين من الاحباء أن يؤكدوا أهمية الدور الذي تمثله هذه النصرانية المشرقية العربية اللسان في استمرار الكنيسة في الارض المحتلة . فانطلاقا من فلسطين مصلوبة تستطيع الكنيسة الوطنية ان تؤكد قيامة الكل . مشاركة الاوجاع هي الناطقة . وليس الاجنبي كالعربي . ولذلك كانت شهادة أسقف كاثوليكي سوري هي الشهادة التي كنا نتمنى لو أداها الاساقفة التي شاءت مفارقات التاريخ أن يعيشوا على الارض الفلسطينية وهم من غير أبنائها .

ومن هذا المنظار يتجلى لنا أن الحركة المسكونية التي تحاول أن تدني المسيحيين بعضهم الى بعض عقيدة ، وعملها محكها ، في بلادنا ، الاخلاص لقضية هي أوسع أفقيا من الكنائس اذا انعزلت أو تقاربت . فقد تدخل الكنائس في مسعى وحدوي بسبب من حيطة او خوف . وفي هذه النفسية تسمي اتحادا ذلك الشأن الذي هو في حقيقته انقسام . أليس كل حذر من هذا النوع تباعدا عن الانسان وتقوقعا دون هذه المغامرة الكونية الكبرى التي تجعلنا في تلاق مع الكل ؟ « الاتحاد » قد يكون خاليا من النفحة الانسانية الكبرى المجبولة بالطمأنينة التقاربية المسيحية لا برهان على صدقها الا في تعهد واحد الشأن الارض، لخلافة الله على الارض .ولذلك، المسيحية لون من الوان

الانتحار الميتافيزيقي واحتجاب عن الفعل التاريخي . ومن هنا ان ليس من معنى ولا من وجوب الا للمسيحية العربية الحاملة شأن فلسطين محكا لصدقها ومجالا لتنقيتها .

الامامة الروحية تصبح في هذا الموقف شيئا من العالم . تفصح ، بمسالك واضحة ، عن قضية الانسان . فالانسان ، لا الله ، هو الذي يفرقنا . نقتتل حول الانسان . ومشكلة الله تبدأ من هذا التساؤل : هل لله وجه انساني ؟ هل الانسان مدعو ليصير الهي الطلعة والنفحة من خلال تاريخ وجهاد ؟

الذين يجيبون بنعم عن هذا السؤال تبدأ بينهم المصالحـــة . فالعودة الى التراث ممكنة فقط من الالم . والمسيحية لا تصبح فعل قيامة الا انطلاقا من الانسان المطروح على دمائه. الحب هذا يجعلها تنطق لاهوتا قادرا أن يرى الصليب وان يتجاوز الصليب بآن معا الى ما فيه فرح الانسانية جمعاء وهناؤها وسلامتها .

ان شهادة راع وطني مقاوم ــ جماله كله في اللا يقولها لاسرائيل ــ شهادته أن يرسخ في أذهان العرب جميعا ليس فقط ان الطليعة المسيحية لا تقل عن اية طليعة أخرى شرفا ونضالية ولكن من شأنها أن تجعل الفكر المسيحـــي في أصالته جزءا لا يتجزأ من هذه الدنيا العربية التي نريد بناءها على الحداثة . نحن قطب عقلي من هذا الميراث العربي الكبير . ولكن ينبغي تأكيد ذلك بالجهاد القومي والانتاج الثقافي الضخم في آن معا . وليس عندي من شك أن المصلحة العربية الكبرى تقضي بتعزيز المسيحيين العرب تعزيزا كبيرا . ولعل لهم في تقويض الامبريالية معاول يتقنون استعمالهـــا كما لهم في تحرير الانسان العربي في العمق مساهمة كبيرة . المسيحية العربية ليست فقط واجهة أو سلعة تصدير في مواجهتنا الصهيونية والسيطرة الاجنبية التـــي تدعمها . ولكنها الهام للعرب وغذاء لا يستغنى عنه في وجودهم التاريخي الفاعل .

والى جانب تأثيرها في الشرق تبقى المسيحية المتجددة في تراث آبائها وتحسسها لعملها العربي تلك القوة القادرة حقا على تحدي المسيحية الغربية في نزعتها المتهودة اليوم . وقد أخذت تقوم بمهمتها هذه في المجالات العالمية والاقليمية ونقابل أهل الغرب بموقف من التوراة وعلاقتها بالعهد الجديد غير الذي ألفه الغرب في الأزمنة المتأخرة . ولعل هذه المناظرات مقرونة بمعرفة الواقع الفلسطيني أخذت تؤتي ثمارها هنا وثمة بعد هذا التحفظ الشديد تجاه القضية برمتها .

والمسيحية العربية بتخطي الحرفية والتاريخانية الغارق فيهما الغرب المسيحي تؤكد على الانجيل والتراث الشرقي الكبير ولا سيما على رؤية آباء الاسكندرية القدامى وكان عندهم من الانفتاح على الديانات القديمة والفلسفة اليونانية الشيء الكثير . أي ان مسيحية هذه البلاد تقتفي آثار المسيح أنى وجدت وتستحبها أنى وجدت ولو في الميراثات الدينية الخارجة عن الكنيسة التاريخية كالاسلام وذلك لكون فعل الكلمة الالهي غـــير محصور في الكيان التجسدي الذي اتخذه المسيح . الكلمات الالهيـــة المزروعة خارج الخط العبري ــ المسيحي التاريخي وهي كلمات لالهنا يجب التقاطها هنا وثمة وفيها يتجلى ضياء يسوع . ان الموقف المسيحي المشرقي في تعمقه الجديد ينشىء مودة أصلها موضوعي ليس فقط للمسلمين بل للاسلام نفسه أو بعض الاسلام . وهذا ما يجعلنا نذهب الى ان المسيحية العربية في نهضتها اللاهوتية لا تنادي بعلمنة التراث العربي حتى يذهب عنه الاسلام ــ وهذا مستحيل ــ ولكنها تدعو الى موقف روحاني وحضاري يكون فيه لكل من الديانتين أثرهما في تكوين الانسان العربي على هذا الصعيد أو ذاك

من وجودنا . وان البنية العلمانية للدولة لا تنفي اطلاقا استلهام الحياة الروحية لعيش كريم وبناء المدنية الجديدة في هذه الديار . فاذا نحن تنكرنا للسلفية و«الوطن المسيحي» في لبنان فلا نستطيع أن نكافح فكرة الوطن اليهودي في فلسطين اذا نحن قبلنا تنظيما دينيا ذي قطر . لا يمكن أن تنكر على عدوك سلاحا أنت تستعمله . من هذه الزاوية كانت المسيحية العربية أختا مقلقة ولكن هذا الاقلاق لا بد للعرب جميعا أن يرحبوا به اذا شاؤوا الخروج من التراكمية المتحجرة البليدة . انها حاملة توثب وطاقة تطهير اذا استطاعت أن تصبح كثافة نور وقوة تطلعات توتر فينا قوة الخلق المرتقبة للتفجر .

أمام هذه الآفاق يتلاشى التساؤل حول شرعية العنف يمارسه القسيسون . فالانسان ، في حركة امتداده وتصاعده التأليهي قد يختار اللاعنف عندما يكون تعبيرا عن لقائه بالله أي مسلكا من مسالك القوة . اللاعنف ، في أعماقه والتزاماته المصلية كبير لانه يقين اولئك الذين يرون أنهم شادون الارض بالسماء وان هذه تنحني رحمة منجية . اللاعنفيون الاكابر قادرون على ترويض الشراسة . اختيارهم ارتضيه حتى الحب .

كن الشهادة لها وجه آخر ، وجه القدرة تمارسها أصابعك والبدن . قد تختار ا الجسد سبيلا مؤقتا لقمع الشر . العنف ليس بمذهب . وان مذهبناه فهو ان فسادنا . انك أنت تفتديه بالحب . أنت مكره عليه أحيانا بعد تأمل وتمزق. المقاومة مأساة يتحرر من كذب البطولة ، من انتفاخ البطولة . انها أمر لقى عليك . قد تأتي اليه من واقع قداسة ، من موقف الحوار الذي لك مع حر دعاء . وليس لاحد أن يدينك اذا تراءى لك أداة الشهادة تارة صليبا وطورا . ليس لي أن أفلسف موقف كميليو توريس لان تراث كنيستي أصلا تراث غير كن لي أن أرى ، على ذلك ، أن الرجل أحس نفسه في طاعة ايمان وشاء « هذه ، أراد أن يمجد الله بها » .

ي الاحظ أن الكنيسة الشرقية نفسها اخترق رجالاتها هذه القاعدة المرة تلو ر امة وان قديسيها وقفوا موقف الكبر والعزة القومية ضد التتار والافرنج في سيا المقدسة وضد الاقطاع في رومانيا وقاوموا الترك في السلطنة العثمانية والصهيونية في فلسطين . وحدوا أنفسهم مع شعوبهم ولا حرج عندي ان يقفوا في معسكرين مضادين اذا اقتنعوا بعدالة معسكرهم . والمأساة ليست بأن يقفوا ، هنا وثمة ، بآن معا ولكن المأساة الا يفهم فريق منهم أن العدالة هناك .

ومما لا شك فيه أن كبار الرهبان الذين الهموا الثورات — وليس لها اسم آخر بالحقيقة — لم يكونوا منطلقين من عصبية قومية ولكنهم كانوا آتين من الانسان ومن آلامه . وفي بقعة المعمورة التي فيها يعيشون يرى هذا حسا قوميا بما في هذا التعبير من سمو . وهذه الطبيعة من لحم ودم لا يزالان طريقنا الى هذا الانسان الذي من أرضه يرتقي الملكوت ومن اوجاعه يتمتم الفرح . ليس لنا سبيل الى العافية الا اذا ضمدنا الجراح ولازمناها بالفهم .

الفهم الاخير يتنزل علينا من مجد الضابط الكل كما يتجلى على القبة البيزنطية . هذا ما تاق اليه السيد ايلاريون كبوجي لما أراد تزيين بيعته المقدسة برسوم جدارية . لقد شاءت الحياة أن يترجم هذا المجد خارج الهيكل ، في تلك المعابد الحية التي هي مشردو

فلسطين . ولعل اقدامه يكلفه ان يبعد عن المشاريع الكنسية التي يقوم بها . فلسطين عراء والنفي مصير الذين يحبونها . اليس مكتوبا في كتابه : « فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم » (متى ٢١ : ٣٩) . ولكنهم لا يستطيعون ان يقتلوه فانـــه ، من حيث معناه ومرماه ، قد أمسى هو أيضا حجرا آخر في بناء الحرية . في مطاف الارض يبقى المطران كبوجي شاهدا على صهيون الظالمة وأكابر مجرميها كما يقول القرآن . الطالعون من جوف الضياء ، المدودون على مبلغ الرجاء سيعرفون ذلك .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة

(وقائع وتفاعلات)

والكتاب عرض مفصل وشامل لتطورات حرب اكتوبر من جميع جوانبها : العسكرية ، السياسية ، الاعلامية والاقتصادية ، أعدهـــا مجموعة من الباحثين كل حسب اختصاصه باشراف الدكتور أسعد عبد الرحمن .

٥٦٤ صفحة من القطع الكبير

سعر النسخة ١٢ ل.ل. يضاف اليها بدل اجور البريد انجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في أوروبا ، ٥ ل.ل. في سائـــر الدول .

اطلب نسخك من : قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

استراتيجية المستقبل العربية في ضوء الحرب الرابعة

المقدم الهيثم الايوبي

« الحرب معلم عنيف للحقيقة »
(شارل موراس)

تعتبر الحرب الرابعة منعطفا هاما في الصراع العربي ــ الاسرائيلي . فلقد تركت آثارا معنوية واقتصادية وعسكرية على جانبي الخندق، وقدمت الى الطرفين المتنازعين دروسا هامة على مختلف الاصعدة ، ولا يمكن أن يمر هذا الحدث التاريخي الهام دون أن يؤثر على العقيدتين العسكريتين العربية والاسرائيلية ، أو دون أن يطرح ضرورة اجراء تعديلات جذرية على الصعيد الاستراتيجي . وتدل الدراسات العسكرية الاسرائيلية التي ظهرت بعد الحرب، أن هناك توجها جادا لاعادة النظر في الاستراتيجية العسكرية الصهيونية التي أرسى بن غوريون أسسها ، ثم أدخل عليها ييغال يادين ، ويغال آلون ، وموشي دايان ، وشمعون بيريس ، وحاييم بارليف، وغيرهم، الكثير من التعديلات المتلائمة مع مجمل التحولات والحقائق وموازين القوى المحلية والعالمية ، دون أن تلامس هذه التعديلات أسس الاستراتيجية الصهيونية أو تؤثر على روحها العدوانية التوسعية . ولعل من أبرز المفاهيم التي تعرضت لها هذه التعديلات : الردع التقليدي ، والحدود الآمنة ، والهجوم الاجهاضي المسبق ، وتعبئة الاحتياط والاعتماد عليه ، وتجديد القيادات بصورة مستمرة . ومن المنتظر أن يخرج المنظرون العسكريون الاسرائيليون بعد هزة حرب تشرين الاول بتعديلات جديدة لا تقل عن التعديلات السابقة أهمية ، وليس من المستبعد أن تلامس هذه التعديلات أسس استراتيجية العدو نفسها ، وخاصة اذا استطاع المنظرون الاستراتيجيون الاسرائيليون التخلص من أفكارهم المسبقة ، والتحرر من عقدهم الموروثة والمكتسبة ، ونظروا الى الحقائق الجديدة نظرة موضوعية جادة تتجاوز الاوهام التي خلفتها حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

ولا يقتصر التعلم على جانب واحد ، ومن الطبيعي أن يتعلم العرب أيضا دروس الحرب الرابعة ، وأن يرسموا استراتيجيتهم المستقبلية وفق المعطيات الجديدة المتحولة ، وأن يخططوا للمستقبل استنادا الى تجارب الماضي ، وحقائق الحاضر ، وتصورات المستقبل . وهناك ولا شك هيئات عربية تقوم بمثل هذا العمل ، وما هذه الدراسة ، في جوهرها ، سوى محاولة لتقديم ملامح الاستراتيجية السياسية ــ العسكرية العربية الجديدة التي تضمن مجابهة التحدي الصهيوني ، والتي لا بد وأن ترافقها استراتيجيتان اعلامية ، واقتصادية (بترولية أساسا) لا تقلان عنها أهمية وحيوية .

نظرة الى الماضي

واجهت السلطات الحاكمة في الدول العربية المجاورة لاسرائيل منذ هدنة ١٩٤٩ وضعا سياسيا ــ عسكريا حرجا ، فقد كانت الروح الوطنية العارمة والضغط الشعبي

يفرضان عليها التخطيط والعمل لتحرير فلسطين ، وكان وجود أي حاكم ، واستقرار الاوضاع الداخلية في بلده ، وسمعته كحاكم وطني أم غير وطني ، مرتبطة كل الارتباط بموقفه من مسألة التحرير . والى جانب هذا الضغط الداخلي المستمر فقد كانت الدول العربية تصطدم بواقع موضوعي مبني على العناصر التالية :

١ — ان اسرائيل دولة معترف بها دوليا ، ولا يمكن التعرض لحدودها القائمة ، وخلق أمر واقع وفرضه على المجتمع الدولي ، الا اذا أمكن اكتساب الولايات المتحدة التي كانت تقوم على العكس باحباط أي مخطط مـــن هذا القبيل وتحمي « الدولة — القاعدة » التي تمثل رأس الجسر لمصالحها . ولقد كان الضمان الثلاثي الاميركي — البريطاني — الفرنسي (١٩٥٠) ، ووجود الاسطول الاميركي السادس على مقربة من الشواطىء العربية ، والقواعد الجوية — البحرية الاميركية والبريطانية المنتشرة حول الوطن العربي ، وعلى أراضي عدد من البلدان العربية نفسها ، تمثل المعطيات اللازمة للتدخل بسرعة وفاعلية لحماية اسرائيل .

٢ — ان الدول العربية غير مؤهلة لمناطحة الامبريالية ، فهي أضعف من أن تفكر بذلك ، كما ان بعضها مرتبط بالامبريالية بشكل عضوي ، وخاضع من ناحية التسليح ، والتدريب ، والقيادة (أحيانا) ، للدول الامبريالية التي تحمي اسرائيل . وكانت طبيعة السلطات الحاكمة تمنع الدول العربية من أن تتجه شطر موسكو لموازنة ثقل الامبريالية وضغوطها ، ولم تكن موسكو نفسها لتقبـــل وجهة النظر العربيـــة الرافضة للوجود الاسرائيلي . فهي تعارض كل عدوان او توسع اسرائيلي ، ولكنها ترفض أي مخطط عربي يستهدف خلق وضع راهن وراء حدود هدنة رودوس (١٩٤٩) .

٣ — بالاضافة الى كل هذه الاوضاع الدولية فقـــد كانت اسرائيل قوة عسكرية ديناميكية لا يستهان بها . وكان ميزان القوى العام مائلا لصالحها ، ويرجع السبب في ذلك الى مجموعة من العوامل المعنوية والنفسية ، بالاضافة الى المساعدات العسكرية التسليحية والتدريبية والتنظيمية التي كانت الدول الامبريالية تقدمها لاسرائيل لتجعل منها الدولة الاقوى ، سواء كان ذلك قبل قيام مصر وسورية بكسر احتكار السلاح في عام ١٩٥٥ أم بعده .

ولقد استنتجت القوى السياسية العربية من كـــل هذه الاوضاع والعوامل ، ان مجابهة القاعدة الامبريالية المتقدمة والمصنعة لا يمكن أن تتم اذا مـــا بقيت البلدان العربية متخلفة ومجزأة . وان الاعداد الحقيقي للمعركة يتطلب ارساء قواعد الوحدة العربية والتنمية الاقتصادية — الاجتماعية . وان تحقيق كل هذه المنجزات والتغلب على مشكلات التنمية ، ونقص الخبرات الفنية ، وقلة رؤوس الامـــوال ، والاميـــة ، والفكر القطري ، وضعف القاعدة الاساسية لبناء مجتمع متطور عصري ، تتطلب خلق قوة دفاعية ، يتم البناء الاقتصادي — الاجتماعي — العسكري وراءها ، ريثما تتحقق الوحدة وتتم التنمية ، ويصبح بالامكان الانطلاق الى التحرير .

ومن هذه المنطلقات نبعت السياسة العربية للحفاظ على « الوضع الراهن » ، ومنع اسرائيل من التوسع . ولتطبيق هذه السياســـة تبلورت الاستراتيجية العسكريـــة العربية الدفاعية ، وظهرت الجبهات الدائمة الثابتة ، المؤلفة من سور طويل من المخافر الامامية المحمية بحقول الالغام ، وخلفها خطوط دفاعية محصنة الى حد ما . وكانت الجيوش العربية المكلفة بحماية هذه الجبهات تكتسب مع الايام روح الخنادق ، وتفقد قدراتها الحركية والصدامية ، وترد على عمليات اسرائيل المحدودة « بالصد » و« الرد الناري » ، المدفعي أساسا ، دون ان تنتقل الى « الرد بالنار والصدمة » ، او ان تنقل

المعركة الى أرض العدو ، خوفا من التصعيد والانتقال الى الحرب الشاملة . وكان الخط العام الذي يحكم الجبهات هو : **تهدئة الاوضاع مع « الجارة القوية » ما أمكن ، ريثما يتم اعداد الظروف المحلية والدولية الملائمة لتسخين هذه الحدود .**

ولاقى تطبيق الاستراتيجية الدفاعية نفسها عقبات كبيرة حرمتها من الفائدة المرجوة منها . فلقد استطاع الفكر القطري المسيطر حجب رؤية العلاقة الوثيقة بين الامنين القطري والقومي ، ودفع الدول العربية الى تقديم الامن القطري على الامن القومي ، الامر الذي ادى الى عدم خلق جهاز دفاعي عربي فعال ، رغم عقد الاتفاقات العسكرية الثنائية وغير الثنائيه ، وخلق القيادات المشتركة . ولقد كان وراء فشل خلق الجهاز الدفاعي القومي اسباب أخرى : كعدم تماثل الهدف او وعي الخطر بالنسبه الى جميع الدول العربية ، وضغط الامبرياليين على الحكومات العربية المرتبطة بهم ، ومخاوف حكومات الدول العربية التقليدية من تزايد مهابة الحكومات العربية الراديكالية بين صفوف جماهير الدول التقليدية نفسها ، وخاصة بعد حرب ١٩٥٦ ، وبدء المد الناصري الواسع .

وكان من أهم نتائج فشل الحكومات العربية في خلق جهاز دفاعي عربي فعال ، القاء اعباء الدفاع عن الامة العربية ، واحتواء القوه العسكرية الاسرائيليه ومنعها من التوسع ، على عاتق دول الطوق ، التي اضطرت الى تقوية جيوشها على حساب التنميه ، رغم أنها دول فقيرة أساسا ، على حين التفتت الدول العربية البعيدة عن بؤرة الصراع ، والاغنى من دول الطوق ، الى التنمية الداخلية ، أو الى توظيف رؤوس أموالها في الدول الامبريالية نفسها ، متجاهلة متطلبات بناء القوة الدفاعية العربية . وهكذا ظهرت كل ملامح « الحرب بالوكالة » ، التي تحمل دول الطوق اعباءها باسم الامة العربية كلها ، ونيابة عن الدول العربية البعيدة التي تدعمها سياسيا ومعنويا ، وتقدم لها العون الاقتصادي المحدود أحيانا*. ولقد ادى هذا الوضع الى عدم تكريس الطاقات البشرية والاقتصادية العربية لمجابهة التحدي المصيري ، وعجز الدول العربية المعنية بالصراع عن تكريس الامكانات المادية اللازمة لدعم تسليح جيوشها وقلبها الى جيوش عصرية ، وعدم قدرة هذه الدول على تجنيد طاقاتها البشرية الذاتية الكاملة ، وتعثر التنمية الاقتصادية ــ الاجتماعية في دول الطوق ، وتكريس التخلف ، الذي انعكس داخل القوات المسلحة على شكل انخفاض في المهارات التكنولوجية ، وضعف قدرة المقاتل على استيعاب الاسلحة المتطورة .

بمثل هذه الاستراتيجية ، وبمثل هذا الاعداد ، دخلت دول الطوق العربية المعارك المحدودة او الشاملة مع العدو الاسرائيلي حتى عام ١٩٦٧ . ولقد ادت الحرب الرابعة الى تبدل معطيات الموقف الاستراتيجي ، وظهور موقف جديد تحتل فيه اسرائيل اراضي دول عربية ، وتخضع جزءا من جماهير شعبها . واختفت صورة اسرائيل كدولة ضعيفة محاطة بالاعداء الذين يودون تدميرها ، وظهرت بدلا عنها صورة الدولة المعتدية المتحدية للارادة العالمية .

وفي مرحلة الصراع السياسي الذي اعقب وقف القتال ، بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة، سارت السياسة الخارجية الاسرائيلية على طريق لا ينسجم مع ما كانت تطرحه قبل الحرب من مقولات ، وعجزت عن تفسير التناقض القائم بين ادعاءاتها حول السلام ،

---

* عزز العراق قوته الدفاعية رغم بعده عن بؤرة الصراع ، وعدم اعتباره من دول الطوق ، على حين لجأ لبنان الى سياسة الاعتماد على الضمانات الدولية رغم انه (جغرافيا) من دول الطوق .

ورفضها للمبادرات السلمية . وساد في العالم شعور واضح بأن الموقف الاسرائيلي يقف حجر عثرة امام السلام في الشرق الاوسط ، بل وامام السلام العالمي بأسره ، وأن السلطات الاسرائيلية الراغبة في اقتناص الفرصة التاريخية لتحقيق حلم الصهيونية تلعب بالنار امام برميل من البارود .

ومن حسن حظ العرب ، ان القيادات الاسرائيلية لم تغتنم ظروف ما بعد حرب ١٩٦٧ ، ولم تطرح ما تستطيع الحكومات العربية قبوله في ظل العجز العسكري الكامل ، ولكنها اضاعت على العكس كل الفرص الذهبية التي مرت امامها . وأعمتها نشوة الانتصار ، ودفعتها الى السعي لتكريس الاحتلال ، وضم المناطق ، واخضاع سكانها ، متجاهلة انها تحاول بذلك تطبيق الاستعمار ، بأكثر اشكاله بدائية ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد ان مر العالم في عصر تصفية الاستعمار ، وأن الارض التي تحتل بعض اجزائها ليست خالية من السكان ، ولا يعيش عليها شعب صغير يمر بفترة انحطاط وتفتت ، بل تعيش عليها امة كبيرة ، تطمح الى الوحدة والتقدم،وتملك من الامكانات الاقتصادية ما يؤهلها لتجاوز تخلفها الثقافي والتكنولوجي، ويجعلها أمة قوية اقتصاديا ، وبالتالي عسكريا .

ولقد استفادت الدول العربية من الموقف الاسرائيلي ، والمأزق السياسي الذي حشرت اسرائيل نفسها فيه ، وتسللت من ثغرة الغطرسة الاسرائيلية ، وشنت حملة سياسية واعلامية أربية ، ووقفت من جميع المبادرات السلمية موقفا ايجابيا ، فربحت المناورة السياسية الخارجية ، واثبتت أمام العالم انها راغبة في السلام ، ولكنها ترفض المنطق الاسرائيلي الذي يدعوها الى المفاوضات والمسدس مصوب الى رأسها . وساعد الدول العربية على كسب المناورة السياسية الخارجية وعزل اسرائيل دوليا ، عدة عوامل : ١) فلقد ساعدتها الكتلة الاشتراكية ودعمت موقفها السياسي المطالب بالانسحاب الكامل . وكان وراء هذا الدعم موقف ايديولوجي مبدئي (عدم شرعية احتلال اراضي دولة اخرى ، وضمان حق تقرير المصير للشعوب) ، وموقف عملي يتمثل في ان دول هذه الكتلة لم تكن تستطيع الموافقة على احتلال اراضي الغير بالقوة في الشرق الاوسط ، حتى لا تكون هذه الموافقة بادرة ضعف تشجع المعسكر الامبريالي على فرض الامر الواقع في مناطق اخرى من العالم . وبالاضافة الى ذلك فقد كان المعسكر الاشتراكي يرى أن وقوفه الى جانب الحق العربي يفتح له المجال لتدعيم مواقعه ، وتعزيز دفاعه ضد المخططات الامبريالية الرامية الى محاصرته ، ٢) وكانت اوروبا الغربية تدين الموقف الاسرائيلي ولا تقره ، رغم ضمانها لامن اسرائيل وسلامة أراضيها . وكانت ترى ان مصلحتها الاوروبية ، وحاجتها لمصادر الطاقة ، تتطلب عدم استعداء العرب ، كما ان علاقاتها القديمة مع بعض اجزاء الوطن العربي ، ومرتكزاتها فيه ، وقربها منه ، تجعلها مؤهلة اكثر من الاتحاد السوفياتي ، لاشغال الفراغ السياسي ــ الاقتصادي الذي سينجم عن تحول العرب عن الولايات المتحدة بسبب موقفها المؤيد لاسرائيل ، ٣) ومن المؤكد ان فشل وساطة الحكماء الافريقيين ، وتصرفات الاسرائيليين المتعالية في الدول الافريقية التي قدموا لها بعض المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، ومشاعر النقمة العارمة التي يحس بها الافريقيون المستقلون حديثا ازاء الاستعمار الابيض واساليبه ، وحداثة ذكريات الاحتلال الاوروبي الاليمة الكامنة في لا وعي الافريقيين، كانت كلها وراء نجاح المناورة السياسية الخارجية العربية في افريقيا بشكل مذهل ، ٤) وكانت بلدان العالم الثالث مؤيدة مسبقا للموقف العربي ، كما كانت بعض الدول الاوروبية (اسبانيا ، اليونان) تؤيد العرب لاسباب مبدئية وثقافية واقتصادية ، كما كانت حكومات الدول الاسلامية (تركيا ، ايران ،

باكستان) تحس بضغط جماهيرها المتعاطفة مع مسألة تحرير الاراضي المقدسة ، وانقاذ القدس .

ولقد كان النجاح العربي في المناورة السياسية الخارجية كاملا تقريبا لدرجة جعلت جميع الدول الافريقية تقطع علاقاتها مع اسرائيل ، وجعلت دول العالم كلها ـ باستثناء الولايات المتحده والانظمه العنصريه في افريقيا ـ تقف على الحياد او الى جانب الحق العربي ، والى جانب شرعية استعاده الاراضي المحتله بمختلف الاساليب بما في ذلك الاسلوب العسكري . ولقد كان هذا النجاح السياسي المدخل لتبدل استراتيجي ، وشرطا هاما من الشروط اللازمة للانتقال في عام ١٩٧٣ من الاستراتيجية الدفاعية الى الاستراتيجية الهجومية . ومن الطبيعي ان هذا الشرط لم يكن كافيا لوحده ، وكان لا بد من اعداد القوة المسلحة القادرة على تنفيذ هذه الاستراتيجية واحباط رد فعل العدو ، لهذا تم تدعيم القوات المسلحة المصرية والسورية وتدريبها وتعبئتها ، وتنسيق الجبهتين الشمالية والجنوبية قبل بدء العمليات الهجومية في يوم ٦ تشرين الاول .

استراتيجية المستقبل

تعتبر حالة « اللاسلم واللاحرب » وضعا ملائما لاسرائيل . ولقد افادت منه الى الحد الاقصى ، قبل ان تحطمه الجيوش العربية في الحرب الرابعة . ولقد بدا واضحا خلال مباحثات فصل القوات ، ان الاسرائيليين يعملون ما في وسعهم بغية العودة الى وضع مشابه ، يخلقون فيه حقائقهم الجديدة ، ويجبرون العالم على قبولها . ويحتل « السلام » الافضلية الثانية لدى الاسرائيليين بعد حالة « اللاسلم واللاحرب » لانهم يعرفون ان حصولهم على السلام يعني دفع ثمن هذا السلام من المكاسب التي حصلوا عليها في حرب ١٩٦٧ ، ولقد صرح الزعماء السياسيون والعسكريون الاسرائيليون ولا يزالون يصرحون بأنهم يفضلون الاحتفاظ بالمناطق على الوصول الى السلام . وكانت الفكرة السائدة في اسرائيل قبل الحرب الرابعة ان الحرب ايضا لمصلحتهم ، لانها تؤمن لهم انتصارات جديدة ، وتوسعا جديدا ، وتكريسا لمركزهم في الشرق الاوسط كدولة قوية قادرة على فرض شروطها على جيرانها .

وكانت حالة « اللاسلم واللاحرب » وضعا سيئا بالنسبة الى العرب ، وسبيلا لتفتيتهم المعنوي وفك ارتباطهم بحلفائهم السوفيات ، كما كان اي سلم غير عادل يفرض عليهم ويضطرون الى قبوله من موقع الهزيمة او عدم الانتصار ، وتضمنه الدول الكبرى ، وضعا سيئا ايضا ، لانه يعني اعترافهم بشرعية الوجود الاسرائيلي غير الشرعي ، وفك ارتباطهم بالقضية الفلسطينية . لذا دخلت الدول العربية الحرب الرابعة ، واعتبرتها النقيض العربي لحالة « اللاسلم واللاحرب » او حالة « السلم الاسرائيلي » ، وستكون الحرب الخامسة ايضا النقيض العربي لهاتين الحالتين ، والسبيل الوحيد لتحطيم الجمود في الشرق الاوسط اذا ما حاول الاسرائيليون ممارسة اللعبة التي طبقوها طوال ست سنوات .

بيد ان دراسة الحرب الرابعة اكدت بشكل قاطع ان اي صدام شامل في المنطقة سيكون محدودا في الزمان والمكان والغرض . وانه مهما كانت نتائجه الاولية ، فان الدولتين الاعظمين ستتدخلان لتعديل هذه النتائج ، وستستخدمان لذلك الضغوط السياسية والعسكرية التي اثبتت فاعليتها وقدرتها العاليتين ، وبرهنت على ان الجسور الجوية الضخمة تجعل الدول العظمى « موجودة » وقادرة على التدخل السريع بقوة كبيرة في أية بقعة من العالم ، حتى لو لم يكن لها فيه وجود عسكري مسبق .

ولقد برهنت حربا ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ايضا ، ان حسم الصراع العربي — الاسرائيلي بضربة عسكرية خاطفة امر متعذر في الشرق الاوسط وفي ظل موازين القوى العالمية الحالية . لانه اذا كانت جميع العوامل البشرية والاقتصادية والحضارية تجعل من المستحيل على اسرائيل تحقيق انتصار حاسم — بالمعنى التاريخي — على العرب ، فان دول العالم ، بما فيها الدول التي لا تؤيد عدوان اسرائيل او توسعها ، لا يمكن ان تسمح للعرب بان يحققوا عليها انتصارا سريعا يؤثر على وجودها . حتى لو امتلكت الدول العربية القوة العسكرية اللازمة لمثل هذا الانتصار . كما ان الاتحاد السوفياتي نفسه لا يشجع على تحقيق مثل هذا الانتصار اذا كانت نتائجه ستتعدى حدود ١٩٤٩ . بيد ان تعذر تسديد ضربة حاسمة سريعة لا يعني الاحجام عن القتال . ولكنه يعني الرؤية المسبقة لابعاد هذا القتال ، دون الاغراق في النظرة الذاتية .

ولكن اذا كانت حالة «اللاسلم واللاحرب» غير ملائمة للعرب، واذا كانت الحرب التي تحطم هذه الحالة ستبقى محدودة في الحجم والنتائج ، واذا كان السلام العادل امرا لا يمكن لاسرائيل ان تقبله لانه يتعارض مع روح الصهيونية وجوهر وجودها ، واذا كان السلام « الممكن » حاليا ، و « المضمون دوليا » يعني انتزاع اعتراف عربي بالوجود العدواني الاسرائيلي على ارض العرب ، فما هو المخرج الاستراتيجي المفتوح امام العرب ؟

انه استمرار حالة اللاسلم ، ورفض أي شكل من أشكال تجميد القضية الفلسطينية أو فك الارتباط معها ، والحفاظ على حالة الضغط النفسي والتوتر العسكري المحسوب والمتوازن ، وتغذية حالة العداء الكامن ، القابل للتحول الى صدام مسلح مكشوف كبير أو صغير عندما تتوفر الظروف المحلية والدولية الملائمة لذلك .

ان السلم العادل والدائم هو هدف الشعب العربي ، وهدف جميع الشعوب . ولكن السلم المنتظر من مؤتمر جنيف — اذا ما تم انعقاد هذا المؤتمر وتحقق نجاحه — هو السلم « الممكن » في الظروف المحلية والدولية الراهنة . ولا يمكن ان يكون هذا السلم « عادلا » ، وبالتالي « دائما » ، لان جميع المعطيات السياسية والعسكرية والنفسية تؤكد مسبقا على ان المدعوين الى الاجتماع في جنيف عاجزون عن ايجاد حل للمعادلة المستحيلة التي تؤمن اعادة الحق الى اصحابه الشرعيين ، وبقاء اسرائيل بوضعها العنصري العدواني الحالي . وان اي تدبير وسط سيصلون اليه عاجز عن حل التناقض الجذري المصيري بين العرب والاسرائيليين ، وايقاف صراع مجتمعين متكاملين على ارض واحدة ، يدعي كل مجتمع منهما حقه التاريخي بالوجود عليها ، ويعتبر تخليه عنها — مع ما تمثله من معان اقتصادية وتاريخية وروحية — شطبا تاريخيا له .

ان ضخامة التناقض العربي — الاسرائيلي عامة ، والفلسطيني — الاسرائيلي بصورة خاصة ، وعنف الاهواء الكامنة وراءه ، تدفعنا الى الاعتقاد بان ما سيتم التوصل اليه في جنيف بكل صعوبة لن يكون سوى حل **مؤقت** لا ينهي حالة النزاع . وان قبول العرب بهذا الحل عبارة عن القفز الى وهم السلام وتجريد حقهم التاريخي من بعض شرعيته ، على حين ان رفضه بشكل مسبق ، وتبني **استراتيجية اللاسلم** تعني على الاقل عدم السقوط في الوهم .

ان **استراتيجية اللاسلم** المقترحة ، هي الحل الوحيد الذي يحبط اي سلم غير عادل ، ويحطم حالة اللاسلم واللاحرب . وتدخل هذه الاستراتيجية ضمن اطار استراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق القضم المعنوي طويل الامد .

ولا تحقق هذه الاستراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق حرب العصابات بشكلها المتعارف عليه ، بل عن طريق حرب طويلة تشنها الجيوش العربية النظامية (طيران ، بحريه ، قوات مشاة ومدرعه وميكانيكيه ومحمولة جوا) التي تلجأ الى تكتيكات الحرب التقليديه وروح حرب العصابات . وتسدد ضربات محكمه قوية ومفاجئة وسريعة ، خلال حقبه زمنية طويلة ، على ان تحدد القوات النظامية حجم هذه الضربات ، وتوقيتها وعمقها ومدتها بشكل يجعلها تبدو كضربات محدودة (وهي بالفعل كذلك) ولا تتطلب رد فعل اميركي قويا . فلقد علمتنا حرب تشرين الاول ، ان اية ضربة عسكرية واسعة النطاق ، تهدد دولة اسرائيل بالانهيار ، تؤدي بصورة آلية الى استنفار قوى الولايات المتحده التي لا تسمح الاوضاع العربية الحالية بمواجهتها .

ويجدر بنا هنا ان نذكر ان مثل هذه الضربات العصابية بقوات نظامية كبيرة (ألوية أو فرق ، اسراب جوية ، اسراب بحرية ، كمائن غواصات ، رشقات صواريخ متوسطة وبعيدة المدى) والتي تتم عن طريق المفاجأة والكر والفر ، والخدعة ستلقى تاييدا عالميا طالما ان اسرائيل لم تنسحب من الاراضي العربية المحتلة وطالما ان الشعب الفلسطيني لم ينل حقوقه . ولكنها بالطبع ستلقى تاييدا اقل اذا تحقق هذان الشرطان وكان من شروط تحقيقهما ضمان امن اسرائيل وسلامة اراضيها . وفي هذه الحالة تصبح عمليات العصابات الوحيدة الممكنة ، والمبررة ، هي عمليات قوات الثورة الفلسطينية التي لن تجمد كفاحها المسلح .

لقد أثبتت حرب ١٩٧٣ سقوط ثلاث مقولات ظهرت بعد حرب ١٩٦٧ وهي : ان البورجوازية الصغيرة العربية غير مستعدة للحرب ، وان دور الجيوش التقليدية ، قد انتهى ، وان حرب العصابات هي الرد الوحيد على الاحتلال الاسرائيلي . ولقد كانت هزة الهزيمة كبيرة لدرجة دفعت معظم المنظرين العرب الى التطرف في رؤية الامور ، وتجاهل الدور التحرري الذي تلعبه البورجوازية العربية الصغيرة ، وجيوشها التقليدية النظامية . والتعامي حتى عن موازين القوى القائمة والمستقبلية بين العسكرية الاسرائيلية وقوات الثورة الفلسطينية . ولقد كنت في فترة من الفترات من بين من سمحوا للشجرة بأن تحجب عنهم رؤية كل ابعاد الغابة . ولكن حرب ١٩٧٣ التي هزت الكثير من القناعات والمسلمات داخل معسكر العدو الاسرائيلي ، هزت بدورها الكثير من القناعات السائدة داخل المعسكر العربي ، الذي شهد باعتزاز الدور الوطني للانظمة البورجوازية الصغيرة ، والدور القتالي للجيوش النظامية العربية ، وحقيقة موازين القوى العسكرية في المنطقة ، والدافع القومي المتأجج الذي دفع جميع الحكومات العربية — راديكالية كانت ام تقليدية — الى المشاركة في الحرب باشكال مختلفة ونسب متفاوتة . وقد يكون هناك تحفظات على ادارة القتال في هذا المسرح او ذاك ، او على الطريقة التي تم فيها ايقاف القتال ، او على حجم الدعم العسكري الذي قدمه هذا القطر أو ذاك ، او على الطريقة التي استخدم بها سلاح النفط ، والشكل الذي وظفت به السياسة انتصارات الجنود العرب في سيناء والجولان ، ولكن العمل الذي لا يمكن ان يوجه اليه أي نقد هو : **اتخاذ قرار كسر حالة « اللاحرب واللاسلم » ، واختراق خطوط وقف القتال وتدمير القوات المعادية المنتشرة عليها ، والتشبث بالارض لصد الهجمات المضادة الاسرائيلية، واطالة أمد الحرب الى أكبر مدة يسمح بها الوضع الدولي ، واخراج قضية الصراع العربي — الاسرائيلي من حالة الركود ، واجبار المجتمع الدولي على وضعها على رأس جدول اهتماماته .**

ولقد برهنت حرب تشرين الاول ، في جملة ما برهنته ، على ان الخسائر الاسرائيلية

خلال القتال لا تحمل الاهمية نفسها : فالخسائر الاقتصادية التي تؤثر على تدفق رؤوس الاموال ، وتسبب الازمات الاقتصادية الداخلية ، قابلة للتعويض بالمساعدات الصهيونية والاميركية ، وقد تخلق لدى المكلف الاميركي ، على المدى الطويل ، احساسا بالعبء الاسرائيلي ، ولكنها تبقى على المدى القريب سلبية يمكن تجاوزها . ولا تسبب خسائر اسرائيل بالمعدات والاسلحة ، رغم اهميتها ، انهيار العسكرية الاسرائيلية ، طالما ان ترسانات الولايات المتحدة مفتوحه امامها لتعويض ما تفقده خلال القتال ، وطالما ان الجسر الجوي الاميركي قادر على نقل الاف الاطنان من الاسلحة والذخائر والمعدات خلال ايام . وتبقى الخسائر البشرية مكمن الضعف في مجتمع العدو ، فهي تهزه من اساسه ، وتخلق التناقض بين القياده والقاعدة ، وتدفع الشرائح غير المتجذره في المجتمع الاسرائيلي الى الهجره المضاده ، وتحطم المعنويات داخل « الغيتو » الكبير، وتخلق لدى الاسرائيليين انطباعا قويا بعدم جدوى الحرب مع العرب ، وعدم امكانية حسم الصراع العربي ــ الاسرائيلي بالقوة ، طالما ان الحروب مستمرة ومتصاعدة منذ بناء الدوله رغم ما حققته القوات المسلحة الاسرائيلية من انتصارات في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وتهز ثقة الصهيونية العالمية بدولة اسرائيل ، وتفقد الامبريالية الاميركية الثقة بقدرة « الشرطي » الاسرائيلي على حماية مصالحها .

ويبقى تحديد الخط الاستراتيجي العسكري العام (اللاسلم) ، والوسيلة المستخدمة (القضم المعنوي طويل الامد بقوات نظامية تشن الحرب التحريرية بروح حرب العصابات مستخدمة الضربات التقليدية المرنة المحسوبة) ، وملامس الضعف في مجتمع العدو (الخسائر البشرية) تحديداً نظريا اوليا ، اذا لم يرافقه تحديد الاداة اللازمة لتحقيق الاستراتيجية . ويلعب في تحديد الاداة عدة عوامل : القوى المتوفرة والكامنة ، وطبيعة مسرح العمليات ، وردود فعل العدو .

وتتمثل القوى المتوفرة والكامنة في مجمل امكانات الشعب العربي البشرية والمادية، وهي امكانات لا تمكن مقارنتها مع امكانات العدو . والشعب العربي بعمقه البشري الهائل ، وطاقاته الاقتصادية المؤهلة لنقله من حالة التخلف الاقتصادي ــ الاجتماعي الى حالة التطور والتقدم ، قادر على خلق قوات مسلحة نظامية وطنية كبيرة لا تستطيع اسرائيل ، مهما دعمتها الامبريالية الاميركية ، ان تخلق مثلها . ويمكن للدول العربية ان تؤمن تسليح جيوشها بأسلحة سوفياتية واوروبية ، وبواسطة التسليح الذاتي (الصناعة الحربية المتطورة) .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان القوات المسلحة التي ستمارس العمليات المستمرة المحدودة ، والتي ستخلق **حالة اللاسلم** ، هي قوات دول الطوق . وتملك هذه الدول الطاقة البشرية اللازمة لذلك ، ولكن طاقاتها الاقتصادية ، واوضاع التنمية فيها لا تسمح لها بذلك ، نظرا لحاجتها الملحة لاقتطاع جزء كبير من دخلها القومي ــ المنخفض اساسا ــ لتسريع التنمية وخلق القاعدة الاقتصادية ــ الاجتماعية اللازمة لبناء قوات مسلحة حديثة . والمخرج الوحيد لهذا المأزق هو الدعم الاقتصادي العربي لدول الطوق بالمليارات . ان مصر وسورية مؤهلتان منذ الان لاستلام هذا الدعم ، وسيغدو الاردن مؤهلا ايضا اذا تخلص من ارتباطاته مع المعسكر الامبريالي ، وحطم الردع النفسي الذي اصاب قياداته بعد حرب ١٩٦٧ . كما ان لبنان مؤهل للحصول على الدعم ، والانتقال من دولة مساندة الى دولة مجابهة ، اذا استطاعت القوى السياسية الفعالة فيه رؤية العلاقة الجدلية بين الامن الوطني والامن القومي ، وارتفع مستوى وعيها لحقيقة الخطر الصهيوني على اراضي لبنان ومياهه ، واقتنعت بهشاشة الضمانات الدولية لسيادته وسلامة اراضيه ، وعادت الى تبني الخط الذي كان

سائدا حتى هدنة ١٩٤٩ . وفي هذه الحالة ــ وفي هذه الحالة فقط ــ يتم اغلاق الطوق العسكري حول الدولة الصهيونية ، وسيأخذ الطوق صلابته وفاعليته الكاملتين اذا خضعت قوات دول الطوق لقيادة واحدة فعالة تتحكم بمفاتيح القوى العسكرية الاستراتيجية والعملياتية في هذه الدول .

ولكي تنتهي حالة « الحرب بالوكالة » وتختفي آثارها المعنوية السيئة ، ويتم الحشد العربي الكامل، فان من الضروري ان يكون للدول العربية البعيدة عن مسارح العمليات قوات مقاتلة اختصاصية (طيران ، مدرعات ، صواريخ) متمركزة في دول الطوق . وقادرة على المشاركة في الضربات المستمرة ، بالاضافة الى وضع معدات واسلحة قطعات كاملة تابعة للدول العربية البعيدة على اراضي دول الطوق ، مع الحد الادنى من العناصر الفنية اللازمة لصيانتها . واذا كانت الوحدات الكاملة مؤهلة باستمرار للقتال المحدود ، فان المعدات والاسلحة المخزونة تبقى مؤهلة لاستيعاب الجنود والضباط العرب الذين يتم نقلهم الى دول الطوق خلال فترة التعبئة ، او خلال اي صدام شامل . حتى لا يبقوا فترة طويلة في دول الطوق المضيفة ، ولا يتحملوا من جراء ذلك اعباء انسانية واجتماعية لا داعي لها .

ولكي تكون عملية نقل القطعات المسبق ، او نقل الطواقم والافراد عند اللزوم ، من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي ، سريعة وفعالة ، فان من الضروري ربط الدول العربية بشبكة مواصلات برية ــ جوية متطورة ذات مردود عال . ورفع مستوى كفاءة النقل البحري والنهري بين الدول العربية البعيدة ودول الطوق . فمن الغريب ان الدول العربية في شمالي افريقيا لا يربطها حتى اليوم خط حديدي سريع ، وليس بين العراق وجنوبي سورية (منطقة الحشد السورية) ، او بين السعودية والاردن خطوط مماثلة . ويتم الاتصال الجوي بين المشرق العربي والمغرب العربي عبر اوروبا ، وليس بين مصر والسودان طريق برية او سكة حديدية او خطوط مواصلات نهرية عالية الكفاءة . وليس في الاسلحة الجوية للدول العربية البعيدة طائرات نقل عسكرية ضخمة ، او طائرات صهريج لتموين الطائرات المقاتلة جوا .

وتفرض مسارح العمليات المكشوفة ، وخاصة في سيناء ، استخدام اسلوب خاص من حرب العصابات . فهي لا تصلح لحرب العصابات بشكلها الفيتنامي او الكوبي ، ولكنها تصلح لحرب العصابات المدرعة ، او حرب العصابات الجوية ، كما تصلح في بعض المناطق للحرب السرية الفلسطينية بمجموعات فدائية صغيرة (على غرار معركة مدينة الجزائر ، او الكفاح المسلح في غزة) . ويفتح اعتماد اسرائيل على خطوط مواصلاتها البحرية مجالا واسعا امام حرب العصابات البحرية .

ويأتي اخيرا رد فعل العدو . فمن المؤكد ان اسرائيل لن تتقبل عملية « القضم المعنوي » طويل الامد بقدرية وسلبية ، فهي تعرف ان فيها مقتلها ، وستحاول الرد عليها بعمليات انتقامية ، او بهجوم اجهاضي مسبق يأخذ شكل صدام شامل . ومن هنا تأتي ضرورة التفكير بالسيف والدرع ، واذا كان السيف النظامي وغير النظامي ضروريا لتسديد الطعنات (بدلا من وخزات الابر) خلال **مرحلة اللاسلم** ، فان الدرع ضروري لصد الضربات الانتقامية المعادية المحدودة ، واحباط اي هجوم معاد ، عن طريق « الردع » بوجود القوة ، او عن طريق « الصد والرد » ، في حالة انخفاض مستوى الردع الى درجة تدفع العدو الى الهجوم المكشوف .

ولا بد من ان يتألف السيف من قوات ضاربة (طيران ، مدرعات ، قوات محمولة جوا او بحرا ، مشاة ميكانيكية ، صواريخ متوسطة وبعيدة المدى ، غواصات ، زوارق

طوربيد ، زوارق صواريخ سطح ــ سطح) . اما الدرع فلا يعني بناء التحصينات والانتشار خلفها ، وحرمان القوات المسلحة من قدرتها الحركية ، ولكنه يعني بناء درع متحرك (طيران ، مدرعات ، مشاة ميكانيكية ، صواريخ ضد الدبابات) ، محمي بغطاء جوي فعال (مطاردات وصواريخ ارض ــ جو) قادر على الاشتباك في معركة تصادمية خلال مرحلة صد الضربة المعادية الواسعة ، وتطوير المعركة بعد ذلك وتحويلها الى معركة هجومية تعقبها مطاردة في عمق ارض العدو ، وتدمير الحد الاقصى من قواته ، والتشبث بالارض التي يتم الاستيلاء عليها خارج الخط الاخضر ، والقيام بالانسحاب الاستراتيجي بعد الضرب قبل تدخل الولايات المتحدة ، اذا ما امتدت المطاردة على بعض المحاور الى ما وراء الخط الاخضر .

ان دراسة موازين القوى العسكرية الحالية ، تدل على ان قيام العرب بالحشد الملائم ، وقيام الدول العربية البعيدة بدعم دول الطوق عسكريا واقتصاديا ، يمكن ان يسمحا بتنفيذ هذه الاستراتيجية قبل مطلع العام ١٩٧٥ ، كما ان استمرار الدعم العسكري السوفياتي وامكانية الحصول على اسلحة اوروبية يزيدان امكانية تنفيذها في النصف الثاني من السبعينات . ولا تتعارض هذه الاستراتيجية مع مباحثات السلام ، بل يمكن القول انها جزء منها ، لان الحصول على افضل النتائج في جنيف لا يمكن ان يتم الا في مناخ **حالة اللاسلم** . والمهم في الامر ان لا يسمح العرب للضغط الاميركي بأن يعطي للاسرائيليين في مباحثات جنيف سلاما مضمونا وغير عادل، وان يحبطوا كل المناورات الامبريالية ــ الصهيونية ، وان يمارسوا الضغط السياسي ــ الاقتصادي ــ العسكري حتى يحققوا سلما مشرفا عادلا ــ الى حد ما ــ يضمن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، ويضمن الانسحاب بالطبع ، ويقزم الدولة الاسرائيلية ويحرمها من امكانات التوسع والتهديد ولعب دور الدولة الكبرى في المنطقة ، فاذا فشلوا في ذلك ، عادوا الى **حالة اللاسلم** بشكلها الذي تحدثنا عنه .

ان الوضع الحالي الدولي والمحلي هو افضل الاوضاع لتنفيذ استراتيجية القضم النفسي ، فاسرائيل لا تزال تحتل جزءا من الاراضي العربية ، ولا تزال ترفض القرار الدولي بالانسحاب ، كما ترفض الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، ولا تزال المقولة السياسية العربية « ازالة آثار العدوان » مقبولة عالميا ، والضغط السياسي ــ الاقتصادي العربي قادر على تحقيق الكثير على صعيد المناورة السياسية الخارجية، والاتحاد السوفياتي متصلب لا يقبل بأي حل يحقق اقل من المطالب العربية ، والولايات المتحدة نفسها قد فقدت جزءا كبيرا من ثقتها « بالشرطي » الذي اضطرت للتدخل بغية انقاذه عندما ساء وضعه العسكري الى حد كارثوي بعد ٣ أيام من القتال ، ثم اضطرت الى استنفار قواتها الذرية لحمايته من ضربة سوفياتية ، وعرضت نفسها الى التورط في صراع عالمي يعادل الانتحار القومي ، ثم وجدت ان تبنيها له يكلفها مليارات الدولارات سنويا ، ويعرض علاقاتها مع حلفائها الاوروبيين لتوتر شديد . وتعيش الولايات المتحدة اليوم مرحلة اعادة نظر في سياستها الشرق اوسطية ، وسط ضغط الصهيونية المسيطرة على الكونغرس واجهزة الاعلام ، وضغط مؤيدي المصلحة الوطنية الاميركية الذين يرون ان هذه المصلحة تتناقض بشكل متزايد مع المصلحة الوطنية الاسرائيلية . والوضع العسكري ملائم لتنفيذ الاستراتيجية العربية الجديدة بعد ان اثبتت الجيوش العربية في حرب تشرين الاول انها قادرة على القيام بدور السيف والدرع ، وبعد ان فقدت القوة الجوية الضاربة المعادية جزءا من حرية عملها بفضل الدفاع الجوي العربي المتطور (مطاردات وصواريخ ارض ــ جو وبطاريات مدفعية ضد الطائرات) ، وبعد ان وازن الردع الصاروخي الردع الجوي .

وهناك ملاحظتان هامتان ضروريتان لنجاح الاستراتيجية العربية الجديدة . اولاهما ، ضرورة تنسيق العمل السياسي مع العمل العسكري ، ومتابعة العمل في مجال المناورة السياسية الخارجية لتدعيم العلاقات مع المعسكر الاشتراكي وبلدان العالم الثالث ، وربح القارة الاوروبية ، وتخليص قطاع كبير من الرأي العام العالمي من ضباب الخداع الصهيوني ، وتحييد — ان لم نقل اكتساب — شرائح واسعة في المجتمع الاميركي بعد كشف التناقض الجذري بين المصالح الاميركية الوطنية والمصالح الاسرائيلية ، وجسامة التأثيرات الاقتصادية — السياسية السلبية التي تنعكس على المصالح الاميركية من جراء دعم الادارة الاميركية لاسرائيل بلا حدود .

أما الملاحظة الثانية ، فهي تتمثل في ضرورة الانتباه لكل مظاهر التحول السياسي العالمي ، وعدم الاندفاع وراء الحل العسكري البحت المعزول عن الوضع السياسي العالمي ، وتجاهل تحديدات العمل العسكري حتى ولو سمحت موازين القوى المحلية بذلك ، لان تجاهل هذه الحقيقة ، ومحاولة فرض الامر الواقع عن طريق القوة المسلحة وحدها ، تعني استقطاب الصدام المباشر مع الولايات المتحدة ، كما تعني خسارة المناورة السياسية الخارجية اذا تم فرض الامر الواقع وراء حدود هدنة ١٩٤٩ دون اعداد سياسي مسبق .

ويدفعني الى هذا القول ما يردده بعض المنظرين العرب الذين ينظرون الى الصراع العربي بمعزل عن الواقع الدولي ، ويفصلون هذا الصراع عن مجمل التوازنات والارتباطات العالمية . ويعتقدون من جراء ذلك، ان قلب ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب، واستغلال الوضع العسكري الملائم لتسديد ضربة قاصمة سريعة الى اسرائيل، وفرض الامر الواقع ، هو الحل الوحيد للنزاع العربي — الاسرائيلي . والحقيقة ان رأيهم كان بعيدا عن الصحة قبل حرب ١٩٦٧، ثم اتسم بصحة نسبية بعد هذه الحرب. ويرجع السبب في ذلك الى ان سياسة فرض الامر الواقع (استراتيجية السلامي او القضم المادي المتعاقب) سياسة تمارسها الدول الكبرى ، او دولة ثالثة تابعة لها ، في منطقة حيوية جدا بالنسبة اليها ، وهامشية بالنسبة الى الدول الكبرى الاخرى المناوئة . وتعتمد الدول التي تفرضها على ان الطرف الاخر سيحجم عن التدخل لقناعته بمصداقية الدولة المحتلة ، واستعدادها او استعداد الدولة الكبرى التي تقف وراءها للصدام في هذه النقطة من العالم ، من أجل هدف هامشي .

ولقد طبق هتلر هذه السياسة قبل الحرب العالمية الثانية في السار ، والانشلوس ، وتشيكوسلوفاكيا ، دون ان تتحرك بريطانيا وفرنسة ، وعندما طبقها في بولونيا ، متجاوزا حدود مصالح الحلفاء ، وقعت الحرب العالمية الثانية . ولقد ازدادت اهمية تطبيق هذه السياسة بعد الحرب العالمية الثانية وبدء عصر التوازن النووي ، اذ صار فرض الامر الواقع يتم تحت مظلة ذرية ، ويعني بالنسبة الى الطرف الاخر ان عليه ان يصطدم مع فارضي الامر الواقع ذريا في سبيل الدفاع عن هدف هامشي .

لقد استطاع الاميركيون مثلا فرض الامر الواقع في عام١٩٦٧ — عن طريق دولة ثالثة (اسرائيل) — كما فرضوا الامر الواقع في قبرص بواسطة الاتراك دون ان يستطيع السوفيات التدخل . وفي عام ١٩٥٦ فرض السوفيات الامر الواقع في المجر ، ثم فرضوه في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ وفي بنغلادش في عام ١٩٧١ ، دون ان يستطيع الاميركيون التدخل . وترجع سلبية الطرف الاخر في الحالات المذكورة آنفا الى تفاوت اهمية الهدف بالنسبة الى القوتين الاعظمين . ولكن هناك حالات فشلت فيها سياسة فرض الامر الواقع : كوريا ١٩٥٠ — ١٩٥٣ ، وحرب السويس ١٩٥٦ ، وحرب

١٩٧٣ . فلقد وجد الاميركيون ان احتلال جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية لاراضي فيتنام الجنوبية يؤثر على وضعهم الدفاعي الذاتي في الشرق الاقصى ، فتدخلوا بقواتهم البرية والبحرية والجوية رغم احتلال الشماليين لـ ٩٥ ٪ من اراضي الجنوب . وعندما قام الاميركيون بانزالهم البحري في ميناء انتشون واستعادوا اراضي كوريا الجنوبية ، واحتلوا معظم اراضي كوريا الشمالية لفرض امرهم الواقع ، تدخل السوفيات جويا ، ودفع الصينيون مئات الاف المتطوعين لمنع الاميركيين من تحقيق ذلك . وعندما حاول الفرنسيون والبريطانيون والاسرائيليون في عام ١٩٥٦ فرض الامر الواقع في منطقة السويس الحساسة بالنسبة الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، اجبر العملاقان المعتدين على الانسحاب لعلمهم بعدم قدرة فارضي الامر الواقع على الصدام معهما رغم اهمية الهدف بالنسبة اليهم . وفي عام ١٩٧٣ فرضت سورية ومصر الامر الواقع في الجولان ومنطقة القناة . واوشكت العسكرية الاسرائيلية على الانهيار ، ووجدت واشنطن ان هذا الوضع يؤثر على مصالحها وهيبتها في المنطقة فتدخلت بارسال الاسلحة المتطورة والخبراء لمساعدة الاسرائيليين على استعادة قواهم . وفي يوم ٢٣ — ٢٤ استغل الاسرائيليون وقف القتال ، ووسعوا جيبهم على الضفة الغربية للقناة ، وحاولوا فرض الامر الواقع عن طريق احتلال مدينة السويس وتدمير الجيش المصري الثالث . واعتبر السوفيات ان تحقيق ذلك يسيء الى مصالحهم وسمعتهم وهيبة اسلحتهم في المنطقة والعالم ، فهددوا بالتدخل ، واستنفر نيكسون قواته الذرية الاستراتيجية ، واعتقد كل طرف من الطرفين الكبيرين بمصداقية الطرف الاخر واستعداده للتدخل والصدام ، فاتفقا عن طريق الخط الاحمر ، على ايقاف القتال ، وايجاد حل وسط ، تمثل في فصل القوات على جبهة القناة . وتدلنا هذه الامثلة وعشرات الامثلة الاخرى ان فرض الامر الواقع ، في عالمنا المعاصر ، عملية لا تعتمد على ميزان القوى العسكرية وحدها ، ولكنها تعتمد ايضا ، وبصورة اساسية ، على موقف الدولتين الاعظمين المتحكمتين برسم خارطة العالم السياسية — الاقتصادية .

* * *

ان الهدف من الاستراتيجية العربية الجديدة (اللاسلم) ، المعتمدة على تناسق العملين السياسي والعسكري ، واكتساب المناورة السياسية الخارجية ، وتسديد الضربات المستمرة المدروسة بقوات نظامية تقوم بادارة القتال باساليب تقليدية وبروح حرب العصابات ، لا يستهدف قصم ظهر الدولة الاسرائيلية بعملية مادية سريعة تستثير تدخل الولايات المتحدة — طالما ان الوضع الاجتماعي — السياسي العربي غير مستعد لمناطحة العسكرية الاميركية بالاسلوب الفيتنامي او الكوري — بل يستهدف قضم الواقع المعنوي الاسرائيلي بشكل مستمر ، وتأمين تراكم التأثيرات المعنوية للضربات المادية الكبيرة والصغيرة ، الى ان يتم الانهيار الاسرائيلي عن طريق الذبول لا عن طريق البتر ، لان الذبول طويل الامد حاله لا تستطيع الامبريالية علاجها مهما قدمت من دعم ، وخاصة عندما يتأكد الانسان الاسرائيلي من ان الدولة التي ارادتها الصهيونية منطقة يعيش فيها يهود العالم بأمان ، قد غدت اكثر بقاع العالم خطرا على اليهود ، وتترسخ داخل اسرائيل قناعة شاملة بأن الحل العسكري العنصري على حساب الشعب العربي الفلسطيني سائر الى الفشل ، وان المخرج الوحيد لمأساة العصر ، هو الدولة الديمقراطية الشرق اوسطية ، التي يعيش فيها الجميع بسلام ، وتكون نافذة حضارية حقيقية على شاطىء المتوسط .

اسرائيل بعد سنة من تشرين

صبري جريس

مع مرور سنة على حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، على ما تخللها من أحداث عسكرية وسياسية ، يبرز عدد من الاسئلة التي تطرح نفسها حول النتائج التي أسفرت عنها تلك الحرب لجهة تأثيرها على الاوضاع الاسرائيلية عامة ، بعد مرور هذه الفترة من الزمن . وتزداد هذه الاسئلة الحاحا ، بقدر ما تزداد الاجابة عليها أهمية ، في ضوء التطورات السياسية والعسكرية الراهنة والمستقبلية واحتمال ايجاد تسوية ما لأزمة الشرق الاوسط أو اندلاع القتال ثانية ، وقدرة اسرائيل على المناورة والصمود في أي وضع جديد قد ينشأ في المنطقة . وان لم يكن من السهل حتى الان القيام بمحاولة لتقييم نتائج الحرب والوقوف على الدروس المستفادة منها بالنسبة للاسرائيليين بصورة شاملة نظراً لقصر الفترة التي مرت منذ نهاية القتال عمليا ولتتابع الاحداث والتغييرات المفاجئة التي ترتبت عليها ، وحيث ان عددا من التطورات الناجمة عن الحرب على الصعيد الاسرائيلي الداخلي لم تصل الى نهايتها بعد ، فان فترة الهدوء النسبي التي سادت المنطقة مؤخرا وانتقال ثقل النشاط فيها الى المجال السياسي ثم استقرار الاوضاع ، نسبيا ، داخل اسرائيل على اثر ذلك تسهل القيام بعملية التقييم هذه بالنسبة لنواح معينة على الاقل ، رغم المحاذير التي أشرنا لها .

النظام يستعيد توازنه

كان من أبرز ردود الفعل التي نجمت عن حرب تشرين ، تضعضع هيبة الحكم في اسرائيل وسقوط اسهم معظم الزعماء الاسرائيليين ، السياسيين والعسكريين ، اثر النتائج التي أسفرت عنها الحرب وما انطوت عليه من خسائر بشرية ومادية لحقت باسرائيل . والواضح ان نتائج الحرب كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لاكثرية الاسرائيليين ، التي لم تتوقع سير القتال بالشكل الذي سار به ، لدرجة دفعت العديد منهم الى الحديث عن « الطوفان » أو « الزلزال » الذي حل بهم وفتح عيونهم على واقع جديد ، لم يتقبلوه بسهولة . ولكن هذا الواقع أثار ، في الوقت نفسه ، النقمة والسخط على ساسة اسرائيل وزعمائها وخاصة اولئك المنتمين الى الحزب الحاكم ، حزب العمل الاسرائيلي ، الذي اعتبر مسؤولا عن الوضع الذي وصلت اليه اسرائيل . كذلك لم يسلم زعماء المعارضة من حملة النقمة تلك حيث اعتبروا ايضا مسؤولين ، الى حد ما ، عن ذلك الوضع . ولقد وجد هذا التذمر الشعبي تعبيرا عنه ، وان كان جزئيا في قيام العديد من حركات الاحتجاج ، التي تشكلت من أناس ينتمون الى طبقات وفئات مختلفة ، لا توحدها الا الدعوة الى تغيير نظام الحكم وانتقاد أسلوب الحياة في اسرائيل ورفض كل ما هو قائم .

مر نظام الحكم الاسرائيلي ، خلال نصف السنة الاولى التي تلت حرب تشرين على الاقل ، بأزمات حادة كادت تطيح به . فالنقمة على السلطة ، التي راحت تتعاظم بعد وقف اطلاق النار واطلاع الاسرائيليين على مدى الخسائر ، البشرية خاصة ، التي

لحقت بهم خلال الحرب لم تجد متنفسا لها في الاوضاع السياسية التي سادت بعد ذلك، خاصة بعد التوتر على الجبهة المصرية ثم انسحاب اسرائيل من غرب قناة السويس ، وهي الخطوة التي اعتبرتها فئات معينة تنازلا عن الورقة الرابحة الوحيدة في أيدي اسرائيل . ولقد انعكس هذا الوضع ، الى حد ما ، على نتائج الانتخابات العامة التي عقدت في ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ وأسفرت عن خسارة حزب العمل الحاكم عددا من مقاعده في الكنيست بينما حصل التكتل اليميني (ليكود) المعارض ، في مقابل ذلك ، على زيادة في عدد الاصوات التي منحت له والمقاعد التي حصل عليها . والواضح انه لم يكن من السهل ، استنادا الى تلك النتائج ، على رئيسة حكومة اسرائيل غولده مئير ، اعادة تشكيل حكومتها بعد الانتخابات ، وهي العملية التي لم تستطع تنفيذها الا بعد مرور وقت غير قصير وبعد ان قدم حزب العمل تنازلات عديدة الى شركائه في الائتلاف ، خاصة الحزب الديني القومي (المفدال) ، لدرجة ظهر معها ان بعض « صبية » المفدال كادوا يكبلون يدي الحكومة ويمنعونها من اتخاذ اي قرار لا يروق لهم ، خاصة فيما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلي من المناطق المحتلة ، وعلى رأسها الضفة الغربية .

لم يمر وقت طويل على تشكيل حكومة مئير حتى كانت تتعرض لازمات جديدة ، كانت استمرارا لتلك الناجمة عن حرب تشرين . فمع انتهاء القوات الاسرائيلية من عملية الانسحاب من منطقة قناة السويس ، اثر توقيع اتفاق فصل القوات بين مصر واسرائيل ، وجدت القوات الاسرائيلية نفسها تخوض حرب استنزاف جديدة على الجبهة السورية ، كانت نهايتها التوقيع على اتفاق آخر لفصل القوات بين سوريا واسرائيل وانسحاب القوات الاسرائيلية من جزء من الجولان . ولم تكد الحكومة الاسرائيلية توقع على اتفاق فصل القوات هذا حتى كانت تواجه آخر أزماتها ، التي أطاحت بها ، مع نشر التقرير الاولي للجنة اغرانات التي عينت للتحقيق في أسباب التقصير الاسرائيلي في حرب تشرين وتحديد المسؤولين عن ذلك . ولقد أدان تقرير لجنة اغرانات ، كما هو معروف ، عددا من كبار ضباط الجيش الاسرائيلي ، وعلى رأسهم رئيس الاركان اللواء دافيد العازار ، وحملهم مسؤولية الفشل الذي منيت به اسرائيل في الحرب ، بحيث استقالوا أو أقيلوا رأسا من مناصبهم بعد نشر التقرير . ولكن النقمة الشعبية على السلطة لم تكتف بأكباش الفداء تلك، اذ سرعان ما توجهت أصابع الاتهام نحو موشي ديان ، باعتباره أول المسؤولين ، من الناحيتين السياسية والعسكرية ، عن الفشل الذي منيت به اسرائيل في الحرب ، ومن ورائه غولده مئير وحكومتها ، ولم يمر وقت طويل حتى استقال ديان من منصبه ثم تبعته مئير فحكومتها . ومع انه ظهر وكأن فراغا حدث في اسرائيل بعد استقالة حكومة مئير ، نظرا لغياب عدد لا بأس به من الوجوه السياسية المألوفة دفعة واحدة ، فان حزب العمل الاسرائيلي سرعان ما جمع قواه وعمل على تشكيل حكومة جديدة برئاسة مرشحه يتسحاق رابين .

مرت بضعة أشهر فقط على تشكيل الحكومة الاسرائيلية برئاسة رابين وفوزها بالثقة في الكنيست في أوائل حزيران (يونيو) الماضي . وقد تعرضت الحكومة خلال هذه الفترة لحملات انتقاد شديدة بسبب سياستها ، على الصعيدين الداخلي والخارجي ، ولمحاولات لم تتوقف لاسقاطها ، خاصة وانها تستند الى أكثرية صوت واحد فقط في البرلمان (٦١ من ١٢٠ صوتا) ، بعد أن أصر حزب العمل على استبعاد التكتل اليميني (٤٠ نائبا) من الحكم ، بينما لم يوافق المفدال (١١ نائبا) على الاشتراك فيه، لاسباب لا مجال لذكرها هنا . ولكن على الرغم من ذلك يمكن القول ان النظام الاسرائيلي قد استعاد توازنه السياسي خلال هذه الفترة وأرسى عددا من القواعد الهامة تمهيدا ،

كما يظهر ، لانطلاقة جديدة نحو وضع افضل ، بعد التخلص من عدد من العوائق التي كانت احيانا ، تشل مسيرته في الماضي ، بحيث يبدو وكأن نتائج حرب تشرين لم تكن سلبية بالذات بالنسبة للنظام الاسرائيلي ، رغم ما في ذلك ، لاول وهلة ، من غرابة .

نحو عهد جديد ؟

ان أول ما يلفت النظر في وضع الحكومة الاسرائيلية الجديدة ، برئاسة رابين ، هو أن مجرد تشكيلها ، على الشكل الذي تم به ، كان نقطة انعطاف واضحة في تاريخ نظام الحكم في اسرائيل ، لجهة تركيبها البشري على الاقل . فحتى استقالة حكومة مئير كان جيل الآباء — المؤسسين من أبناء الهجرة الثالثة الذيـن قدموا الى فلسطين خـلال العشرينات وبقايا أبناء الهجرة الثانية لا يزالون يسيطرون على مقاليد الحكم في اسرائيل ويضفون عليه طابعا خاصا بهم ، لا يتصف بمرونته أو قدرته على الاستجابة لتحديات العصر أو استيعاب التجديد أو التحرر من العقد الناجمة عن حياة الغيتو ، النفسي أو الفعلي ، التي مروا بها أيام صباهم . ولقد كان اصرار أولئك الزعماء على الاحتفاظ بمناصبهم ، التي لم تكن تشغر ، عادة ، الا بوفاتهم موضع السخريـة والتندر لدى العديد من الاسرائيليين ، الى أن جاءت الحرب « وأجهزت » على معظمهم دفعة واحدة، حيث تم استبدالهم بعدد من الوجوه الجديدة الشابة . أما الزعماء الجدد ، وان كانوا لا يختلفون كثيرا عن أسلافهم ، لجهة أساليب الحكـم التي مارسوها حتى الان على الاقل ، فانهم على الرغم من ذلك قد غيروا وجه النظـام الاسرائيلي وجددوا شبابه واكسبوه دما جديدا ، وهي صفات كان النظام بحاجة ماسة لهـا منذ زمن بعيد ، وسيكون لها ولا شك تأثيرها على وضع الجهاز الحاكم في اسرائيل . كذلك يتوقع ان يكون أولئك الزعماء ، الذين ولد معظمهم وترعرع في ظل الكيان الصهيوني الاسرائيلي ، وعاش مشاكله منذ أيام الانتداب وحتى اليوم ورافق نموه خطوة فخطوة وضحى بالكثير في سبيله، اكثر حرصا من أسلافهم على سلامة هذا الكيان وامنه، وبالتالي اقل اندفاعا منهم نحو المغامرات وافتعال الازمات وأكثر واقعيـة في مواقفهم من المشاكل التـي تعترض سبيله ، بما في ذلك مواقفهم تجاه العرب .

غير ان أهم النتائج الملموسة للحرب ، على صعيد النظام الاسرائيلي ، كانت تلك المتمثلة في «استعراض العضلات» بين الحكومة والمعارضة ، الذي استحكم بينهما منذ تشكيل حكومة رابين . لقد جوبهت الحكومة الجديدة منذ يومها الاول بمعارضة شديدة من قبل التكتل اليميني والمتدينين ، الذين حاولوا بكافة الطرق واكثر من مرة العمل على اسقاطها ، ولكن دون جدوى، بل ان الحكومة استمرت في ممارسة مهامها كأية حكومة أخرى من تلك التي سبقتها ، رغم انها تستند الى أكثرية صوت واحد فقط في الكنيست . وان دلت هذه الحقيقة على شيء ما فانها تعود وتؤكد ان الجناح العمالي الصهيوني، الشريك الاكبر في الحكومة الحالية ، لا يزال يحتل مركز الصدارة في النظام الاسرائيلي ، خاصة بعد أن اتضح أن عدم قدرة المعارضة اليمينية والمتدينة على تشكيل حكومة بديلة يكاد يكون من البديهيات . ولهذه الواقعة مغزاها بالنسبة للمستقبل ، وعلى أكثر من صعيد . فالحكومة الاسرائيلية وجدت نفسها بعد انتصار سنة ١٩٦٧ ، وعلى الرغم من ذلك ، أسيرة الفئات المتطرفة داخل حزب العمل وخارجه ، بشكل منعها من التحرك نحو ايجاد اي حل لازمة الشرق الاوسط او الاستجابة لاية مبادرة كانت في هذا الصدد، الى أن جاءت الحرب ونتائجها لتغير من هذا الواقع قليلا . والواضح ان التطورات التي طرأت بعد الحرب واضطرار اسرائيل الى الانسحاب ولو من جزء من الاراضي المحتلة كان كافيا لتصعيد النزاع بين « المعتدلين » و« المتطرفين » داخل النظام الاسرائيلي وادخاله مرحلة الحسم . واذا ما استمرت المساعـي لايجاد حل مـا لازمة المنطقة

وأسفرت عن نتيجة ما ، فستضطر الفئات المتصارعة كافة الى تحديد مواقفها والالتزام بها واستنتاج النتائج المترتبة على ذلك . واذا ما حدث ذلك فليس هناك من شك ، في ضوء المعطيات الراهنة ، ان الغلبة في هذا الصراع ستكون لجناح « المعتدلين » ، وان تم ذلك لسبب واحد فقط هو عدم قدرة الجنـــاح « المتطرف » المعارض على ادارة دفة الحكم في اسرائيل في ضوء المعطيات الدولية الراهنة او تقديم أي بديل لايجاد اية تسوية للازمة الحالية ، خاصة اذا حظيت مثل هذه التسوية بدعـــم دولي وبموافقة الاطراف المعنية .

ان مثل هذا السيناريو ، ان خرج الى حيز الوجود ، يعني تقوية النظام الاسرائيلي ودعم قدرته على الحركة ودفعه نحو انطلاقة جديدة ، ويبدو أن الجهـــاز الحاكم في اسرائيل قد قطع حتى الان بعض الخطوات على هذه الطريق . ومنذ أن اتضح بأن الحرب قد أدخلت اسرائيل الى وضع جديد يختلف عن سابقه ، دون البحث في جوهر هذا الاختلاف الان ، وان الحكومة الاسرائيلية مضطرة الى اتخـــاذ مواقف وقرارات معينة لم تكن في السابق ملزمة على اتخاذها ، بدأ النظام الاسرائيلي ، ممثلا في الجناح العمالي الحاكم ، يشد أحزمته ويخوض معارك داخلية قاسية ضد خصومه السياسيين دفاعا عن السياسة الخارجية التي اضطر ، أو يبدو انه سيكون مضطرا ، لاتباعها .

يلاحظ تأثير هذا التحول على نظام الحكم بشكل واضح ، اذ منذ أن اشتد هجوم المعارضة على الجناح العمالي الحاكم ، ازداد تكتل هذا الجناح ، رغم اختلاف وجهات النظر بين الكتل والفئات المتصارعة داخله ، وازداد حرص زعمائه علـــى الاحتفاظ بوحدته لدرجة دفعت قدامى مباي ، اكبر الكتل داخل ذلك الجناح ، الى التنازل عن الاحتفاظ بالمناصب الرئيسية في الحكومة ، خاصة رئاسة الحكومة ووزارات الخارجية والدفاع والمالية ، في أيدي زملائهم في الكتلة ، كما كانت الحال في الماضي ، وتسليم بعضها الى شركائهم ، أعضاء كتلتي رافي واحدوت هعفوداه ، لكسب ودهم . بينما نرى ، في مقابل ذلك ، الخلاف يتسرب الى صفوف المعارضة اليمينية ويهدد بانشقاقها ، مع احتمال انسحاب كتلة الاحرار من التكتل ، نظرا للسياسة المتصلبة التي ينتهجها بايحاء من مناحم بيغين . ويبدو ان امكانات حدوث مثل هذا التطور ، وعودة الاحرار الى انتهاج سياسة خاصة بهم ، مرتفعة للغاية اذا ما حدث تغيير ما في اوضاع المنطقة، سلما او حربا ، مما يعني دعما وتقوية لنظام الحكم الاسرائيلي لا مثيل لهما ، اذ ان عودة الاحرار الى التمتع باستقلالهم وانتهاج سياسة خاصة بهم معناها الرجوع الى التحالف مع الجناح العمالي ، نظرا للتقارب في وجهات النظر والمواقف بين الفريقين واستنادا الى تاريخ العلاقات بينهما منذ ايام الانتداب البريطاني ، مما سيعزز قدرتهما على الانفراد بالحكم لوحدهما او ، على الاقل ، التحرر من ضغوط باقي الفئات التي قد تشترك معهم . واذا علمنا ان الكيان الصهيوني في فلسطين ، ومن ثم اسرائيل ، قد تخطيا معظم الازمات التي مرا بها ، منذ نحو اربعين عاما وحتى اليوم ، ومرا في أعظم فترات ازدهارهم ابان فترات التحالف بين الجناح العمالي الصهيوني (سابقـــا مباي) وبين الاحرار (سابقا الصهيونيون العموميون) ، نستطيع ان نرى ان حرب تشرين ، ان ادت الى مثل هذا التطور ، ستكون بداية عهد من النمو والازدهار فـــي اسرائيل ، مستندا الى نظام حكم ثابت وواثق بنفسه ، يعمل حثيثا على تنمية قدرات اسرائيل وطاقاتها ونقلها الى مصاف الدول القوية المتقدمة ، بعد ايقـــاظ الحركـــة الصهيونية العالمية من سباتها والعمل على توثيق الصلة بينها وبـــين يهود العـــالم واسرائيل . ويبدو ان العصب المبائي للجناح العمالي قـــد بدأ فعلا باتخاذ الخطوات العملية على هذا الطريق بتأمينه انتخاب وزير مالية اسرائيل السابق ، بنحـــاس

سابير ، « دينامو » النظام الاسرائيلي ومهندس نموه الاقتصادي خلال العشرين سنة الاخيرة ، لمنصب رئيس الوكالة اليهودية ورئيس ادارة المنظمة الصهيونية العالمية (والمنصب الاخير هو أعلى منصب في المنظمة الصهيونية العالمية ، حاليا ، منذ ان شغر منصب رئيس المنظمة مع استقالة — اقالة الدكتور ناحوم غولدمان منه عند انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين — ١٩٦٨) من جهة واحلال « ربيبه » يهوشواع رابينوفيتش محله في وزارة المالية، محاطا ببعض أفراد عصابته من «هاغوش» (الكتلة) الذين عينوا في مناصب وزارية اخرى من جهة ثانية . والواضح ان مثل هذه التعيينات تعني سيطرة الجناح العمالي ، وبصورة أدق مباي ، على النشاط الصهيوني خارج اسرائيل ، بعد غياب طويل ، بالاضافة الى تعزيز وضعه داخل اسرائيل ، تمهيدا لتنفيذ مخططاته . ويكتسب هذا التقييم أهمية أكبر اذا علمنا ان سابير ، « المناضل » العنيد في سبيل العمل العبري ، والذي دخل السجن اكثر من مرة لاصراره على منع العمال العرب من العمل في البيارات اليهودية ، عندما كان زعيما نقابيا ايام الانتداب، وزمرته من كبار الداعين الى انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة او من معظمها ، ولو تم ذلك للتخلص من سكانها العرب فقط ، والاكتفاء باسرائيل صغيرة او «متوسطة» ولكن قوية ، خاصة في النواحي الاقتصادية والعلمية والعسكرية . وعليه فان حرب تشرين ، حتى وان أدت الى انسحاب اسرائيل من كل المناطق التي احتلتها أو عن معظمها ، وحتى ان تم ذلك دون عقد اتفاقيات سلام كاملة مع اسرائيل ، تضع العالم العربي ، استنادا الى الاتجاه الذي أشرنا اليه ، في مواجهة تحديات اسرائيلية صهيونية جديدة ، ينبغي عدم تجاهلها .

جروح الجيش لم تلتئم

اذا لم تستطع حرب تشرين التأثير بشكل جذري في جوهر النظام الاسرائيلي ، الذي بقي قائما بكل مركباته ، فان الوضع يختلف بالنسبة لاحد اركان هذا النظام المهمة ، الجيش .

اصيب الجيش الاسرائيلي خلال الحرب بجروح عديدة ، بعضها كان بالغا، لم يلتئم حتى الان . ولا نقصد بقولنا هذا انهيار بعض الجوانب الاساسية في الاستراتيجية العسكرية — السياسية الاسرائيلية ، او تضعضع نظرية الحدود الآمنة والقابلة للدفاع عنها ، او انفضاح اسطورة الجيش الذي لا يقهر ، وانما القصد بعض النواقص التي ظهرت في بناء الجيش واسس تكوينه بسبب الحرب .

قام الجيش الاسرائيلي ، قبل نشوب حرب تشرين بفترة قصيرة ، بحملة تغيير بين كبار قادته شملت تسريح العديد منهم واستبدالهم بمجموعة من الضباط الاصغر منهم سنا (وخبرة) بعد ترقيتهم ، وهو اجراء اعتاد الجيش على القيام به من حين لاخر ، وان جاء هذه المرة أكثر شمولا عن حالات مماثلة جرت في الماضي . وقد جرت العادة على أن يعرض الجيش الاسرائيلي اسلوبه هذا في استبدال الضباط بعد وصولهم سنا معينة وكأنه فخر نظريات التنظيم العسكري ، التي تمكن الجيش بسببها الافادة من طاقات ضباطه ، بأكبر قدر ممكن ، وهم في أوج نشاطهم من جهة وفتح المجال امام الاجيال الناشئة من القادة العسكريين للتقدم بسهولة نسبيا ، من جهة اخرى . ولكن هذه كانت اولى النظريات التي أثبتت الحرب عدم صحتها ، اذ لم تمر الا بضعة ايام على بدء القتال حتى كانت القيادة الاسرائيلية تستدعي معظم كبار ضباط الاحتياط ، ومنهم من كان يشغل مناصب وزارية وقتها ، وتعهد اليهم بقيادة مختلف الجبهات او الوحدات ، بعد ان شعرت ، كما يبدو ان ضباطها الحديثي العهد في

الترقية والتعيين غير قادرين على السيطرة على الموقف . لقد حلت ازمة القادة الاكفاء تلك اثناء الحرب وبعدها مباشرة بالشكل الذي حلت به ، ولكن يبدو ان الجيش الاسرائيلي لا يزال يعاني منها حتى الان ، اذ ان كبار ضباط الاحتياط تركوا الجيش بعد انتهاء القتال وعادوا الى مواقعهم السابقة ، ثم اجبر عدد اخر من الضباط على ترك الخدمة بناء على توصيات لجنة اغرانات ، بينما يبدو ان عددا غير قليل من ضباط الميدان قد قتلوا خلال الحرب . وبعباره اخرى ، فان الجيش الاسرائيلي يعاني ، بعد سنه من حرب تشرين وبسببها ، من نقص في انقاده المجربين والضباط لدرجة تدفع بعض المسؤولين الاسرائيليين الى الحديث صراحة عن نيتهم في العمل على ارجاع بعض الضباط السابقين اليه ، ومن بينهم حتى اولئك الذين حملتهم لجنة اغرانات مسؤولية التقصير في الحرب او اولئك الذين يتخذون مواقف سياسية مغايرة تماما لمواقف السلطة . واذا كان هناك من عبرة مترتبة على هذه الوقائع فهي تلك التي تؤكد ان قوى اسرائيل البشرية المحدوده ، رغم الادعاءات بكفاءاتها وقدراتها الفائقة ، تبقى احدى نقاط الضعف الرئيسية في الصراع الاسرائيلي الطويل الامد مع العرب .

غير ان أكبر خلل كشفت عنه الحرب في بناء الجيش وأسلوب عمله كان ذلك الذي تمخضت عنه فضيحة المخابرات . فمن الواضح الان أن المخابرات العسكرية الاسرائيلية قد فشلت فشلا ذريعا في اكتشاف استعداد العرب للحرب ونيتهم في مهاجمة القوات الاسرائيلية على الجبهتين المصرية والسورية ، وانذار السلطات المختصة بشأن ذلك وخلال مدة كافية تمكنها من دعوة قوات الاحتياط لمجابهة مثل ذلك الهجوم ، رغم الوعد الذي قطعته المخابرات على نفسها بهذا الشأن تجاه قيادة الجيش . ومما يثير الذهول في هذا الفشل ليس انعدام المعلومات لدى المخابرات عن التحركات العسكرية المصرية والسورية التي سبقت الحرب ، اذ أن هذه كانت متوفرة ، وانما عدم قدرة رجال المخابرات على استخلاص النتائج الصحيحة منها حتى اللحظات الاخيرة ، واضطرارهم الى اعلام المسؤولين الاسرائيليين عن ان الحرب وشيكة الوقوع قبل عشر ساعات من بدء القتال فقط ، واستنادا الى اشارة تلقوها من « دولة صديقة » هي ، كما يبدو ، أمريكا .

لقد كتب وقيل الكثير في اسرائيل ، منذ الحرب وحتى اليوم ، عن أسباب ذلك الفشل الذي منيت به المخابرات العسكرية ، وتحملت القيادة السياسية ، وعلى رأسها موشي ديان ، قسطا وافرا من المسؤولية عنه ، باعتبارها مروجة لذلك « المفهوم » الذي ساد بين رجال المخابرات بشأن عدم نية العرب ، او عدم قدرتهم بتاتا ، على القتال ، مما دفعهم بالتالي الى الاستخفاف بكل الاستعدادات العربية للحرب وتفسيرها على انها نوع من تهدئة الاعصاب على الصعيد العربي الداخلي ، او نوع من استعراض العضلات تجاه اسرائيل لابتزاز تنازلات معينة منها . لقد كان لهذا « المفهوم » ، ولا شك ، أثره في وصول القيادة الاسرائيلية بأسرها الى تقييم خاطىء للوضع كان من نتيجته ان فاجأت الحرب اسرائيل وهي غير مستعدة لخوضها . غير انه يبدو ، من ناحية ثانية ، ان هذا الخطأ لم يكن خطأ بسيطا عاديا يسهل تلافيه في المستقبل ، اذ أن أسبابه تتعدى نطاق الجيش والمخابرات لتمس احدى المؤسسات الاسرائيلية المهمة ، ونقصد مؤسسات الدراسات العربية والمشرفين عليها من المستشرقين ، المحترفين والهواة ، الذين كثيرا ما فخر الاسرائيليون بهم وبقدرتهم على استيعاب وفهم ما يدور في العالم العربي ، وبالتالي امكانات وصولهم الى تقييمات صحيحة للاوضاع هناك كتمهيد لاتخاذ القرارات المناسبة بشأنها ، مما غرس الثقة في قلوب عامة الشعب والمسؤولين سوية وبعث الطمأنينة في نفوسهم لجهة قدرة أجهزتهم على رؤية ما يجري

لدى العدو — حتى اكتشفوا بعد الحرب أن تصرفاتهم تلك كانت أشبه بتصرفات النعامة التي تغرس رأسها في الرمل .

ان اهتمام اليهود بالدراسات الشرقية عامة ، والعربية خاصة ، قديم العهد - كذلك فان اهتمام المستوطنين الصهيونيين في فلسطين بهذا النوع من الدراسات قديم العهد أيضا ، نسبيا ، اذ تعود بدايته الى سنوات العشرين ، وكان من بين الفروع الاولى التي اهتمت بها الجامعة العبرية في القدس ، بعد أن بدأت عملها سنه ١٩٢٥ . ومنذ ذلك الوقت تتوسع دراسة هذه المواد ، كما على الاقل ، من حين لاخر مع افتتاح كليات ومعاهد جديدة ، في اماكن مختلفة في اسرائيل ، هدفها المعلن دراسة هذه الناحيه أو تلك من الشؤون العربية والاسلامية . ولقد اسدى اولئك المستشرقون للدوائر العربية في أجهزه الامن الصهيونية خدمات جليلة ، اذ ان أول من أرسى أسس القسم العربي في « شاي » مخابرات الهاغاناه ، في مطلع الاربعينات كان المستشرق شمعوني وزمرته ، وهو نفس الجهاز الذي قدم فيما بعد خدمات جليلة للجيش الاسرائيلي ، خاصة خلال حرب ١٩٤٨ في فلسطين ، مكنته من احراز انجازات عديدة بسببها . واستمرت بعد ذلك أسهم المستشرقين ومن يعرفون بالخبراء في الشؤون العربية في اسرائيل في الصعود سنة بعد أخرى، الى أن وصلت قمتها خلال الفترة ما بين الحربين، الثالثة والرابعة (١٩٦٧ — ١٩٧٣) ، حيث جاءت نتائج حرب ١٩٦٧ لتفتح بابا واسعا لتعليقاتهم وآرائهم ، ومعظمها ينطلق من وجهة نظر تستخف بالعرب عموما وتسخر من انجازاتهم وقدراتهم ، وبالتالي تطمئن الاسرائيليين لجهة استمرار تفوقهم على العالم العربي بأسره ، في معظم المجالات ، الى أن جاءت حرب تشرين ونتائجها لتقلب معظم فرضيات اولئك الخبراء رأسا على عقب وتسخر من دراساتهم واستنتاجاتهم . وفي أعقاب الحرب ، وفي غمرة تفتيش الاسرائيليين عن اكباش الفداء لما لحق بهم خلالها ، توجهت أصابع الاتهام الى الخبراء في الشؤون العربية مشيرة الى الدور الذي لعبه هؤلاء في تخدير أعصاب الاسرائيليين وتحويل أنظارهم عن التحديات الحقيقية التي تواجههم في صراعهم مع العرب ، مما دفع المستشرقين الى الدخول في مناقشات حادة مع بعضهم البعض بشأن آرائهم وآراء الآخرين ، لتكشف عمليا عجزهم عن استيعاب ما يدور في العالم العربي حاليا ورصد التطورات السياسية والاجتماعية التي تسوده ، بحيث يبدو وكأن آراء كبار الخبراء الاسرائيليين في الشؤون العربية تنطبق على الاوضاع التي كانت سائدة في العالم العربي قبل خمسة عشر عاما على الاقل ، ولا علاقة لها البتة بالاوضاع الحالية . واذا كان هذا الانطباع صحيحا فانه يعني ان الاجهزة الاسرائيلية ، ومن بينها المخابرات خاصة ، والنظام الاسرائيلي عامة ، لن يكونوا في عصمة من الوقوع في الخطأ مرات أخرى في تقييمهم للاوضاع العربية ، فمعظم القوى البشرية العاملة في اجهزة المخابرات هي ، في نهاية الامر ، من تلامذة أولئك المستشرقين وامكانا توقوعهم في الخطأ لا تقل كثيرا عن امكانات أساتذتهم .

نظرة جديدة الى العرب ...؟

فتحت الحرب عيون الاسرائيليين على عالم عربي « جديد » وأزالت عددا من الاوهام التي استندوا اليها كثيرا لرسم استراتيجية اسرائيلية بعيدة المدى تجاه العالم العربي ، خاصة فيما يتعلق بقدرة الانسان والمقاتل العربي على مجابهة « السوبرمان » الاسرائيلي والتغلب عليه من جهة وامكانات العمل العربي الموحد ضد اسرائيل من جهة أخرى . ولقد كان الرهان الاسرائيلي على عجز العرب عن قتالهم أو اللجوء الى استعمال القوة في صراعهم معهم وكذلك عدم قدرتهم على اتباع سياسة موحدة تجاه اسرائيل ، نظرا للخلافات السياسية السائدة بينهم ، من بين الركائز الرئيسية

للسياسة الاسرائيلية المتصلبة واصرارها على الاحتفاظ بأجزاء من المناطق المحتلة وفرض الصلح بالقوة على العرب ، حتى وقعت الحرب فهزت، مع الاحداث التي تلتها، تلك الصورة .

كانت الصدمة التي أصابت الاسرائيليين ، مع وقوع الحرب وخلال الفترة التي تلتها ، قوية للغاية ولم تخف حدتها الا بعد مرور بضعة أشهر ، عندما توقف القتال تماما على الجبهات وانتقل ثقل النشاط في المنطقة الى المجال السياسي وما تبعه من مناورات ، استطاعت اسرائيل خلالها التقاط أنفاسها . ولكن على الرغم من ذلك ، لا يزال هناك عدد من الدروس ، لا تستطيع اسرائيل تناسيها ، لا الآن بعد مرور سنة على الحرب ولا في المستقبل ، القريب أو البعيد ، اذ أن ما اثبتته الحرب من قدرة الجندي العربي على القتال واستعمال الاسلحة العصرية المعقدة ، ومن خلال مواكبة التقدم العلمي ، لا يمكن ان يعتبر بالنسبة للاسرائيليين تطورا هامشيا يمكن تجاهله ، بل ان مثل هذا التطور يكتسب مغزى خاصا ، وخطيرا للغاية ، في ضوء حقيقة امتناع العرب ، لاسباب عديدة لا مجال لبحثها هنا ، عن استغلال كل طاقاتهم ، البشرية والعلمية ، في صراعهم مع اسرائيل ، مما سيضعها في وضع حرج للغاية ان تم ذلك فعلا في المستقبل . كذلك فان الاختلاف في وجهات نظر الدول العربية ، خاصة تلك منها المحيطة باسرائيل ، والفلسطينيين بشأن الخطوات التي ينبغي اتخاذها ، في الحاضر أو المستقبل ، لايجاد حل ما للازمة في المنطقة والتحركات السياسية المترتبة على ذلك ، وهي المواقف التي تعيد الى أذهان الاسرائيليين صورة العالم العربي المنقسم على نفسه والعاجز عن اتخاذ موقف موحد حاسم تجاه اسرائيل ، لا يمكن أن تشكل عزاء بالنسبة لهم ، اذ أن تلك الخلافات تنحصر ، في نهاية الامر ، حول أنسب الطرق واصلحها لصد العدوان الاسرائيلي أو احتوائه ، ومن هنا فان امكان عودة العرب الى منهج العمل الموحد وتوحيد قواهم في مواجهة اسرائيل ، كما حدث خلال الحرب وبعدها مباشرة ، أمر ينبغي أن يحسب له حسابه .

من الواضح الآن أن نظرة الاسرائيليين الى العرب قد تغيرت بعد حرب تشرين وبسببها ، بشكل ملحوظ ، للاسباب التي أشرنا لها وغيرها ، بدلالة اختفاء تلك التصريحات المتبجحة التي كانت تصدر عن المسؤولين الاسرائيليين في الماضي ، وكلها تنم عن استخفاف بالعرب وبقدرتهم على مجابهة اسرائيل . وكذلك يلاحظ ان الحماس الذي كان يرافق حديث الاسرائيليين عن الحرب في الماضي قد خف بشكل واضح ، وحلت محله التصريحات « المتزنة » ، التي تنطلق ، عادة ، من التدليل على نية اسرائيل في عدم المبادرة الى حروب جديدة الا اذا « اضطرت » لذلك . ولكن هذه النظرة بحد ذاتها تنطوي ، من ناحية ثانية ، على تحديات كبيرة بالنسبة للاسرائيليين ، اذ أن التسليم بوجود قوى عربية آخذة في النمو وتزداد قدرتها يوما بعد آخر على مجابهة اسرائيل حقيقة لها مغزاها بالنسبة لنظام كان ، ولا يزال ، يعتبر اعتماده على قوته الضمان الاساسي لاستمرار وجوده . وعليه ، وانطلاقا من هذه الفرضية، يبدو ان الاسرائيليين يقتربون من لحظة الحقيقة في موقفهم من العرب عامة ، على المدى القريب أو البعيد ، وليس أمامهم الا أحد الطرفين : اما التسليم ببداية تبلور قوة عربية عظيمة ، لا قدرة لاسرائيل على مجابهتها ، ان لم يكن الآن ففي المستقبل على الاقل ، مما يدفعها الى الاتجاه نحو اتباع سياسة جديدة تجاه العالم العربي والتفتيش عن حلول واقعية لازمة المنطقة ، او الاستمرار في انتهاج السياسة القديمة ، والعمل على دعم قوتها استعدادا للحروب المقبلة . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن واضح للغاية : أي من الطريقين اختارت اسرائيل ، بعد مضي سنة على الحرب ؟

ان الاجابة على السؤال الذي أشرنا له ليست سهلة ، بل يبدو أحيانا أنهـا غير ممكنة ، اذ أنه بالاضافة الى بوادر اعادة النظر في مواقف اسرائيل وسياستها تجاه العديد من القضايا التي تجابهها ، بما في ذلك الدعوة الى اتباع سياسة أخرى تجاه العالم العربي ، هناك أيضا اتجاه واضح يسعى الى اعادة بنـاء القوة الاسرائيلية وصقلها استعدادا لمجابهة تحديات المستقبل . ولا شك ان هذا « التردد » الاسرائيلي أو محاولة المزج بين الخيارين ، أي محاولة انتهاج سياسة جديدة مـن جهة وابقاء الاصبع على الزناد من جهة أخرى ، يخلق تحديات واضحة موجهة الى العالم العربي ، وخاصة دول المواجهة ، بشكل يلزمها هي الاخرى على تحديد مواقفها — وقبل فوات الاوان . فالاسرائيليون يبذلون في الوقت الحاضر جهودا كبيرة لدراسـة نتائج حرب تشرين والافادة منها ، وأعينهم مفتوحة على ما يجري في العالم العربي ، قبل دخولهم مرحلة الحسم . وعليه فان الموقف العربي الواضح ، الموحد قدر الامكان والمتمسك بتحقيق مطالبه ، ان سلما أو حربا ، مهم للغاية لجهة تأثيره على القرار الاسرائيلي ، وهو الذي سيبت، في نهاية الامر ، فيما اذا كانت حرب تشرين بداية مرحلة من التحول في تاريخ المنطقة أم انها ستذهب سدى مع منجزاتها وتبقى مجـرد حرب في مسلسل الحروب العربية — الاسرائيلية ، التي مرت على المنطقة حتى الآن .

... والفلسطينيون ...

اذا كانت حرب ١٩٦٧ قد أسفرت عن عودة العنصر الفلسطيني الى مسرح الاحداث في المنطقة ، ممثلا في المقاومة الفلسطينية المسلحة وامتداداتها العسكرية والسياسية داخل الارض المحتلة وخارجها ، فـان حرب ١٩٧٣ جـاءت لتثبت للاسرائيليـين — ولغيرهم — ان القضية الفلسطينية كانت ، ولا تزال ، أساس الصراع العربي — الاسرائيلي ، ولا بد من ايجاد حل لها قبل أية مشكلة اخرى من مشاكل المنطقة .

حظيت القضية الفلسطينية باهتمام بالغ للغـاية في اسرائيل ، علـى الصعيدين الرسمي والشعبي ، منذ الحرب وحتى اليوم ، وهو الاهتمام الذي أسفر عن مناقشات علنية واسعة ، لا يزال الكثيرون من الاسرائيليين ، من مختلف الاتجاهات ، يشتركون فيها من جهة ودفع النظام الاسرائيلي الى الاعلان عن موقفه ، رسميا، من الفلسطينيين وقضيتهم في أكثر من مناسبة من جهة أخرى . وكان أهم ما حدث من تغييرات على الصعيد الرسمي هو ذاك « التقدم » الذي طرأ على موقف حزب العمل الاسرائيلي الحاكم ، واسفر عن اعتراف الحزب في برنامجـه الانتخابي الذي أقـره بعد الحرب مباشرة ، ولاول مرة في تاريخه ، « بوجود » الفلسطينيين ، معلنا أن الحل الذي يقترحه للقضية الفلسطينية يكمن في اقامة دولة واحدة الى الشرق من اسرائيل ، يستطيع ان يجد الفلسطينيون والاردنيون فيها تعبيرا عن أمانيهم القومية . وان كان قد ظهر أحيانا ان ذلك التغيير في الموقف الرسمي لم يكن الا فاتحة لمواقف اخرى اكثر واقعية فقد جاءت الاحداث المتعاقبة لتثبت عكس ذلك .

ان الموقف الاسرائيلي ، او على الاصح الصهيوني ، من الفلسطينيين وحقوقهم معقد للغاية ، وقد مر منذ نشوء الصهيونية وحتى اليوم في مراحـل عديدة ، كان القاسم المشترك الاكبر لها جميعا اصرار الصهيونيين على اعتبار عرب فلسطين مجرد « سكان في أرض — اسرائيل » ، وبالتالي لا حقوق سياسية لهم ومحاولاتهم حل المشاكل التي تعترضهم من هذه الناحية مع جهات أخرى من غير الفلسطينيين — حتى سنة ١٩٤٨ بواسطة النفوذ الاجنبي الذي كان مسيطرا على فلسطين وعلى باقي دول المنطقة ، وبعد ذلك التاريخ مع الدول العربية ومن خلال تجاهل وجود الفلسطينيين السياسي .

ولقد بدا بعد الحرب ، ولاول وهلة ، وكأن الاسرائيليين ينوون الاقلاع عن ممارستهم تلك ويقتربون من لحظة الاقرار بخطأهم والاتجاه الى الاعتراف بالفلسطينيين وحقوقهم وحل المشاكل المعلقة مباشرة معهم ، غير انه سرعان ما اتضح ان الواقع يشير الى عكس ذلك ، وان الموقف الاسرائيلي لا يزال ، رسميا على الاقل ، يفضل التعامل مع هذا النظام العربي أو ذاك لايجاد حل ما للقضية الفلسطينية ، يكون ملائما لاسرائيل..

غير ان أهم ما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن دوافع هذا الموقف ليست اسرائيلية صافية ، بل تشوبها بعض الشوائب « العربية » ايضا ، فالمعلومات المتوفرة عن مواقف مختلف المسؤولين الاسرائيليين ممن يملكون القدرة على المشاركة في صنع القرار السياسي الاسرائيلي ، تشير الى وجود تعادل بين فريقين داخل الحكومة الاسرائيلية ، يدعو أحدهما الى اتباع سياسة جديدة لا تتردد في دعوتها الى الاعتراف بالفلسطينيين وبحقوقهم ، عند الحاجة ، والاتجاه الى التعامل مباشرة معهم ، بينما يصر الفريق الثاني على اتباع السياسة التقليدية التي انتهجتها اسرائيل حتى الآن ، وذلك بالاضافة الى وجود فريق ثالث لا يزال حتى الآن محايدا . واذا كانت الغلبة حتى الآن لا تزال من نصيب ذلك الفريق الداعي الى الاستمرار في انتهاج السياسة القديمة ، فلا شك ان ذلك قد تم ، الى حد كبير ، بفضل بعض المواقف العربية التي لا تزال حتى الآن تنازع الفلسطينيين حقهم في تمثيل أنفسهم وأخذ زمام أمورهم بأيديهم ، مما يفرض على الفلسطينيين عامة ، وقيادتهم خاصة ، حل مشكلة الوجود الفلسطيني عربيا ، قبل حلها اسرائيليا .

... والعالم

تضعضعت علاقات اسرائيل الدولية بشكل واضح خلال حرب تشرين وبعدها ، اثر قيام العشرات من الدول الافريقية والاسيوية بقطع علاقاتها الدبلوماسية معها . وكانت اسرائيل قد بذلت جهودا خاصة في الماضي لاقامة علاقات مع تلك الدول ، تنفيذا لنظرية كان الاسرائيليون قد ابتدعوها في اواخر الخمسينات واوائل الستينات تدعو الى اقامة طوق من الدول الافريقية والاسيوية ذات العلاقات الحسنة معهم ، خاصة تلك المحيطة بالعالم العربي ، لكسر حاجز عداء العرب لهم . كذلك تعرضت العلاقات الاسرائيلية مع عدد من الدول الصديقة والمحايدة الى هزات عديدة ، اثر اضطرار عدد من تلك الدول الى الاعلان عن موقفها من الصراع العربي — الاسرائيلي ومطالبتها اسرائيل بتنفيذ قرارات مجلس الامن او احترام الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، نظرا للضغوط التي وجهت اليها من الدول العربية ، وخاصة التهديد باستعمال سلاح النفط .

ان نظرة سريعة الى مجمل أوضاع اسرائيل الدولية بعد مرور سنة على حرب تشرين تظهر ان استخفاف اسرائيل بالرأي العام العالمي وتجاهلها قرارات الامم المتحدة ، وهو الاتجاه الذي طغى على السياسة الاسرائيلية عامة ، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ، لم يمرا دون عقاب ، فآثار العزلة الدولية التي تمر بها اسرائيل حاليا وتقلص امكانات مناوراتها على الصعيد الدولي واضحة للغاية ، ومما يزيد في وضوحها تعاظم نفوذ العرب دوليا وارتفاع شأنهم ، في مقابل ذلك ، خاصة في ضوء أزمة الطاقة العالمية وعلاقة العرب بها .

غير ان أهم ما أسفرت عنه الحرب من نتائج بالنسبة لاسرائيل على الصعيد الدولي كان ، دون شك ، اتضاح مدى ارتباطها الشامل بالولايات المتحدة واعتمادها عليها لمساندتها في معظم الازمات التي تواجهها ، السياسية والاقتصادية والعسكرية . ولا

حاجة لان نؤكد انه لولا المساعدات التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة ، خلال الحرب وبعدها ، في كل المجالات التي أشرنا لها ، لما استطاعت الصمود طويلا في الحرب او تحمل نتائجها بعد ذلك . واذا كانت الحرب قد كشفت ، مرة أخرى ، عن احدى مراكز القوى التي تستند اليها اسرائيل ، ممثلة في علاقاتها الفريدة في نوعها بالولايات المتحدة ، فانها تكشف في الوقت ذاته على ان مصدر القوة الاسرائيلي هذا هو نفسه أيضا نقطة الضعف في السياسة الاسرائيلية ، خاصة عندما تختلف وجهة النظر الامريكية عن الاسرائيلية ، او عندما يصر الامريكيون على جباية بعض الفواتير التي يقدمونها لاسرائيل من حين لآخر . وعليه فان الصورة التي ارتسمت خلال الحرب وبعدها مباشرة ، واتضحت الآن اكثر ، تظهر ان الموقف الامريكي من الصراع العربي — الاسرائيلي لا يزال يحتل المرتبة الاولى من الاهمية لجهة تأثيره على المواقف الاسرائيلية ، وبالتالي على الاوضاع في المنطقة ، بحيث يظهر بوضوح الآن — بعد مرور سنة على الحرب — ان الحل للازمة الحالية ، ان كان هناك حل ، لن يتم الا بواسطة واحد من طريقين ، أولهما الضغط الامريكي على اسرائيل ، دون أن نتطرق الى الثمن الذي يتوجب على العرب دفعه في مقابل ذلك وثانيهما اللجوء الى استعمال القوة العربية .

صدر حديثا عن مركز الابحاث

في منظمة التحرير الفلسطينية

كتاب

عوني عبد الهادي : اوراق خاصة

اعداد الدكتورة خيرية قاسمية

٢٤٧ صفحة بثمان ليرات لبنانية يضاف اليها اجور البريد الجوي ٥٠ ق. ل. في العالم العربي، ١٠٠ ق. ل. في أوروبة ، ٢٥٠ ق. ل. في سائر الدول .

اطلبه من قسم التوزيع بمركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

الثورة الفلسطينية في الحرب الرابعة : توظيف الخبرات واجتياز العقبات

عصام سخنيني

اغتنت التجربة النضالية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين واكتسبت خبرات عميقة ، كانت أحيانا نتيجة الجراح التي أصيب بها جسد المقاومة في تصديها للدفاع عن نفسها في بعض الساحات العربية ، ولكنها في الاغلب والأعم كانت خبرات أضيفت لرصيد المقاومة العسكري في أثناء قيام مقاتليها بمهامهم المسلحة داخل الارض الفلسطينية . وفي الحرب الرابعة كان لا بد من توظيف هذه الخبرات المختزنة وتكييفها لتتلاءم مع هذا الحدث الذي انفجر فجأة وفي غير توقع ، كي تثمر هذه الخبرات الجدوى القصوى المنسجمة مع تطلعات الثورة ، والمحققة لاهدافها الاستراتيجية . وفي المقابل ونتيجة ظروف عديدة معظمها متعلق بالاوضاع العربية وانعكاساتها على حركة المقاومة ، كان امام المقاومة ، وهي على عتبة الحرب ، عقبات كان عليها ان تجتازها وتذللها كي تجعل خبراتها اكثر عطاء .

خبرات مختزنة في تجربة جديدة

انحصرت التجربة القتالية الفلسطينية في أسلوب الحرب العصابية المبنية أساسا على تجنب المواجهات الواسعة مع العدو والمستفيدة من القاعدة المشروعة : اضرب واهرب . وقد ساد هذا النمط من القتال التجربة الفلسطينية نتيجة اسباب بعضها متعلق بطبوغرافية الارض الفلسطينية ، ومنها ما هو متعلق بالظروف التي نشأت فيها الثورة والتي جعلت قواعد الارتكاز القتالية خارج الارض المحتلة مما يجعل انشاء خطوط الامداد العسكري والبشري بين القاعدة الارتكازية وبؤرة المواجهة المختارة عملية مستحيلة ، وبعضها الاخر متعلق بأساليب القتال التي اتبعها العدو في تصديه للمقاومين الفلسطينيين التي تعتمد الحرب الميكانيكية السريعة التي تمكن العدو من نقل معداته وقواته الى أي مكان داخل الارض الفلسطينية خلال دقائق معدودة .

ولكن مع هذا فقد شهد أواخر العام ١٩٦٩ وأوائل العام ١٩٧٠ عددا من عمليات المواجهة العريضة نفذها الثوار الفلسطينيون مستندين الى قواعد ارتكازهم في الضفة الشرقية من الاردن ، وكان يمكن لهذه العمليات أن تكون نواة لشكل متطور من القتال لو استمر الوجود المقاوم الفلسطيني في الساحة الاردنية . غير ان مجازر أيلول ١٩٧٠ وأحراج جرش ١٩٧١ وما أعقبهما من تصفية الوجود الثوري الفلسطيني في الاردن أجهضت هذه التجربة التي كانت لا تزال في مرحلة الاختبار .

كانت الخبرة الفلسطينية **المتميزة** اذن هي خبرة حرب العصابات بكل أساليبها المعروفة التي تبدأ بزرع الالغام في الطرق الترابية وتمر بنصب الكمائن ومهاجمة الكمائن المعادية والقصف من بعد ... وتنتهي بشكل من أشكال الحرب المدينية الذي مارسه

ثوار قطاع غزة بشكل أكثر تطورا من غيرهم . وكانت هذه الخبرة لا تستند الى الضرورات العسكرية فحسب وانما كانت منسجمة مع النظرية السياسية لحركة المقاومة في حرب الشعب الطويلة المدى ، وهي التي فرضت أشكالا خاصة في البناء العسكري الفلسطيني لم يهيأ فيه المقاتل الفلسطيني لمواجهة حرب نظامية أو احتمال قيام حرب نظامية . وقد عزز هذا الامر الاخير التنظيرات السياسية التي سادت في الفترة ما بين حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ والتي كانت تدور حول استبعاد قيام الانظمة العربية ، في ظل اوضاعها التي تحكمت فيما بين الحربين ، بحرب تحريرية .

كان لهذه الخبرة الفلسطينية في حرب العصابات ان تلقي بكل طاقاتها في الحرب الرابعة . وفي اليوم الاول من القتال حدد ابو عمار لقوات الثورة دورا مهما في الحرب : « ان المزيد من الضربات لخطوط مواصلات العدو ومراكز تجمعاته ومرافقه الحيوية داخل الارض المحتلة وحدودها أمر هام وحاسم » . ويندرج هذا الدور تحت ما يوصف عادة بأنه العمل خلف خطوط العدو وهو ينسجم تماما مع أسلوب الحرب العصابية الغني في التجربة الفلسطينية . وغني عن البيان ان هذه هي المرة الاولى التي تعمل فيها قوات الثورة الفلسطينية « خلف خطوط العدو » في أثناء حرب نظامية بمثل هذه الكثافة . والاستثناء الوحيد من ذلك كانت عمليات قوات العاصفة في حرب ١٩٦٧ التي كانت تجربة محدودة بسبب قصر أجل حرب حزيران ولم تشكل تقليدا في العمل العسكري الفلسطيني. وعلى الرغم من حداثة التجربة فان الخبرة العصابية في الحرب الرابعة أعطت نتائج متفوقة ، مستفيدة من وجود الخلايا القتالية في الداخل التي هي على احتكاك يومي بالعدو وعلى اطلاع على تحركاته وأماكن حشوده ومرافقه الحيوية وعلى معرفة وثيقة بالارض التي تعمل فوقها ، مما مكنها أن تمارس أشكالا متنوعة من القتال خلف خطوط المواجهة الرئيسية بل في قلب ساحة العدو . ولقد غطت العمليات الفلسطينية جميع الارض المحتلة وكانت انشطتها العسكرية تنقسم الى عدد من الميادين :

(١) تمكنت قوات الثورة من الوصول الى عدد من المرافق الحيوية للعدو فوجهت عددا من الضربات الى منشآته الاقتصادية والانتاجية ومصادر الطاقة لديه . ومن الامثلة على ذلك : تدمير مستودعات النفط في كفر حسديم (حيفا) ، تدمير خط انابيب البترول ـ يانفطاه ـ ، تدمير عدد من ابراج كهرباء الضغط العالي في أسدود ورشون لتسيون ، تدمير جزء من مصنع الورق واحراق محتوياته في الخضيرة ، اشعال النيران في مستودعات الوقود في الخالصة ، تفجير قسم تركيب طائرات عرفاه وكومودور جت في بيت شيمش ، حرق معمل للمارتديلا وحانوت لتصنيع الجلود والبلاستيك في تل ابيب ، حرق مصنع للورق في ملبس ، تدمير مصنع للاسبست في نهاريا .

(٢) هاجمت قوات الثورة تحركات العدو العسكرية والتحمت معها من أجل تعطيل قواته المتجهة نحو المعركة . وقد ذكرت البلاغات العسكرية الصادرة عن القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية عددا كبيرا من هذه العمليات الناجحة نذكر منها : تدمير باص عسكري يحمل عددا من الطيارين على الطريق بين الخضيرة وحيفا ، تدمير عدد من سيارات قافلة تموين عند مفرق الظاهرية بئر السبع ، تدمير وتعطيل سير قافلة عسكرية عند ادمك في الجليل الغربي ، تعطيل قافلة عسكرية عند مستعمرة هونين ، تدمير ثلاث سيارات نقل عسكرية بين بئر السبع وعسلوج ، تفجير عدة عربات من قطار محمل بالذخيرة عند خان يونس ، تعطيل سير قوات العدو بين مسكاف عام والمالكية ، اصابة عدد من الاليات وتعطيل المرور بين القدس وأريحا ، اصابة عدد من الآليات من قافلة عسكرية بين المالكية والمنارة ، تدمير قافلة مكونة من ست شاحنات محملة بالذخائر في منطقة عومر (بئر السبع) الخ .

الجنوب اللبناني واداء دورها القتالي في شمال فلسطين . وقد كان هذا الانهيار نتيجة طبيعية لانفتاح أكثر من جبهة مع العدو بحيث سقطت الحجة القديمة القائلة ان صمت الجبهات العربية الاخرى يكفي تبريرا لوقف النشاط الفلسطيني المسلح من الحدود اللبنانية . كما ان الحماس الشعبي الواسع والانتصارات العسكرية التي حققتها الجيوش العربية كانت رادعا لاية محاولة أو نية محاولة لوقف النشاط العسكري الفلسطيني من الحدود اللبنانية . وفي اليوم التالي لاندلاع القتال أعلن البلاغ رقم ٩ الصادر عن القيادة العامة لقوات الثورة ما يلي : « قامت وحدات المدفعية والصواريخ التابعة لقواتنا بجنوب لبنان بقصف شديد ومركز على كل من مستعمرتي المنارة وهونين » . وبذلك كان هذا البلاغ اقرارا لواقع لا يمكن تجاوزه تمثل في حق الثورة في أن تعمل من مختلف الجبهات لا يحكمها سوى تكتيكات القتال وقرارات الثورة نفسها العسكرية والسياسية .

كانت الجبهة التي فتحتها الثورة في شمال فلسطين منطلقة من الجنوب اللبناني مؤثرة دفعت العميد (احتياط) حاييم هرتسوغ الى التصريح للاذاعة الاسرائيلية (١٠/١٠) بقوله « في هذه الليلة فتحت جبهة أخرى ، على الرغم من صغرها ، ولكن على كل حال تعتبر جبهة . والمقصود هنا النشاط التخريبي من وراء الحدود ضد مستوطناتنا » . وقد جاء هذا الاعتراف من الجانب الاسرائيلي بعد فترة من التعتيم مارسه الاعلام الاسرائيلي على عمليات الثورة الفلسطينية . الا أن اسرائيل نتيجة وطأة العمل العسكري في مستوطنات الجنوب اضطرت بين فترة وأخرى الى الاعتراف بذلك وان كانت تحاول اخفاء خسائرها الحقيقية . وفي ٧٣/١٠/٢١ قال ناطق عسكري اسرائيلي ان الفدائيين هاجموا ست مناطق دفعة واحدة . وفي يوم ١٠/٢٢ اعترف الناطق بأن الفدائيين قاموا منذ اندلاع الحرب بالهجوم على ٤٢ مستعمرة وبلغ عدد هجماتهم ٢٠٠ هجوم ، اي بمعدل ١٢ هجوما في اليوم الواحد .

هذا على الجبهة الشمالية ، أما على الجبهة الاردنية أطول خطوط المواجهة مع العدو ، فقد كان الامر مختلفا تماما . فقد كان حسين أعلن أكثر من مرة في الفترة ما بين تموز ١٩٧١ وتشرين ١٩٧٣ انه لن يسمح لاحد بأن « يستدرجه » للحرب مع اسرائيل . غير ان قيادة الثورة سعت جهدها لفتح جبهة قتالية انطلاقا من شرق الاردن لما تتمتع به هذه المنطقة من ميزات استراتيجية لمصلحة الثورة . وقد أرسلت القيادة وفدا فلسطينيا الى الاردن بتاريخ ٧٣/١٠/٩ واجتمع بزيد الرفاعي ، رئيس وزراء الاردن ، وطلب الوفد أن يسمح للفدائيين بأن يمروا للقيام بواجبهم عبر النهر في الارض المحتلة . الا أن السلطة الاردنية رفضت ذلك رفضا قاطعا . وقد أبلغت قيادة المقاومة الرئيس السادات بذلك وطلبت اليه أن يتدخل لدى الملك . وتدخل السادات فعلا وطرح على الملك أن تكون القوات الفدائية تحت امرة عدد من الضباط المصريين . وبالفعل أرسل السادات سبعة عشر ضابطا من مختلف الرتب أقلتهم طائرة خاصة الى تبوك في المملكة السعودية حيث توجهوا بالسيارات الى عمان ومكثوا هناك ينتظرون أن يقابلهم الملك الذي رفض ذلك فعادوا من حيث أتوا . غير ان المقاومة حاولت أن تفتح الجبهة الاردنية بالامر الواقع . فتوجه عدد من المقاتلين الفلسطينيين الى شرق الاردن وتمكن ثمانون منهم من اجتياز النهر الى الارض المحتلة بينما وقع ١٢٦ مقاتلا في أسر القوات الاردنية .

• • •

ان الخبرة الفلسطينية في الحرب الرابعة هي وليدة سنوات طويلة من النضال والتضحيات تكثفت وتفجرت في أكثر من ميدان وشكلت « الجبهة الثالثة » التي كانت عنصرا حاسما في كسب الحرب واختلال ميزان القوى لجانب المصلحة العربية .

قتال المدرعات في الحرب الرابعة

محمود عزمي

في معركة « العلمين » التي جرت في ١٩٤٢ ، كان لدى الجيش البريطاني الثامن بقيادة « مونتجمري » نحو ١٢٢٩ دبابة مقابل نحو ٤٩٦ دبابة المانية وايطالية كانت لدى قوات المحور بقيادة « رومل » . وفي معركة « كورسك » التي جرت في صيف ١٩٤٣ كان لدى الجيوش السوفييتية بقيادة « جوكوف » و« فاسيلفسكي » نحو ٣٦٠٠ دبابة وقانص دبابات مدرع مقابل نحو ٢٧٠٠ دبابة وقانص لدى الجيوش الالمانية بقيادة « فون مانشتاين » و« مودل » ، ومنذ هذه المعارك الشهيرة في الحرب العالمية الثانية لم يشهد التاريخ العسكري مواجهات ضخمة بالمدرعات كتلك التي شهدتها رمال سيناء والضفة الغربية من قناة السويس وهضبة الجولان خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ . فقد كان لدى الجيوش العربية التي اشتركت في القتال نحو ٤٠٠٠ دبابة مقابل نحو ٢٥٠٠ دبابة لدى الجيش الاسرائيلي ، بالاضافة الى مئات القانصات، والمدافع ذاتية الحركة ، وآلاف المجنزرات ونصف المجنزرات والعربات المدرعة ناقلة الجنود التي كانت لدى الطرفين ، وبذلك فاقت حشود المدرعات العربية والاسرائيلية حشود المدرعات السوفييتية والالمانية التي كانت مشتركة في معركة « كورسك » التي اعتبرت أكبر معركة دبابات في التاريخ العسكري السابق لحرب ١٩٧٣ العربية — الاسرائيلية .

وبالاضافة الى ضخامة حجم المدرعات المشتركة في هذه الحرب ، فقد كانت غالبيتها من أحدث ما في ترسانة السلاح السوفييتي والامريكي والبريطاني . ولكن الشيء الذي جعل لاستخدام المدرعات اهميته الخاصة في حرب ١٩٧٣ ، هو استخدام الصواريخ المضادة للدبابات لاول مرة على نطاق واسع وبصورة فعالة من الطرفين .

وبسبب ضخامة عدد المدرعات المشتركة في هذه الحرب ، ونوعيتها المتطورة ، وفاعلية الاسلحة المضادة لها ، اكتسب دور المدرعات فيها أهمية كبرى تستحق الدراسة . وستكون هذه الدراسة في اطار الخطوط العامة لاحداث وتطورات هذه الحرب ، والدروس المستفادة منها ، نظرا لان المعلومات ما زالت غير مكتملة ، خاصة بالنسبة لتفاصيل التشكيلات المشتركة فيها من كلا الطرفين والتفاصيل التكتيكية والعملياتية للتحركات والمعارك التي جرت في الجبهتين الشمالية والجنوبية .

ميزان القوى المدرعة بين الطرفين عشية الحرب :

قدر تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني عام ٧٣ — ٧٤ عدد ونوعية دبابات الجيش المصري على النحو التالي :

حوالي ١٦٥٠ دبابة متوسطة من طراز « ت — ٥٤ » و « ت — ٥٥ » ، و١٠٠ دبابة متوسطة من طراز « ت — ٦٢ » ، و١٠٠ دبابة متوسطة من النوع القديم «ت — ٣٤»، ٧٥ دبابة خفيفة برمائية من طراز « ب ت — ٧٦ » ، ٣٠ دبابة ثقيلة من النوع القديم

« ستالين ــ ٣ » ، أي أن جملة عدد الدبابات المصرية وفقا لهذا التقدير كانت تبلغ ١٩٥٥ دبابة .

وفي تقرير المعهد المذكور عن « التقييم الاستراتيجي ١٩٧٣ » ، الذي صدر مؤخرا متضمنا تحليلا لحرب ١٩٧٣ ، ذكر أن عدد الدبابات المصرية المتوسطة كان ٢٠٠٠ دبابة(٢) .

وبالاضافة الى الدبابات كان هناك نحو ١٥٠ مدفعا مدرعا ذاتي الحركة بعضها مضاد للدبابات من طراز « س يو ــ ١٠٠ » والبعض الآخر ميداني من طراز « جي س يو ــ ١٥٢ » ، ونحو ٢٠٠٠ عربة مدرعة لنقل الجنود والاستطلاع ، بعضها مجنزر مثل « ب ت ر ــ ٥٠ ب » وبعضها على عجلات مثل « ب ت ر ٤٠ » و« ب ت ر ٦٠ » و« ب ت ر ــ ١٥٢ » و« أو . ت ــ ٦٤ » . كما كان يدعم الوحدات المدرعة والميكانيكية أعداد من المدافع المضادة للطائرات ذاتية الحركة مثل المدفع الرباعي « زد س يو ــ ٢٣ ــ ٤ » عيار ٢٣ مم الذي يعمل بالتوجيه الراداري والمركب على قاعدة دبابة خفيفة « ب ت ــ ٧٦ » ، والمدفع الثنائي « زد س يو ــ ٥٧ ــ ٢ » عيار ٥٧ مم الذي يوجه بصريا والمركب على قاعدة دبابة « ت ــ ٥٤ » . وكانت القوة المدرعة المذكورة موزعة على فرقتين مدرعتين ، ولواءين مدرعين مستقلين ، و٣ فرق مشاة ميكانيكية ، وتتألف الفرق المدرعة المصرية عادة من لواءين مدرعين ، ولواء مشاة ميكانيكية ، والوحدات المعاونة من المدفعية والمهندسين . كما تتكون فرقة المشاة الميكانيكية من لواءين او ثلاثة الوية مشاة ميكانيكية ، ولواء مدرع ، وتوزع بعض وحدات الدبابات (خاصة دبابات الصف الثاني والقانصات المدرعة) على فرق المشاة المحمولة العادية لدعم قوتها الهجومية ودفاعها المضاد للدفاع في حالة الدفاع ، ولتكون بمثابة القوة الضاربة ضمن الاحتياطي التكتيكي لهذه الفرق .

وقد اهتمت قيادة الجيش المصري عقب حرب ١٩٦٧ برفع مستوى تدريب قواتها المدرعة على مستوى طواقم الدبابات ومستوى التشكيلات ، فأصبح كل فرد في طاقم الدبابة مدربا على اداء مهام بقية زملائه ، كما ركز على ضرورة استيعاب الضباط لاكبر قدر من فهم ميكانيكا الدبابة ، ومن المعتقد انه جرت مناورات على مستوى الفرقة المدرعة والفرقة الميكانيكية في السنوات التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، الا أن سلاح المدرعات المصري كان بطبيعة الحال يفتقد الى الخبرات القتالية الواسعة ، نظرا لان ظروف حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ لم تتح له فرصة حقيقية لممارسة القتال اللازم لبلورة خبرات تكتيكية وعملياتية ذات قيمة ، كما ان حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ــ ١٩٧٠) لم توفر له مثل هذه الفرص وانما استخدمت فيها الدبابات والقانصات في الرمي المدفعي المستقيم أحيانا .

اما الجيش السوري فكانت قوته المدرعة تقدر قبل حرب ١٩٧٣ على النحو التالي : حوالي ٩٠٠ دبابة متوسطة من طراز « ت ــ ٥٤ » و « ت ــ ٥٥ » و ٢٤٠ دبابة « ت ــ ٣٤ » و ١٠٠ دبابة خفيفة برمائية « ب ت ــ ٧٦ » ونحو ٣٠ دبابة ثقيلة طراز «ستالين ــ ٣» و ٧٥ قانصا مدرعا « س يو ١٠٠ »، أي ان اجمالي الدبابات السورية كان يقدر بنحو ١٢٧٠ دبابة و٧٥ قانصا مدرعا ، بالاضافة لنحو ١٠٠٠ عربة مدرعة من أنواع « ب ت ر ــ ٥٠ » و « ب ت ر ــ ٦٠ » و « ب ت ر ــ ١٥٢ » .

وقد تبين بعد نشوب القتال انه كانت لدى الجيش السوري كميات كبيرة نسبيا من الدبابات المتوسطة الحديثة « ت ــ ٦٢ » ، قيل انها بلغت نحو ٣٠٠ دبابة ، ولذلك نجد أن تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية « التقييم الاستراتيجي ١٩٧٣ » يقدر قوة

المدرعات السورية التي دخلت الحرب بنحو ١٦٠٠ دبابة متوسطة(٣)، اي ان الكتلة الرئيسية من الدبابات العربية كانت من طراز ت ٥٤ و ٥٥ . وكانت هذه المدرعات موزعة على فرقتين مدرعتين ، ولواء مدرع مستقل ، ولواء ميكانيكي مستقل ، فضلا عن ٣ فرق مشاة (ذكر تقرير التقييم الاستراتيجي بعد ذلك انها كانت ميكانيكية)(٤).

أما اسرائيل فكان لديها ، وفقا لتقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني ، نحو ٨٥٠ دبابة « سنتوريون » و ٤٠٠ دبابة « باتون » و ١٥٠ دبابة « ام — ٦٠ » و ٢٠٠ دبابة « سوبر شيرمان » و ١٠٠ دبابة « ت اي — ٦٧ » (وهي دبابات ت ٥٤ و ت ٥٥ غنمت خلال حرب ١٩٦٧ من الجبهتين المصرية والسورية وأعيد تسليحها بمدافع بريطانية الطراز عيار ١٠٥ مم التي تسلح بها السنتوريون) ، هذا بالاضافة لنحو ١٢٥ دبابة خفيفة « ام اكس — ١٣ » ، ونحو ٣٠٠٠ عربة مدرعة من مختلف الانواع « م — ٢ » و « م — ٣ » نصف المجنزرة و « م — ١٣ » المجنزرة . ونحو ٣٥٠ مدفعا مدرعا ذاتي الحركة من عيارات ١٠٥ مم ، و١٥٥ مم ، و١٧٥ مم ، و٢٠٣ مم(٥).

ولكن معظم التقديرات الاجنبية التي نشرت عقب انتهاء الحرب قدرت الدبابات الاسرائيلية بنحو ٢٠٠٠ دبابة ، وهناك تقدير امريكي حديث نشر في مجلة المدرعات الامريكية يصل بقوة المدرعات الاسرائيلية الى نحو ٢٥٠٠ دبابة ، منها حوالي ١٠٠٠ دبابة « سنتوريون » ، و ٨٠٠ دبابة « باتون » و« م — ٦٠ » و ٣٠٠ « سوبر شيرمان»، و ٣٠٠ — ٤٠٠ « ت اي — ٦٧ » (ت ٥٤ ، ٥٥ معدلة) ، فضلا عن نحو ٥٠٠ مدفع ذاتي الحركة و٣ آلاف عربة مدرعة(٦). ويذهب التقدير المذكور الى أن عدد الالوية المدرعة الاسرائيلية كان ٢٠ لواء ، فضلا عن ١٠ الوية ميكانيكية ، وان هذه الالوية شكلت على الاقل ٨ فرق ذات قوة اكبر من المعتاد . وهذا على خلاف تقدير معهد الدراسات الاستراتيجية السابق لنشوب الحرب الذي كان يقدر عدد الالوية المدرعة الاسرائيلية بعد استدعاء الاحتياطي بعشرة الوية وعدد الوية المشاة الميكانيكية بتسعة الوية .

هذا وتوزع المدرعات الاسرائيلية على ألوية مدرعة مستقلة (بكل لواء كتيبتا دبابات، وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وكتيبة مدفعية ذاتية الحركة، ووحدة مدافع مضادة للطائرات، وأخرى مضادة للدبابات مجهزة بصواريخ س س — ١١ ، وعربات جيب مجهزة بمدافع ١٠٦ مم عديمة الارتداد ، ووحدة استطلاع ، ووحدة هندسة ، ووحدة اشارة بالاضافة الى وحدات الاخلاء والصيانة) يجري تجميعها داخل مجموعات قتال متفاوتة الحجم وفقا للمهمة القتالية المسندة اليها تعرف باسم Ugdas ولها عادة قوة الفرقة ، وتضم الوية مدرعة ، وأخرى ميكانيكية ، وكتائب مدرعية ، وأحيانا الوية مشاة محمولة .

وتقول الكتابات الاجنبية الغربية بأن الدبابات الاسرائيلية المزودة بمدافع ١٠٥ مم تتمتع بميزة بعد مرمى مدافعها بالقياس لمرمى الدبابات العربية المزودة بمدفع ١٠٠ مم، وانها تستخدم ذخيرة خارقة للدروع من نوع أفضل من تلك التي تستخدمها الدبابات العربية (باستثناء دبابات ت — ٦٢ التي تتميز طلقتها الخارقة للدروع من نوع APFSDS بأنها ذات قوة اشد في خرق الدروع من مسافة كبيرة وافضل من ذخيرة « السنتوريون » و « الباتون » و« م — ٦٠ ») . وان الدبابات الاسرائيلية مزودة بأجهزة تحديد مدى من نوع أفضل لا يعتمد اساسا على التقدير البصري للقائد مثلما هو حال أنواع ت ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ (في « الباتون » يوجد مقدر مدى تجسيمي ، وفي « م — ٦٠ » مقدرة مدى تطابقية ذات نظارة مفردة ، وفي « السنتوريون » رشاش متطابق المحور مع المدفع يطلق طلقات خطاطة ، ويوجد

في الدبابات ت ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ عداد مدى مقرابي « ستاديو متري ») وأن هذه الاجهزة الاكثر تطورا تتيح لها قدرة اكبر على سرعة الاصابة من الطلقة الاولى للمدفع ، وخلاصة رأى هذه المصادر ان الدبابات الاسرائيلية كان لديها القدرة الموضوعية على اصابة معظم الدبابات العربية (باستثناء ت ٦٢) من مسافة ابعد وبدقة وسرعة اكبر وذخيرة اكثر قدرة على خرق الدروع . ولا يوجد من الجانب العربي حتى الان رد أو تفسير منشور لهذه المزاعم .

ونحن نعتقد انه حتى لو صحت هذه الاقوال ، فأنها لا تخل كثيرا بميزان القوى بين الطرفين في المدرعات (وان كان هذا لا يقلل من اهمية بعد مدى المدفع وسرعة تحديد المدى والاصابة من الطلقة الاولى ويحتم السعي لتطوير مدافع واجهزة الدبابات العربية ت ٥٤ ، ٥٥ والتزود بكميات اكبر من الدبابات ت ٦٢) ذلك لانه من النادر في التاريخ العسكري أن كان لدى الطرفين المتجابهين نوعية واحدة متماثلة من التسليح ، أو تحتم انتصار الطرف الذي يملك بعض التفوق النوعي في سلاح او أسلحة معينة . فلقد كانت الدبابات الفرنسية مثلا خلال معركة فرنسا عام ١٩٤٠ تتفوق على معظم الدبابات الالمانية من حيث قوة المدفع ، وبعد مداه ، ومن حيث قوة التدريع ، فضلا عن تفوقها بعض الشيء في العدد ، الا أن الدبابات الالمانية حققت انتصارا ساحقا بفضل كفاءة تكتيكاتها ، وتفوق الخطة الاستراتيجية والعملياتية التي استخدمت وفقا لها . كما كانت الدبابات السوفييتية تفوق عدد الدبابات الالمانية خلال المراحل الاولى من عملية غزو الاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٤١ فضلا عن توفر نحو ١٥٠٠ دبابة متفوقة نوعيا بشكل كبير على الدبابات الالمانية (وهي ت ــ ٣٤ و كف ٢) الا أن ذلك لم يمنع الجيوش الالمانية من تحقيق سلسلة انتصاراتها الضخمة الاولى حتى وصلت مشارف موسكو .

وفي صيف عام ١٩٤٣ كان لدى الجيش الالماني في معركة « كورسك » مئات الدبابات من نوعي « النمر » و « الفهد » المتفوقة نوعيا على الدبابات السوفييتية « ت ــ ٣٤ » ورغم ذلك هزمت المدرعات الالمانية في المعركة وخاصة في معركة الدبابات الكبرى التي جرت في « بروخورفكا » بفضل كفاءة التكتيكات الهجومية والدفاعية السوفييتية وشجاعة وتصميم المقاتلين السوفييت ، وصحة خطط القيادة الاستراتيجية .

وكذلك في معارك فرنسا وبلجيكا وهولندا والمانيا عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ كانت الدبابات الالمانية « الفهد » و « النمر » و « مارك ٤ » تفوق دبابات الحلفاء « شيرمان » و « تشرشل » و « كروميل » تسليحا وتدريعا ولكن ذلك لم يحل دون انتصار الحلفاء وهزيمة المدرعات الالمانية . وعلى اي حال فأن معارك المدرعات التصادمية في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ حققت فيها الصواريخ الموجهة النسبة الكبرى من الاصابات ، اذ تقدر نسبة الدبابات الاسرائيلية المصابة بالصواريخ خلال معارك الحرب المذكورة بنحو ٥٠٪ ، ونسبة الدبابات المصابة في قتال الدبابات ضد الدبابات بنحو ٣٠٪ ، ونسبة الدبابات المصابة نتيجة القصف الجوي والالغام بنحو ٢٠٪ (٨).

● **تكتيك قتال المدرعات الاسرائيلية** : كان الشيء الرئيسي في صالح سلاح المدرعات الاسرائيلي عشية حرب ١٩٧٣ هو ارتفاع مستوى تدريب اطقم دباباته وتشكيلاته المقاتلة ، واستنادها الى خبرات تكتيكية في العمليات الهجومية ، وخبرات في ادارة العمليات المدرعة على نطاق واسع وما تتضمنه من حل مشكلات القيادة والتموين والصيانة وسرعة الحشد والحركة ، وذلك نتيجة للدروس العملية التي استقاها من حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، فضلا عما زرعته هذه الخبرات والنجاحات السابقة من

شعور بالثقة في نفوس جنود المدرعات سواء في سلاحهم او كفاءة قيادتهم . الا أن هذه الثقة المبالغ فيها وما صحبها من شعور بالاستهانة بقوة الخصم وقدرته القتالية ، ترتب عليها جمود شبه مطلق في تطوير اساليب القتال ، كان لها ضررها البالغ بسلاح المدرعات الاسرائيلية خلال حرب ١٩٧٣ ، خاصة في مراحلها الاولى كما سنرى فيما بعد ، وقد شكلت نتيجة لذلك ظرفا مناسبا لنجاح تكتيكات القتال المضاد للدبابات التي طبقها الجيش المصري خاصة اثر عبور قناة السويس .

فلقد انحصرت خبرات استخدام المدرعات الاسرائيلية في استخدام الدبابات ضمن اطار تكتيك ثنائي « الطائره ــ الدبابة » ، الذي يهدف الى احداث خرق مدرع مكثف خاطف في نقطة ضعيفة في الخط الدفاعي ، مستخدمة تكتيك الاقتحام بالنيران والحركة ، (دون دعم مدفعي كبير) تحت حماية ودعم الطائرات التي تقصف مواقع المدفعية والمشاة المعادية قصفا قريبا Clase support يعقبه اختراق في العمق العملياتي يستهدف تطويق مواقع القوات المدافعة ، وقطع خطوط مواصلاتها ، وتدمير مراكزها الادارية والقيادية ، ومن ثم تحطيم معنوياتها واشاعة الاضطراب في قيادتها ودفعها الى الفرار او الاستسلام . وهو التكتيك الذي عرف بالحرب الخاطفة ، وقد شهد انجح تطبيق له خلال حرب ١٩٦٧ وكانت القيادة الاسرائيلية تطبق هذا التكتيك خلال حرب ١٩٥٦ والمرحلة الاولى من حرب ١٩٦٧ بشيء من الحذر ، يتمثل في حرصها على ملازمة المشاة الميكانيكية (واحيانا المشاة العادية) للدبابات في هجماتها ، ومحاولة توفير اكبر قدر ممكن من دعم المدفعية ، وذلك كما توضح معارك « ابو عجيلة » و « رفح » على الجبهة المصرية عام ١٩٥٦ ، والمراحل الاولى من حرب ١٩٦٧ . الا أن هذا الحذر سرعان ما تلاشى في المراحل التالية من حرب ١٩٦٧ ، واصبحت الدبابات الاسرائيلية تقاتل شبه منفردة بريا ، على اساس انها تتلقى من الطيران دعما مباشرا كلما واجهتها بعض المشاكل في التقدم السريع في العمق العملياتي ، مما أدى الى انحراف خطير في تطبيق تكتيكات حرب الحركة السريعة الحقيقية التي تعتمد في الاساس على تعاون وثيق بين الدبابات والمدفعية والمشاة المحمولة او الميكانيكية والطيران ، اما دفع الدبابات بمفردها كي تقوم بمهام الجيش الميكانيكي المتكامل (أي تقوم بمهام المشاة الميكانيكية والمدفعية ذاتية الحركة) فهو استخدام للدبابات في دور الفرسان الخفيفة التي كانت تطارد عدوا مهزوما في الحروب القديمة ، وهو دور لا تنجح فيه الا ضمن ظروف استراتيجية ملائمة للغاية ، ابرزها تحقق السيادة الجوية المطلقة وانهيار مقاومة الخصم وعدم رغبته او قدرته على المقاومة المنظمة وقد أدت زهوة النصر الخاطف في ١٩٦٧ بالقيادة الاسرائيلية الى تعميم تكتيك استخدام الدبابات كفرسان خفيفة ، واعتباره اساس اسلوبها في حرب الحركة السريعة الذي تنتهجه والذي يلائمها استراتيجيا ، متناسية الخصوصية الشديدة التي جرت فيها معارك ١٩٦٧ وخطأ اعتبارها مصدرا موضوعيا لاستنباط قوانين ثابتة للحرب الميكانيكية .

وقد كتب باحث عسكري بريطاني في شؤون المدرعات في كتاب اصدره عام ١٩٧٠ عن تطور الدبابة كسلاح منتقد الاتجاه الذي يعتبر استخدام الدبابات الاسرائيلية خلال حرب ١٩٦٧ دليل على صحة هذا الاسلوب : « ان اسلوب استخدام الدبابات كفرسان وجد له منطلقا وحيدا نحو المجد مؤخرا ، وذلك عندما قامت القوات الاسرائيلية المدرعة تحت قيادة الجنرال « اسرائيل تال » في ١٩٦٧ ... بزحف على طريقة « غوديريان » داخل صحراء سيناء ، ممزقة ومحطمة قوات كبيرة من الدبابات المصرية ... ان هذه الحملة التي تبدو للمراقب احيانا وكأنها تنتقل في آلة الزمن لربع قرن مضى ... قد تم كسبها بواسطة اناس منظمين جيدا ومهرة تقنيا ، في مواجهة جيش

مسلح جيدا ولكنه يقاد بطريقة سيئة وليس لديه الاساس التثقيفي او الاجتماعي اللازم لحوض حرب تعتمد على الآلة »(٦). وكان لا بد لعقيده القتال المدرع الاسرائيليه ان تحوض عمار تجربة حرب « يوم الغفران » لتتبين اخطاءها الناتجه عن التعميم المطلق لخبرات ذات طبيعه مؤقته وتحديده الخصوصيه ، الامر الذي اشار اليه ضمنا « زئيف شيف » فيما بعد حين قال في مقاله المسمى « المفاجأة على الصعيد التكتيكي والتقني في حرب يوم الغفران » « اعتقدنا ان الدبابة تصعق دائما سلاح المشاه الذي يواجهها ، واذا بنا نفاجا بالمصريين يجرؤون على الانقضاض على الدبابات ... ويبدو لي ان احدى عبر حرب يوم الغفران ، هي انه في حرب المدرعات ، لا يوجد دائما وضع متالي تحارب فيه دبابات ضد دبابات . لقد ذكرنا المصريون بحقيقة قديمة ، وهي انه لا يمكن ان يكون هناك سلاح مدرع دون سلاح مشاة مدرع . لقد فكرنا بمفاهيم حرب الايام الستة ، اي أن الدبابه قادره على كل شيء ، وتستطيع ان تتدبر امرها حتى دون مساعدة المدفعية »(١٠).

والواقع أن عقيدة القتال المدرع الاسرائيلية قد تجاهلت أسس نظرية استخدام الدبابات في حرب الحركة السريعه التي طبقها القادة الالمان في الحرب العالمية الثانية ، فقد كتب « غوديريان » مثلا ان « كفاءه الدبابات تزداد بزياده قدره المشاة والمدفعية وغيرهما من وحدات الفرقة على متابعتها في اي تقدم عبر الاراضي »(١١). وكانت تطبيقات « رومل » الناجحة في حرب الصحراء خلال عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ قائمة في الاساس على التعاون الوثيق بين الدبابات والمدفعية الميدانية والمضادة للدبابات والمشاة الميكانيكية والطيران ، على حين ان فشل الجيش البريطاني الثامن في هجوم معركة « الكروسيدر » في نهاية عام ١٩٤١ كان راجعا في احد اسبابه الى دفع ألوية الدبابات في هجمات بالعمق العملياتي دون ان تساندها مدفعية ومشاة محمولة .

حرب المدرعات على الجبهة المصرية : استخدمت القيادة المصرية في بداية اقتحامها لقناة السويس وخط بارليف قوات من خمس فرق مشاة عبر منها في الموجة الاولى للهجوم التي جرت في الساعة الثانية والثلث من بعد ظهر يوم ٧٣/١٠/٦ نحو ٨٠٠٠ جندي ، استخدموا حوالي ١٠٠٠ قارب اقتحام مطاط تحت حماية نيران نحو ٢٠٠٠ مدفع وهاون ، بالاضافة الى لواء صواريخ تكتيكية ارض — ارض من طراز « فروغ — ٧ » وبعد تمهيد ضربة جوية مركزة قامت بها ٢٠٠ طائرة ضد مطارات العدو الامامية ومواقع مدفعيته بعيدة المدى ومراكز اتصالاته وقياداته ومحطات الرادار وبطاريات صواريخ هوك المضادة للطائرات ، فضلا عن قصف جميع حصون « خط بارليف » شرقي « بور فؤاد » في مواجهة بور سعيد . وتحت هذه الحماية النارية انطلقت جماعات المغاوير (الصاعقة) ومفارز اقتناص الدبابات لتبث الالغام في مصاطب الدبابات المقامة على الجسر الترابي الموازي للقناة وتقيم لها الكمائن لتشل حركتها ، وتؤمن عملية الاقتحام الجارية بواسطة قوات المشاة ، كما تركزت جماعات اخرى على مصاطب مقامة على الضفة الغربية للقناة مسلحة بالصواريخ « سنابر » و « ساغر » لتصطاد الدبابات الاسرائيلية عند اقترابها على الضفة الاخرى لتهاجم رؤوس الجسور الاولية .

وفي الوقت نفسه عبرت كتائب من المشاة الميكانيكية البرمائية تدعمها سرايا الدبابات البرمائية « بمت — ٧٦ » عبر جنوب البحيرات المرة وعند بحيرة التمساح قرب الاسماعيلية (١٢)، وذلك نظرا لعدم وجود الحاجز الترابي الضخم على شواطىء البحيرات التي تمر في وسطها قناة السويس . وكان لا بد من قيام سلاح المهندسين بفتح ثغرات في الحاجز الترابي المقام على امتداد القناة بواسطة « مدافع المياه »

(مضخات مياه قوية) حتى يمكن مد جسور عائمة تعبر عليها الآليات والمصفحات والدبابات الى الضفة الشرقية لتعزز رؤوس الجسور التي احتلتها المشاة خلال موجات العبور الاثنى عشر التي تمت بالقوارب المطاطية وغيرها من وسائل العبور الاخرى في الست ساعات الاولى من بدء الهجوم .

ولهذا تاخر عبور الدبابات المصرية اتتابعة لفرق المشاة عدة ساعات الى ان تم انشاء ١٠ جسور عبر القناة (فضلا عن ١٠ جسور اخرى للمشاة) خلال الليل وتم تشغيل نحو ٥٠ طوفا (معدية) كانت تنقل الدبابات والاليات الاخرى في النقاط التي لم تقم فيها جسور ، وقبل بزوغ فجر اليوم التالي كانت الدبابات قد بدات تتدفق على الضفه الشرقيه لتدعم رؤوس الجسور التي تحميها المشاة باسلحتها الخفيفة المضاده للدروع (آر بي جي ٧ وصواريخ ساغر)(١٢) . وخلال هذه الليلة (٧/٦ تشرين الاول) قامت سريه من المشاة الميكانيكية البرمائية (مستخدمة على الاغلب مجنزرات « بت ، ــ ٥٠ ب ») ومعها بعض الدبابات الخفيفة البرمائية بالتقدم نحو ممر متلا ، حيث هاجمت مركز قيادة القطاع الجنوبي في الساعة ١٠ر٨ من صباح اليوم التالي ، وهاجمت في الساعه ١ر٥٠ بعد الظهر محطة رادار في المنطقة نفسها ثم عادت الى القوات الرئيسية في رؤوس الجسور قرب القناة . كما قامت سرية اخرى مماثلة بمهاجمة بعض المواقع الاسرائيلية الصغيرة قرب ممر الجدى دون ان تتورط معها في معركة طويلة ، ومضت متسللة نحو مطار « بيرتمادا » الواقع الى الشرق من ممر الجدي وهاجمته في اغارة فدائية سريعة في الساعة ١٠ر١٠ من صباح يوم ٨/١٠ ، ثم عادت الى رؤوس الجسور بعد ان هاجمت موقع رادار للعدو في طريق عودتها . وكانت هذه الاغارة المدرعة الخفيفة التي وصلت الى عمق ٨٠ كلم تقريبا داخل سيناء ، والاغارة الاخرى التي تمت عند ممر متلا العمليتين الوحيدتين للمدرعات المصرية في العمق العملياتي للعدو خلال الحرب . ذلك لان حشود الدبابات والعربات المدرعة (قدرت بنحو ٥٠٠ دبابة في اليوم الاول وكانت تابعة لفرق المشاة والالوية المدرعة المستقلة) التي عبرت القناة طوال الفترة من ٧ الى ١٣/١٠/٧٣ عملت على تعزيز رؤوس الجسور وربطها ببعض على طول القناة والمشاركة في صد هجمات المدرعات الاسرائيلية من وراء حاجز الصواريخ والاسلحة المضادة للدبابات الذي كانت تقيمه المشاة المصرية في النسق الدفاعي الاول ، ولم تدخل في معارك تصادمية خلال هذه الفترة مع المدرعات الاسرائيلية او تحاول الزحف في العمق داخل سيناء لتطوير الهجوم بعيدا عن راس الجسور البالغ عمقه ١٠ ــ ١٢ كلم ، وذلك وفقا للاستراتيجية العسكرية العامة الموضوعة في اطار الاستراتيجية العليا للحرب . وبقيت الفرقتان ، ١٢،٤ المدرعتان في الضفة الغربية للقناة كاحتياطي استراتيجي لمواجهة احتمالات حدوث عمليات ابرار جوي معادية على نطاق واسع في مؤخرة القوات المصرية ، او اي تطورات غير متوقعة اخرى ، وذلك حتى يوم ١١/١٠/٧٣ ، وتقدر المراجع الاجنبية هذه القوات المدرعة الاحتياطية بنحو ٥٠٠ دبابة ، كان معظمها محتشدا في قطاع الجيش الثالث على الضفة الغربية للقناة(١٤) .

ونظرا لاشتداد ضغط الهجوم المضاد الاسرائيلي على الجبهة السورية ، قررت القيادة المصرية القيام بعملية هجومية محدودة نسبيا تنفذها القوات المدرعة الميكانيكية بهدف تخفيف الضغط على الجبهة السورية وتعميق شريط الارض المحررة على الضفة الشرقية الى عمق ٣٠ كلم تقريبا حتى المداخل الغربية للممرات ، وبذلك يتم الاستيلاء على الطريق العرضي الموازي للقناة ، الذي كانت القوات الاسرائيلية قد انشاته قبل الحرب لتسهيل مهام تموين حاميات خط بارليف ، والذي كان « يوفر للعدو حرية الحركة

والعمل ضد رؤوس الجسور »(١٥). وقد احاط بقرار القيادة المصرية بالقيام بهذا الهجوم عدة مخاطر من وجهة نظرها كان اهمها « خروج القوات من ستر غطاء صواريخ الدفاع الجوي المتمركزة غرب القناة ، وتعرضها بالتالي لضربات العدو الجوية ، التي لوحظ ازدياد شدتها وكثافتها ابتداء من ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ، بفضل وصول الدعم الامريكي لاسرائيل . كما كانت ضرورة التمسك برؤوس الجسور على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعدم اضعاف القوات الرئيسية الموجودة هناك او في غرب القناة تشكل ضرورة ملحة لانها الضمان الاكيد لعدم فقد القوات المسلحة اتزانها الاستراتيجي او التعبوي في هذه المرحلة الحرجة من المعركة الضارية. ولذلك نصت التوجيهات الصادرة على استخدام مغارز صغيرة الحجم نسبيا ، ولكنها ذات قوة نيران كبيرة ، على ان تكون من خارج التكوين الاصلي لفرق المشاة الخمس التي كان عليها ان تستمر في التمسك برؤوس الجسور »(١٦).

وبدأ الهجوم في الساعة ١٥ر٦ صباح يوم ٧٣/١٠/١٤ برمي تمهيدي مدفعي لمدة ١٥ دقيقة من ٥٠٠ مدفع وقاذف صواريخ كاتيوشا على اربعة محاور تقدم وتقدمت اثر ذلك على محور ممر متلا في الجنوب قوة مكونة من لواء مدرع وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وفي اتجاه ممر الجدي تقدم لواء مشاة ميكانيكي ، وعلى المحور الاوسط تقدم لواءان مدرعان ، وعلى المحور الشمالي تقدم لواء مدرع(١٧). أي أن اجمالي القوة المهاجمة بلغ ٤ الوية مدرعة و ٤ كتائب مشاة ميكانيكية .

وهذا يعني ان غالبية القوة المدرعة المصرية المستقلة عن فرق المشاة الميكانيكية والمحمولة ، والتي تضم فرقتين ولواءين مدرعين ، قد نقلت الى الضفة الشرقية للقناة فيما بين يومي ١١ و١٣/١٠/١٩٧٣ ، أي ان الاحتياطي الاستراتيجي المدرع ضعف كثيرا .

وقد واجهت الهجمات المدرعة والميكانيكية المصرية مقاومة شديدة من الاسلحة المضادة للدبابات التي كانت في انتظارها ، بعد ان طالت الوقفة التعبوية المصرية ، واستخدمت القوات الاسرائيلية المدافعة خلال هذه المعارك صواريخ « تاو » الامريكية الجديدة لاول مرة من مناصب ارضية ومن طائرات هليكوبتر فضلا عن نيران مدافع الدبابات ونيران الدعم الجوي القريب ، على حين كانت المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى توجه نيرانها نحو مواقع بطاريات صواريخ « سام » المضادة للطائرات لتحييدها قدر الامكان اثناء مهاجمة الطائرات الاسرائيلية للمدرعات المهاجمة .

ويبدو أن الدبابات المصرية تكبدت خسائر شديدة خلال هجمات ذلك اليوم ، اذ أن القيادة المصرية اصدرت اوامرها « بعودة المغارز لاعادة تنظيمها وتقويتها ، مع تعديل اوضاع بعض القوات وتدعيمها استعدادا لصد وتدمير الهجمات والضربات المضادة القوية المدرعة التي توقعت القيادة المصرية ان يبدأ العدو شنها خلال يوم ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) »(١٨). ويصف تقرير « التقييم الاستراتيجي » البريطاني معارك هذا اليوم فيقول « وفي هذه المعارك التي اشتركت فيها مئات الدبابات تحملت اسرائيل هي الاخرى خسائر فادحة ، ولكن طائراتها بعد ان اصبحت بعيدة عن متناول ضربات صواريخ سام ، اخذت تهاجم الحد الامامي من ساحة القتال بفاعلية كبيرة » (١٩).

وفي صباح اليوم التالي استأنفت القوات المصرية هجماتها بعد هجمات جوية حاولت تدمير مواقع الصواريخ المضادة للدبابات ، الا ان نتائج الهجمات الجديدة كانت سلبية. وهكذا انتهت المرحلة الهجومية من عمليات المدرعات المصرية وبدأت مرحلة الدفاع .

أما المدرعات الاسرائيلية فيمكن تلخيص دورها وعملياتها خلال هذه المرحلة كالاتي :

منذ الساعات الاولى للقتال حاولت الدبابات الاسرائيلية ، المرابطة في مواقع محفورة تبعد مسافه ٥ الى ٨ كلم من خط بارليف ، التقدم في محاولات لصد وحدات المشاه المصرية التي عبرت القناه واخذت تهاجم حصون بارليف بعد ان احاطت بها من كل جانب ، ثم في محاولات اخرى لانقاذ من بقي حيا من جنود هذه الحصون، ولكنها في كل مرة كانت تتعرض لكمائن « الار بي جي — ٧ » المتمركزه على الضفة الشرقية وصليات صواريخ « ساغر » من الضفه الغربية للقناة . وتكبدت نتيجة لذلك خسائر فادحة اشار اليها مؤلفو كتاب « التقصير » في عديد من المواضع حيث قالوا « ان نحو مائة دبابة كانت تخوض قتالا فعليا على امتداد الخط الامامي ، في محاولات يائسه لانقاذ المحاصرين في التحصينات . واتضح للقيادة في وقت لاحق ان ثمن محاولات الانقاذ هذه باهظ جدا . فقد خلف الجيش الاسرائيلي عندما حاول اختراق طوق الحصار المضروب على أحد التحصينات ، نحو ٤٠ دبابه وناقلة جنود مصفحه ، كما اصيبت قوة أكبر في محاولة انقاذ نحو ٣٠ مقاتلا محاصرين »(١٠) .ويقول الكاتب الامريكي «كنث برور» انه في « نهاية بعد ظهر يوم ٧ اكتوبر ، لم يكن لدى اسرائيل سوى ٩٠ دبابة عاملة من اصل ٢٥٠ دبابة كانت لديها ، وهذه الدبابات كانت هي الاخرى مصابة بشدة ، وأطقمها من الرجال المتعبين . وكان امام مصر خياران . اما ان تقوم باندفاع سريع لتحطم السيطرة الاسرائيلية على ممرات سيناء الاربعة الحيوية التي تبعد ٢٠ ميلا عن القناة ، أو أن تقف مكانها وتعزز راس جسرها . وقد اختارت الحل الاخير ، الذي يعد اقترابا اكثر حذرا »(٢١).

ثم بدأت تشكيلات الاحتياطي المدرع تصل الى سيناء ، وقد تعرض بعضها لكمائن وحدات الصاعقة التي نقلتها طائرات الهليكوبتر الى عمق سيناء عند الممرات في ليلة ٦/٧ وتكبدت بعض الخسائر نتيجة قذائف « الآر بي جي ٧ » ، وفي صباح يوم الاثنين ٨/١٠/٧٣ تلقت هذه التشكيلات امرا من القيادة الجنوبية بالقيام بهجوم مضاد بهدف « السيطرة على الجسور العائمة التي اقامها المصريون ونقل قوات اسرائيلية مدرعة عليها الى الضفة الغربية »(٢٢) ويعلق مؤلفو « التقصير » على هذا الهجوم قائلين « وارسلت الدبابات ... ودون معرفة العدو ، للهجوم كمن « يناطح الحائط » . ويبدو أن القيادة قدرت ان هذا بمثابة « اليوم السابع من حرب الايام الستة » . فقد اشترك الكثير من القادة في حرب الايام الستة ، واعتقدوا انه « تكفي خبطة على صفيحة لتطير العصافير مذعورة » . وعلى الرغم من أن اول يومين ، كانا مريرين وتم فيهما سحق قوات كبيرة ، فانهما لم يكونا كافيين ، كما يبدو ، للتوضيح بأن هذه الحرب تختلف كليا . وقد اصطدمت الدبابات المهاجمة بفرق المشاة المسلحة بالصواريخ ، والى جانبها الدبابات وناقلات الجنود المصفحة بكثرة ، تساعدها المدفعية من كافة الانواع ، والتي لم تتوقف عن القصف طوال ساعات اليوم . وقد وجد الرجال انفسهم يهاجمون كتائب عصرية . تمركز المصريون كتلا كتلا حيث كان جنودهم مزودين بالصواريخ تحميهم وحدات من الرشاشات والدبابات »(٢٣).

وقد توغلت احدى الوحدات المدرعة الاسرائيلية حتى وصلت الى قرب القناة واحترقت ٨ دبابات منها فوق المصاطب الترابية على الضفة الشرقية التي كانت معدة من قبل كي ترمي الدبابات من فوقها القوات المصرية على الضفة الغربية ، « وتلقت عشرات الدبابات قذائف صواريخ « ساغر » وبدأت تشتعل وهي تنسحب . ولوحظت دلائل واضحة على انهيار الهجوم المضاد . فقد انسحبت دبابات ، بصورة غير نظامية، ونفذت الذخيرة ... وكانت المنطقة كلها مغطاة بقذائف المدفعية والكاتيوشا والهاونات ... واستمر « قنص المشاة المصريين للدبابات بصواريخ « ساغر » »(٢٤).

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٩/١٠/٧٣ قسام اللـواء ١٩٠ المدرع الاسرائيلي بهجوم على مواقع الفرقة الثانية المشاه بقيادة العميد « حسن أبو سعده » التابعة للجيش الثاني على المحور الاوسط (كان الجيش الثاني يضـم ٣ فرق مشـاة ويعمل في القطاع الاوسط الواقع بين شمال البحيرات المرة عند « الدفرسوار » حتى القنطرة شمالا وهي من الجنوب الى الشمال الفرق ١٦ ، ٢ ، ١٨) وقد وقع اللـواء المدرع المذكور في كمين ضخم من جنود المشاة المخندقين في حفر صغيرة اطلقوا منهـا قذائف « الآر بي جي ٧ » وصواريخ « ساغر » من مسافات قريبة عـلى الدبابـات الاسرائيلية المتقدمة بأقصى سرعة (دون تمهيد من المدفعية) ، وترتـب على ذلـك « تدمير ٨٣ دبابة في ٣ دقائق »(٢٥) ؛ وهو انجاز عسكري في الدفاع المضاد للدبـابات لم يسبق له مثيل في التاريخ العسكري كله .

كما صد الجيش الثالث (الذي كان يضم وقتئذ فرقتي المشاة ١٧ ، ١٩ ويعمـل في القطاع الممتد من جنوب البحيرات المرة حتى السويس) هجمات مضادة اخرى شنتها قوة مؤلفة من لواء مدرع وكتيبتي دبابات ، وكبدتها خسائر فادحة . « وادركت القيادة العسكرية العليا للجيش الاسرائيلي بأن الهجمـات المضـادة ستبقى تسبب سحـق الدبابات الاسرائيلية فقط . دون ان تؤدي الى النتائج المرجوة ، وعندئذ اعطيت الاوامر بالتمركز في منطقة تبعد ١٠ — ١٥ كلم عن القناة »(٢٦).

وازاء الحاح الجنرال « شارون » بضرورة الاسراع في هجوم مضاد اخر اعطيـت اوامر بالقيام بهجمات محلية صغيرة مع البقاء في المكان نفسه والتحرك يمينا ويسارا ، وفي تلك المعارك الصغيرة اشتبكت مرارا ٥٠ دبابة و ١٠٠ دبابة احيانا مع اعـداد مقابلة من الدبابات المصرية « ودارت المعارك احيانا ضمن مدى احتكـاك فوهـات المدافع . لقد بقيت في ارض المعركة دبابات محروقة من كلا الطرفين ، على بعد — ١٠ — ٥٠ مترا » ... « وكانت هذه الحرب الاولى التي تراجعت فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء ، وبقيت دبابات في أرض العدو ، وفي داخلها قتلى وجرحى ، دون أن يكون في الامكان انقاذهم ، واصيبت اخرى بالصواريخ واشتعلت ، وقتل افراد الطاقم الذين قفزوا من داخلها او وقعوا في أيدي المشاة المصريين المهاجمين »(٢٧).

وهكذا أدى تطبيق تكتيك « الفرسان الخفيفة » الـذي تعـودت عليه المدرعـات الاسرائيلية الى فشل ذريع في سلسلة الهجمات المعاكسة الاولى نتج عنه تدمير واصابة نحو ٤٠٠ دبابة خلال الاربعة ايام الاولى من القتال ، ولكن الاستراتيجية العسكريـة المصرية ، المقيدة باعتبارات الخطة العامة الموضوعة مسبقـا ، لم تستثمـر هـذه النجاحات التكتيكية الضخمة ، ولم تطور هجوم مدرعاتها بسرعة لتصفية بقايا الالوية المدرعة الاسرائيلية المنهكة ، وآثرت التريث لتعزيز رؤوس الجسور وربطها ببعضها .

الهجوم الاسرائيلي المضاد : ونتيجة للموقف المصري أمكن للقيادة الاسرائيلية أن تحشد مزيدا من قوات الاحتياطي وتعيد تنظيم وتسليح الالوية التي أصيبت بخسائر فادحة بحيث أصبح لديها يوم ١٥/١٠ نحو ٦ الوية مدرعة ، ولواءان ميكانيكيان ، ولواء مشاة ، وبعض الكتائب المستقلة من الدبابات والمشاة والمدفعية ، وساعدها على ذلك بدء وصول الاسلحة الامريكية الجديدة بواسطة طائرات النقـل الضخمة التي كانت بعضها تفرغ حمولتها في مطار العريش مباشرة . ولذلك واجه الهجوم المصري الذي جرى يوم ١٤/١٠ قوات قوية متأهبة لصده والانتقال مباشرة الى مرحلـة الهجوم المضاد ، ولما كانت الخبرة الجديدة قد أثبتت ان « كلا من الطرفين غير قادر على اختراق الدفاعات المنظمة بواسطة الدبابات، حتى لو استخدمت أعداد ضخمة للغاية منها »(٢٨) فقد عمدت القيادة الاسرائيلية الى محاولة تطبيق استراتيجيتها المفضلة في « الاقتراب

غير المباشر » بعد أن قاتلت في الايام الاولى معارك جبهية مباشرة ، واستفادت من وجود ثغره واسعة بين الجيشين الثاني والثالث على امتداد الضفة الشرقية للبحيرات المره غير الصالحة لعبور قوات كبيرة ، ومن امتداد المواقع الدفاعية المصرية مسافات كبيرة من الشمال الى الجنوب على الضفه الشرقية للقناة (البالغ طولها نحو ١٧٥ كلم ، منها ١٠ كلم في الشمال لا تصلح للقتال لوجود سبخات واسعة تستحيل معها حركة الاليات) بصورة لا يتوفر لها فيه عمق كاف يسهل حركة القوات المدرعة والميكانيكية ومناورتها ، كما انها لا ترتكز على مرتفعات أو موانع طبيعية مساعدة ، الامر الذي أتاح للقياده الاسرائيلية حرية الحركة والمناورة واختيار نقاط تركيز قوتها الضاربة بمرونة ، خاصة وان الطريق الموازي للقناة وشبكة الطرق المكملة له كانت تسهل لها ذلك .

واعدت خطة عملياتها التي أطلق عليها اسم « الغزالة » واستهدفت النفاذ من هذه الثغرة وعبور القناة شمال البحيرات المرة مباشرة في مواجهة « الدفرسوار » ، من خلال حركة التفاف حول جناح الجيش الثاني الايمن ، بعد تثبيت قواته على المحور الاوسط بهجوم مخادع من اتجاه الطاسة نحو الاسماعيلية ، ودفع قوة أخرى تهاجم الجناح الايمن بالمواجهة لتشق طريقها نحو القوة الملتفة حوله ومن ثم تدعم رأس الجسر على الضفة الغربية للقناة وتقيم جسورا عائمة تعبر عليها المدرعات بحشود قوية . وكان هدف القوة التي ستعبر القناة في بداية العملية (أي قبل استكمال فتح محور التقدم نحو نقطة العبور خلال الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة المصرية) هو تدمير أكبر عدد ممكن من بطاريات الصواريخ « سام » على الضفة الغربية للقنـــاة لفتح ممر تنفذ منـــه الطائرات الاسرائيلية .

وقد عهدت القيادة الجنوبية لمجموعة « شارون » القتالية القيام بفتح هذه الثغرة واقامة رأس الجسر على الضفة الغربية ، ثم تعبر من خلالهـــا مجموعة « بيرن » المدرعة لتزحف جنوبا نحو السويس لتطويق الجيش الثالث شرقي القناة .

وكانت فرقة « شارون » مؤلفة من ٣ ألوية مدرعة ، ولواء مشاة ميكانيكي يضم قوة كبيرة من المظليين ، بالاضافة الى وحدة خاصة من المهندسين لديهـــا معديات آليـــة ومعدات لبناء جسور عائمة وبولدوزرات قوية لازالة الاتربة(٢٩) .

وبدأ تنفيذ العملية بهجوم احد الالوية المدرعة من منطقة تجمعه قرب « الطاسة » على المحور الاوسط تجاه « الاسماعيلية » لمشاغلة الفرقة ٢١ المدرعة المصرية ، وذلك عند غروب شمس يوم ١٥/١٠ ، وبعد الغروب قام اللواء المدرع الثاني ومعه لواء المشاة الى الجنوب الى الثغرة الواقعة بين الجيشين الثاني والثالث والبالغ عرضها نحو ٣٠ كلم حتى وصل الى المدخل الجنوبي للبحيرات المرة تقريبا ثم اتجه شمالا حتى نهاية البحيرات والتقائها بالقناة ، وهناك انقسمت القوة الاسرائيلية الى ثلاثة اقسام ، قسم اتجه شمالا لمنع تدخل القوات المصرية الموجودة عند الاسماعيليـــة ضد رأس الجسر ، وقسم اتجه شرقا نحو مؤخرة الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة (وكـــانت بقيادة العميد عبد رب النبي حافظ) المؤلفة من لواء مشاة واحد كان يتعرض في الوقت نفسه لهجوم اللواء المدرع الثالث الزاحف غربا ، وقســـم ثالث (صحبه « شـارون » نفسه) اتجه غربا الى القناة حيث عبر جزءا صغيرا منه الى الضفة الغربية (عبر نقطة ضعيفة في الحاجز الترابي كان « شارون » قد حددها بعلامات معينة من الحجارة اثناء توليه القيادة الجنوبية) وكان هذا الجزء الطليعي مؤلفا من نحو سرية مظليين تستخدم ١٠ مجنزرات « م ١١٣ » (لها قدرات برمائية) وسرية دبابات برمائية تضم ٧ دبابات « ب ت ٧٦ »(٣٠) (كانت قد غنمت عام ١٩٦٧) وتم العبور حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وبعد أن أطلقت المدفعية الاسرائيلية خلال الساعتين السابقتين نحو

٧٠ طنا من القذائف على المنطقة المحددة للعبور ، والتي تبعد نحو ٢٠٠ متر شمالي النقطة التي يتصل فيها مجرى قناة السويس بالبحيرات المرة ، ولم تواجه القوة العابرة التي استخدمت قوارب مطاط في البداية ، قوات مصرية على ضفة القناة الغربية ، ولذلك تسللت الى داخل الحقول وأشجار البرتقال الموجودة هناك ، بعد أن أزالت بعض الالغام المقامة قرب الحاجز الترابي المقام على مقربة من القناة ، وتخندقت بسرعة هناك لتحتمي من قذائف القصف المدفعي والجوي المصري المتوقع ، وفي الوقت نفسه كانت البولدوزرات المجهزة بجرافات تعمل لازالة الاتربة على الضفة الشرقيـــة تمهيدا لمد الجسر العائم ، ثم أخذت المعديات تنقل الدبابات في فجـــر يوم ١٠/١٦ الى الضفة الغربية حيث تسرع بالاختفاء بين الاشجار . وفي الوقت نفسه كان هجوم اللواء المدرع الآخر الموجه ضد الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة يصادف مقاومة عنيفة للغاية تحول دون فتح محور التقدم المؤدي الى نقطة العبور « وقد استمرت المعركة في هذا القطاع ، حول المواقع المصرية التي كانت تسيطر على المحاور ، ثلاثة أيـــام متتالية . وكانت أصعب المعارك بصورة خاصة تلك التي جرت حول الموقع الذي عرف باسم « المزرعة الصينية » ... وقد دارت في وقت ما وفي مراحل معينة من القتال ، معارك دبابات داخله ، حيث وقفت الدبابات على مسافة ١٠ أمتار من بعضها بعضا ... وقد تراجعت القوة المدرعة التي انقضت على « المزرعة الصينية » وهي تتكبد خسائر فادحة »(٢١).

ومنذ صباح يوم ١٠/١٦ أخذت المدفعية المصريـــة تقصف مكـــان رأس الجسر الاسرائيلي والمحاور المؤدية اليه بمئات الاطنان من القذائف ، وفي هذه الاثناء اخذت الدبابات الاسرائيلية الموجودة في الضفة الغربية تهاجم بمجموعات صغيرة ، وبأسلوب مشابه لاسلوب حرب لعصابات في الضرب السريع والهرب ، بطاريات صواريخ سام ٢ ، ٣ مدمرة بعضها ومجبرة جنود بعضها الآخر على الانسحاب منها بعد نسفها . وبعد ٤٨ ساعة من القتال عند « المزرعة الصينية » أحضرت قوة من مشاة المظليين لتحاول احتلال المواقع الدفاعية المصرية الموجودة بها التي توجد بها سريتان من المشاة مزودتين بالصواريخ وفصيلتين من الدبابات و١٠ رشاشات « غورينوف » ، ولكـــن « النيران اجبرت المظليين على التزام الارض ولم تمكنهم من الانقضاض ، أو حتى من التراجع ... وبعد بزوغ الفجر كان من الواضح انه ينبغي ارسال قوة مدرعة بصورة عاجلة ، لانقاذ قوة المظليين المصابة والمضروبة ... وبدأت القوة المدرعة تنقض على المواقع المصرية ، وهي تتكبد الخسائر من النيران المضادة للدبابات ... واستطاعت القوات المدرعة الاضافية التي دفعت الى المزرعة الصينية ، بعد معركة دامية ، تطهير الموقع ، الذي أصبح واديا رهيبا لقتل البشر وافناء الآليات »(٢٢) وهكذا فتحت محاور التقدم يوم ١٠/١٩ بعد أن أمكن دفع لواء المشاة المصري نحو ١٠ كلم الى الشمال ، وتم بذلك تأمين جناحي الثغرة على الضفة الشرقية ، خاصة بعـــد أن صدت بعض هجمات الجيش الثالث من الجنوب ، وأمكن لفرقة « ابراهام ادن » (بيرن) المؤلفة من ٣ ألوية مدرعة لديها نحو ٣٠٠ دبابة أن تعبر القناة الى الضفة المذكورة ، تحت حماية الطائرات الاسرائيلية التي امتلكت أخيرا حرية الحركة ، وتوسع رأس الجسر شمالا وجنوبا وغربا ، وفشلت محاولات المدفعية والطيران المصريين في تصفيتها رغم عنفها (نظرا لان طبيعة المنطقة ساعدت على اخفاء تحركاتها) كما فشلت الضربات المعاكسة الجزئية التي وجهت اليها بواسطة وحدات الفرقة الرابعة المدرعة (التي لم تكن قد عبرت القناة بعد) في تصفية هذه القوة ، وان كانت قد حدت من توسيع رقعة الثغرة شمالا ، وقد لعب استخدام الطائـــرات الاسرائيلية النفاثـــة والهليكوبتر المسلحـــة بالصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من أنواع « تاو » و« مافريك » وغيرها دورا هاما في تدمير عديد من الدبابات المصرية خلال هذه الفترة ، كما ساعد وصول كميات جديدة

من دبابات « م ــ ٦٠ » الى القوات الاسرائيلية بواسطة الجسر الجوي الامريكي الى مطار العريش على تحمل هذه القوات الخسائر الفادحة ودفع مزيد مـــن التشكيلات المدرعة الى ساحة المعركة الطاحنة، مما شكل أحد العوامل الرئيسية في فشل الهجمات المضادة المصرية على الضفة الشرقية يوم ١٠/١٧ ، نظـــرا لان العدو الاسرائيلي استخدم خلال هذه الفترة نتيجة لهذا الدعم الامريكي نحو ١٢٠٠ دبابة(٣٣). ولم تعرف بالضبط خسائر الدبابات الاسرائيلية خلال هذه المرحلة نظرا لان الدبابات المصابة بقي معظمها في الارض التي تحت سيطرة القوات الاسرائيلية . ويبدو أن السبب الرئيسي في نجاح الهجوم المضاد الاسرائيلي كان يكمن في ضعف الاحتياطي الاستراتيجي المدرع غرب القناة وامتلاك الطائرات حرية الحركة بعد أن فتحت لها الدبابات الطريق. وهكذا أدى كسر جدار الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات عبر ثغرة «الدفرسوار» الى امتلاك المدرعات الاسرائيلية حرية المناورة والحركة السريعة (ولكنها كانت هذه المرة تعمل بصحبة المشاة الميكانيكية) ، وتنفيذ عملية الاقتراب غير المباشر ضد مؤخرة الجيش الثالث في حمى قرار وقف اطلاق النار الصادر يوم ١٠/٢٢ وما صاحبه من هبوط معنوي لدى القوات المصرية ، وفي ظل ضعف قوة المدرعات المصرية وعدم اتقانها حرب الحركة المضادة ، خاصة مع عدم سيطرة الطيران المصري على سماء المعركة ، وفاعلية الصواريخ الموجهة اليها من الطائرات الاسرائيلية .

حرب المدرعات على الجبهة السورية : بدأ الهجوم السوري في هضبة الجولان برمي مدفعي تمهيدي اشترك فيه نحو ١٠٠٠ مدفع ، واستمر حوالي نصف ساعة مستهدفا المواقع الدفاعية الاسرائيلية الواقع معظمها وراء خندق عميق مضاد للدبابات، وللطرق ومفارقها ، ومراكز القيادات ، والمستعمرات الدفاعية المقامة في الهضبة عقب حرب ١٩٦٧ ، وصاحب القصف المدفعي قصف جوي مركز للقيـــادات الامامية ومراكـــز الاتصالات ، وهجوم مفاجيء بالقوات المحمولة جوا بطائرات هليكوبتر لمرصـــد جبل الشيخ المشرف على الهضبة كلها والذي يعد نقطة مراقبة ممتازة للمدفعية والطيران أيضا . وبعد ذلك تقدمت الدبابات التي تحمل جسورا وأخرى مجهزة بجرافات وأخذت تردم الخندق المضاد للدبابات وتعد معابر عليه تحت النيران المضادة للدبابات التي تطلقها المواقع الاسرائيلية المحصنة في التلال القريبة .

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كانت حشود دبابات ٣ فرق ميكانيكية وفرقتين مدرعتين تجتاز المواقع الدفاعية الاسرائيلية في نقطتي اختراق أساسيتين ، احداهما كانت عند القنيطرة متجهة الى الجنوب الغربي تفرعت منها فرقة اخرى الى الشمال من المدينة في حركة كماشة تحيط بها دون أن تصفى المواقع الاسرائيلية الموجودة بها ، والاخرى كانت عند « الرفيد » وتفرعت بعدها الى شعبتين واحدة اتجهت الى الشمال الغربي نحو « خشنية » ، على الطريق المؤدي الى « القنيطرة » من الجنوب ، والاخرى اتجهت جنوبا نحو « العال » ونهر « اليرموك » ، وكان هدف القوة الزاحفة من شمال « القنيطرة » والقوة الاخرى الزاحفة من « الخشنية » الالتقاء في حركة كماشة اخرى عند « كفر نفاخ » الواقعة في منتصف الطريق الرئيسي في الجولان الممتد من «القنيطرة» الى جسر « بنات يعقوب » عند خط حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ وحيث توجد قيادة القوات الاسرائيلية الموجودة في « الجولان » والتي كانت مؤلفة وقتئذ من لواءين مدرعين لديهما نحو ١٧٥ دبابة ، أحدهما في الشمال (وهو اللواء السابع المدرع) والآخر في الجنوب.

وهكذا كان الهجوم السوري هجوما بأسلوب الحرب الخاطفة ، منذ بدايته وحتى نهايته ، اشتركت فيه نحو ٦٠٠ دبابة مباشرة ، تقدمت في حركة سريعة ، قدر ما تسمح به طبيعة ارض الجولان الصخرية ، ملتفة حول المواقع الدفاعية الاسرائيلية مستهدفة

الوصول الى مفارق الطرق ومحاور المواصلات الرئيسية حتى تسيطر عليها قبل ان تصل قوات الاحتياطي الاسرائيلي .

وقد أوقعت الدبابات الاسرائيلية ، المتخندقة في مواقع اطلاق نـــار معدة مسبقا ، بعض الخسائر في الدبابات السورية خلال المرحلة الاولى من الهجـــوم ، خاصة في الاماكن التي كان يجري فيها اجتياز الخندق المضاد للدبابات ، الا أنها اضطرت للتراجع بعد ذلك أو بقيت محصورة مع المواقع الدفاعية التي عزلتها حركات الكماشة السورية، وظلت تشكل مصدر ازعاج للتعزيزات السورية المدرعة اللاحقة ولحركة أرتال المدفعية والتموين وتلحق بها خسائر عدة (خاصة من المواقع الموجودة في التلال الحاكمة مثل تل « ابو الندى » ، وكلها تلال قوية التحصين ومجهزة بأسلحة وصواريخ مضادة للدبابات) ويقول معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني في تقريره عن عام ١٩٧٣ انه « في مواجهة ثقل هجوم المدرعات الضخم ، وفاعلية استخدام المشاة السورية لقواذف « الآر بي جي ٧ » المضادة للدبابات وهم يزحفون عبر الاراضي غير المهدة اكثر من تحركهم على الطرق ، تحملت القوات الاسرائيلية خسائر فادحـــة ، خاصة في الدبابات ، ولذلك اضطرت أن تنسحب من الارض في الوسط وتمسكت بالتلال الواقعة على الاجنحة . وفي صباح الاحد ، ٧ اكتوبر ، كانت القوات السورية الزاحفة جنوبا قد وصلت الى حافة الجرف المطل على نهر الاردن ... وهناك تم ايقافها »(٣٤). وقد نتج عن ذلك تحطيم لواء المدرعات الاسرائيلي المتمركز في الجنوب وقتل قائده « شوام » «Shoam». وفي شمال القنيطرة ، حيث كانت توجد شبكة قوية من الموانع للدبابات وحقول الالغام ، تكبدت الدبابات السورية خسائر كبيرة وكان تقدمها بطيئا . وقـــد ساهم الطيران الاسرائيلي هناك بدور فعال (وكذلك في الجنوب) في صد تقدم الدبابات السورية بعد ظهر يوم ١٠/٦ ، الا ان خسائره (الناتجة عن صواريخ « سام ٦ » المتحركة ومدافع « زد س يو ـــ ٢٣ » الرشاشة الموجهة بالرادار) كانت فادحة للغاية اذ اسقطت له ٣٠ طائرة « سكاي هوك » ونحو ١٠ طائرات « فانتوم »(٣٥).

وبدأ تدفق الاحتياطي المدرع صباح اليوم التالي ، خاصة في القطـــاع الجنوبي ، واستمر الهجوم السوري في الوسط طوال اليوم حتى وصلت طلائعه (بعد أن أدخلت فرقة مدرعة احتياطية كانت مؤلفة من نحو ٣٠٠ دبابة سورية في القطاع المذكور) مساء ذلك اليوم الى مسافة نحو ٧ كم من جسر « بنات يعقوب » ولكنها توقفت هناك بسبب نقص الوقود ، الناتج عن اضطراب حركة الامداد في مؤخرتها بسبب جيوب المقاومة الاسرائيلية ، وبسبب اشتداد هجمات الطيران الذي استخدم النابالم بكثرة . وادى ذلك التقدم الى القضاء على معظم قوة اللواء السابع المدرع الاسرائيلي . الا أن القيادة الاسرائيلية سارعت الى دفع معظم قوات الاحتياطي المدرعة الى هضبة الجولان ، بحيث أصبح لديها في صباح يوم الاثنين ٧٣/١٠/٨ ثلاث مجموعات فرقية «Ugdas» مؤلفة من دبابات « سنتوريون » و« سوبر شيرمان »(٣٦) في مواجهة المدرعات السورية المجهدة والتي كانت قد خسرت نحو نصف قوتها في قتال اليومين السابقين ، وابتعدت عن حماية مظلة الصواريخ ، وباتت تعاني من مشكلات نقص الوقود وعدم ملاحقة المشاة والمدفعية لها بالصورة المطلوبة ، كما ان تركيز الطيران الاسرائيلي على بطاريات صواريخ « سام ٦ » وعلى قصف الاهداف المدنية في « دمشق » أدى الى سحب بعض هذه البطاريات الى هناك واضعاف الدفاع الجوي في الجبهة ، هذا فضلا عن استمرار مقاومة الجيوب الاسرائيلية في التلال الحصينة .

ودار قتال عنيف طوال أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء ٨ و ٩ و ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) بين المدرعات والمشاة السورية والمدرعات والمدفعية والطائرات الاسرائيلية،

قام خلاله السوريون بشن سلسلة من الهجمات المعاكسة استخدموا فيها كميات كبيرة من دبابات « ت ٦٢ » شمال « القنيطرة » فقدوا خلالها نحو ٨٠ دبابة من هذا النوع يوم الثلاثاء ٩/١٠ (٣٧)، كما دارت معارك هجومية سورية أخرى عند « الخشنية » حتى مساء ذلك اليوم ، وبذلك انتهت المرحلة الهجومية السورية بعد أن فقد سلاح المدرعات السوري نحو ٨٠٠ دبابة مدمرة أو مصابة. وأمكن للقوات الاسرائيلية ان ترفع الحصار عن « القنيطرة » مساء يوم الاربعاء ١٠/١٠ وتشرع في التقدم داخل الاراضي السورية في اتجاه « الاحمدية ــ سعسع » صباح يوم ١٠/١١ ، ولكنها واجهت هجوما معاكسا مدرعا من جانب السوريين على طريق « دمشق ــ القنيطرة » ، كان آخر الهجمات الكبيرة السورية ، شغلها حتى نهاية اليوم . واستمرت مجموعتان مدرعتان اسرائيليتان في الهجوم طوال يوم ١٠/١٢ نحو « سعسع » في زحف اتخذ شكل ثلاث شعب متوازية ، ولكن عمق خطوط الدفاع السورية المعدة سلفا ، وعنف مقاومة المشاة والمدفعية ، ووصول لواء مدرع عراقي ، واشتباكه مع المدرعات الاسرائيلية لحماية انسحاب القوات السورية الى مواقع دفاعية قرب « سعسع » (فقد اللواء العراقي نحو ٧٠ دبابة في القتال)(٣٨) أدى الى فشل الهجوم الاسرائيلي وتوقفه تماما يوم ١٠/١٦ . وتحول القتال بعد ذلك الى جبهة ثابتة وأخذ كل طرف يحاول تحسين مواقعه الدفاعية فيها من الناحية التكتيكية بهجمات محدودة متبادلة بواسطة المشاة والمدفعية .

● **الدروس العامة المستفادة في حرب المدرعات** : يقول تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني بصدد تقييمه العام لمعارك حرب ١٩٧٣ العربية ــ الاسرائيلية « لقد قاتل الجنود السوريون والمصريون على السواء بتصميم وعزم خلال الهجمات الاولى ، واستخدموا أسلحتهم بمهارة. وفي الدفاع قاتلوا بعزم موطد وبشكل متماسك. وقد استخدمت الدبابات السورية في هجمات حاشدة جبهية رديئة جعلتها أهدافا سهلة للاسرائيليين ... وفضلا عن ذلك ، كان هناك تعاون ضئيل بين الدبابات والمشاة ، ولذلك كانت الهجمات المدرعة تجري عادة دون مساندة . ويبدو أن المدرعات المصرية كانت أيضا توجه بصورة غير مكترثة في الهجوم ، وفي مجموعات منضمة أيضا ، وكان قادتها غير أكفاء في تنسيق النيران والحركة . وكانت أيضا معاقة في كثير من الاحوال بسبب بعد مدى مدافع الدبابات الاسرائيلية ، ودائما كانت معرضة لهجوم الطيران الاسرائيلي حالما تكون خارج الحماية الجوية »(٣٩).

ويلخص هذا القول الاداء العربي في قتال المدرعات والظروف التي أحاطت وأدت الى نتائجه . ففي الجبهة المصرية قيدت الاستراتيجية العامة الموضوعة للحرب مسبقا حركة المدرعات ولم تؤد الى استثمار قدراتها الكامنة في تطوير الهجوم بسرعة عقب سحق الهجمات المضادة الاسرائيلية الاولى ، الامر الذي ساعد على تركيز القوى الاحتياطية الاسرائيلية في الجبهة السورية ، وأدى عدم وجود احتياطي كافي منها في المكان والوقت المناسبين ، وعدم توفر خبرة سابقة كفؤة في أساليب حرب الحركة السريعة المعتمدة على تعاون المدرعات والمشاة الميكانيكية والطيران ، الى نجاح الهجوم المضاد الاسرائيلي الثاني بمجرد أن كسر جداري الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات في « المزرعة الصينية » و« الدفرسوار » . وفي الجبهة السورية أدى ضعف التعاون بين المشاة والدبابات والدفاع الجوي والطيران ، بالاضافة لمشكلات الامداد والتموين ، وعدم تصفية مراكز المقاومة الاسرائيلية في المؤخرة الى تكبد الدبابات السورية خسائر ضخمة وفقدان الهجوم لقوة اندفاعه واتزانه الاستراتيجي والتعبوي، ومن ثم ضياع المكتسبات التكتيكية للهجوم والاضطرار للتحول الى الدفاع الاستراتيجي،

الامر الذي ساعد أيضا على تحول الضغط الجوي والمدرع الاسرائيلي الـــى جبهة « الدفرسوار » ، ومن ثم فان حجم القوة المدرعة العربية لم يعط أقصى مردود له .

أما سلاح المدرعات الاسرائيلي فقد ثبت له أن أيام « الحرب الخاطفة » قد ولت ، وان الدبابات لا تجابه الدبابات دائما وان هناك حالات تضطر فيها للقتال ضد مشاة جيدي التسليح والتدريب ، وانه صار على الدبابات ان تفتح الطريق للطائرات وتدفع ثمنا باهظا في سبيل ذلك ، وباختصار تحتم عليه أن يدرك أن الحرب مع العرب اصبحت من الآن حربا حقيقية .

---

١ — IISS, *The Military Balance 1973-1974*, p. 31

٢ — IISS, *Strategic Survey 1973*, p. 26

٣ — **المرجع السابق** ، ص ٢٦ .

٤ — **المرجع السابق** ، ص ١٧ .

٥ — *The Military Balance 1973-1974*, p. 33

٦ — Brower Kenneth; «Armor in the October War», *Armor*, May-June 1974, p. 10, 11

٧ — *Insight on The Middle East War*, London, Ad, 1974, p. 239

٨ — *Armies and Weapons*, The Chosen Tanks, Year III - No 11, 1974, p. 52

٩ — Orgill Douglas; *The Tank*, London, Heinemann, 1970, p. 256, 257

١٠ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٤ ، نشرة م.د.ف. — عدد ١٩٧٣/١١/٢٦ — ص ٦٩٠ ، ٦٩١ .

١١ — غوديريان ، هاينز ، الجنرال — **قائـــد البانزر** — الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٥ .

١٢ — البدري ، حسن والمجذوب ، طه وزهدي ، ضياء الدين ، **حرب رمضان** ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٠٦ .

١٣ — *Insight on the Middle East War*, p. 68

١٤ — *Strategic Survey 1973*, p. 22

١٥ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٤٦ .

١٦ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٧ .

١٧ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٧ .

١٨ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٨ .

١٩ — *Strategic Survey 1973*, p. 22

٢٠ — يشعياهو بن — غورات وآخرون، **التقصير**، ترجمة م.د.ف ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٩٦ .

٢١ — Brower Kenneth, *op. cit.*, p. 13

٢٢ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٢٣ — **المرجع السابق** ، ص ١٠٨ .

٢٤ — **المرجع السابق** ، ص ١١٠ .

٢٥ — Armies and Weapons, *op. cit.*, p. 52

٢٦ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

٢٧ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

٢٨ — *Strategic Survey 1973*, p. 54

٢٩ — *Insight on The Middle East War*, p. 159

٣٠ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٥٨ .

٣١ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

٣٢ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

٣٣ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٥٦ .

٣٤ — *Strategic Survey 1973*, p. 11

٣٥ — *Insight on The Middle East War*, p. 83

٣٦ — Brower Kenneth, *op. cit.*, p. 12

٣٧ — *Insight on The Middle East War*, p. 103

٣٨ — **المرجع السابق** ، ص ١٥٥ .

٣٩ — *Strategic Survey*, p. 25, 26

عودة الى الوحدة العربية

الدكتور أسعد عبد الرحمن
و
الدكتور هاني فارس

تواجه الامم قدرا كبيرا من تحليل الذات وامتحان الضمير في اعقاب الازمات الكبرى. فتخضع الزعماء والقيم والمؤسسات لفحص دقيق شديد وكثيرا ما تصدر أحكامها عليهم استنادا الى معايير طورتها حديثا . ولا يشذ سلوك العالم العربي في الفترة ما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ عن هذه القاعدة العامة ظاهريا .

ويستوقف المرء مقدار الشك الذاتي والنقد الذاتي الذي حصل . حتى ان قلة من أوجه الحياة العربية خرجت سالمة . كما ان الفجوة بين الزعماء والاتباع ، بين الحكام والمحكومين ، اتسعت الى حد بات من الصعب معه تصور كيف يمكن سدها . وكان الاتجاه في السياسة العربية هو نزع الشرعية عن الانظمة العربية . ونادرا ما كان بامكان أي من رجال الفكر العرب ان يدافع او حتى يسوغ الوضع القائم بضمير حي . وصار الليبراليون والمحافظون فئتين سياسيتين تخطاهما الزمن وكان يحل بسرعة مكان عقائدييهما راديكاليون من النوع الثوري والمتشدد. وستكشف دراسة مسحية للكتابات السياسية في الفترة ما بين الحربين عن استقطاب شديد لوجهات النظر .

وأدت النكسات والاخفاقات المتكررة في تحقيق الاهداف الوطنية المرومة ، والتي فاقتها جميعا هزيمة عام ١٩٦٧ المذلة ، الى فحص واعادة تقييم القضايا الوطنية الاساسية . وكانت القضية الاساسية التي تأذت اثناء ذلك هي قضية الوحدة . وبرز في هذا النطاق موقف ثلاثي : التحرر من الوهم ، الفصل ، والازاحة . وفقدت عدة حركات قومية عربية عنيدة ايمانها في عملية خططها وانكفأ العديد من العناصر التي كانت في السابق قومية متورطة ونشطة الى حياة غير سياسية . غير ان التطور الاهم والاكثر دلالة في الفترة ما بين حرب عام ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ كان التغير العام في تحديد الاولويات الوطنية الذي حصل . فزوال الوهم والفصل فرضا الازاحة. وتحولت الخطط والدوافع والآمال في الهدف الاولي لتوحيد العالم العربي تحت منظمة سياسية واحدة الى أهداف ثانوية ، محلية بالدرجة الاولى . وسيطرت الاقليمية المحلية في فترة ما بين الحربين . وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة كتب امين محمود العالم ، وهو منظر ماركسي مصري بارز :

« ظهرت الرغبة بالعزلة او الاعتزال التي أبرزت عند بعض الكتاب في مختلف البلدان العربية شعورا بالاقليمية معاديا للشعور الوحدوي السابق ، كانت نتيجة طبيعية للشعور بأن المشاركة الحقيقية التي تتطلبها الوحدة تفترض حلولا جذرية

---

* فصل من كتاب يجري طبعه في الولايات المتحدة بعنوان **الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة** ، تحرير الدكتور نصير عاروري ويشترك في كتابته كثيرون من الكتاب والمفكرين العرب . ويجري نشره من قبل جامعة الكويت وجمعية الخريجين العرب في اميركا .

للمشاكل ، السياسية خاصة ، التي يتخبط فيها العالم العربـــي . وان الخيبة ، أو الخيبات المتكررة في الوصول الى هذه المشاركة الحقيقية دفعت الى اتجاهات سياسية اقليمية ، تستطيع ان تكتفي بانصاف الحلول ، وبانتصارات او مرابح جزئية . . . »(١) .

ويبدو ان الحرب العربية ــ الاسرائيلية الرابعة لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ قد أوقفت ، ان لم تعكس ، العملية الآنفة الذكر . وبين أخطر مضاعفات الحرب بالنسبة للعالم العربي هو السؤال الذي أثارته فيما يتعلق باحتمالات الوحدة . ويرحب معظم الزعماء السياسيين وعدد كبير من رجال الفكر بالحرب الآن بوصفها بشير عهد جديد من وحدة الصف والهدف(٢) . ويصار تكرارا الى تأكيد ان العلائق بين العرب قد تحولت تحويلا جذريا وان امكانية العمل العربي المشترك لا حد لها . وبالنظر الى الصورة الكئيبة عن الوحدة التي كانت سائدة قبل الحرب ، لا بد من طرح السؤال : كيف ولماذا أثرت الحرب في التفاؤل السائد الآن ؟

يحار مراقب سياسة الشرق الاوسط في تفسير تضامن الانظمة العربية الذي ظهر في تشرين الاول (اكتوبر) والايام اللاحقة له . فقد أخذ الجانب العربي زمام المبادرة لاول مرة في العقدين ونصف العقد من الصراع مع اسرائيل ، على الرغم من شقاق العرب الموهن ظاهريا . فشنوا جهدا مدروسا وحسن التنسيق على جبهتين لمنازلة اسرائيل عسكريا وانتزاع الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . وللحال ، تدفقت المساعدات العسكرية والمالية على الجيشين العربيين المقاتلين من البلدان المجاورة . وبدلا من التهديدات المطنبة الشهيرة سابقا والتي لم تنفذ ابدا ، ومن الوعود بمعونة لم تقدم قط ، ارسلت الانظمة العربية القوات لاداء الواجب على خط الجبهة . واشتركت في المجهود الحربي العراق والكويت وليبيا والعربية السعودية والجزائر والمغرب . واجتمع الموفدون العرب أيضا ، لدراسة سياسات مشتركة . وكان أبرز قرار اتخذوه هـو قرارهم لاستخدام اقوى سلاح في مستودعهم ، أي النفط . وفي محاولة للضغط على أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة واجبارها على اتخاذ موقف حيادي ان لم يكن وديا ، جرى خفض انتاج النفط بشكل حاد ، وشرع في مقاطعة نفطيـة للولايات المتحـدة وهولندا . وكان الكثيرون ، وبخاصة الدوائر الغربية ، قد حذفوا من الحساب احتمال قيام سياسة عربية مشتركة في حقل النفط ، فكان ان أدى نجاح وزراء النفط العرب في الاتفاق على الوسائل والاهداف في اجتماعهم بالكويت الى تعزيز صورتهم في الخارج ورفع معنويات شعوبهم . وأخيرا ، كانت التحويلات المالية الضخمة التي ساعدت بها البلدان الغنية بالنفط سوريا ومصر مجالا آخر عبر فيه التضامن العربي عن نفسه بشكل فعال . وكان الشعور السائد هو أن العرب ، للمرة الاولى في تاريخهم الحديث ، استطاعوا أن يواجهوا اسرائيل وحليفاتها متحدين .

وكان التعاون بين الانظمة العربية باعثا على طـرح سؤال رئيسي : هل أشـار التضامن العربي الى طريق جديد للوحدة العربية ؟ هل هو اظهار لوحدة ، غير رسمية وغير معلنة ، تسود في العالم العربي اللاحق لحرب تشرين (اكتوبر) ام انه مرحلة عابرة اكثر ستعود الخاصيات المحلية بعدها الى تأكيد ذاتها ؟ وان شئنا التعبير بشكل مختلف ، هل زادت حرب تشرين (اكتوبر) الفرص للوحدة العربية وادخلت وجوها جديدة على نوع العلاقات بين الانظمة العربية وطبيعتها ؟

يعرض التراث السياسي لربع القرن السابق سبلا مختلفة الى الوحدة العربية . هذه السبل ستحدد وتقيم أولا وسيدرس اسهام حرب تشرين (اكتوبر) في ايجـاد هذه السبل . وستبحث من ثم البيئة الاجتماعية العربية في وقت الحرب من حيث الخلفية والقضايا . وأخيرا تختم الدراسة في محاولة لتقرير ما اذا كانت الحرب قد حسنت الفرص للوحدة أم لا ، واذا كانت قد حسنتها ، لماذا وبأية شروط .

١ ــ السبل الى الوحدة العربية :

تظهر في التاريخ الحديث للعرب أربعة سبل مختلفة الى الوحدة : السبيل التعاقدي، والسبيل المتدرج ، والسبيل الثوري ، والسبيل العملي functionalist . ولكل من هذه السبل مدرسته الفكرية وابطاله الخاصون ودعاته واتباعه ويستشهد باختبارات سياسية معينة لاثبات فعاليته . ومع ان ترتيبا زمنيا ينطبق على هذه السبل ومع انه كان لكل منها ايام عزه الخاصة ، فانها لا تنحصر في مراحل خاصة بها . وهي تستمر في التأثير على المشاريع الوحدوية حتى حينما تكسفها أفكار أقوى منها .

أ) وجهة النظر التعاقدية وتجربة الجامعة العربية :

السبيل الاول رسمي وتعاقدي في نظرته العامة وقد وجد التعبير الرئيسي عنه في تأسيس جامعة الدول العربية . وتعود هذه التجربة الى فترة الطفولة في الحركة القومية وتعكس الصدمات والتناقضات ومواطن الضعف في الفكرة القومية عينها . وكان المقصود من هذه المحاولة الاولى أن تكون شاملة لجميع العرب ، خلافا لمحاولات الوحدة اللاحقة التي كانت دوما جزئية . وكان عليها في ذلك ان تتجاوز مشاعر الحسد والتنافس والتباينات الموجودة آنذاك بين الدول العربية الاصلية السبع المتعاقدة عن طريق اقامة رابطة فضفاضة وتكريس مبدأ سيادة الدولة. وكانت جامعة الدول العربية التي نتجت عن ذلك أبعد ما تكون عن مطالب القوميين ، الذين شعر الكثيرون منهم ان المولود الجديد هو خيانة للآمال الوطنية وتحرك يهدف الى تطويق المطالبات بسياسة قومية تتخطى الدول . صحيح ان اعضاء الجامعة لم يتصوروا انها خطوة نحو وحدة سياسية تامة او جزئية لانهم لم يكونوا راغبين في التخلي عن اي من السلطات التي ورثوها عن الدول الاستعمارية المتراجعة . غير ان الاهتمامات الاقليمية استمرت بواسطة اتجاهات أخرى . واقتضت العاطفة الشعبية والتطورات المهددة في فلسطين والمصالح المشتركة وتشجيع بعض الدول الكبيرة مستوى مــا من التعاون . فكانت الجامعة ، اذن ، نتاج قوتين متنازعتين ، هما العروبة والاقليمية ، تعملان في وضع دولي يؤيد الثانية .

ولم تدعم الجامعة بأية طريقة مباشرة ، بوصفها التجسيد الاول للمشاعر الوحدوية، الاندماجات السياسية الفعلية بين البلدان العربية . وكــان تأثيرها واسهامها غــير مباشرين بشكل تام . وتمكن الاشارة الى اثنين من هذه التأثيرات غير المباشرة . أولا ، ان جمع كل البلدان العربية ضمن اطار تنظيمي واحد قد أعاق الطاقــة الكامنة لنمو اقليمية اكبر في فترة خطيرة من فترات بلوغها النضج السياسي ، وبالتالي ساعد في حفظ الهوية القومية من التبديد . ثانيا ، ان اسهام الجامعة غير المباشر والذي لا يقل أهمية عن التأثير الاول في فرص الوحدة كان في الحقل الوظيفي(٢). فقــد ساعدت المؤتمرات المختلفة ، والوكالات المتخصصة ، والمعاهدات للتعاون الاقليمي وغيرها من النشاطات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية على ارهاف حساسية الاقطار العربية لفوائد التعاون المتبادل وتنسيق السياسات ؛ وبالتالي خفضت مستوى اعتماد كل منها على العالم الخارجي وزادت من اعتمادها على بعضها بعضا . وأعرب عن الرأي نفسه عبد الخالق حسونة ، الامين العام السابق للجامعة ، في خطابــه بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجامعة . قال :

الحقيقة هي ان الجامعة قد مهدت الطريق لوحدة العــرب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . فان ميثاق الجامعة وميثاق الضمان الجماعي العربي ، والمعاهدة الثقافية العربية ، والكثير من الاتفاقات الاقتصادية والمالية التي بلغت اوجها في ابرام الميثاق الاقتصادي بين الدول العربية وفي مشروع مصرف الانماء العربي ،

والسلسلة المتواصلة من المؤتمرات والحلقات الدراسية التي عقدت خلال الثلاث عشرة سنة الماضية ، كل هذه هي الدعائم التي أقيم عليها أساس وحدتنا(٤) .

وتبقى الجامعة المحاولة الاطول ديمومة بين سلسلة من المحاولات التي تهدف الى جمع العالم العربي معا . وكونها عاجزة عن ايقاف الشقاق السياسي يجب ان لا يجعل القومي غافلا عن الفوائد الناشئة عن توفير منتدى عـــام لتبادل الآراء الرسميـــة والسياسات والتنسيق فيما بينها .

اذن ، ان للجامعة بوصفها أحد السبل الى الوحدة ثلاثة معالم مميزة تفسر عمرها المديد وفي الوقت ذاته تجعلها عاجزة كوسيلة للاتحاد السياسي . هذه المعالم هي : شمولية في العضوية ، اعتماد مطلق على طبقة الموظفين الرسميين ، والاسهام في الاهداف السياسية عن طريق الوسائل غير المباشرة للنشاطات الوظيفية .

ب) وجهة النظر التدريجية وتجربة الجمهورية العربية المتحدة :

يبرز السبيل الثاني الى الوحدة في الصراع العقائدي الذي قسم العالم العربي الى تقدميين ومحافظين وأفضى الى الوحدة السياسية بين مصر وسوريا في جمهورية عربية متحدة بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦١ . وخلافا لتجربة الجامعة العربية التي ارتكزت مقدمتها المنطقية على انسجام المصالح والتطلعات بين البلدان العربية ، فان هـــذه المرحلة الجديدة في الحركة القومية وضعت معسكرا عربيا من البلدان العربية ضد معسكر آخر . كما انها تسببت في انقسام متطابق بين الجماهير اجتاز الحدود الوطنية جيئة وذهابا . وأدخلت عناصر جديدة الى الحياة السياسية العربية في هذه المرحلة . وكان بين هذه العناصر نشوء الحركات الجماهيرية ، وادخال العقائد وانتشارها ، واضافة بعد اجتماعي ــ اقتصادي الى القومية . وقد وصف أحد العلماء العـــرب الصراع العقائدي الذي احتـــدم بأنه « الجدل الكبـــير بين القوميين الديناميكيـــين والمتحجرين »(٥) .

بدءا من أواسط الخمسينات ، أخذت الانظمة العربية تنجذب نحو أحد معسكرين اثنين : التقدمي أو المحافظ . وكان المعسكر الاول يتمثل بعداء عام نحو الغرب، وتحرك نحو تعاون أوثق مع الشرق ، وسعي سريع الى التنمية الاجتماعية ــ الاقتصادية ، ورفض للتقاليد والمؤسسات العتيقة ، وتتويج طبقات اجتماعية جديدة ، ولا سيمـــا عناصر تنتمي الى الطبقات الوسطى . وكان المعسكر الآخر أقل ميلا الـــى التغيير ، وحافظ على تعاون وثيق مع البلدان الغربية ، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا ، واســـتمرت تسيطر عليه الطبقات الاجتماعية القوية تقليديـــا ، أي الارستقراطيون والملاكون ، وركز شرعيته على التقاليد . وكانت العضوية في المعسكرين العقائديين مائعة . وبصورة جوهرية ، فان مصر وسوريا والعراق والجزائر ، من جهة ، والعربية السعودية والاردن والمغرب ، من جهة اخرى ، هي البلدان الرئيسية في المعسكرين التقدمي والمحافظ .

يعود منشأ الانقسام بين التقدميين والمحافظين الى حركة ٢٣ يوليو ٥٢ المصريـــة وارتقاء جماعة من الضباط العسكريين الوطنيين ، المناضلين وذوي العقلية الاجتماعية الى مراكز القيادة . وقامت هذه الجماعة للحال بسلسلة من الاجراءات التي قوضت النظام القديم وتحدت السلطة المتبقية لدى انكلترا الاستعمارية . ولم يكن للقيـــادة الجديدة اي اتجاه عقائدي معين يوجه أعمالها في أول الامر وتبنت توجها يشبه أسلوب التجربة والخطأ . الا أن نظام اعتقادات أخذ يتبلور تدريجيا . وكان جمال عبدالناصر هو الذي عبر عنه . وتكثر الروايات عن صعود عبدالناصر الى السلطة وعن فلسفته ،

وليس ثمة حاجة الى تكرارها . غير ان ما ينبغي تأكيده هو سيطرة عبدالناصر على المسرح العربي طوال فترة وجوده في السلطة . وقد حقق عبدالناصر في أوائل حياته السياسية عددا من المآثر التي كسبت له الثناء والاتباع في جميع انحاء العالم العربي. فقد استطاع بأعماله وأقواله أن يسيطر على الجماهير في معظم العواصم العربية وبقي بلا منازع بين الزعماء العرب الآخرين في المواهب السياسية وسحر الزعامة . كما كان لنشاطاته وزن لا يستهان به بفضل وجوده على رأس القطر العربي الاكثر سكانا والاقوى . وبدا كأن الامور في العالم العربي في اواخر الخمسينات واوائل الستينات كانت تحدث ببادرة من عبدالناصر أو كردة فعل لبوادره .

لم تكن أهمية عبدالناصر كشخصية تاريخية تنبع من صفاته الشخصية وحدها . وبالاحرى كان تأثيره ينبثق عن قدرة على التعبير عن آمال وتطلعات نطاق واسع من المجتمع العربي . وجوهريا ، كان عبدالناصر يجسم للجماهير العربية قيادة ديناميكية ومجددة ، ومستعدة لتحدي الوضع القائم الممقوت وتحويله . ولم تكن تبز اصلاحاته الداخلية الا سياساته الخارجية ، التي رفعت كثيرا من اعتباره بين العرب غير المصريين . وكانت الاجراءات المسؤولة عن ارتفاع شعبية عبدالناصر ارتفاعا صاروخيا هي تأميم المؤسسات المالية والتجارية الاجنبية ، وتأميم قناة السويس ، والمعونة التي قدمها للجزائريين في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي ، ورفض الاحلاف العسكرية التي يرعاها الغرب ، وصفقة الاسلحة مع الكتلة الشرقية التي أنهت الحظر الغربي على شحنات الاسلحة الى مصر ومناصرة القضية الفلسطينية . وصار ينظر اليه على انه الزعيم الذي استعاد للعرب كرامتهم وأعاد تأكيد الهوية القومية . وتطلع اليه القوميون على اختلاف الوانهم بوصفه الرجل القادر على انهاء حالة الشقاق وتحقيق أهداف الوحدة العربية العامة .

تحقق أول اتحاد سياسي في تاريخ العرب الحديث في الاول من شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ عندما أعلنت مصر وسوريا عن تأسيس الجمهورية العربية المتحدة . وتم تبني شكل حكم وحدوي له رئيس جمهورية واحد ومجلس امة واحد . وغمرت الجمهورية الجديدة سيادتي الوحدتين العضوين كليا . وكان الشعور هو ان الاتحاد قد جعل سويا ما كان حالة شقاق شاذة . ولم يكن هذا ناشئا عن الهوية المشتركة للسكان فحسب ، بل عن الاستشرافات السياسية المماثلة التي تقاسموها ايضا . فالبيان المصري ــ السوري المشترك (الاول من شباط ــ فبراير عام ١٩٥٨) يعلن : « خرجوا (اي الموفدون المصريون والسوريون) من هذا بالاقتناعات بأن العناصر المساعدة على نجاح اتحاد الجمهوريتين كانت وافرة ، ولا سيما بعدما جعل نضالهما المشترك ــ الذي كان قد قرب احداهما من الاخرى أكثر فأكثر ــ معنى القومية أوضح بكثير ، وأكد على انه كان حركة من أجل التحرر ورد الاعتبار »(٦). وقد دعا السبيل الجديد الى الوحدة الذي أبرزه الاندماج المصري ــ السوري عام ١٩٥٨ الى توجهات عقائدية مشتركة بين المشاركين .

واستقبلت الوحدة المصرية ــ السورية بردود فعل مختلفة . فكانت تتمتع بشعبية غامرة على صعيد الجماهير لكن الطبقة الموسرة والعناصر المحافظة مذهبيا عارضتها معارضة شديدة .

وكان أول تأثير للوحدة على السياسة العربية هو اخافة الانظمة المحافظة وتنبيهها الى الاخطار التي تثيرها والازدياد السريع المفاجيء في المشاعر القومية. وشعر العراق والاردن ، ركنا الكتلة المحافظة في العالم العربي آنذاك ، بأن التطورات تهددهما بالخطر وسارعتا الى الاعلان عن تأليف اتحاد عربي بينهما . وعلى الرغم من هذا التحرك

المضاد ، استمرت الوحدة المصرية ــ السورية تترك أصداءها في جميع انحاء العالم العربي . وكان التأثير الاول هو الحرب الاهلية في لبنان والاضطرابات الواسعة النطاق في الاردن ، التي تبعها انقلاب دراماتيكي في العراق . وبطول صيف عام ١٩٥٨ ، بدا مد الوحدة العربية وكأنه لن ينتكس . وقد وصف مالكولم كير ، في دراسته حول دور العقائد في السياسة العربية ، الحالة آنذاك بأنها حالة تولت فيها حركة الوحدة العربية مقاليد القضاء والقدر . كتب يقول :

« كانت موجة الحماسة التي اجتاحت سوريا في بداية الوحدة، والمتمثلة بالجماهير المظفرة التي استقبلت عبدالناصر في دمشق ، والتي شارك بها على نطاق واسع الرأي العام العربي في البلدان العربية المجاورة ، تعكس اعتقادا بأن الاحوال قد قلبت قلبا كاملا ، وبأن المبادرة في الشرق الاوسط قد انتقلت الى حركة الوحدة العربية الثورية ، وبأن شعوب الدول العربية ستنهض قبل مضي وقت طويل ضد حكامها الطغاة وتنضم للاتحاد . كانت هناك حاسة قدر أجبارية في هذا الموقف ... وبلغت توقعات الوحدة العربية أوجها مع الثورة في لبنان ضد حكومة الرئيس شمعون التي ابتدأت في ايار (مايو) ، ثم مع الثورة العراقية في الرابع عشر من تموز (يوليو) التي أنهت الملكية . وللحظة بدا وكأن اليوم المقدر بات قريبا »(٧) .

ولم يأت اليوم المنتظر . فقد أنزل جنود مشاة البحرية الاميركية في لبنان لتدعيم نظام شمعون المتقلقل وأرسلت القوات البريطانية الى الاردن لانقاذ تاج الحسين . كما ان التطورات الداخلية في العراق وضعت ذلك القطر على درب معادية للجمهورية العربية المتحدة . وأوقفت الموجة الوحدوية وتراجع المد حينما وقع انقلاب عسكري في سوريا اخرجها من الاتحاد .

وأدى انهيار الوحدة في أعقاب انفصال سوريا عام ١٩٦١ الى صدم القوميين المقتنعين وتعريض حركة الوحدة العربية لنكسة خطيرة . لقد دامت الوحدة اربعة اعوام كان ينظر اليها خلالها على انها حجر الزاوية لوحدة عربية شاملة ؛ وتسببت ، خاصة بين السوريين ، في ارتفاع مشاعر التضامن الاقليمي في حين كانت تلك المشاعر أقل ما تكون ظهورا في ذلك القطر . لقد عرضت اسباب مختلفة لتفسير انهيار الوحدة. وبين العوامل الكثيرة التي عددت بوصفها مسؤولة عن ذلك الانهيار : الاستياء بين النخبة السورية ، الشدائد الاقتصادية ، التدخل الاجنبي ، المركزية المفرطة ، ضعف الاجهزة الادارية، عدم تعبئة المشاعر الشعبية، وحداثة الفكرة القومية. ومهما يكن من أمر ، فان « اخفاق الجمهورية العربية المتحدة لم يحطم مفهوم الوحدة العربية . بيد انه اشار الى المشكلات العملية التي تنطوي عليها الوحدة »(٨). وتبقى الوحدة المصرية ــ السورية حتى الوقت الحاضر مصدر الهام للقوميين .

لقد قامت عدة محاولات للوحدة السياسية منذ عام ١٩٦١ . ففي عام ١٩٦٣ ، افتتح وفدان يقودهما بعثيون من سوريا والعراق المفاوضات مع عبدالناصر بقصد تأليف اتحاد ثلاثي . الا أن الاتفاق الذي تم التوصل اليه لم ينفذ قط . كما جرت محادثات حول الوحدة بين سوريا والعراق في آب (اوغسطس) عام ١٩٦٣ ، لكن سقوط حزب البعث في العراق في وقت لاحق من تلك السنة انهى المحاولة . ومرة اخرى انهي اتفاق من حيث المبدأ لتوحيد مصر والعراق عندما أطيح بالرئيس عارف . وجرت آخر هذه المحاولات الفاشلة في الثاني من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧١ ، عندما أسست مصر وسوريا وليبيا اتحاد الجمهوريات العربية . ولا تبشر التطورات اللاحقة لحرب تشرين (اكتوبر) والوضع الراهن للعلاقات المصرية ــ الليبية بمستقبل مشرق لذاك الاتحاد(٩) .

وفي الختام نقول ان السبيل الثاني للوحدة السياسية رسمتـــه الانظمة العربيـــة الديناميكية والمتجهة نحو التغيير . وكانت الوحدة تمثل احدى السياسات المتيسرة لهذه الانظمة في هجومها ضد الانظمة العربية المتحجرة والمتجهة نحو تثبيت الوضع القائم . ومن هذه الناحية ، لبست الوحدة في هذه المرحلة زيا عقائديا ذا مفاهيم اجتماعية ـــ اقتصادية تقدمية . ولذلك استبدلت الوحدة الشمولية التي شهدتها المرحلة السابقة باتحادات ومحاولات اتحادات مقصورة على انظمة لها عقائد مشتركة . كذلك ، بينما كانت احتمالات الوحدة في السابق تحت رحمة طبقة الموظفين الرسميين كليـــا ، فان المشاركة الجماهيرية في السياسة ارغمت الزعماء السياسيين العرب من جميع المذاهب على ان يصيروا اكثر تجاوبا مع مثال الوحدة الشعبي ؛ « وما من زعيم عربي هو من القوة بحيث يمكنه تجاهل جاذبيته ... وكل زعيم يبرر نفسه في نطاق اخلاصه لهذا المثال »(١٠).

ج) النظرة الثورية كنتيجة لحرب عام ١٩٦٧ :

لم يتجسد هذا السبيل الثالث الى الوحدة بعد في اختبار سياسي فعلـــي . فهذا السبيل هو نتاج الانقسام ضمن المعسكر التقدمي الذي تبلور بعد عام ١٩٦٧ . وتقترحه الانظمة والحركات التي تسعى الى التحويل الجذري لمجتمعاتها وتشمل قوى من اليسار العربي « القديم » و« الجديد » .

يقسم مؤيدو هذا السبيل الى الوحدة الانظمة العربية الى انظمة بورجوازية وانظمة بورجوازية صغيرة . ويجادلون بأن الانظمة البورجوازية هي انظمة قديمة بالية لا بد من تدميرها قبل ان يمكن حدوث اي تغيير ذي معنى ضمن مجتمعاتها . وهي معادية لاية اجراءات وحدوية وغير قادرة هي نفسها على استهلال الاتحادات.ويؤكدون ان انظمة البورجوازية الصغيرة مناهضة للامبريالية ووطنية ولكنها تفتقر الى التزامات عقائدية واضحة . وهي تتذبذب بين الاشتراكية والليبرالية تبعا لما تقتضيه مصالحها . وتفشل الوحدة السياسية ، بين البلدان الخاضعة لقيادة البورجوازية الصغيرة « الانتهازية » و« غير المستقرة » ، في الصمود لاختبار الزمـــن الا اذا حولت المجتمع الى نظـــام اشتراكي . فالاشتراكية ، اذن ، هي الشرط الضروري لنجاح الوحدة(١١).

ولا يسقط دعاة الطريق الاشتراكية الى الوحدة ، التي تبلورت فكرتها بعد عـــام ١٩٦٧ ، من الحساب امكانية قيام وحدات تبدأها وتقودها البورجوازية الصغيرة ، ولكنهم منقسمون حول ما اذا كانت مثل هذه الوحدات تستحق التأييد والدعم . ويؤكد البعض ان على القوميين ان يقيموا الانظمة الاشتراكية في بلدانهـــم المختلفة قبـــل توحيدها . ويقبل البعض الآخر بتحويل وسائل الانتاج تحويلا جزئيا نحو الملكية العامة، والديموقراطية الشعبية ، وزيادة الانتاج واعادة توجيه العلاقات التجارية العربية على انها سبب كاف لتؤيد القوى التقدمية محاولات الوحدات . ويعيد الجدل المستمر الى الذاكرة النزاع بين نظرتي « الاشتراكية في بلد واحد » و« الثورة الدائمة » .

كانت النقطة التي اضحت فيها الاشتراكية مرتبطة ارتباطا لا يفك بجميع العلاجات للوحدة هي سنة ١٩٦٧ . فالحرب العربية ـــ الاسرائيلية في تلك السنة نفرت الحركة القومية بصورة تامة من الولايات المتحدة وادت الى « مركسة » « القومي » والى جعل الماركسي « قوميا » . وربما كان التسلل الى الفكـــر القومي ثم سيطـــرة المذهب اليساري احدى ابرز النتائج التي ترتبت على الحرب في العالم العربي . وقد حدثت العملية كنتيجة لاقتناع متزايد بأن النزاع العربي ـــ الاسرائيلي ليس نزاعا بين قوميتين فحسب ، ولكنه ايضا صراع بين طريقتي حياة تخطى القضايا الاقليمية وصار مرتبطا

ارتباطا وثيقا بالتنافس الدولي بين الرأسمالية والاشتراكية . وكان الشعور هو أن على المجتمع العربي أن يخضع لتغيير جذري قبل ان يستطيع أن يأمل في قهر اسرائيل عسكريا ، وبالنظر الى الاختبار المرير مع الغرب والمواقف العدائية التي وقفتها حكومة الولايات المتحدة ، عرضت الماركسية العقيدة الشاملة التي يمكن استخدامها لتحويل الحياة العربية ، ومقاومة اخطار اسرائيل المتزايدة ، وتحدي التجاوزات الغربية في الشرق الاوسط .

كان يعوق دعاة السبيل الثوري الى الوحدة مواطن ضعف خطيرة ، ليس اقلها نظرتهم الضيقة والمذهبية اللاعمليه . واسهمت الاستقامة المذهبية الجامدة لكل من اليسار العربي القديم والجديد على السواء في انزال الوحدة الى منزلة ثانوية(١٢) . وصار يوكد على الصراع الطبقي وحكم البروليتاريا على حساب افكار التضامن القومي . على ان النتيجة الاشد خطورة كانت عجز اليسار عن تكييف النموذج الماركسي للنزاع الاجتماعي مع الحقائق العربية . وقد جعلهم تبشيرهم بحكم الشغيلة في مجتمعات زراعية بصورة غالبة وحتى قبلية غافلين عن وجود عقدة الولاءات القديمة ، ولم تكن النتيجة النهائية لانتشار العقائد الجديدة التثوير المطلوب للجماهير ، بل تنفيرها المتزايد من انظمتها السياسية . وقد ظهر هذا الوضع بوضوح في حرب تشرين (اكتوبر) لعام ١٩٧٣ التي شهدت ، بالمقارنة مع الاشتباكات العسكرية السابقة الثلاثة ، اقل قدر من التورط والمشاركة الجماهيرية(١٣) .

وولدت نظرة جديدة الى الوحدة العربية في اعقاب حرب تشرين (اكتوبر) . وقد اضحت منذ ذلك الحين انجيل القيادة الرسمية وتسيطر على الكتابات السياسية . وتقترح هذه النظرة التوحيد الوظيفي للمجتمعات العربية كمقدمة لوحدتها السياسية وترغب في استبدال العقائد السابقة بما صار يسمى « عقيدة التنمية »(١٤) .

ثمة عاملان افضيا الى نشوء النظرة الآنفة الذكر : قدرة الانظمة العربية على تنسيق سياساتها في حرب تشرين (اكتوبر) والثروة التي اكتسبتها البلدان العربية نتيجة للزيادات الاخيرة في اسعار النفط . ويفسر كلا العاملين التفاؤل الذي يميز الان مزاج الرأي العام العربي ورؤاه للمستقبل . ويبحث العاملان بتفصيل في الجزء الثاني من الدراسة .

٢ ــ الحرب العربية ــ الاسرائيلية في محيط متحول :

أ ــ الخلفية : ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣

يعود منشأ « النظرة الجديدة » الى الوحدة العربية بعد حرب تشرين (اكتوبر) الى فترة ما بين الحربين . وهي تعكس محيطا طرأ عليه تحول عميق نجم عن مجموعة من التفاعلات المتعددة الابعاد ، المتغيرة والمعقدة ، والتي وقعت خلال الاعوام القليلة الماضية . وتظهر التغييرات المتعاقبة نفسها في مرحلتين متميزتين : الفترة بين حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ واب (اغسطس) عام ١٩٧١ ، والفترة منذ ذلك الحين الى الان .

١ ــ المرحلة الاولى : تغير وتبلور .

يمكن بحث التغييرات التي حصلت في هذه الفترة في ثلاث فئات رئيسية : محلية ، اقليمية ودولية .

أ) التطورات المحلية : شهدت معظم الدول العربية تغييرات اجتماعية ــ اقتصادية وسياسية اساسية منذ عام ١٩٦٧ . وكانت هذه التغييرات نتيجة لتبلور تيارات خفية سابقة او لتطور جديد كل الجدة .

على الصعيد الاجتماعي ــ الاقتصادي(١٥)، ضاعفت عدة بلدان عربية جهودها التحديثية ، ولكن لاسباب مختلفة . ففي كل من مصر وسوريا ، استلزمت الاعتبارات العسكرية اعادة بناء القوات المسلحة . وكان نتيجة هذه الجهود في الدولتين قيام مؤسسات عسكرية ضخمة وعالية التعقيد تضم ضباطا وجنودا افضل ثقافة . وفي العربية السعودية ، ازداد زخم حملة رئيسية جديدة للتحديث منذ اواسط الستينات . وبحلول اوائل السبعينات كانت « الثورة البيضاء » التي اعلنها الملك فيصل قد تركت دمغتها على المجتمع السعودي . واتضح شكل بعض معالم الدولة السعودية الجديدة كالبروقراطيات العسكرية والمدنية الحديثة وصار لها اثر ملموس على الصعيد الاجتماعي . وكانت عمليات مماثلة ولكنها اكثر تواضعا تجري في ليبيا واليمنين ، واخيرا ، ازداد عدد فئة رجال الفكر العرب في متوالية هندسية .

هذه التغييرات الاجتماعية ــ الاقتصادية السريعة والبعيدة التأثير ما كانت لتكون ممكنة دون وفرة ايرادات النفط التي اعقبت الارتفاع الحاد في انتاج النفط العربي ، خصوصا في اوائل السبعينات . مثال ذلك ، ان الانتاج السعودي ازداد بنسبة ٣٠ ٪ عام ١٩٧٣ .

وبمصاحبة هذه التطورات الاجتماعية ــ الاقتصادية ، او ربما بسببها ، شهدت المنطقة تغييرات سياسية مهمة . وتشتمل هذه التغييرات على بروز قوى سياسية جديدة ، وقيادات جديدة ، وعقائد جديدة ، ومنظمات جديدة ومشكلات جديدة . وبالفعل ، كان المسرح السياسي يتميز بالاضطرابات العظيمة ، والجيشانات العنيفة، والتغييرات الحاسمة المفاجئة وغير المتوقعة .

فقد اطيح بالقيادة الرسمية في معظم الدول العربية عن طريق الانقلابات العسكرية والترتيبات السياسية الجديدة والانتخابات ، او الموت الطبيعي . وجاءت الى الحكم نخبات حاكمة جديدة في العراق واليمن والسودان وليبيا وسوريا عن طريق تدخل القوات المسلحة . وادى الانقلابان العسكريان الفاشلان ، ولكن الخطيرين جدا ، في المغرب الى القضاء على شخصيات سياسية قوية عدة ، وشهدت جمهورية اليمن الجنوبي المستقلة بعد عام ١٩٦٧ نزاعا عقائديا وتنظيميا عميقا بلغ اوجه في تطهيرات سياسية واسعة النطاق . وفي منطقة الخليج ، برزت تشكيلات سياسية جديدة ، هي اتحاد الامارات العربية ودولتا قطر والبحرين . وافلح البرلمان اللبناني ، بعد ازمة خطيرة حول خلافة رئاسة الجمهورية ، في انتخاب رئيس جديد للدولة عام ١٩٧٠ . واخيرا ، كان موت عبد الناصر في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ نذيرا بعواقب بعيدة الاثر تركت تأثيرها في العالم العربي بأسره . وزادت التغييرات في القيادة السياسية ، ظاهريا ، في تحويل مفهوم الوحدة العربية الى افعال ملموسة . وكان بين هذه التغييرات تأسيس اتحاد الجمهوريات العربية الذي جرى تنفيذه وفقا للاساس المرسوم في ميثاق طرابلس لعام ١٩٦٩(١٦) . وكان القذافي القوة الدافعة وراء الاتحاد . غير أن هذا الترتيب الوحدوي اثبت ، للاسف ، انه ذو اهمية عملية ضئيلة . فبحلول اواسط عام ١٩٧٣ كانت العلاقات بين مصر وليبيا من جهة ، وليبيا والسودان ، من جهة اخرى ، قد تقهقرت اكثر من أي وقت مضى .

وفي هذه الاثناء استجمعت حركة التحرير الفلسطينية اللاحقة لعام ١٩٦٧ زخما بسرعة فائقة . وصارت قوة مهمة ونشطة على المسرح السياسي للشرق الاوسط بعد عزل القيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ووصول نخبة ثورية جديدة الى مركز القيادة(١٧) . وكانت القيادة الجديدة تشمل امتدادا عقائديا وتنظيميا واسعا . فمن

الناحية العقائدية كانت تضم تيارات ايديولوجية متباينة ، الى المنظمات ، في حين كانت تتألف تنظيما من ١١ فصيلا معترفا به رسميا . ومن اواخر عام ١٩٦٧ حتى اواسط عام ١٩٧١ حركت منظمة التحرير الفلسطينية والهمت قطاعات واسعة من الجماهير العربية . واتخذت قوى عربية اخرى من الحركة نموذجا لها وحافزا لنشر السياسة الثورية .

وكانت النتيجة الثانوية الاخرى للبيئة الثورية الجديدة هي بروز « اليسار الجديد » الذي استجمع قواه حول المقاومة الفلسطينية وناصرها معتبرا اياها رأس حربة لثورة عربية . وهكذا صارت استراتيجيات وتكتيكات الفدائيين الفلسطينيين استراتيجيات وتكتيكات اليسار الجديد .

ب) الصراعات والعداءات القومية والاقليمية : يعود سبب الطبيعة المتفجرة لسياسة الشرق الاوسط الى عدد لا يحصى من الانقسامات الاقتصادية والاجتماعية والعرقية والدينية الملازمة لطبيعة المجتمعات الانتقالية في المنطقة. غير ان تأثيرات هذه الانقسامات المتشابكة تتخطى نطاق هذه الدراسة . واهتمامنا الرئيسي هنا هو من نوعين : الاول ، الصراعات القومية التي تمس الوجود القومي للعرب والناجمة عن وجود اسرائيل وعن سياستها التوسعية ، والثاني ، التناقضات بين العرب انفسهم .

١) الصراع العربي ــ الاسرائيلي : على الرغم من الاعمال العسكرية والاعتداءات الاسرائيلية على اهداف عربية غالبا ما كانت مدنية في اعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧(١٨)، فقد مر النزاع العربي ــ الاسرائيلي بمرحلة هامة تمثلت اولا بقبول بعض الدول العربية لقرار مجلس الامن ٢٤٢ الصادر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧ وبخطة روجرز لعام ١٩٧٠ . وكان مثل هذا القبول يدل على استعداد رسمي لدى بعض الاوساط الحاكمة لانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، والاعتراف بحدود ما قبل عام ١٩٦٧(١٩). وبالاضافة الى هذا التغير الستراتيجي في الموقف العربي ، لا بد من الاشارة الى ان القيادة الفلسطينية غيرت نظرتها الى الاسرائيليين هي ايضا . لكن على صعيد مختلف . فالاسرائيليون ، وفقا للنظرية الجديدة ، سيبقون مع عرب فلسطين الذين سيعودون الى وطنهم ، عبر الكفاح المسلح ، ويتقاسمون واياهم حقوقا والتزامات متساوية في دولة علمانية وديمقراطية تنزع عنها صفاتها ومؤسساتها ومعالمها الصهيونية(١١٩). وصار هذا الموقف هو البرنامج الرسمي للحركة في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع عام ١٩٦٨ ، وقد اعاد تاكيده كل مجلس لاحق ، بما في ذلك المجلس الثاني عشر الذي عقد من الاول الى التاسع من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٤ . وعلى الرغم من ذلك استمرت اسرائيل تتصرف بغطرسة وتهزأ بقرارات الامم المتحدة والراي العام العالمي . فقد ظلت اسرائيل خلال فترة ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، بتشجيع من الدعم الغربي غير المتردد ، متصلبة في تمسكها بموقف عنيد في ما يتعلق بالاراضي المحتلة ومصير الفلسطينيين .

٢) التناقضات بين العرب

في الفترة اللاحقة لحزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، لم تكن العلاقات بين الدول العربية في ما يتعلق بالوحدة والشقاق ، وحتى موت الرئيس عبد الناصر ، تختلف عن العلاقات التي تميز بها المسرح العربي قبل الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة . فقد كانت تتقلب بين اجتماعات قمة شاملة وسياسة التكتل . وكانت اجتماعات القمة تطالب بالتعاون وتنسيق السياسات ، وسياسة التكتل تولد نزعات تمزيقية وتزيد

من عدم الثقة بين الزعماء . مثال ذلك ان مؤتمري الخرطوم (عام ١٩٦٧) والرباط (عام ١٩٦٩) كانا استمرارا لسياسة اجتماعات القمة التي بدأها الرئيس عبد الناصر في اواخر عام ١٩٦٣ ، وهي سياسة كانت قد اصيبت بشلل تام تقريبا بحلول عام ١٩٦٦ . ومن جهة اخرى كانت اجتماعات القمة الصغيرة التي ضمت مصر والعراق وسوريا عام ١٩٦٢ ومؤتمر طرابلس عام ١٩٦٩ الذي حضره زعماء مصر وليبيا والسودان تمثل النزعة المعاكسة .

الا ان النزاعات بين العرب لم تكن مقتصرة على القاعات التي يجتمع فيها ملوك ورؤساء العرب . فقد كان يرافق خلافاتهم بوجه عام قطع العلاقات الدبلوماسية وحملات عنيفه بواسطة وسائل الاعلام ضد بعضهم بعضا . وكانت الحالات الاشد خطورة هي التي انفجرت فيها «الحرب الباردة» العربية متحولة الى قتال ضار وباهظ الثمن . واحد الامثلة على ذلك هو الاشتباكات السورية ــ الاردنية ما بين عامي ١٩٦٩ و ١٩٧١ . وكذلك المواجهات الدموية المؤسفة بين القوات المسلحة الاردنية واللبنانية من جهة ، والفدائيين الفلسطينيين من جهة اخرى . وبلغت التصادمات الاردنية ــ الفلسطينية اوجها في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ وانتهت في تموز (يوليو) عام ١٩٧١ ، والحوادث بين القوات اللبنانية والفلسطينية التي وقعت في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٩ وايار (مايو) عام ١٩٧٣ .

كانت احدى النتائج الرئيسية للمواجهات السياسية والعسكرية بين العرب انبعاث الانقسامات القديمة على أساس اقليمي أضعف التضامن بين الجماهير العربية الذي طالما عقدت عليه الامال . وبقدر ما كانت الصدوع بين الانظمة العربية ظاهرة متكررة ، كانت الانقسامات في صفوف الشعوب العربية مناقضة لتقاليد نصف قرن على الاقل من التربية القومية ونشر العواطف القومية . وثمة مثلان مهمان يجدر بنا ذكرهما من هذه الناحية . الاول يتعلق ببلدان المغرب العربي والثاني باقطار المشرق .

فقد تعرضت كل من الدول الموقعة على ميثاق طرابلس لانتقادات شديدة من القوى الاقليمية المناهضة للوحدة العربية في بلدانها . ففي السودان وحد الجنوبيون غير العرب والشماليون الموالون للمهدي فضلا عن الشيوعيين صفوفهم ، لدوافع واسباب مختلفة ، ضد الميثاق واتحاد الجمهوريات العربية المقترح وعارضوهما علنا(٢٠) .

المثل الثاني الموضح للاقليمية ينشأ عن علاقات الفلسطينيين بلبنان والاردن . فقد عززت الاقليمية اللبنانية المترسخة نتيجة للاشتباكات المختلفة التي وقعت بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش اللبناني . وبرزت الى السطح بين الشرق اردنيين قوى قبلية جابذة نتيجة لنمو الوعي الفلسطيني وعجلت في اشعال حرب أهلية بين الجانبين .

وباختصار ، سيطرت القوى المناهضة للوحدة العربية بعد عام ١٩٦٧ . وبدا كأن احدا لا يستطيع تحدي سيطرتها ، كما بدا كأن مدى القومية العربية قد مني بهزيمة تامة .

ج) التنافس الدولي : كان الشرق الاوسط دوما حلبة لتنافس الدول الكبيرة . وقد تسببت عوامل دينية وسياسية واقتصادية وعسكرية في تدخلات اجنبية في شؤون المنطقة . غير ان دخول القومية العربية ، وتصاعد المواجهة العربية ــ الصهيونية والاستقطاب الذي سيطر على المجتمع العربي وصنفه تقدميين ومحافظين زادت من حدة التنافس الدولي واضافت عاملا خارجيا الى مرجل الشرق الاوسط . وقد سعى الاستعماران القديمان ، بريطانيا وفرنسا ، الى توطيد نفسيهما عن طريق اسرائيل في

حرب السويس عام ١٩٥٦ ، ولكنهما اخفقا . ويمكن عزو فشلهما مباشرة الى تدخلات وضغوط الدولتين المتفوقتين وحلول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مكانهما بوصفهما الدولتين الرئيسيتين في الشرق الاوسط . وفي هذه الحال تعززت العلائق السوفياتية — العربية ونقلت اسرائيل ولاءها من اوروبا الى الولايات المتحدة .

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تروض عبد الناصر وحركة الوحدة العربية القومية وتحتويهما بعد حرب السويس عن طريق استبدال سياسة المواجهة التي كانت تنتهجها بسياسة تفهم وتوفيق . وكانت ادوات السياسة الجديدة قروضا مالية واغذية وبرامج ثقافيه والاعتراف بشرعية عدم الانحياز وغيرها . واستمرت سياسة التفهم والتوفيق حتى عام ١٩٦٥ ، رغم التوترات المتكررة والتقاطعات الموقتة . وكان نقض هذه السياسة في ذلك العام منسجما مع استراتيجية الولايات المتحدة العالمية التي صارت تعتمد على التدخل الاميركي غير المباشر ورعاية الدول التابعة . ولذلك اضحت العربية السعودية وايران واسرائيل المحور البالغ الاهمية للولايات المتحدة في المنطقة وسعت الولايات المتحدة الى تفتيت قوة عبد الناصر ونفوذه وخلعه نهائيا ، وقد كان هذا في الواقع احد الاهداف الاولى لحرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ .

وخلافا للتوقعات الاميركية والاسرائيلية ، لم يسقط عبد الناصر بعد هزيمة حزيران (يونيو) . وبالفعل ، اثبت التضامن العربي في الهزيمة انه من الفعالية بحيث اضطر الرئيس عبد الناصر للعودة الى منصبه واعادة بناء قوات بلاده المسلحة وتعزيز المعنويات . وهذا التصميم على الاستمرار وعداء الولايات المتحدة للاهداف العربية عززا العلائق بين مصر والاتحاد السوفياتي ، وحذت حذوها العلائق السورية والعراقية والجزائرية بالاتحاد السوفياتي . واستمرت سياسة التعاون العربي — السوفياتي دون ان يعوقها عائق حتى موت عبد الناصر في الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ ومجيء السادات خلفا له .

٢) المرحلة الثانية : زوال السحر والوفاق .

ومع غياب عبد الناصر عن المسرح، لم تستطع شخصية موحدة ان تضطلع بدوره. ولم يكن الخلف ، السادات ، يتمتع بالاعتبار والتأثير اللذين كانا لعبد الناصر . فقد كان يفتقر الى سحر الزعامة الجماهيري Charisma المطلوب للتغلب على الصعوبات والصمود للمأزق الذي كان يميز العلاقات العربية — الاسرائيلية . وبلغ الشقاق مستويات عالية جديدة وتعرض السادات للضغط لاخراج مصر من معضلة «اللاحرب، واللاسلام » . وكانت هذه الحالة قد زادت من حدة زوال السحر من نظامه وتكررت في اماكن اخرى من العالم العربي .

كانت مصادر الاستياء عديدة . اولا وقبل كل شيء كان استياء الجماهير العربية من عجز الانظمة عن انهاء الاحتلال الاسرائيلي . واسهمت صيغة «اللاحرب ، واللاسلام» التي حلت محل حرب الاستنزاف في السخط الشعبي .

ثانيا ، سبب عجز الزعماء العرب عن تحرير اراضيهم الوطنية ضعفا متزايدا لمراكز قوتهم وبالتالي الشك في شرعيتهم . كما القى عجزهم عن تحقيق منجزات بارزة على الجبهة الداخلية المزيد من الشك على اهليتهم للحكم . وعلى الصعيد القومي ، كانت القيادة ايضا في حالة شلل تجلت في عدم قدرتها على تطوير اتحاد الجمهوريات العربية الى ترتيب سياسي معقول يمكن ان يوقف التشوش العربي . وكان ضعف هذه الانظمة واضحا ابان القتال بين الفدائيين الفلسطينيين والنظام الاردني .

ثالثا ، كان زعماء آخرون ، مثل الملك فيصل ، يتعرضون هم ايضا لوابل من الهجمات شنتها القوى الداخلية والخارجية التي حثته على « محو آثار عدوان عام ١٩٦٧ » . ولان احتلال شبه جزيرة سيناء أوصل القوات الاسرائيلية الى الجناح الشمالي من العربية السعودية ، فقد راحت المخاوف الشعبية تضغط على النظام لتشكيل وفاق مع مصر ، تحقق فعلا في حرب تشرين (اكتوبر) . والى ذلك ، كانت سيطرة اسرائيل التامة على المواقع الدينية في البلاد المقدسة مصدر احراج شخصي للملك فيصل ، بوصفه أبرز زعيم اسلامي عربي . وفوق ذلك ، فقد عرضت العلاقات السعودية ــ الاميركية الوثيقة جدا على الملكية خيارين : اما ان تقطع العلاقات او تستخدم مساعيها الحميدة مع الولايات المتحدة لكي تجبر الولايات المتحدة اسرائيل على الانسحاب .

تطور التعاون بين العربية السعودية ومصر الى تحالف ضمني هدفه كسب ثقة الجماهير العربية عن طريق انجاز انسحاب اسرائيلي . واتخذت خطوات للوصول الى تفاهم مع حكومة الولايات المتحدة ، وقام الامير سلطان بن عبد العزيز ، الموفد الخاص للملك السعودي ، بعدة جولات من المفاوضات مع كبار المسؤولين الاميركيين ، وبدا كأن الفريقين توصلا الى اتفاق اشترط ان تستخدم الولايات المتحدة نفوذها مع اسرائيل مقابل ابعاد المستشاريين السوفييت عن مصر . ولم يضع الرئيس المصري أي وقت في تنفيذ الجزء المسند اليه من الاتفاق . فقد أنهى بعثة المستشارين المساندين السوفييت في الثامن عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٧٢ بحجة امتناع السوفييت على الوفاء بوعودهم السابقة لتزويد مصر « بأسلحة هجومية » . على ان الاميركيين لم يردوا على ايماءة مصر بمثلها . وأخفقت التهديدات السعودية اللاحقة باستخدام « سلاح النفط » في دفع الولايات المتحدة الى العمل .

وصار التجاهل الاميركي التام لرغبات العرب المقرون بالعناد والغطرسة الاسرائيلية المستمرة امرا لا يطاق . وبلغ انزعاج الزعماء العرب ، وبخاصة زعماء مصر وسوريا ، حدا لم يسبق له مثيل . وبات هؤلاء الزعماء مقتنعين بان الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق هي في القتال . ومنذ ذلك الحين اخذت مصر وسوريا تحضران تحضيرا جادا لهجوم مشترك وشرعتا تحققان التضامن العربي مع كل الانظمة . وبدعم من العربية السعودية ، سوت مصر وسوريا علاقاتهما مع الاردن في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣ بقصد اكمال الطوق حول اسرائيل .

ب) قضايا : حرب تشرين (اكتوبر) والتضامن العربي

اندلعت الحرب العربية ــ الاسرائيلية الرابعة بهجوم مصري ــ سوري مفاجىء منسق في السادس من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٣ . واشارت الحرب الى نقطة تحول تاريخية وأوجدت حقائق عسكرية وسياسية جديدة (٢١) . ولن نبحث هنا الا تلك الحقائق التي لها صلة بمسألة الوحدة العربية : مستوى التضامن العربي ، طبيعة القيادة ، المحتوى العقائدي ودرجة المشاركة الجماهيرية . وستكون القضايا الاربع بمثابة مقولات مقارنة لتحليل ومقارنة حرب تشرين بالحروب العربية ــ الاسرائيلية الثلاث الاولى .

١) مستوى التضامن العربي :

أظهر التضامن العربي في الحروب العربية ــ الاسرائيلية الاربع مجموعة واسعة التنوع من الاختبارات(٢٢) ، ففي الحرب العربية الاسرائيلية الاولى لعام ١٩٤٨ كان

التنسيق العسكري والسياسي في الحدود الدنيا وكان عدم الثقة يسود العلاقات بين الزعماء العرب خاصة وانه كان لكل من مصر والاردن مطامعهما الاقليمية والسياسية المتباينة .

ومن الناحية العسكرية شاركت وحدات من خمسة اقطار عربية في بعض معارك تلك الحرب(٢٢) .

ولم يكن التضامن العربي أقوى من ذلك في حرب عام ١٩٥٦ . فعندما شنت بريطانيا وفرنسا واسرائيل هجومها المدبر على مصر ، كان الشرق الاوسط ممزقا بين معسكر الاستقلاليين بقيادة مصر والمعسكر الموالي للغرب بقيادة العراق . وكانت حربهما السياسية الدعائية قد ابتدأت بدخول اقتراح ميثاق بغداد في اواخر عام ١٩٥٣ . وابان الحرب نفسها ، وضعت المطارات العراقية تحت تصرف البريطانيين واستخدمت في حملتهم ضد مصر ، وقاتلت مصر وحدها . ومن الدول العربية الاخرى ، وحدها سوريا عرضت قوات على مصر ونسفت أحد خطوط انابيب النفط . أما بقية الدول العربية فقد اكتفت بالدعم الشفهي . ولم يكن الاجتماع الطارىء الذي عقد في بيروت وحضره بعض الزعماء العرب أكثر من مجرد حالة من حالات الدبلوماسية العاطفية التظاهرية . وكان الشقاق العربي في ذروته .

وتبدى عام القدرة العربية على التعاون قبل الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة قبل ستة أشهر من الحرب حين تأجل مؤتمر القمة في الرباط الذي كان مزمعا عقده في العام ١٩٦٦ الى وقت غير محدد . ولم تتحقق الاعلانات العربية الرسمية عن « الدعم غير المحدود » للبلدان المقاتلة .

وفي حين كان التضامن العربي مفقودا في المواجهات السابقة مع اسرائيل ، فقد كان حاضرا عام ١٩٧٣ . وهذه المرة لم يكن مقتصرا على التأييد الشفهي والمعنوي، بل اشتمل على معونة مادية قدمتها معظم الدول العربية الى مصر وسوريا. وكان هذا العمل يتغاير تغايرا حادا عن الحروب الماضية خاصة انه لم يكن مصحوبا بالجعجعة المعتادة . وبالفعل ، فان ما من شيء أقل من هذا كان سيرضي الجماهير المشككة ويعيد اليها الثقة بقيادتها .

عبر التضامن العربي عن نفسه في حقول ثلاثة : الحقل العسكري ، والحقل السياسي ، والحقل الاقتصادي . عسكريا ، كاد التعاون بين مصر وسوريا يبلغ حد التنسيق والتناغم التامين المتبديين في القيادة العليا الموحدة المصرية ــ السورية ، والخطط المرسومة بصورة مشتركة للهجوم المفاجيء وخطط الادارة اليومية للمعارك . وكذلك كانت المشاركة العسكرية للدول العربية الاخرى على الجبهات فعالة . وبرغم ان الهجوم كان مباغتا ، فقد تمكن العديد من الدول العربية من ارسال أفضل وحداتها العسكرية بسرعة الى ساحات القتال ، والامر الاهم من ذلك هو ان هذه الوحدات وضعت فورا بتصرف قادة الميدان السوريين والمصريين وتم ضمها بصورة فعالة في الجيوش المقاتلة . ويختلف هذا الاختلاف كله عن السلوك العسكري العربي في الماضي عندما كان كل واحد من المشتركين يخوض معاركه وحده ودون تنسيق مع الآخرين .

وسياسيا ، استخدمت الدول العربية مجموعة كاملة من الوسائل الدبلوماسية لتعبئة الرأي العام العالمي لمصلحتها . وبالاضافة الى جهود البلدان العربية المنسقة في الامم المتحدة ، قام كل بلد باتصالاته الخاصة مع الدول الاخرى . وكان أبرز هذه الاتصالات وأهمها هو الاجتماع الذي تم ببادرة من العربية السعودية وبقيادتها بين

أربعة من وزراء الخارجية العرب ورئيس الجمهورية الاميركية ، ورحلة الرئيس الجزائري الى موسكو واجتماعاته بالزعماء السوفييت ، والاتصالات السعودية والجزائرية المنفصلة بزعماء الولايات المتحدة ، والحملات الدبلوماسية الليبية والجزائرية في افريقيا وآسيا . واخيرا التحركات المصرية في اوروبا الغربية بالاضافة الى الاتصالات السورية بزعماء اوروبا الشرقية والبلدان الشيوعية الاخرى . وفي الواقع ، لم ينجح العرب يوما في تعبئة الرأي العام العالمي وراء قضيتهم كما نجحوا ابان حرب تشرين (اكتوبر) .

واقتصاديا ، اتخذ التضامن العربي شكلين اثنين : تبرعات مالية لسوريا ومصر واستخدام النفط كسلاح سياسي ضد العدو ومؤيديه . ومع انه لم تتوفر ارقام دقيقة حول كمية التبرعات ، فيمكن الافتراض بأنها فاقت كل الارقام القياسية السابقة .

على « جبهة النفط » ، اوجدت البلدان العربية المنتجة للنفط ثلاث سوابق مهمة :

أ) فقد استخدمت النفط ، لاول مرة ، كسلاح سياسي وقررت خفض الانتاج بنسبة خمسة بالمئة شهريا على الاقل بدءا من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٣ .

ب) كان هذا القرار فعل تحد ضد شركات النفط الاجنبية الكبيرة وبلدانها الام . وذهب العراق الى أبعد مما ذهبت ليه البلدان الاخرى فأممت شركات النفط الهولندية والاميركية .

ج) فرض حظر النفط ضد الولايات المتحدة وهولندا الذي كشف عن تصميم على مكافأة ومعاقبة الصديق والعدو .

٢) المحتوى العقائدي :

كان أحد أسباب المحافظة على التضامن العربي ابان الحرب هو أن الجدل العقائدي ظل خافتا جدا ، ان لم يطوه النسيان . واعتبر الاستشراف العملي للامور والمشكلات افضل وسيلة للمحافظة على تحالف عربي وتعبئة العرب ككل . وقد عبر عن هذه السياسة بالطريقة التالية :

أ) في النطاق العربي ، أعيدت علاقات سوريا ومصر مع المنافستين العقائديتين السابقتين العربية السعودية والاردن الى حالتها الطبيعية ، وأوقفت الحملات الدعائية ضد العراق .

ب) انعكس تفتت العقائد في تحطم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي والازمة اللاحقة في العلاقات بين العربية السعودية والولايات المتحدة .

ج) عنت سياسة الاستشراف العملي للامور والمشكلات ، أيضا ، تجديد العلائق مع الدول التي كانت في الماضي تعتبر غير صديقة . ويشهد على هذه السياسة ، مثلا ، استئناف العلاقات مع الولايات المتحدة بعدما قطعت قطعا تاما لمدة سبعة اعوام .

د) تخلت الدول العربية عن اللغة المتسمة بالغلو ابان الحرب وبعدها . وتميزت التصاريح والخطب العامة باعتدالها ، ان لم يكن بتعبيرها المكبوح عمدا .

٣) مستوى المشاركة الجماهيرية :

تشير حرب تشرين (اكتوبر) عام ١٩٧٣ الى أدنى نقطة بلغتها مشاركة الجماهير العربية . فلم تقع تظاهرة واحدة في أية عاصمة عربية . ولم تشهد البلاد العربية أي اندفاع للتطوع ولم توجه دعوة الى حمل السلاح الى الجميع بلا استثناء . وقد دارت

الحرب من البداية الى النهاية على ساحة القتال بين جيوش تقليدية . وكانت الحالة المستثناة الوحيدة هي الحرب التي شنتها قوات الثورة الفلسطينية .

ويبدو كأن حرب تشرين (اكتوبر) كانت تمثل وحدة الانظمة بينما كانت حرب عام ١٩٦٧ تمثل وحدة الدموع ، وحرب عام ١٩٥٦ تمثل وحدة المطامح ، وحرب عام ١٩٤٨ تمثل وحدة الايمان . وقد أظهرت حرب عـــام ١٩٤٨ مشاركة والتزامـــا جماهيريين بالمحافظة على الهوية العربية لفلسطين . وجسم ذلك الالتزام « جيش الانقاذ » الذي ضم خليطا من المتطوعين من مصر والمغرب وسوريا ولبنان والعراق والبلدان العربية الاخرى ، وأرغم الانظمة على عدم التغاضي عن واجبها نحو فلسطين وشعبها . على ان دخول سبعة جيوش عربية الى فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) عام ١٩٤٨ والهزيمة التي منيت بها بعد ذلك أكدت عدم صلاح وكفـــاءة الانظمة العربية لتحقيق رغبات شعوبها . فبالنظر الى التنافس الشديد بين الانظمة السياسية ، لم يسمح للجيوش بالعمل في انسجام مع بعضها بعضا ، وكانت النتيجة تفتت شرعيـــة الانظمة الذي تجلى في الجيشانات والاغتيالات السياسية التي اجتاحت الاقطار المحيطة بفلسطين .

في الحرب الثانية ، كان الرئيس عبدالناصر قد قام بمحاولات قوية لاعادة اشراك الجماهير في الشؤون القومية وناشدها مباشرة ، متخطيا حكوماتها . وشهدت الحرب تماثلا عظيما في المصالح بين القائد والقاعدة ، في غياب الانظمة الاخرى . كمـــا ان القيادة المتجاوبة مع الجماهير التي تميز بها الرئيس عبدالناصر والمشاركة الجماعية بين الجمهور والزعيم ارغمتا هذه الانظمة على تقديم الولاء الكلامي للتضامن .

وبحلول عام ١٩٦٧ كانت المشاعر الجماهيرية قد تفجرت في التاسع والعاشر من حزيران (يونيو) عندما تخلى الرئيس عبدالناصر عن منصبه وأقنعته باستئناف قيادته . وبما ان الانظمة كانت قد تخلت عن مسؤوليتها ، فلم يكن في مقدور أحد أن يوجه خزان الطاقة هذا في قناة ويضعه في خدمة الامة . فتبددت الطاقة . وحدث تباعد خطير بين الجماهير والانظمة . وبحلول عام ١٩٧٣ لم تكن الجماهير ولا الزعماء قد بدأوا عملية التفـــاعل .

الخاتمة

« الذي حدث هو ليس حتى الآن وحدة أو اتحادا ، ولكنه أكثـــر من مجرد تضامن استلزمته الاحداث التي حصلت أو تحصل في المنطقة »(٢٤) . هذا القول يصف وصفا يلاحظه معظم دارسي السياسة العربية في دراساتهم . وفي حـــين لا يعرفون كيف يشرحون شرحا مرضيا لماذا تسيطر الوحدة مثل هذه السيطرة القوية على مخيلة العرب وأعمالهم ، فانهم يدركون أعمالها ادراكا تاما . وتؤيد دراساتهم استنتاجنا . فمجرى الاحداث الحالي ليس نتاج التطورات الاخيرة فحسب ، ولكنه ناجم أيضا عن مشاعر واسعة النطاق بين العرب بأن لهم هوية مشتركة ورغبة في أن يقيموا بين أنفسهم وحدة سياسية تلغي الحدود القائمة .

لقد مرت حركة الوحدة العربية في تاريخها الحديث عبر أربع مراحل . وكانت كل مرحلة من هذه المراحل تبرز سبيلا الى تحقيق هذه الوحدة . ودعت المرحلة الاولى الى توفير منصة للتعاون ولتنسيق السياسات بين الانظمة العربية . وصنفت المرحلة الثانية الانظمة معتبرة ان هناك دولا ديناميكية واخرى متحجرة وقصرت التحركات الوحدوية على الانظمة الديناميكية . وطالبت المرحلة الثالثة بالتحويل الجذري للحياة والمؤسسات

العربية ووكدت على دور الحركات العامـــة . وأخيرا يتطلب سبيـــل الوحدة الرابع المسيطر حاليا توحيد العالم العربي عن طريق تعبئة الموارد واستخدامها في مشروعات التنمية المشتركة .

ويلاحظ المرء في كل من المراحل الاربع الآنفة الذكر وجود اتجاه يعارض النظـــرية السائدة ، ولكنها عادت فكسفته . فالنظرة التعاقدية ، على سبيل المثال ، عارضها الطموحون ، والنظرة التقدميـــة عارضها المحافظون ، والنظـــرة الثورية عارضها الاصوليون ، والنظرة العملية عارضها الاندماجيون .

وفي ما يتعلق بتأثير حرب تشرين (اكتوبر) على الوحدة العربية ، فان عرض الجانب العربي ما كان ليكون مثيرا للاعجاب الى هذا الحد لولا قدرته على تحاشي الخلافات من أجل الاهداف المشتركة . وقد أثبتت هـــذه السياسة صحة خطـــة عمل عبدالناصر الستراتيجية التي كانت تؤثر الفكرة القائلة بأن « الوحدة هي الطريق الى فلسطين » على الفكرة القائلة بأن « فلسطين هي الطريـــق الى الوحدة » . ودون التنسيـــق السياسي ـــ العسكري للسياسات الذي سبق تشرين الاول (اكتوبر) واستمر الى ما بعده ، لما كانت نتيجة الحرب اختلفت اختلافا كبيرا عـــن الحروب العربيـــة ـــ الاسرائيلية السابقة .

وبالاضافة الى الرغبة في معالجة القضايا القومية بصورة مشتركة ، عكست اقامة الجسور بين المعسكرين العقائديين المتحـــاربين الحقائق الاجتماعية ـــ الاقتصادية المتحولة في المنطقة . فالزيادة الحادة في دخل البلدان العربية المنتجة للنفط ، وبخاصة بلدان شبه الجزيرة العربية ، رافقتها زيادة في القوة المالية والعسكرية والسياسية . فبحلول أواخر الستينات لم تعد الانظمة المحافظة في مركـــز دفاعي ازاء الانظمـــة التقدمية . وكان في قدرتها أن تحدّث اقتصاداتها وبروقراطياتها المدنية دون الاضطرار الى تغيير أنظمتها السياسية . وكانت بحبوحتها كافية لتخفيف الاضطراب الاجتماعي الداخلي ولتحييد النقاد في الخارج . فالتبرعات المالية السنوية التي قدمتها العربية السعودية والكويت وليبيا لمصر وسوريا ساعدت ، منذ مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ ، على سبيل المثال ، في تليين موقف التقدميين العرب .

ويقف العالم العربي اليوم على مفترق الطرق . وتتنافس التيارات والاتجاهات فيما بينها للسيطرة : الرغبة في المحافظة على التقاليد ، والرغبة في اللبرالية والرغبة في التثوير . وتتقاسم التيارات الثلاثة حاسة مهمة تاريخية للعالم العربي . فيتصورها التيار الاول في تأسيس مجتمع عربـــي مسلم ، والتيار الثـــاني في مجتمع علماني ـــ ديموقراطي ، والتيار الثالث في ثورة وحدوية عربية ذات محتوى اشتراكي. وفي الوقت الحاضر اندمجت المدرستان الليبرالية والمحافظة بدافع المحافظة على الذات لتقترحا توجها عمليا غير عقائدي للمشكلات العربية . وقد تتحقق جهودهما بالنظر الى التدفق الضخم لايرادات النفط التي تزودها بالوسائل المادية لتحقيق رؤياهما . بيد انه من غير المحقق انهما يملكان الطاقة والتصميم للاضطلاع بمثل هذه المهمة . فالشكوك العميقة الجذور ، والفوارق المحلية ، والخاصيات الشخصية وقحة طبقـــة الموظفين العرب تعرض عقبات خطيرة لا بد من التغلب عليها فيما بعد .

وبالاضافة الى حاسة المهمة التاريخية وغريزة المحافظة على الذات ، لا بد للتحالف المحافظ ـــ الليبرالي من أن يحسب حساب الارادة الشعبية التي تمارس الضغط عليه باستمرار للعمل . والامتناع عن فعل هذا الامر قد لا يبقي للعالم العربي الا خيار الثورة الثالث .

الحواشي :

١ — **ملحق النهار** (بيروت) ، ٣٠ حزيران (يونيو) ، ١٩٧٤ .

٢ — صاغ شعاري « وحدة الصف » و « وحدة الهدف» ونشرهما بين الجماهير الرئيس عبدالناصر في الخطاب الذي القاه في ٢٢ شباط (فبراير) ، ١٩٦٢ . وفي حين وكد الشعار الاول على الحاجة الى التضامن بين الانظمة العربية بصرف النظر عن فلسفاتها الاجتماعية — السياسية المتباينة ، فقد دعا الشعار الثاني الى التعاون بين الانظمة التي تتقاسم نظرة مشتركة فقط . والقصد من الدمج الحالي بين الشعارين هو الاشارة الى ان جميع الانظمة العربية تسعى الى نفس الاهداف.

٣ — للحصول على وصف مفصل لنشاطات الجامعة العربية الوظيفية وبرامجها ، انظر روبرت ماكدونالد ،
The League of Arab States: A Study in the Dynamics of Regional Organization. (Princeton: Princeton University Press, 1965), pp. 169-22.

٤ — استشهد به فايز صايغ في كتابه *Arab Unity: Hope and Fulfilment* (New York: The Devinain Company, 1959), p. 137.

٥ — Fayez Sayegh : *Arab Nationalism: The Latest Phase.* Reprint from the November issue, 1957, of *Middle East Forum, Al-Kulliyah* (Beirut).

٦ — للحصول على نص الاعلان ، انظر مركز الاعلام العربي ، نيويورك ،
Basic Documents of the Arab unifications (Documents collections, No 2), 1958, pp. 5-6.

٧ — Malcolm Kerr. *The Arab Cold War 1958 - 1964: A Study of Ideology in Politics* (London: Oxford University Press, 1965), pp. 21-22.

٨ — Monte Palmer, «The United Arab Republic: An Assessment of its Failure». *The Middle East. Journal* (Winter, 1966), pp. 67.

٩ — للحصول على وصف للاحداث المفضية الى تأسيس الاتحاد وعلى تقييم لقابليته للحياة ، انظر Peter Bechtold. «New Attempts at Arab Cooperation : The Federation of Arab Republics, 1971 — ?» *Middle East Journal.* pp. 152-172.

١٠ — Henry Sigmon «Arab Unity and Disunity ». *The Middle East Journal* (Winter, 1962), p. 48.

١١ — احد المنشورات التي تحتوي على الاراء الموضحة لمعظم الجماعات اليسارية العربية حول مسالة الوحدة خلال فترة ما بين حربي عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ هو العدد الخاص المعنون « الوحدة والثورة العربية » من مجلة « الثقافة العربية » (بيروت) ، تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٩٧١ ، العدد ٦ .

١٢ — الكاتبان اليساريان العربيان اللذان يشذان عن هذا الاتجاه العام واللذان يحذران اليساريين الاخرين باستمرار من اشراك موقفهم الدوغماتي هما الياس مرقص وياسين الحافظ . انظر مقالتيهما في المصدر السابق ، ص ١٤ — ١٩ و ٢٠ — ٢٣ .

١٣ — للتبصر في الطريقة التي أثرت بها العقائد اليسارية على ردود فعل الجماهير العربية، انظر «The Fourth Arab - Israeli War», *Palestine Affairs,* No. 27 (November, 1973), p. 32.

١٤ — انظر النداء الذي اطلقه محمد جابر الانصاري بعنوان « التكامل الاقتصادي هو شرط تاريخي لاية وحدة » ، في **الانوار** (بيروت) ، ٤ ايار (مايو) ، ١٩٧٤ .

١٥ — للحصول على عرض مفصل للتطورات الاجتماعية — الاقتصادية ، انظر
Charles Issawi, « Economic Development in the Middle East ». *International Journal.* Vol. XXVII, No. 4 (Autumn, 1973), pp. 729-747.

١٦ — الذي وقعته مصر وليبيا والسودان في السابع والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩٦٩ .

١٧ — للحصول على تحليل دقيق يحيط بالموضوع حتى الوقت الحاضر ، انظر
Ibrahim Abu Lughud. « Altered Realities. The Palestinians Since 1967» *International Journal,* Vol. XXVII, No. 4 (Autumn, 1973), pp. 648-669.

١٨ — تشمل هذه العداوات اعمال المقاومة الفلسطينية ، وحرب الاستنزاف والغارات والغارات الانتقامية المتواصلة تقريبا على طول خطوط وقف النار والهدنة .

١٩ ــ لا بد من الاشارة الى ان بعض الدول العربية التي قبلت بقرار مجلس الامن وبمشروع روجرز ، أوضحت اكثر من مرة انها لا تعتبر هذا القبول ماسا بحقوق الشعب الفلسطيني القومية ولذا فانها أعلنت مواصلة دعمها لنضال الثورة الفلسطينية وكفاحها من أجل التحرير .

١٩ أ ــ تجب الملاحظة في هذا السياق بأن عددا صغيرا من الشخصيات الفلسطينية التي تعيش في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، كان بين ابرزها الشيخ محمد الجعبري وعزيز شحاده ورشاد الشوا ، طرحت مقترحات من النوع المعرض لاخطر الشبهات لحل النزاع العربي ــ الاسرائيلي . وقد رفض زعماء منظمة التحرير الفلسطينية خطط هذه الشخصيات برمتها ووصموها بالخيانة .

٢٠ ــ انظر
Peter Bechtold, *op. cit.*, pp. 159-60.

٢١ ــ تقدم دراسة أعدها فريق من الباحثين في مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت وصفا وثائقيا شاملا للحرب . انظر اسعد عبد الرحمن : **الحرب العربية ــ الاسرائيلية الرابعة**. (بيروت ، مركز الابحاث الفلسطينية ، ١٩٧٤) .

٢٢ ــ تشير عبارة « التضامن العربي » هنا الى التضامن بين الانظمة .

٢٣ ــ باستثناء « جيش الانقاذ » المؤلف من متطوعين ، كانت هذه الوحدات من مصر والاردن والعراق وسوريا ولبنان .

٢٤ ــ عادل أبو شنب ، «أكثر من مجرد تضامن» ، **المعرفة** (دمشق) ، العدد ١٤٣ (كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٤) ص ١٧٦ .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

اسرائيل وافريقيا

١٩٤٨ ــ ١٩٧٣

بقلم

عواطف عبد الرحمن

١٣٩ صفحة من القطع الكبير

سعر النسخة ٥ ل.ل.

تضاف اليها أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ،

٢٥٠ ق.ل. في أوروبا ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلب نسخك من : قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

سداسية الأيام الستة والوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل

(الكتاب الثالث : يعاد الثانية)

اميل حبيبي

اميل حبيبي ، أفضل من كتب القصة في فلسطين المحتلة ، يضيف بهذا العمل الجديد انجازا آخر الى رائعته الشهيرة « سداسية الايام الستة » . وما تنشره « شؤون فلسطينية » هنا هو الفصل الثالث والاخير من ثلاثية « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل » . ويلخص اميل حبيبي الكتابين الاولين من الثلاثية بما يلي :

ظهر الكتاب الاول ــ يعاد ــ من هذه السيرة الذاتية العجيبة (اوتوبيوغرافيا) ، في العدد الثاني من مجلة « الجديد » الذي ظهر في شباط ١٩٧٢ . وظهر الكتاب الثاني منها ــ باقية ــ في العددين ١١ و١٢ من « الجديد » اللذين ظهرا في كانون الاول من العام نفسه .

في الكتاب الاول ــ يعاد ــ ينتسب سعيد ابو النحس المتشائل الى عائلة عريقة في بلادنا يرجع أصلها ، كما يقول ، الى مسبية قبرصية من حلب ، من سبايا تيمور لنك سباها جده الاكبر ، أبجر بن أبجر . ويفسر اسم عائلته الغريب ــ المتشائل ــ بأنه ادغام المتشائم بالمتفائل . فشيمة هذه العائلة بين بين ! وفيه يروي قصة عودته الى « اسرائيل » من المهجر ، يوم قيامها ، وكيف التقى رجل الفضاء في ديناميس عكا ، وسفره الى مدينة حيفا ، واشتغاله زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين ، يرئسه معلمه يعقوب وفوقهما رجل الجهاز الخاص « الرجل الكبير ذو القامة القصيرة » ، حتى يلتقي صاحبته من أيام الدراسة ، « يعاد » ، ذات العينين الخضراوين . ولكن العسكر ، في دهمة تفتيش ، يقذفونها الى ما وراء الحدود ، فيضيع أثرها .

وفي الكتاب الثاني ــ باقية ــ يروي سعيد أبو النحس المتشائل قصة التقائه فتاة طنطورية ــ باقية ــ على مصب نهر الزرقاء ، فيتزوجها ، فتفضي اليه بسر عجيب عن كنز خبأه والدها ، قبل رحيله ، في كهف في غور البحر على شاطىء الطنطورة ، وتلد له ولدا وحيدا اسماه « ولاء » فيعلم من والدته بهذا السر ، فيقيم خلية سرية مسلحة مع زميلين له في المدرسة ويجعلون من قبو مهجور على شاطىء الطنطورة مخبأ لهم ومخزنا للاسلحة . اما الزميلان فتطالهما يد السلطة وأما « ولاء » فيلتجىء الى القبو مزمعا ان يقاوم حتى يقتل . فيخف الرجل الكبير مع عساكره الى سعيد ، أي والد ولاء ، ان يقوم ويذهب هو وامه ــ باقية ــ الى ولدهما ليقنعاه بأن يستسلم دون قتال وفضيحة . فيذهبان . فتحاول باقية ان تقنع ولدها بأن يستسلم ، فيدور بينهما حوار تكون نهايته الطبيعية هي انحياز باقية الى ولدها فتقف معه في القبو المهجور ثم يفاجئان العسكر ويغوصان في الماء فلا يعثر لهما على اثر . ويقال انهما غرقا في الكهف في غور البحر ، الذي خبأ فيه والد باقية كنزه المذكور . فيضيع أثرهما ، كما ضاع من قبل ، اثر يعاد .

[١]

سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : جاءت النهاية حين استيقظت في ليلة بلا نهاية . فلم أجدني في فراشي . فزارتني البردية . فمددت لها يدي ابحث عن سترة فاذا بها تقبض الريح .

رأيتني جالسا على ارض صفاح . باردة مستديرة . لا يزيد قطرها على ذراع . وكانت الريح صرصرا والارض قرقرا . وقد تدلت ساقاي فوق هوة بلا قرار كما تدلى الليف في الخريف . فرغبت في أن أريح ظهري . فاذا بالهوة من ورائي كما هي الهوة من أمامي وتحيط بي الهوة من كل جانب . فاذا تحركت هويت . فأيقنت اني جالس على رأس خازوق بلا رأس .

فصرخت : النجدة ! فجاءني بها رجع الصدى واضحة حرفا حرفا . فعلمت انني جالس على علو شاهق . فرحت أسلي وحشتي بمجاذبة الصدى أطراف الحديث . فكان الحديث طريفا حتى افترت الهوة عن ابتسامة فجر أغبر كأنها العبوس .

فماذا أنا فاعل ؟

فناديت عليّ قائلا : هدىء من روعك ، يا ابن النحس ، واجعل أمرك شورى مع عقلك . فما الذي وضعك هذا الموضع ؟ وهل من المعقول ان تنام في فراشك مساء فتستيقظ فاذا أنت على خازوق ؟ تأبى هذا الامر نواميس الطبيعة وأحكام المنطق . فأنا ، اذن ، في حلم لا غير على الرغم من انه حلم طويل .

فما بالي أظل قاعدا على هذا الخازوق ، تحزمني البردية ثم تنشرني لا ستر ولا ظهر ولا أنيس ، ولا أنزل ؟

هذا خازوق في كابوس لا محالة . كابوس عن خازوق . فاذا نزلت عن الاخير نفضت الآخر عن صدري فأعود الى فراشي واتغطى واتدفأ . فكيف أتردد ؟ أخوفا من ان أهوي من هذا العلو الشاهق الى قاع الهوة ، كبطة أردتها رصاصة صياد بط ، فأتوجع فأموت ؟

ولكن موضعي هذا هو موضع الوهم على خازوق الوهم . فهو فيما يراه النائم من احلام تخالف نواميس الطبيعة واحكام المنطق . فهيا ، هيا احتضن هذا الخازوق بساعديك وبساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وارادة شديدة عند الشدة ، ثم اهبط عليه وئيدا كالسنجاب .

فأزمعت أمري . فحركت ليفتي المتدليتين أتحسس صفحته فاذا بها ملساء كجلد الثعبان باردة مثل برودة . فأيقنت انني لن أقوى على التشبث بهذا الثعبان . واذا نزلت فأنا واقع لا محالة في القاع ، فأدق عنقي فأتوجع فأموت . فأمسكت .

وانتني حكاية الساحر الهندي الذي ينصب الحبل فيظل يرتفع في السماء حتى يغيب رأسه في الغيم فيصعد عليه حتى يغيب ثم يعود ويهبط عليه فلا يتأذى بل يسترزق . ولكنني قلت : ما أنا بساحر هندي بل مجرد عربي بقي ، سحرا ، في اسرائيل .

فأردت أن أصرخ : أنا في كابوس ! ثم أن أقفز ، فلا يمكن أن أموت !

ولقد صرخت . الا انني لم أقفز . فاذا كان موضعي هذا هو موضع الوهم فوق خازوق الوهم ، وفيما يراه النائم في منامه من حلم او من كابوس ، فلن يدوم الامر طويلا قفزت أم قعدت . وسوف استيقظ ، لا محالة ، فأجدني في فراشي متغطيا متدفئا .

فما حاجتي ، اذن ، الى مسابقة الساعات ، وربما الدقائق والثواني ، حتى لحظة اليقظة الآتية لا محالة ؟

ما حاجتي الى القفز اذا كان القعود سيقودني الى النتيجة نفسها ؟

وهزتني قشعريرة من البردية كادت ان تلقيني من فوق الخازوق لولا قشعريرة خاطر لم استطع أن أكفه عني :

فكيف اذا كان موضعي هذا هو حقيقة وليس فيما يراه النائم من حلم او من كابوس ؟ أما القول بانه مخالف نواميس الطبيعة وأحكام المنطق فلا يكفيني برهانا على انه غير حقيقي . ألم تبحث عائلتي ، عائلة المتشائل ، عن السعادة طـــي القرون في عجائب خارجة عن نواميس الطبيعة وعن احكام المنطق ؟ واذا ظل اجدادي يدقون اعناقهم وهم يبحثون تحت ارجلهم عن الكنوز المطمورة فها أنا قد وجدت ضالتي ، وأنا أنظر فوق رأسي ، في اخوتي الفضائيين الذين أعادوا الى نفسي الطمأنينة . فكيف ينتظر مني ، من دون آبائي واجدادي ، وأنا فوق هذا الخازوق بالضبط ، أن أسلم أمري الى نواميس الطبيعة وأحكام المنطق ؟

ولقد بقيت على هذه الحال أترنح بين قشعريرة وقشعريرة ، بردية تقيمني ومحتد عريق يقعدني ، حتى التقيت يعاد مرة ثانية فشعرت بالدفء لاول مرة منذ الف عام !

[٢]

كيف أصبح علم الاستسلام ، فوق عصا مكنسة ، علم الثورة على الدولة ؟

التقيت يعاد فيما يكون فيه اللقاء في اسرائيل — في السجن . والاصح انني كنت خارجا منه . أما كيف دخلت السجن فذلك حين أفرطت في الولاء حتى أصبح، في عرفهم، تفريطا .

وذلك حين كنت استمع ، في ليلة من الليالي الست العفريتية ، الى الاذاعة العربية من محطة اسرائيل احتراسا ، فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب المهزومين الى رفع أعلام بيضاء فوق أسطحة منازلهم فيوفرها العسكر المارقون مرق الســـــهام ، فينامون في بيوتهم آمنين . فاختلط علي أمر هذا الامر : أيهم يأمره المذيع — مهزوم هذه الحرب أم مهزوم رودس ؟ قلت : أنهزم أسلم عاقبة ! واقنعت نفسي بأنه اذا ظهر خطئي حملوه على حسن نيتي وبياض طويتي . فصنعت من بياض فراشي علما أبيض علقته على عصا المكنسة ونصبتهما على سطح بيتي ، في شارع الجبل في حيفا ، ولاء الافراط في الولاء للدولة .

ويا دلالة على من تدلّين ! فما ان أشرف على الناس هذا الشرشف حتى شرفني معلمي يعقوب بزيارة عاطل ، اي خلوا من السلام عليكم . فلم أرد التحية . وكان يصرخ : أنزله يا بغل !

فأنزلت رأسي حتى لامست قدميه وأنا اقول : هل عينوك ملكا على الضفة يا صاحب الجلالة ؟

فأخذ يعقوب بتلابيبي — أي ببجامتي — وراح يدفعني على الدرج نحو السطح وهو يشنشن : الشرشف ، الشرشف ! حتى بلغنا موضع المكنسة ، فانتزعها ، فحسبت انه

يريد أن يضربني بها ، فتعاركنا راقصين رقصة العصا حتى تهاوى على حافة السطح وهو يبكي ويقول : رحت يا صديق العمر ورحت معك !

فقلت انني رفعت الشرشف على عصا المكنسة ملبيا أمر المذيع من محطة الاذاعة الاسرائيلية . قال : حمار ، حمار !

قلت : ما شأني اذا كان حمارا ؟ ولماذا لا تستخدمون مذيعين سوى الحمير ؟

فافهمني ان المعني بالحمار هو أنا . أما مذيعو القسم العربي في محطة الاذاعة الاسرائيلية فكلهم عرب . ولذلك أساؤوا صياغة النداء فالتبس الامر عليك ، يا أحمق !

فدافعت عن بني قومي ، الذين يعملون في محطة الاذاعة ، قائلا : ما على الرسول الا البلاغ . يهتفون بما يلقنون . واذا كان رفع العلم الابيض على عصا مكنسة يسيء الى جلال الاستسلام فانكم لا تجيزون لنا حمل اي سلاح سوى المكانس .

وأما اذا كانت المكانس قد أصبحت ، منذ اندلاع نيران هذه الحرب ، سلاحا أبيض فتاكا لا يجوز لنا حمله الا بأذن ، كبارودة الصيد التي لا يؤذن بحملها الا للمخاتير وللمدمنين على الخدمة منذ الصغر ، فانني معكم أبا عن جد . وأنت تعلم ، يا صديق العمر ، باخلاصي المفرط للدولة ولأمنها ولقوانينها ، ما هو معلن منها وما سوف يعلن !

وكان صديقي يعقوب يستمع الى هذياني وهو مشدوه الفم لا يقوى على كفكفة الدمع المنسكب على وجنتيه فلا يقوى على كفي عن الهذيان .

حتى تمالك جأشه فأوضح لي ما وقعت فيه من التباس قرر رئيسنا الرجل الكبير ، ذو القامة القصيرة ، انه ليس التباسا بل نفير بشق عصا الطاعة على الدولة .

قلت : كلها عصا مكنسة !

قال : نداء المذيع موجه نحو عرب الضفة ، ان يرفعوا الاعلام البيضاء استسلاما أمام الاحتلال الاسرائيلي . فما شأنك أنت في ذلك في حيفا ، التي هي في قلب الدولة ولا أحد يعتبرها مدينة محتلة ؟

قلت : زيادة الخير خير !

قال : بل اشارة الى انك تعتبرها مدينة محتلة ، فتدعو الى فصلها عن الدولة .

قلت : ان هذا التأويل لم يدر في خاطري أبدا .

قال: اننا لا نأخذكم على ما يدور في خواطركم بل على ما يدور في خاطر الرجل الكبير . وهو يرى ان العلم الابيض ، الذي رفعته على سطح بيتك في حيفا ، هو دليل على انك تقوم بحركة انفصالية عن الدولة ولا تعترف بها .

قلت : انك تعلم علم اليقين انني مفرط في خدمة الامن ولا أفرط به .

قال : أصبح الرجل الكبير يعتقد بأن افراطك هو تمويه على تفريطك . ويستعيد الرجل الكبير أصلك وفصلك أدلة على انك تتغابى ولكنك لست بغبي . فلماذا لم تعشق سوى يعاد ولم تتزوج سوى باقية ولم تنجب سوى ولاء !

قلت : الم يسأل الرجل الكبير لماذا لم أولد سوى عربي ولماذا لم أجد وطنا سوى هذه البلاد ؟

قال : قم معي واسأله .

ولكنهم أخذوني الى غور بيسان وزجوا بي في سجن شطة الرهيب .

[٣]

حديث شطط في الطريق الى سجن شطـــة

لم يشأ الرجل الكبير الا ان يصحبني الى بيت خالتي فيسلمني الى مدير السجـــن تسليم اليد باليد . فنحن ، الذين ورثتنا الدولة عن آبائنا ، تظل مراتبنا عالية ولو في قاووش السجن . كقولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد الى جزيرة سيشل .

او هكذا أوهمت نفسي حتى اركبوني في سيارة البوليس المقفلة ، الرجل الكبير مـــع السائق الكبير وانا محشور مع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب . فلما اقفلوا الباب قلت : صونا لسمعتي . فلما تأففوا من شدة الحر . وكنا في آب الهباب ، تأففت معهم . فانهالوا علي لكما ورفسا وانا أصيح : النجدة النجدة أيها الرجل الكبير . ولفظتها بلغة عبرية فصحى لاقنعهم بعلو كعبي وحتى أقوم من تحت اكعابهم ، فتوقفت السيارة .

فاذا نحن على مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال . وقد عرجنا على طريق المرج ، مرج ابن عامر . وكان الرجل الكبير يؤشر لهم ، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب ، فانزلوني وحشروني الى جانبه ، بينه وبين السائق ، فاسترحت وتنهدت واستنشقت الهواء النقي وقلت : مرج ابن عامر .

فزجرني وقال : بل سهل يزراعيل .

قلت مراضيا : « وما يهم الاسم » كما قال شكسبير ؟ وقلتها بالانجليزية .

فقال مهمهما : وتروي عن شكسبير ايضا ؟

فاسترخيت مبتسما .

فزجرني وهمهم بصوت مسموع ان هم ، هم . ولو كنت اعلم بما وراء هذه الهمهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب .

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية ، واكتاف تلال الناصرة الى يسارنا ، أخذ الرجل الكبير يلقنني مبادىء حياتي الجديدة في السجن ، واصول التأدب مع السجانين من فوقي ومع السجناء من تحتي . وذلك بعد أن وعدني بترقيتي همزة وصل .

وكنت ، كلما أمعن في هذا التلقين ، ازداد يقينا انه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتى صحت من شدة الاستحسان : ما شاء الله !

وكان يقول : اذا ناداك السجان فليكن اول جوابك ـــ نعم يا سيدي ! فاذا انتهرك السجان فعليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي ! واذا سمعت من زملائك المسجونين كلاما فيه أي مساس بأمن السجن ، ولو تأويلا ، فعليك ان تشي بهم الى المدير . فاذا ضربك مدير السجن فقل له . .

فقاطعته هاتفا : حقك يا سيدي !

قال : كيف علمت ؟ وهل كنت مسجونا قبل ان نسجنك ؟

قلت : حاشا ، يا سيدي ، ان يسبقكم أحـــد الى هـــذا الفضل . انما وجدت ان سجونكم ، عطفا على ما شرحته من أصول التأدب في سجونكم ، هي من الانسانية والرحمة في معاملة المسجونين **بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنـــا** ، ولا نختلف . فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي ؟

قال : هذا هو ما يحيرنا . ولذلك قال المؤمنا الوزير ان احتلالنا هو أرحم احتلال ظهر على وجه الارض منذ تحرر الجنة من احتلال آدم وحواء .

- بل ان هناك من كبارنا كبارا يعتقدون بأننا نعامل العرب داخل السجون معاملة افضل منها خارج السجون ، والاخيرة ممتازة كما تعلم . وهؤلاء الكبار موقنون اننا ، بذلك ، نشجعهم على الاستمرار في مقاومة رسالتنا الحضارية في المناطق الجديدة ، مثلهم مثل الافريقيين آكلة لحوم البشر الذين كفروا بالنعمة .

قلت : كيف ، يا معلمي الكبير ؟

قال : خذ لك مثلا عقاب الابعاد الى ما وراء النهر . فنحن ننزله بهم وهم خارج السجن . فاذا دخلوا السجن ثبتوا فيه ثبوت الاحتلال الانجليزي .

قلت : ما شاء الله !

قال : ونهدم بيوتهم خارج السجن . اما في داخلها فيعمرون وينشئون .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، ماذا يعمرون ؟

قال : سجونا جديدة وزنازين جديدة في السجون القديمة ويزرعون من حولهـــا الاشجار الظليلة .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، لماذا تهدمون بيوتهم خارج السجون ؟

قال : لنقطع دابر الجرذان التي عششت فيها فننقذهم من الطاعون .

قلت : ما شاء الله ! وكيف كان ذلك ؟

قال : هذا هو التبرير ، الانساني الخالص لوجه وزارة الصحة ، الذي أورده وزير الدفاع عما اضطررنا اليه من هدم بيوت قرى الجفتلك ، في الغور ، وردا علـــى الاتهامات التي قذفها في وجوهنا ، في الكنيست ، النائب الشيوعي اليهودي أجير ناصر والملك حسين وأمير الكويت والشيخ قابوس .

ـــ أفحمه ؟

ـــ بل وفحّمه .

ـــ كيف ، ما شاء الله ؟

قال : منعه رئيس الجلسة عن الاستمرار في الكلام ، فأفحمه . ان الدمقراطية ، يا ولد ، ليست فوضى . والشيوعيون ، كما ترى ، فوضويون . فرفـــض نائبهـــم الانصياع لاحكام الدمقراطية فطرده الرئيس من الجلسة طردا ، ففحمه .

قلت : ما شاء الله !

وذلك حين كانت سيارة البوليس تخرج بنا من مدينة العفولة المرجية على طريق بيسان متجهة نحو مقامي الجديد . وكانت نواعير الماء على الجانبين تنشر رذاذها المنعش على خضرة يانعة ونحن في اوج الصيف . فاذا بالرجل الكبير ، وهو محشور معي الى جانب السائق في عربة الكلاب ، يصبح شاعرا .

وكان يقول ، وانا افشئل : الخضرة ، الخضرة على يمينك وعلى يسارك وفي كل مكان . احيينا الموات وامتنا الحيات (وكان يعني الافاعي) . ولذلك اطلقنا على حدود اسرائيل القديمة اسم « الخط الاخضر » . فما بعدها جبال جرداء وسهول صحراء وارض فقراء تنادينا ان اقبلي يا جرارات المدنية !

ولو كنت معي ، يا ولد ، حين عبرنا طريق اللطرون نحو اورشليم ، لرأيت امـــامك الخط الاخضر مرسوما بالفعل على الطبيعة نفسها بخضرة جبالنا المكسوة بأشجـــار الصنوبر، الشجرة تخاصر الشجرة والغصن يصافح الغصن وفي ظلها يتعانق المحبون. ثم كنت سترى ، قبالة جبالنا المكسوة ، جبالكم العارية حتى بلا اسمال تخفي عوراتها المكشوفة صخورا ظلت تبكي ربع قرن حتى سحّت عنها كل التربة . دعونا نكفكف دموع الصخر واما انتم فلا تكفوا عن الانشغال بدموعكم وأنتم تبنون القصور في اعالي الصخور .

— ألهذا هدمتم قرى اللطرون ، عمواس ويالو وبيت نوبا ، وشردتم اهاليها ، يا معلمي الكبير ؟

قال : لقد أبقينا على الدير لرهبانه ، مجلبة للسائحين ، وعلى المقابر لذويها ، ايمانا برب العالمين . وورثنا هذا الرحب بهذه الحرب . والذي فات مات . وهو مثل امريكي من أصل الماني .

وما بلغ هذا البيت من شعره حتى كانت السيارة تبلغ بنا بيوت عين جـــالوت التاريخية ، التي اعيدت الى اصلها التوراتي — عين حارود . وفيها عين ماء تصب في بركة انشأها اهل الكيبوتس ويؤمها اهالي الناصرة ليتبردوا وليشتموا المغول .

فأردت ان اجاريه في شعره فشدني من شعري قائلا : لا يكن لك فكر . لقد انتصرتم على المغول في وقعة عين جالوت لانهم جاؤوا لينهبوا وليذهبوا . أما نحن فاذا نهبنـــا فنهب لنبقى . واما انتم فالذين يذهبون. اصرف عنك هذه الوساوس التاريخية واستعد لدخول سجن شطة .

وما ان قال هذا الكلام حتى وقع تغير فجائي في وجه الطبيعة من حوالينا . زالت الخضرة في طرفة عين فلم تعد العين ترى سوى أرض جرداء وصخور قمراء ، على اليمين وعلى اليسار وعلى امتداد البصر ، كانما كنا نشاهد مسرحا هبط في خلفـــه منظر وارتفع في مكانه منظر .

فقلت متهكما وأنا اتظاهر بالجهل بالجيوبوليتيكا : ها نحن خرجنا عن الخط الاخضر ودخلنا في خط العرب الاغبر ، الذين تركوا اراضيهم انتيكا .

فزجرني وصاح : كنت أحسبك حمارا فاذا أنت أحمـــر . انظر أمامـــك فترى الى م ستدخـــل .

فنظرت امامي فاذا ببناء ضخم ينتصب امامي ، كالغول في الصحراء . جدرانـــه الداخلية مطلية بالكلس الابيض . وحوله سور عال مطلي بالدهان الاصفر ، لامر ما . وفوق سطوحه انتصبت كمائن الحرس ، المشرعي السلاح ، على اربعة اطرافه . فهالنا مشهد هذه القلعة الصفراء ، لا خضرة ولا كسوة ، وهي نائئة ، كالدمـــل السرطاني ، على صدر أرض مريضة بالسرطان . حتى انه لم يتمالك نفسه عن القول: سجن شطة الرهيب ، ما اروعه !

فوجدتني أهمس وأنا مشرئب العنق هلعا : ما شاء الله !

قال : مدير السجن هو الذي يشاء فانزل اوصيه بك .

[٤]

كيف وجد سعيد نفسه وسط حلقة عكاظية ــ شكسبيرية

- نزلنا أمام باب السجن الحديدي فهبط العسكر من عربة الكلاب وهرع ثلاثة منهم نحوي فأحاطوا بي كالاثافي الثلاث . واما الرجل الكبير فتصدر الموكب امام الباب . فما أن طرقه طرقة واحدة حتى نبح كلب من الداخل فانفتح .

فاذا بمدير السجن ، بلحمه وشحمه ، وهو ذو لحم وشحم كثير ، يهرع لاستقبالنا وأمامه كلبه البولدوغ المدلل . هذا يهش وذاك يكش . فلاعبا الكلب تارة وتطبطبا على الظهر اخرى حتى صعدا على درج وأنا واقف في الساحة الداخلية تحيط بي الاثافي .

ثم استدعاني أحدهم فصعد بي على الدرج الى دهليز ، فدهليز اخر ، فاخر ، حتى ادخلني مكتب المدير فاذا بهما يرتشفان القهوة بسرور مسموع .

فهش المدير في وجهي وقال : بوصاية صديقي العزيز ، الرجل الكبير ، ساعاملك معاملة خاصة . ولقد علمت منه ان ماضيك ابيض ناصع البياض لا تشوبه سوى شائبة سوداء واحدة هي ذلك العلم الابيض الناصع البياض ، وانك ولد مثقف وتروي عن شكسبير .

فانبسطت اساريري وانبسطت على مقعد .

فعاجلني بالقهوة وبالحديث عن شكسبير . فصار يتلو من خطبة انطونيوس امام جثمان قيصر فأتلو عليه ما غاب عن ذاكرته منها وهو يصيح : برافو ، برافو ! ثم قام عن مقعده واخذ يتصنع دور عطيل وهو يقبل ديدمونة القيلة القاتلة . فاستلقيت على الارض ديدمونة . فقال : قم ، لم يحن اوان ذلك بعد ! فقمت وقامت معي الهواجس .

قال : ولكننا امام السجناء سنعاملك مثلما نعاملهم ، وانت فاهم .

قلت : فاهم يا سيدي ! ونظرت الى الرجل الكبير مطمئنا فرد علي بأحسن منها .

فضغط المدير على زر فأقبل أحد الحراس . فصافحت المدير ثم صافحت الرجل الكبير الذي اوصيته بزميلي يعقوب خيرا . وظلات أشكر هذا والهج بحمد ذاك حتى دفعني الحارس خارج المكتب . فلما اوغلنا في الدهليز الثاني قلت في نفسي : أصبح هذا الحارس صديقي واخي فقد عبرنا سوية في دهليزين في سجن واحد ، كالمشاركة في العيش والملح ، فقلت له : مدير عالي الثقافة !

قال : فعم كنتما تتحدثان ؟

قلت : عن شكسبير وعطيل وديدمونة .

قال : وتعرفهم ؟

قلت : أروي عن الاول واستلقي كالثالثة .

قال : يا حبذا .

حتى ادخلني في غرفة معتمة خلو من النوافذ وجرداء من أي اثاث . فلما اضاء قنديل كهرباء في وسط السقف ، أوهي من نار ججا ، رأيتني واقفا في وسط حلقة من السجانين العراض الطوال ، كل سجان بعينين ناعستين اثنتين وبساعدين مشمرتين

اثنتين وبفخذين غليظتين اثنتين وبفم واحد مفتر عن ابتسامة كشراء كانما طبعت جميعها في قالب واحد .

فظللت أحاول أن اطبع على فمي الابتسامة نفسها فينهار الجانب اليساري من فمي، فأقومه ، فينهار الجانب اليميني ، فأقومه، فأحس بشفتي السفلى كلها تنهار ، فأقومها، فتصطك اسناني .

وفيما انا في هذه الرياضة الشفهية سمعت الحارس الذي اقتادني الى هذه الغرفة العبقرية يقول لعسكر الافخاذ : ويروي عن شكسبير ايضا !

فكانت اشارة البدء بسوق عكاظية لم يشهد تاريخ العرب مثيلا لها منذ ايام داحس والغبراء .

بدأها أحدهم قائلا : شكسبرنا يا ابن الكلب ! ثم لكمني لكمة مهولة . فتلقاني آخر قائلا : خذ يا قيصر ! فأخذت أتمايل نحوهم حتى ملوا اللكم فأعملوا الرفس فصرت اتدحرج تحت اقدامهم فيتداولونني فيما بين اقدامهم فأكون تارة أسرع منهم حركة فأشعر بعدة افخاذ تنيخ على صدري دفعة واحدة . فأصرخ فلا اسمع سوى أصوات مكتومة صادرة عن ضرب ولكم ورفس لم أعد أشعر بأنها تصيبني بل أسمعها قادمة من مكان بعيد . وكانوا قد توقفوا عن انشاد الاشعار الشكسبيرية وانصبوا على شعر الاهات : يتأوهون عزما فاتأوه خورا . يلهثون والهث حتى شعرت بأحذية تقطع انفاسي فغبت عن الوعي من شدة القهر .

واخر ما سمعته منهم ان اهلا وسهلا بشكسبير ، فعلق بي هذا اللقب بين زبائن السجن وفي اوساط الخريجين .

[٥]

سعيد في بلاط ملك

كان النهار يولي الادبار ، او هذا هو كل ما رأيته منه ، حين ايقظتني يد تصافح يدي . فاذا أنا ممدد على فراش من القش في غرفة معتمة منخفضة السقف لا ينيرها سوى نور من النهار يتيم يحاشر قضبانا حديدية متشابكة على كوة وحيدة في أعلى الحائط فلا يدخلها الا جريحا .

وكانت اليد الى يساري تصافح يدي وتشد عليها صبرا .

فوجدت انني عاجز عن تحريك أصابعي فحركت رأسي أنظر الى يساري فغام بصري على جسم فارع الطول ممدد الى يساري على فراش مماثل من القش ، عار الا من زي ربه وقد طلي بما حسبته ، لاول وهلة ، الدهان الاحمر القاني .

ولولا عينان اثنتان صوبتا نحوي بلا حراك ابتسامة تشجيع سرية ، ولولا يد تشد على يدي ان اشتد ، لحسبت ان الجسم الممدد الى يساري جثة بلا حياة .

قلت : اهلا ! فخرجت : اها !

فسمعت صاحب الجسم الملتف بعباءة الملوك الارجوانية يهمس : ما شأنك يا اخي ؟

قلت : هل هذه هي الزنزانة ؟

فسأل : أول مرة ؟

قلت : هناك غرفة بلا نوافذ .

قال : وهناك أمل بلا جدران .

قلت : وأنت ؟

قال : فدائي ولاجيء . وأنت ؟

فاحترت في هويتي كيف انتسب امام هذا الجلال المسجى الذي حين يتكلم لا يئن ويتكلم حتى لا يئن . هل اقول له انني كبش ومقيم ؟ أم اقول له : دخلت الى بلاطكم زحفا ؟

فسترت عورتي بأنين طويل .

فتحامل على نفسه فاذا هو منتصب أمامي بقامته الفارعة حتى رايته يحني رأسه كي لا تصطدم بالسقف او كي ينظر الي .

وصاح : كف يا رجل !

قلت في نفسي : ها قد أصبحت رجلا بعد أن ركلتني أرجل الحراس .

وكان ظاهر الشباب لم تزده عباءته الارجوانية الا شبابا .

ـ مالك يا اخي ؟

لو كنا التقينا في الخارج هل كان يناديني بيا أخي ؟

وشيء في عينيه اعادني عشرين عاما الى وراء ، الى ملاعب الصبا ومدارج شارع الجبل . وفي ندائه ، مالك يا اخي ، سمعت صراخ يعاد القديمة ، والعسكر يلقونها في سيارة الترحيل : هذه بلدي ، داري ، وهذا زوجي !

فأعولت كالاطفال .

ـ اصبر يا والدي .

فلم أتوقف عن البكاء ، الا انه كان اعتزازا وامتنانا ، بكاء الجندي يمنحه قائده وسام الشجاعة .

ـ تشجع يا والدي ..

دوسي، أيتها الاحذية الضخمة على صدري ! اخنقي انفاسي ! أيتها الغرفة السوداء اطبقي على جسدي العاجز ! فلولاكم لما اجتمعنا من جديد . الحرس الغلاظ ، لو كانوا يعلمون ، هم حرس الشرف في بلاط هذا الملك . والغرفة السوداء الضيقة هي البهو المفضي الى قاعة العرش !

أصبحت اخاه . اصبحت والده . فأعيدوا ابتساماتكم الى قوالبها ايها العسكر !

وهزني اعتزاز لم يهزني منذ هتاف يعاد : هذا زوجي !

انا والدك ايها الملك . فلي ولد ، مثلك ، الا ان عباءته من مرجان البحر .

ولم اشأ ان اخبره بأنني من حيفا فيطول الشرح . فقلت : من الناصرة .

قال : اهلنا الشجعان .

ثم سأل : شيوعي ، بالطبع ؟

قلت : بل صديق .

قال : انعم واكرم .

وضمد جراحي بالحديث عن جراحه . وظل يوسع في الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها في عرض الافق الذي لم أره من قبل . واصبحت قضبانها المتشابكة جسورا نحو القمر ، وما بين فراشي وفراشه حدائق معلقة .

وكنت أحدثه عن نفسي بما كنت أحلم به عن نفسي . وما كنت كاذبا . انما تحاشيت ان ادنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردني منهـا السجانون حين جردوني مـن ملابسي الخصوصية . ها أنذا متجرد امام متجرد . فكيف تخرج يا آدم مـن الجنة بمحض ارادتك ؟

الا أن الحراس لم يمهلوني . فقد جاؤوا وأخرجوني مـن الجنة ونقلوني الـى القاووش . . وهو قاعة طويلة في السجن يرقد فيها السجناء متراصين كل على برشه . وهو سرير حديدي فوقه فراش من القش . فبقيت عدة ايام ارتكب المخالفات لعلهم ينقلونني الى الزنزانة فألتقي ذلك الشاب الذي ناداني بيا والدي . ولكنهم لم يفعلوا .

وعلمت من السجناء انه فدائي فلسطيني قادم من لبنان أسره العسكر جريحا .

وقالوا ان اسمه هو سعيد . فقلت : عاشت الاسامي . فقالوا : ولكنه لم يتسم بشكسبير . وابتسموا مواسين . فانشغلت بتضميد جراحي وبالبحث عن سعيد الاول حتى التقيت اخته ، يعاد الثانية ، وأنا خارج من السجن مطلق السراح للمرة الثالثة .

[٦]

سعيد ينشد أنشودة السعادة

فالذي يدخل الى السجن ، في بلادنا ، يصبح حاله كحال المكوك في يد الحائك : داخل خارج . واما حائكي فهو الرجل الكبير . لم يشفع بي مـاضيّ الابيض بل زاد سواد حاضري سوادا . حتى رأيت باب السجن الحديدي بابا بين ساحتين في سجن واحد ، ساحة داخلية اتمشى فيها ساعة ، فأستريح ، وساحة خارجية اتمشى فيها ساعة ، ثم أروح .

وفيما أنا في مدار هذا الصاروخ المكوكي جاءني الرجل الكبير مهددا بأنهم سيظلون ورائي من سجن الى سجن حتى أهلك حبيسا أو طليقا أو أن أعود الى خدمتهم .

ـــ حلوا عني واركبوا غيري !

ـــ هل تتوهم اننا نجد أمثالك ملقين على قارعة الطريق ؟

ـــ قضيت نصف عمري في خدمتكم . فدعوا البقية أعيشها كبقية خلق الله ، لا أهش ولا أنش .

ولكنه أفهمني ان هذه الخدمة لا فكاك منها حتى بالموت . وقال : أبوك أورثها لك وستورثها لاولادك من بعدك . وسوف يلعنونك الا ان ذراعنا الطويلة ستنالهم ، جيلا بعد جيل .

وهددني بأن الناس لن يؤمنوا بتوبتي بل سيقولون ان العرق دساس وان من شب على شيء شاب عليه ، وبأنني لن أجد ملاذا غـيره . وهددني بالسجن . وهددني بالتعذيب . وهددني بالموت جوعا .

ولكنني لم أجع . فقد بسطت ، في زاوية في وادي النسناس ، بسطة كنت أبيع فيها الخضار . . فاذا جاء موسم البطيخ بعته أحمر حلو المذاق على السكين . فلما سلطوا

عليّ عساكر البلدية حليت أفواههم . فلما رجعني اولاد الحارة ، على اعتبار شهرتي الشهيرة ، استحليتها منهم فتركوني أحل في الحارة مطمئنا .

غير ان الرجل الكبير لم يحل عني . فاستكتب ورقة يأمرونني فيها بالاقامة الجبرية . فأخفيتها حتى يظل عساكر البلدية يجبرون بخاطري . فاذا بالرجل الكبير يرسل عساكره فيداهمونني على بسطتي ، في عز الظهر ، فيقتادونني الى السجن متهمينني على رؤوس الاشهاد بأنني خالفت أمر الاقامة الجبرية وسافرت الى شفاعمرو اتسوق بطيخا وان هذا الفعل يطيح بكيان الدولة . فالذي ينقل البطيخ سرا ينقل الفجل سرا ، وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الاحمر . والاحمر ، على كل حال ، ليس الازرق والابيض . وبالبطيخ تستطيع أن تنسف كتيبة كاملة ، اذا اخفيت فيه قنابل نعل ، يا بغل !

فأجابهم البغل : ولكنني أفتحها على السكين !

قالوا : والسكين أيضا . .

فلما انتشر الخبر بأن ورقة الاقامة الجبرية قد جاءتني ازداد الاقبال على بسطتي حتى جاءني شاب وقد تأبط صحفا . حيى وقال :

ـ جاءتك ؟

قلت : جاءتني منذ زمن طويل .

ـ فلماذا لا تقرأ الجريدة ؟

قلت : لانكم لم تجيئوا .

فقمت وعلقت ورقة الاقامة الجبرية على جدار البسطة . فلم يمض يومان حتى جاءت الشرطة ، وأبلغتني بأن الحاكم تلطف وألغى أمر الاقامة الجبرية . وان دولتنا دمقراطية . ثم انتزعوا الامر من على الجدار وأعادوني الى السجن قائلين انني حقرت أوراق الدولة الرسمية .

وقال كبيرهم : لو كنت في بلد عربي هل كنت تجرؤ على التباهي بورقة الاقامة الجبرية ؟ ان دمقراطيتنا لا تصلح لكم .

وذلك وأنا في طريقي الى السجن .

وفيما أنا خارج من الساحة الداخلية الى الساحة الخارجية مطلق السراح ، وقفت على طرف الطريق من بيسان الى العفولة استوقف سيارة تحملني . فاذا بسيارة خصوصية على رقمها حرف « ش » بالعبرية اشارة الى أنها من مواليد « شخيم » ، وهي نابلس لا غير ، تتوقف فجأة أمامي .

ويدعوني سائقها الى الصعود فأصعد شاكرا .

وكان ان جلست في المقعد الخلفي وحيدا وأنا مستوحد . وكانت فتاة جالسة الى جانبه ولم أر منها سوى شعر فاحم السواد كشعري بلا شيب . فقلت في نفسي : أنا في ايش وفكري في ايش .

وما اجتزنا طرفا من الطريق حتى دهمني السائق بالسؤال : كنا نعود قريبا في سجن شطة فأخبرنا الزملاء بأنك التقيت سعيدا . ولكن المدير أنكر وجوده . فهل تعرف له من مكان ؟

فانقبضت نفسي من هذا السؤال . فتحسست مقبض الباب كي أنزل من هذه

السيارة الملغومة ، الا انها كانت مسرعة . فأسرعت اجيب ، وانا مذهول :

ـــ انا سعيد !

فالتفتت الفتاة ذات الشعر الفاحم السواد نحوي لفتة زوبعية وهي تصيح :

ـــ بل أخي سعيد .

ـــ يعاد !

ـــ حبيبي

ـــ يعاد !

او هذا ما أحسب الان انه قد جرى بيننا . أما في تلك اللحظة ، التي كانت اقصر من اللحظة ، فانني لم اكن أسمع شيئا ولم اكن أرى شيئا سوى عينين خضراوين يتألق بؤبؤاهما بنور سماوي افتقدته عشرين عاما .

لقد رأيت يعاد ، عشرين عاما من يعاد دفعة واحدة ، في عينيها وفي صوتهـــا وفي شعرها وفي قامتها . فكيف تشعر سمكة أطاحت زوبعة ، دفعة واحدة ، بثلج تراكم على سطح نهرها عشرين عاما ؟ يا تراب القطب الجنوبي قل لهم كيف يكون شعورك لو انحسرت من فوقك ثلوج الدهر دفعة واحدة ! يا لظى البراكين ارو لهم حكايتي ! ويا صخر بلادي انفجر ينبوعا !

أما أنا فانفجرت بكاء .

فأوقفا السيارة . فنزلت يعاد وانتقلت الى المقعد الخلفي بالقرب مني . فأخذت يدي بين يديها فوسدتهما صدرها ثم وسدت رأسها كتفي فامتزجت دموعنا . وكان السائق يزغرد ببوق سيارته ويسير بها بطيئا كأننا في موكب عرس .

ـــ سعيد ، سعيد .

ـــ يعاد ، يعاد .

ـــ أخيرا وجدته .

ـــ ولن تفقديه ابدا .

ـــ كيف حاله ؟

ـــ على ما ترين ، يا يعاد !

ـــ على ما ترين يا يعاد !

واستحوذتني رغبة جامحة في أن أصفق ، في أن أغني ، في أن أزغرد ، في أن أصرخ حتى تنهار من على صدري طبقات الخنوع والمذلة والحاجة ، والصمت ، نعم يا سيدي، عظيم يا سيدي ، أمرك يا سيدي ! فينطلق قلبي من صدري ، حرا ، يطير ، يحلق في أجواء النسور ، ينادي على الناس : مثلكم أنا يا ناس ، شجاع مثلكم ، ومثلكم لي قدمان ثابتتان على الارض وظهر مستقيم وقامة طويلة ورأس في السماء . سعيـــد بشجاعتي مثلكم يا ناس . يعاد الى جانبي يا عالم ! صغيرة كعصا الراعي ، جديدة كالحلم القديم !

عشت الاعوام العشرين لوحدي . عشتها عن يعاد . عشتها حتى الثمالة ، حتى القعر . شربت كأسها المر كله وحدي . فلم يبق لها منه اية قطرة . انقذتها من هذه السنوات العشرين المريرة ، فبقيت يعاد صبية في العشرين وبدون عشريني . عادت

الي كما كانت ، هي هي ، تضحك وتبكي ، تتحدى وتحب ، وتناديني : سعيد !

سعيد أنا يا عالم ! اسمعي يا دنيا ، من الخط الاخضر حتى الافق الازرق ، القفار والحقول ، القبور والسماء : لقد انطلقت خارج الساحتين حرا ، الداخلية والخارجية . أصبحت حرا .

سعيد ، أنا سعيد !

ولكنني فعلت أمرا آخر بالمرة . فبدون أن أدري بما دفعني اندفعت ففتحت باب السيارة والقيت بنفسي منها ، ويدي بيد يعاد لا أتركها . فوقعنا على التراب الجاف وانا غائب عن الوعي .

[٧]

وجهنا نظر في مصيبة اسمها الطوق !

أيقظني عطر القرية ، الذي عبق به ليلها الانيس . فوجدتني مستلقيا على فراش من الصوف نظيف . فتخيلت انني نائم على صدر أمي ، في بيتنا العتيق . وكانت تأتيني رائحة المونة وخابية الزيت وطين الطابون ، وأصوات همس مكبوت ، وأنفاس أطفال نائمين بلا كبت ، وخيالات نساء قرويات وهن رائحات غاديـــات يحملن أطباق الارز المعصفر وفوقه لحم الدجاج ، ومائدة خشبية منخفضة في وسط البيت العتيق .

فناديت : أماه !

فسمعت النسوة ينادين على يعاد أن والدها قد استيقظ . فأخذت أتلفت حولي بحثا عن والدها فلم أعثر له على أثر .

ـــ أين أنا ؟

فأخذن يحمدن الله على نجاتي وهن منسحبات خارج الغرفة باشارة من يعاد . وسمعتهن يرجونها أن تسرع قبل أن يبرد الطعام .

وجئت يعاد على الحصير الى جانبي وقالت : صن سري بكرامة أخي سعيد .

فقلت : بل أصونك حتى من الموت !

فأخبرتني بأننا في قرية « السلكة » المرجية . وهذا الاسم غير ظاهر على الخارطة لا لانه زال من الوجود ، ومثل هذا الامر موجود ، بل لانه غير موجود . فقد استعرت لهذه القرية ، التي آوتنا ، اسم السلكة . ام سليك بن السلكة ، الذي

طاف يبغي نجوة

من هلاك فهلك

فالمنـــايا رصَّـــد

للفتى حيث سلك

وذلك حفاظا على سر هذه القرية المرجية العجيب الذي ، على الرغم من انه جاوز الاثنين ، لم يجاوز حدود القرية عشرين عاما ، عن فتى لي يطوف كالسليك بن السلكة في الارض نجوة ، فهلك ، بل أقام حتى شاخ ، فهلك . ولكنني أفردت لهذا السر فصلا خاصا سأرويه عليك حين يجيء .

وأما سر يعاد ، الذي ناشدتني أن أصونه ، فهو ادعاؤها امام مضيفنا انني والدها .

قلت ـــ قيل : رب أخ لك لم تلده أمك . وانا اقول : رب والد لك لم تتزوجه أمك .

قالت : رحمها الله ، انت في ايش ونحن في ايش .

فقلت : فما أبقاك معي ، اذن ، وأين السائق ؟

فأخبرتني بأننا ، حين وقعنا من السيارة وكانت ، سلم الله ، تسير بطيئا ، غبت عن الوعي دون أذى . وأما يعاد ، « شكرا لك يا والدي » ، فقد كنت احوطها بذراعي فوقعت على صدري فلم تتأذ . فهرع نحونا رجال ونساء من قـــرية السلكة ، كانوا يعملون في اراضي الكيبوتس القريبة من موقع وقعتنا . وكان على رأسهم مضيفنا ابو محمود الذي أكرم وفادتنا وسافر معنا الى قريته ، فبيته ، حيث وجدوا انني غائب عن الوعي اعياء فحسب . فتركوني أستريح حتى أتماثل .

وأما سائق السيارة ، وهو صاحبها ، فهو صديق كريم الا انه اضطر للعودة الى نابلس ، فانه محظور عليه المبيت في اسرائيل وسيارته معه . وقد تركنا وهو شديد التأثر مما بدا منه من اهمال . فقد توهم انه هو المسؤول عن سقوطنا حين لم يحكم باب السيارة اغلاقا .

فأحكمت اغلاق فمي عن هذا الوهم خوفا من وقعة أخرى .

أما يعاد فآثرت البقاء معي حتى يعود اليّ رشدي فأعيد اليها أخاها سعيدا الذي جاءت الى شطة من بيروت تبحث عنه .

ـــ وسجين زندة المقيم (الذي هو أنا) ، يا يعاد ، ألا تعودين اليه ؟

ـــ الآن ، يا والدي ، وقت العشاء . ثم وأكرم الناس الكرام الذين اكرمونا .

وأقبل أهل الدار يسلمون على القادمين « من عند العرب » . وكانوا يؤهلون بنـــا تأهيلا عظيما ، ويتلقفون كل كلمة نقولها بحرص شديد كما لو انها بضاعة نادرة مهربة . وتولت يعاد الرد على أسئلتهم . وأما أنا فاكتفيت بالقيام وبالقعود وبيا حيى اللـــه وبالسلام عليكم ، خوفا من أن يتعثر لساني بكلمة في غير موقعها فأقع .

وكانت يعاد بين الرجال رجلا . حسنها شباب ، وشبابها حسن وأحسنهما المامها الحسن بحديث الرجال . وكنت أنظر نحوها مأخوذا بها ، فأسمع الرجال يدعون الله أن يبقيها لي فأحمده وأدعو له وأغض الطرف عن سري .

وقالوا انهم كتموا أمرنا ، ما وسعهم الكتمان ، عن بقية أهل القرية حذر الوشاة وأن يكون قدومنا غير قانوني .

وأخبرنا أبو محمود ، وهو رب البيت ، بأن القرية وقعت ، قبل عام ، في الطوق سبعة أيام بحثا عن متسللين . فلما لم يجدوهم اقتادوا أربعة عشر رجلا الى السجن وفكوا الطوق عن القرية .

فما هو الطوق ؟

قال : يقوم البوليس بتطويق القرية ويسد منافذها ويفرض منع التجول فيها . ثم تهدر سياراته المصفحة في أزقة القرية . وينتشرون ، وفي أثرهم كلاب الاثر ، يدخلون البيوت ويروعون الاطفال ويدلقون خوابي الزيت على عدل الطحين خوفا من ان يكون المتسللون قد تسللوا الى الخوابي والعدل . فاذا سمعنا صراخا في بيت تسللنا اليه في حلكة الليل ، فليل القرية حالك ، وهذا حاله عشرين عاما ، يسدلونه سترا لهم فنتستر

به عنهم ، فاذا قال اهل البيت المنكوب : اخذوا سعدا ! قلنا : انج سعيد ! فيخترق الطوق برعاية ليلنا الساتر أما منجاة او في طلب الرزق .

قالت : أفلا من مجير ؟

قال : ما من مجير سوى الشيوعيين واهل الكيبوتس !

وكنت لاحظت ان هؤلاء القرويين ، ما أن يلتقوا قادما من « عند العرب » ، حتى يحسبوه شيوعيا أو من الحمولة . فتراهم يوسعون له من صدورهم الواسعة . فضحكت في سري ثم قلت : يا حي الله !

وأبو محمود قال : أما الشيوعيون فيجرؤ نوابهم على اختراق الطوق . فيدخلون معنا فيه مؤاسين ومشجعين ان اصمدوا . ويجمعون الحقائق . ويصيحون في الكنيست . وهو مثل البرلمان عندكم (فضحكت في سري ثم قلت : يا حي الله !) ويضطرون الوزير الى الرد . فتخترق مصيبتنا جدار الصمت الرسمي . ويسيرون على رأس مسيرات في الناصرة وتل أبيب يهتفون في أثنائها : فكوا الطوق ، فكوا الطوق ، اليوم تحت وبكره فوق ! وينشرون عن طوقنا في صحفهم . ويقولون لنا ان صحف الاحرار ، في انحاء العالم ، تنقل عنهم فيطلق طوقنا الضمير العالمي الذي تحاول الصهيونية أن تطوقه ، لولا الشيوعيون . فهل قرأتم عن طوقنا في صحف الاقطار العربية التي لم تطوقها الصهيونية ؟

قالت دعد ، وعيناها تبرقان ايذانا برعد : ان صحف الاقطار العربية تطوقنا بالانتصارات ، كالاطواق فوق رؤوس قديسيها ، فلا يبقى مكان فيها لطوقكم . وما انفكوا يطوقوننا بأطواق الانتصارات حتى اختلط الحابل بالنابل فلم تعد تفرق بينها وبين أطواق الزهور على القبور .

قال : ولكن الصهيونية تقيم الدنيا وتقعدها على خدش اصبع ؟

فقصف الرعد . فقالت : القضية ، يا سادة ، هي وجهة نظر . فأنتم ترون في ما أصابكم مصيبة . اما نحن فان الطوق هو حياتنا . تقولون : من المهد الى اللحد . أما نحن فنقول : من الطوق الى الطوق ! فلا تنتظروا من الذين يعيشون حياتهم كلها في التطويق والتفتيش ، نهب كلاب الاثر حتى ضياع الاثر ، ان يشعروا بمصيبتكم التي اصبحت حياة أمة بأسرها ، من الخليج حتى المحيط !

فلم أتمالك لساني الا بعد أن قلت : من سواك بأخيك ما ظلم !

فاشرأبت الاعناق نحوي منزعجة . فشعرت بأنني وقعت . فرحت أحيي السامر على اليمين وعلى اليسار وأنا أقول : يا حي الله ، يا حي الله !

فهمهموا بما يشبه التحية .

قالت : وأهل الكيبوتس ؟

قال : لا يمضي اسبوع على التطويق حتى تتوق اراضيهم الى أيدينا الماهرة . فيتوسطون لفك الطوق فنعود الى العمل في حقولهم .

قالت : لماذا أنتم ؟

قال : لانها كانت حقولنا . انبتناها وسوف ننبتها . تحنو علينا كما نحنو عليها . وأما هذا الحنو فقد عجزوا عن مصادرته .

فانفلت لساني من عقاله مرة أخرى . ووجدتني أصيح مندهشا : فالخضرة نبت سواعدكم ، اذن ، لا كما ادعى الرجل الكبير !

فاشرأبت الاعناق نحوي ، مرة أخرى . وتهامس السامر بالسؤال : من هو الرجل الكبير ؟

الا أن يعاد عاجلتهم بابتسامتها الساحرة وبأن والدها يتحدث عن ذلك الجندي ، الضخم ، ولذلك فهو رجل كبير ، الذي دخل معه في موضوع السياسة ونحن ندخل في الضفة الغربية عبر الجسر .

وطمأنتهم يعاد على اننا قادمان عبر الجسر باذن اسرائيلي رسمي . وسوف نبقى في البلاد شهرا نقضيه بحثا عن أخيها سعيد الذي جاءنا انه رهين في سجن شطة .

قالوا : الرهيب . .

قلت : اسألوني . .

الا أن هرجا ومرجا في الخارج انقذاني من هذه الوقعة الاخيرة . .

[٨]

السر الذي لم يمت بموت السر

رأينا مضيفينا يغدون ويعودون وقد اشتد عليهم التأهيل بنا كما لو اننا حللنا منزلهم توا حتى ضاع ، في ذلك ، صوت الضوضاء في الخارج . فحاولوا أن يضيئوا وجوههم المنطبقة على أمر خطير بابتسامات ذكرتني بأغصان الشجر فوق خوذة جندي او فوق دبابته .

وأردت أن أسأل : ما الخبر ! لولا قدم يعاد ، التي داست علـى رجلي ، فكتمت أنفاسي .

واختفت النساء عن أعيننا . وأطفال كانوا نائمين في زاويـة استيقظوا فحملوا أغطيتهم على ظهورهم وغابوا عن أنظارنا مطأطئي الرؤوس دون ان ينظروا في وجوه آبائهم .

وكان رجال ، لم نرهم من قبل ، يدخلون المضافة فيجلسون بعد أن يرحبوا بنا . وأما رجال الدار فكانوا يخرجون واحدا واحدا فلا يعودون .

سوى أبي محمود الذي تسمر في مكانه وقد أقام ظهره فلا تعرفه جالسا أم قائما .

وجثا فوق صدورنا صمت ثقيل كالذي يؤذن ، كما قيل ، بالعاصفة . فأردت أن أقول: « هذه هي الشجرة التي تصمد لها ! » لولا قدم يعاد الضاغطة بعناد على أسناني .

وأتانا من بعيد نحيب امرأة مخنوق الصدى . فاشتد ترحيب الغرباء بنا واحدا بعد واحد في حلقة لا فكاك منها ، يقومون ويقعدون فأقوم وأقعد دون ان انجح في فك قدمي من تحت قدم يعاد ، او لساني المتململ من عقاله .

حتى رأيت مضيفنا يخرج ، في مشية أرادها عادية فجاءت عسكرية ، ثم يعود وهو يقول : لا حول ولا !

فأطلقتها : خير ان شاء الله ؟

قال : شيخ جليل من أهلنا وافته المنية الليلة . فتبكيه النسوة .

فكلما وجدت ان كلامي محمول ، سألت :

ـــ المختار ؟

فأجاب شيخ من الغرباء : اختاره ربه الى جواره وهو أرحم الراحمين .

فأوغلت في جرأتي فقلت : لو أخذهم جميعا !

قال : كلنا اليها .

فقالت : رحمه الله . ومن خلف ما مات . وكان هاجس قد انتابني ان ما بدا على القوم من اضطراب ، على اثر الهرج والمرج في الخارج ، راجع الى ان طارشا في الخارج جاء يبلغهم بحقيقة أمري . فلما استوعبت ما جاء به مضيفنا عن وفاة شيخهم تنهدت مستريحا ووجدتني أقلت : الله سلم !

فلم تلحقني يعاد بقدمها ، هذه المرة ، الا بعد أن قضي الامر .

والغريب في هذا الامر ان القوم الغرباء همهموا مستحسنين دعائي وراضين عنه .

فانطلقت من تحت قدم يعاد أفسر لهم فلسفة عائلتنا ، المتشائل ، وان هناك موتا أسلم من موت ، وموتا أسلم من حياة . وان أخي البكر ، حين قطعه الونش في « بور » حيفا اربا ، دفناه جثة بلا رأس .

ومرة أخرى بدرت من القوم الغرباء همهمات الاستحسان والرضى عن فلسفتي العائلية العريقة حتى انهمكت في ترتيب كلام في رأسي يليق بسؤالهم عن اصول اشجارهم العائلية لعلنا ان نلتقي في أصل او في فرع . فكلنا من آدم .

غير ان يعاد اوقفتني عن هذه الرياضة الذهنية — التاريخية وهي تحوطني بذراعها وتشدني اليها شدا خفيفا وتهمس في اذني : عمي سعيد ، عمي سعيد ، جئت كي أزورك !

فصرخت : تزورين فحسب ؟

فأجاب مضيفنا ابو محمود : لا حاجة الى ذلك . لقد دفناه وانقضى الامر .

فقد ظن باننا نتحدث عن شيخه الميت لا عن شيخنا الحي .

فسألت : الليلة ؟

قال : الليلة .

— ولماذا لم تنتظروا طلوع الفجر ؟

قال : ان فجره لا يطلع غدا .

فعن أي فجر يتحدث ، اذن ؟ قلت ، وأنا محتار : انني لا أفهم من كلامك شيئا .

قال : ولا هم يفهمون !

فصرخت يعاد : نحن أصدقاؤكم ، فأفصح . ان الصمت يخنقكم .

قال : كل ما حوالينا ، نحن أهل القرى ، صامت : الارض والدواب والمحراث . ان لغتنا هي الصمت . فنتوارثها جيلا جيلا . فاذا كنتم تتحدثون بهذه اللغة تفهموننا ونفهمكم .

قالت : الا تزغردون ؟

قال : الامر أعقد مما تتصورين ، يا اختنا القادمة من بيروت . لقد زغردنا وزغردنا وزغردنا ، مثلما لم يزغرد أحد . ولكن أعراسنا كانت تتحول ، في كل مرة ، الى مآتم . والذي كنا نحسبه صديقنا كان يخطف العروس ويهرب الى بيروت !

قالت : ان أصدقاءكم ، اليوم ، مختلفون . فهم أصدقـــاء مخلصون . ألم تذكـــر الشيوعيين ، مثلا ، بالخير ؟

قال : على الرأس وفوق الحاجب . الا أن غذاءنا الاساسي هـــو زيت الزيتون . نستحلي اعواد الخرفيش الا أنها تنقصف . لا بأس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلنا الصامت . سنظل نجربهم ونجربهم ونجربهم ، في صمت ، حتى يطعمونا من زيتونهم . صياح الديك لا يطلع الصباح . ولكن ديوكنا ستصيح حين يطلعونه . فعلى أصدقائنا أن يتعلموا النطق بلغتنا ، لغة الارض والدواب والمحراث ـــ الصمت الدؤوب !

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم ، بصمت ، استحسانا . وأحببت أن اقاطعه قائلا : لو كان كلامك صحيحا لكنت أنا ، سعيدا ابا النحس المتشائل ، الصامت ذلا ، صديق الفلاحين الاول !

لولا انني تذكرت ماضيّ النابح وانني كنت اتكلم بالوشاية ولا أصمت !

ثم أتتني خاطرة عجيبة حقا وهي أنني ، على طول باعي بالوشاية ، لم استطع ان أشي بصمت رجل صامت . فصمت !

وفيما أنا في هذه المناجاة الصامتة ، بيني وبين نفسي ، اذا بامرأة عجوز ، هزيلة كعود ذرة جاف ، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح : السر مات ، يا أبا محمود ، فعلام تتستر !

فهرع ابو محمود نحوها واخذها بذراعيه ودفعها محاولا أن يخرجها الى الخارج . فأبت . فظل يحوطها بذراعيه وقد أسند رأسه الى صدرها وأجهش بالبكاء كالاطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافة واحدا واحدا فيبتلعهم الليل البهيم وقائلهم يقول : السر مات . ولكن علينا ، غدا ، أن نعيش !

قضينا تلك الليلة مستيقظين وأبو محمود يروي لنا أعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من اهل القرية ترك قريته ، في عام ١٩٤٨ ، مع قوافل النازحين ، بلا قوافل ، الى بلاد العرب الواسعة . ثم تسلل عائدا الى قريته بعد قيام الدولة . فظل أهل القرية يحفظون فيما بينهم أمر عودته . فآووه وأطعموه . واحترف صناعة الحصير والمكانس . فزوجوه . وادعوا ان زوجه هي امرأة اخيه الثانية ، وان اولاده هم اولاد أخيه منها . وحفظوا السر هم واولادهم من بعدهم فتكاثر اولاده وتكاثر حفظة السر فلم يبلغ آذان السلطة على الرغم من تكرار التطويق طول الاعوام العشرين الماضية . وكان يموت مختار ويولون مكانه مختارا فيختار لهم ما شاؤوا من الوشاية الا هـــذا السر الذي اضبح كالعرق الدساس لا يدسون على بعضهم البعض به ، او كيقظة الضمير الذي يجب الا يوقظ .

حتى شاخ السر فوافاه الاجل الليلة فدفنوه صمتا وبكوا عليه صبرا .

ـــ ومن تكون تلك المرأة التي اقتحمت علينا المضافة ؟

ـــ أم أولاده .

ـــ ومن تكون لك ؟

ـــ والدتي !

ـــ خفف عنك . لقد عاش عمره ، رحمه الله !

ـــ ولكنني لم اعشه . كل يقول هذا والدي . أما أنا فأنكرته حتى اعيش .

ـــ حتى يعيش .

ـــ هذا هو سري الذي لم يمت بموته .

وكان الفجر قد طلع . - - - - - - - - - - - -

[٩]

عودة يعاد الى البيت القديم

بدأت الامور تختلط في عقلي عن يعاد حين بدأنا بتناول طعام الافطار ، فولا مخلوطا بالحمص ، في مطعم في العفولة . فاستغربت يعاد ان يتقن اليهود ، القادمون من أوروبا ، هذا الفولكلور العربي . فقلت لها : بل قادمون من بلاد العرب ولم يتغير عليهم شيء حتى ولا الشتيمة ـــ يشتمون ويُشتمون بلغة الضاد .

ضحكت يعاد وشتمتني تحببا . قلت : هل تشتم البنت والدها ؟ قالت : بل أنت عمي وفارس احلامي منذ الصغر .

قلت : والذي حولني ، بين ليلة وضحاها ، من أبيك الى عمك ، سيعيد اليك ذاكرتك الليلة . فهيا الى حيفا نوصل ما انقطع .

وفي السيارة ، التي حملتنا الى حيفا ، أخذت يعاد تلاطفني وتقول : سأفاجئك يا عمي مفاجأة . اما ان تكون سارة او ان تكون سيئة فأنت تحكم .

وأخذتني كما يأخذ المعلم تلميذه واسمعتني حكاية لم استطع تصديقها . ولكنها ظلت تحكي ، وتحكي فلا أجد لحكايتها من جواب سوى : مستحيل !

قالت ان أمرها اختلط علي . فيعاد ، التي انتظرتها ، هي والدتها . وقد ماتت .

ـــ وأما أنا ، يا عمي ، فأبنة يعاد التي انتظرتها .

ـــ مستحيل ، مستحيل !

ـــ هل اشبهها كل هذا الشبه يا عماه ؟

ـــ مستحيل ، مستحيل !

وقالت ان والدتها كانت تذكرني دائما بالخير ولذلك سمت ابنها سعيدا باسمي ، وابنتها يعاد باسمها ، « حتى اذا عدت ، يا يعاد ، ستقولين له : لم تغيرنا الغربة » .

ـــ ها نحن التقينا ، يا عماه . فهل تغيرنا ؟

ـــ الصبا هو الصبا ولم يتغير . لكنني أرى ، ويا لمصيبتي ، ان الزمن الذي انتصر شبابك عليه قد انتقم من ذاكرتك . فكيف ينسى الحبيب حبه الاول ، والزهرة الفجر الذي برعمها ؟

ـــ هل كنت تحبها هذا الحب كله يا عماه ؟

ـــ أحبك كما احب الشيخ ان يكون ماضيه حلما فيستيقظ . لقد استيقظت . فكيف أجدك تهذين في المنام ؟

واوغلت في اوهامي كغريق يوغل في مغارة تحت الماء يلوح له ، في طرفها البعيد ، سراب نور .

قلت : حين تدخل بيتي العتيق في شارع الجبل ستستيقظ .

فلما وصلنا اليه ، تأبطت ذراعها واخذت اصعد بها الدرجات ، التي درجوهـا عليها من قبل عشرين عاما ، وانا احسب نفسي عريسا في ساعة الدخلة .

القيت الاعوام العشرين الماضية في صندوق القمامة في ساحة الدرج وصعدت الى المنزل وانا اطير بجناحين من يعاد .

وكنت اهتف : ها نحن نعود عودة المنتصرين !

وكان الجيران يفتحون ابواب بيوتهم محيين ومستفهمين . فكانت تركض الى جانبي وهي ترد التحية وتقول متباهية : عمي بعد غياب العمر !

فأطلقت جارة زغرودة الحقتهـا الجارات الاخريـات بزغاريد متـلاحقة كتلاحق صفارات السفن في ميناء حيفا ليلة رأس السنة .

فلما دخلنا المنزل قالت يعاد وهي مبهورة النفس : استرح ، ايها المنتصر . أمـا انا فأعود اسيرة !

وسألت : لاي شيء زغردت النساء ؟

قلت : لعودتك .

ـ أسيرة ؟

ـ زائرة .

ـ فما يفرحهم ؟

ـ السجناء يحلقون ذقونهم ويتزينون ويفرحون في يوم الزيارة .

قالت : ما هذا وقت الفرح .

ـ حتى فرحة الزيارة تبخلين بها على هؤلاء السجناء ؟

قالت : كيف تأتي الفرحة بنعمة الغازي ؟

فأجبت : كما ينضج الطعام بنعمة النار .

فلما سألتني : من أين أتتك هذه الحكمة ؟

اجبتها : من يوم ما شكسبرني حراس السجن .

وحكيت لها حكايتي معهم وكيف التقيت اخاها في الزنزانة فسمعت منه كلاما جعلني ارى الزنزانة جنة وقضبان الكوة جسرا نحو القمر .

فكانت تضحك تارة وتبكي تارة . وتقول : اخبرني عن يعادك ؟ فأروي لها حكايتنا القديمة . واقول : هنا جلسنا . وهنا ، في هذه الغرفة ، ظللت يا شيطانة مستيقظة تنتظرينني وانا منكتم الانفاس في الغرفة المجاورة ، لانني اهبل ، حتى جاء العسكر .

ـ العسكر يطوقون الدار !

هذا ما سمعته من الجارة ، التي اقتحمت علينا الباب دون استئذان فوجدتني جاثيا على اربع تحت قدمي يعاد امثل وقعتي الاولى عن الدرج ، قبل عشرين عاما ، ويعاد تضحك .

فلم أقم من جثوتي .

[١٠]
في انتظـــار يعـــاد الثالثـــة

وامـــا يعاد فجلست على مقعد ووضعت رجلا على رجل ، جلسة الرجل ، وقالت: قم وناولني سيجارة ولا ترع !

ـــ فيأخذونك كما اخذوك في تلك المرة .

ـــ أخذوا والدتي في تلك المرة .

ـــ فيأخذونك هذه المرة .

ـــ الامر هذه المرة غيره في تلك المرة .

ـــ ولكنهم لم يتغيروا .

ـــ اذا لم يتغيروا فهي مأساتهم . أما نحن فتغيرنا .

ـــ لن تستطيعي ان ترديهم . وسوف يأخذونك مني .

ـــ الى أين ؟

ـــ الى ديار الغربة .

ـــ بل انا راجعة اليها ، اخذوني ام تركوني . فهل لديك من حل ؟

ـــ ان نختبىء لدى الجارة .

ـــ الى متى ؟

ـــ نفعل ما فعله الشيخ الضرير في قرية السلكة .

ـــ عشرين عاما اخرى ؟

ـــ حتى تتغير الامور .

ـــ فمن يغيرها ؟

ـــ اخوك سعيد قال : الشعب .

ـــ الشعب وهو مختبىء ؟

ـــ أنا وأنت نختبىء . أما اخوك سعيد فيكافح .

ـــ فيهدي الحرية الى المختبئين ؟

وضحكت متهكمة ثم قالت : اذا عشت يا عمي سعيد فستكون ابن سبعين عامـــا حين تلتقي يعاد الثالثة . ولن تعرفها ولن تعرفك .

وأجلستني الى جانبها :

ـــ هل تحبني يا عماه ؟

ـــ بحنين عمري .

ـــ وهل تحب ان تتزوجني ؟

ـــ حتى لا يفرقنا الموت .

ـــ أتزوج شيخا في أخر عمره ؟

ـــ سأعود الى البداية .

ـــ مستحيل !

ـــ فكيف يؤمن أخوك بأنهم سيعودون منذ البداية ؟

ـــ سمعوا ذلك من شيوخهم . والشيوخ لا تذكر من البداية سوى عنفوان الشباب، فتستحلي البداية . هل تعرف البداية ، حقا ، يا عمي ؟ ليست البداية ذكريات عذبة ، فحسب ، عن صنوبر فوق الكرمل او عن بيارات فوق ظهوركم ، او عن اغاني بحارة يافا . هل كانوا حقا يغنون ؟.

ـــ هل تتركينني ؟

ـــ الماء لا يترك البحر يا عماه . يتبخر ثم يعود في الشتاء . ويعود انهارا وجداول. ولكنه يعود .

ـــ فهل أبقى وحيدا ؟

ـــ حتى ضرير السلكة لم يعش وحيدا . اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة .

ولكنني لم اذهب الى قرية السلكة ، ولم اصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها .

فقد اقبل العسكر . فبقيت في موضعي بلا حراك سوى اني وضعت يدي فوق عيني فأغمضتهما حتى لا أرى النهاية كما رأيت البداية .

فشعرت وكأن أيدي العسكر تدفعني الى الخارج وتقذفني على الدرجات . فأجدني مرتميا في فناء الدرج . فلا استنجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي اصبح يحتاج الى من ينجده .

واسمع من فوق ، في منزلي ، صراخا انثويا ، وصوت لطمات وركل وجلبة ، وأرى معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر . واراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها . وأراها تعض كتف احدهم فيصيح من الالم ويولي بعيدا . واراهم يتكاثرون عليها ويدفعونها امامهم الى سيارة الترحيل واسمعها ، والسيارة تتحرك ، تنادي : سعيد ، لا يهمك ، فانني عائدة !

وفتحت عيني وشهقت قائلا : ها قد عدنا منذ البداية !

لكنني رأيت عجبا . رأيت ضابط الشرطة يقرأ في اوراق يعاد بكل احترام . وسمعته يعتذر لها عن الامر الجديد الصادر بالغاء الاذن بدخولها الى اسرائيل ، وعن الزامها بالعودة ـــ معهم ـــ الى نابلس حالا . وقال انه عليها ان تعود ، غدا ، من حيث أتت. أي عبر الجسر .

وسمعتها تقول : لم انتظر منكم غير ذلك .

فأجابها : لم ننتظر منك الاقامة في بيت سعيد .

فصاحت : هذا بلدي ، داري ، وهذا عمي !

قلت في نفسي : سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة .

قال : ممنوع .

فقالت انها لم تنتظر منهم سوى ما هم يفعلون . فكيف تنتظرون منا سوى ما نفعل ؟

فانحنى الضابط امامها باحترام عسكري وهو يقول : يا صغيرتي الحسناء لقد انتظرنا منكم اكثر مما تفعلون .

وودعتني يعاد مصافحة . ثم اقتربت بوجهها من وجهي وقالت : هل قبلت والدتي قبل رحيلها ، يا عماه ؟

قلت : حالوا بيني وبينها .

قالت : اذن ضاعت عليك القبلة الثانية .

ومضت .

[١١]

مسك الختام ، الامساك بالخازوق

قلت لك ، يا محترم ، انني لم اذهب الى قرية السلكة ولم اصنع الحصر لا فيها ولا في غيرها . فالذي جرى هو انني ذهبت وقعدت على ذلك الخازوق .

وجدتني ، مرة اخرى ، متربعا وحيدا على راس ذلك الخازوق الذي بلا راس . كابوس يحط على صدري ليلة ليلة ، بلا انقطاع ، فلا اقوى على ازاحته عن صدري او على ان استيقظ . خازوق في كابوس . والخازوق الحقيقي هو ذلك الوسواس ، الذي لم استطع ان افكه عني ، ان ماذا سيحل بك ، يا ابن النحس ، لو ظهر انه ليس بكابوس بل خازوق واقع ؟

اضفت غطاء ثقيلا الى غطائي فاخترقته البردية . فاضفت اخر حتى السابع فاخترقتهم جميعا . فصرخت : من لي بذات الحسن ترفع عني هذه الاغطية ؟

ولكن العسكر اخذوها مرة اخرى . وكنت اتمتم باسمها والومها على مصيري لوما شديدا . فهي التي اقنعتني بأن خازوقي الماضي ليس بكابوس ، فكيف أومن بأن خازوقي الحالي هو كابوس ؟

عادت يعاد فاذا بها ليست يعاد . باقة ورد في عرس المستقبل واكليل زهور ناضرة على قبر الماضي في وقت معا . انتظرت عودتها عشرين عاما فلما عادت قالت : لست يعادك . تركتني وحيدا وقالت : لست وحيدا . فلما سألتها : اتعودين ؟ أجابت : كما يعود ماء البحر الى البحر ، في الشتاء ! لقد اقبل الشتاء يا يعاد ، فعودي ! قالت : هذا شتاؤك وحدك .

وحدي ، مرة اخرى ، وفوق هذا الخازوق انظر الى خلق الله من فوق علوه الشاهق .

وكانوا يأتوني وحدانا .

فأتاني صديقي القديم ، يعقوب . وكان حزينا . فصحت به : الخازوق ، يا صديق العمر ! قال : كلنا نقعد عليه ! قلت ولكنني لا اراكم ! قال : ولا نحن نرى احدا . كل وخازوقه وحيد . وهذا هو خازوقنا المشترك . ومضى .

وأتاني الرجل الكبير . وكان مذهولا . فصحت به : الخازوق يا عم ! قال : ما هو بخازوق بل هوائي تلفزيون . صار الواحد منكم مثل الراكب في غواصة كلما أوغلتم في العمق زدتم الهوائي ارتفاعا . اقعد على هوائيك واسترح .

ومضى .

وأتاني الشاب الذي يتأبط الجريدة . وكان شابا . فصحت به : الخازوق ، يـــا ولداه ! قال : الذي لا يريد ان يقعد عليه ينزل الى الشارع معنا . لا بديل ثالث ، فاختر ومضى في الشارع .

ألا يوجد لي مكان تحت الشمس الا فوق هذا الخازوق ؟ ألا يوجد لديكم خـــازوق اقصر ارتفاعا اقعد عليه ؟ ربع خازوق ، نصف خازوق ، ثلاثة ارباع خازوق ؟

وانتني يعاد الاولى فمددت لها يدي حتى ارفعها الى فوق . فأمسكت بيدي وأخذت تشدني الى قبر الغربة . فتشبثت بخازوقي .

وانتني باقية منادية ان انزل فقد بنى لك ولاء الى جانبه قصرا من صدف البحر . فتشبثت بخازوقي .

وأتاني سعيد ، ابن يعاد واخو يعاد ، وهو يلوح بعباءته الارجوانية ، وينادي : تعال يا والدي ادفئك بعباءتي ! فتشبثت بخازوقي .

ورأيت الشاب ، الذي يتأبط الجريدة ، وقد تأبط فأسا . ثم رأيته يهوي بفأسه على قاعدة الخازوق وهو يقول : أريد ان انقذك ! فصحت به ان كف لئلا اقع . وتشبثت بخازوقي .

وفيما انا في هذه الحيرة من أمري ، وقد تقوس ظهري ، اذا بهيئة رجل طويـــل القامة ، حتى ليبلغني وانا في موضعي العالي ، يقترب مني بطيئا كغيمـــة سارحة . فلم أر في وجهه سوى تجاعيد اشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية . فعرفته من اول وهلة . فخفق له قلبي شوقا . ولولا خوفي من الوقوع لاكببت عليـــه ألثـــم خـــده .

صحت : سيدي شيخ الفضائيين ليس لي غيرك .

قال : اعرف ذلك .

قلت : جئت في وقتك !

قال : لا أجيئكم الا في وقتي .

قلت : انقذني يا ذا المهابة .

قال : اردت ان اقول : هذا شأنكم . حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعـــس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره تلتجئون الي .

الا انني أرى أن هذا الامر أصبح شأنك وحدك . قل : ان شاء الله ، واركب على ظهري ولنمض .

وفيما نحن طائران في الفضاء ، وانا محمول على ظهره أناجي ارواح اجدادي ، منذ جدي الاكبر ، ابجر بن ابجر حتى عمي الذي لقي كنز العائلة ، وادعوها ان تحضر ، فترى ، فتتباهى بأبنها الفالح ،

اذا بي اسمع ، على الارض من تحتي ، زغاريد .

فنظرت الى تحت ، فرأيت الشاب المتأبط الجريدة ، وما زال يحمل فأسه . ورأيت اخاها سعيدا . وابا محمود . واطفاله يحملون اغطيتهم على ظهورهـــم ويقومون . والجارات ، وكنا يزغردن . والعامل « أخت » من وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب الى عمله ، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه . وخالتي ام اسعد « المخصية » . وحتى هي كانت تزغرد .

ورأيت يعاد ترفع رأسها الى السماء وتشير نحونا وتقول :

حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس !

باجس ابو عطوان

ـ مات البطل
ـ عاش الجبل

معين بسيسو

[١]

« لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ...؟ »

● منذ طفولته ، ويداه مغروستان في الجمر ... حتى عقد الاصابع ... ، ومن الذي يستطيع ان يميز ، بين السنة النار ، وبين اصابع اليد الفلسطينية ؟

كان خلف « الوجاق » ، في مقهى « أبيه » ، يصنع الشاي ، يصبه في الاقداح ، ويقدمه الى الفلاحين ... ولم يكن يخطر له على بال ، أن يوما سيأتي ، وسوف يقدم فيه ، دمه ، الى الفلاحين ... ليس الى الفلاحين في « دورا » ، ولكن الى الفلاحين الفلسطينيين كلهم ... والى الفلاحين ، اينما وجدت الارض تحت أقدامهم ...

لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان عليه ان يقطع كل ليلة ، وحينما تنطفىء غلايين الفلاحين في افواههم ... ويغادرون المقهى ، كان عليه ، ان يقطع خمسة كيلو مترات ... مشيا على قدميه ، حتى يصل الى حيث يقيم : في خربة « الطبقة »...

وفي طريق العودة ، الى الخربة ، حيث كان يسير الى جانب أبيه ، كان يحاول أن يسترجع ، ما كان يقوله الفلاحون ، وهو يتنقل بينهم يحمل اقداح الشاي ...، ولكنه لم يكن يذكر شيئا محددا من احاديثهم ... ولكنه كان يذكر شيئا واحدا ، ان أيديهم كانت كبيرة جدا ... وكأنها قد وضعت فوق صخرة ... وضربت بحجر ...

حيث كان يتعلم في مدرسة « دورا » ... لم يقرأ في الكتب المدرسية التي كانت بين يديه ... لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ... ولماذا هي في حجم أقدامهم ...؟

● ●

... الطريق طويل من دورا ، الى خربة « الطبقة » ، والتعب قد هد الاثنين ، هد الاب ، وهد الابن ...

ولكن الصوت ، هو صديق الاقدام التي تمشي ... صديق المسافرين ...

وكان لا بد لصوته أن يرتفع :

ـ ابي ... لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ...؟

وكأن هذا السؤال المفاجيء يوقظ الاب من حواره الطويل مع نفسه ، ولعله تردد

---

* باجس ابو عطوان من شهداء الثورة الفلسطينية ، استشهد على جبال الخليل في منطقة دورا ، يوم ١٩٧٤/٦/١٩ ، بعد ان أمضى أربع سنوات في الجبل ثائرا ومقاوما للاحتلال . لمزيد من التفاصيل راجع شؤون فلسطينية ، عدد٣٦ ، ص ٢٠٠ .

طويلا قبل ان يجيب ، فلقد كانت ملاحظة جديدة وغريبة بالنسبة له ... وكأنه قد تذكر الارض فقال :

ـــ لانهم يعملون بأيديهم ...

أجل لانهم يعملون بأيديهم في ـــ التراب ـــ وهو يعمل بيديه في ـــ النار ـــ هو الطفل الفلسطيني الذي بدأ تعامله مع النار وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ... ولم يكن يخطر له على بال في ذلك الوقت ، ان التحام النار الفلسطينية ، بالتراب الفلسطيني ، هو وحده الذي سيصوغ الوجه الجديد ، لوطن اسمه : فلسطين ...

● ●

طيلة أيام وليالي الاجازة الصيفية ، كان يقضي الساعات الطويلة ، خلف الوجاق ، في مقهى ... أبيه ... كان يصنع ويقدم أقداح الشاي ، الى تلك الايدي الكبيرة التي اسمها : الفلاحون ...

بعد أن تنتهي ايام وليالي الاجازة ... ، كان عليه ان يعود الى المدرسة ... ان يعود الى القراءة والكتابة ... واللوح الاسود ، واصابع الطباشير ...

وما اكثر ما كان ينظر الى يد مدرسه ، وهو يكتب فوق اللوح الاسود ... باصبع الطباشير ، ويفاجأ الطفل ، ان يد مدرسه ، كبيرة هي الاخرى ، كأيدي الفلاحين ، الذين كان يقدم لهم اقداح الشاي ، وكم كان يلح عليه ، ان يسأل مدرسه ، كما سأل والده ، ذات ليلة :

ـــ لماذا يدك كبيرة ...؟

ولعل ذلك المدرس ، لو واجهه ذلك الطفل ، بذلك السؤال عن يده لاجاب :

ـــ لانني أكتب ... يا « باجس أبو عطوان ... »

الان اقدم لكم اسمه ... « باجس ابو عطوان » ...

هكذا وبكل ما في اصبع الطباشير من عفوية ، وبكل ما في الفأس من عفوية وبراءة ... يبدأ الطفل ، يربط بين صورة اصبع الطباشير ، وبين الفأس ... لقد اتحدت الصورتان ... في صورة واحدة ... ومنذ ذلك اليوم ، احب « باجس أبو عطوان » ، أولئك الذين يفلحون الارض بالفؤوس ، وأولئك الذين يفلحون الورق بالاقلام ...

● ●

ـــ « باجس » ، هل تعبت ...؟

كان الاب يسأل ابنه ، وهما ينطلقان من « دورا » الى « خربة الطبقة » .

ولعل الطفل قد تعب ، ولكنه فيما يشبه الاصرار الطفولي على رفض التعب كان صوته يرتفع :

ـــ لا ... لم اتعب ...

معجزة الفلسطيني في قدمه ، وانا لا اكتشف سرا للعدو ... فالفلسطيني يذبح من قدمه ... ومن اجل هذا « فهم » يعطون الفم الفلسطيني الف كيلو متر من الهواء ... لكي ينطلق فوقه صوته ومن اجل هذا « فهم » يعطون اليد الفلسطينية ، الف كيلو متر من الورق لكي تكتب فوقها ... اما امام القدم الفلسطينية ... فهناك الاسلاك المكهربة وهناك الاسلاك الشائكة ... ، وهناك حقول الالغام ... وهناك مليون جرس انذار ... يدق ... كلما لمست قدم فلسطينية ، شبرا من الارض ...

الارض الفلسطينية خطرة ... يا « باجس أبو عطوان » ... وهي تصبح اكثر خطرا ... حين تلمسها القدم الفلسطينية ، وتلتحم بها ....

هل حدثك مدرسك في مدرسة « دورا »، ذات يوم ، عن ذلك البطل الاغريقي القديم ، الذي كان ينتصر دائما على اعدائه ، لانه كان يغرس قدميه في الارض ، كلما احس بالضعف ، فيسترجع قوته وعنفوانه ... وينتصر على مبارزه ... آه يا « باجس أبو عطوان » ... ، لعله قد حدثك عن ذلك البطل ، وحدثك ايضا عن نهايته المفجعة ... حين انتصر عليه ، بطل اغريقي اخر ، اسمه : هرقل ...

لقد انتصر عليه ، انتصر على ذلك البطل ، لانه ، لم يتركه ، يغرس قدميه في الارض ، حاربه ، وقد رفعه في الهواء ، وهكذا انتصر هرقل ... لانه عرف سر ذلك البطل ، عرف ان سره في الارض ، وان معجزته في الارض ، فلم يمكن قدميه ، من الارض، رفعه فوق الارض، جعله معلقا من خفائر شعره في الهواء...وقضى عليه ...

● ●

« باجس أبو عطوان » ... ، كان على قدمك ، ان تتذكر تلك الطريق جيدا ... من « دورا »، الى « خربة الطبقة » ... فحينما تفقد القدم الفلسطينية ذاكرتها ... فسوف يموت الرأس ... سوف يسقط كحجر من بين الكتفين ...

اذكر هذا جيدا ، يا « باجس أبو عطوان » ... فالقدم هي الخارطة ، والخارطة هي القدم ... وفلسطين امرأة : تحبل من يديها ... وتلد من قدميها ... يا « باجس أبو عطوان » ...

[٢]

« كيف حدث هذا ...؟ »

● لقد أنهى دراسته الاعدادية ... ونال الشهادة ... وهو يستطيع ان يفهم الان ما يقوله الفلاحون ... في احاديثهم القصيرة ... والطويلة ، وهم يرتشفون اقداح الشاي ... ويدخنون ... بعضهم لفافة التبغ ... الثقيلة الرائحة ، والبعض الاخر ... الغليون ، وهناك من يدخن « الشيشة » ... وهكذا استطاع « باجس أبو عطوان » ان يميز بين نوعين من الفلاحين ... فالفلاح الذي يدخن « الشيشة » كان بالنسبة « لباجس أبو عطوان » ، فلاح ميسور الحال ... فأوراق التمباك التي في لون الذهب ... ، أغلى ، من ذلك التبغ الاسود ... والذي يدخن الشيشة ، يملك المزيد من الوقت ، وليس كالفلاح الذي يدخن لفافة التبغ ، ويرتشف قدح الشاي ... ثم يمضي الى فراشه ... فعليه ان يكون قبل اشعة الفجر فوق الارض ...

● ●

في أحيان كثيرة ، كان « باجس أبو عطوان » ، يشاهد مدرسي القرى ، يأتون الى المقهى ... ويجلسون الى جوار بعضهم البعض ، في دائرة كبيرة ... اما الفلاحون ، فلقد كانوا متناثرين هنا وهناك ... وفي حلقات صغيرة ... وما اكثر ما كان يسأل نفسه ، لماذا المدرسون في دائرة ... والفلاحون في دائرة اخرى ... واكثر من مرة حاول ان يطرح هذا السؤال على مدرسه ، ولكنه ، كان يتوقف في اللحظة الاخيرة ... ورغم ذلك ، فقد كان يحس ان هناك خطأ ما ... وكان يسأل نفسه :

ـ لماذا لا يجلس المدرسون والفلاحون في حلقة واحدة ...؟

الان بدأ الفلاحون يعلمونه ... ما لم يتعلمه في المدرسة ، ما لم يتعلمه في الكتاب ، وفوق اللوح الاسود ... كان يسمعهم يتحدثون وهم يتأوهون عن ايام زمان ... حينما كان الباعة في أسواق بئر السبع وغزة ويافا ... يصيحون ... وهم يرفعون عناقيد العنب الذهبية في أيديهم ويصيحون :

ـــ يا عنب الخليل ... يا عنب ...

كانت بئر السبع على مرمى عنقود من العنب ، وكانت يافا على مرمى عنقودين ... وكانت غزة على مرمى ثلاثة عناقيد ... اما الان ... اما الان ...

كان يحس بصراخ دماء الفلاحين ... وكأنهم كانوا ينادون على بئر السبع وغـــزة ويافا ...

ولاول مرة بدأ « باجس أبو عطوان » يحب الجغرافيا ، فكان حينما يمضي الـــى بيته ، في خربة العقبة ، كان يفتح المصور الجغرافي ... على خارطة فلسطين ... ويضع أصبعه على يافا وبئر السبع ... وغزة ... وعرف لاول مرة ، مأساة الفلاحين الجغرافية ... انهم لا يستطيعون ان يقفزوا في الهواء ... لكي يصلوا ... الى تلك المدن ، التي كانوا يصلـــون اليها « بالباصات » او « التركـــات » ، او حتى ظهـــور الحمير ...

ان عنقود العنب ، ليس هو بساط الريح ...

أجل يا باجس أبو عطوان ، ليس هو بساط الريح ، وليس هو طائـــر الرخ ... وعليك ان تبدأ البحث ... عن وسيلة جديدة للاتصال ...

ها قد بدأ الفلاحون ، يعلمونه دروس الجغرافيا ... وبدأ « باجس أبو عطوان » ، يحب الخارطة ... وبدأ يكتشف أشياء جديدة ...

طول ايام الدراسة ، كان يقرأ ، ان القدس ، هي عاصمة فلسطين ... اما الان فقد أصبحت عمان هي العاصمة ... وفوق الخارطة ... امتد خط أسود ... أكثر سوادا من جناح الغراب ... وبواسطة ذلك الخط ... لم تعد القدس في خـــارطة فلسطين ... لقد أصبحت في خارطة ذلك الشيء الذي اسمـــه : المملكة الاردنيـــة الهاشمية ...

ـــ كيف حدث هذا ...؟

ان الكتب التي بين يديه ، لا تقول له كيف حدث هذا ...؟ لا الكتـــب المدرسية ولا الخارطة ... تستطيع أن تقول له ، كيف تحولت القدس ، من مدينـــة من الدرجـــة الاولى ، الى مدينة من الدرجة الثانية ...؟

أين تعثر على الجواب ، يا « باجس أبو عطوان » ...؟

وظل يسأل نفسه ... الى أن جاء يوم ... ، وأجابه على سؤاله ... احد رعـــاة الغنم ... فاحساس ذلك الراعي بالارض وبجغرافية الارض ، كان مثل احســـاسه كانت المراعي تمتد امامه ... وكان اينما ترامى العشب ... كان يمضي اليه ... اما الان ... فهنالك للمرة الثانية ، تم رسم ذلك الخط الاسود ... فوق الارض ، كمـــا تم رسمه فوق الخارطة ...

كان راعي الغنم ... صديق « باجس أبو عطوان » ، وصديق كل التلامذة ... في القرى والخرب ... وكان حلم حياته ... ان يتمكن ذات يوم ، من شراء « راديـــو

ترانزستور » ... ، ومن اجل ان يسمع شيئا واحدا : « أخبار فيتنام » ... كان يحس انهم يقاتلون مثله ... ضد الخطوط السوداء ، التي فرضت فوق أرضهم ، وفوق خارطة وطنهم ...

وينفخ راعي الغنم في « الشبابة » ، كأنه ينادي على التاريخ ، « وباجس أبو عطوان » ... وحفنة من التلامذة قد تحلقوا حوله ... ثم يضع الشبابة فوق العشب ... ويرتفع صوته :

ـ ربما حدث هذا قبل ان تولدوا ... او في العام الذي ولدتم فيه ... لقد كانوا هنا ... في ايديهم الكرابيج وفوق اكتافهم البنادق ... عساكر كثيرة ... كانوا يطلقون الرصاص في الهواء ... ويصدرون البلاغات ... عن معاركهم ضد العدو ... ثم يهوون بالكرابيج فوق ظهورنا ... وينتزعون من أيدينا البنادق ... كانوا يقولون ، انهم جاؤوا للانقاذ ... لانقاذنا نحن ...

ثم ذات يوم ... هجموا بالكرابيج ، وهجموا بكعوب البنادق ... وقد احضروا باصات كثيرة ... باصات وسيارات وصاح احد الضباط :

ـ اركبوا ...

ولم يقل الضابط الاردني الى اين ...؟

وركب الفلاحون ... وغير الفلاحين ... في الباصات ... والاعلى مرتبة من الفلاحين ، ركبوا في السيارات ...

وعادوا بعد ثلاثة ايام ... ، عاد الفلاحون ... واشباه الفلاحين ، ومن هم فوق الفلاحين ... وقال لي فلاح من « دورا » وهو يتحسس اضلاعه ... بعد ضربة كعب بندقية :

ـ لقد مضوا بنا الى اريحا ... كان هناك سرادق ضخم ... ودبابات ... وبنادق كثيرة ... ثم انطلقت اصوات كثيرة ... وقيل كلام كثير ، وحينما بدأ الجنود والضباط يصفقون ... أحسست بأن شيئا ما ، يدبر لنا ، يدبر ضدنا ... فحينما يصفق الجندي والضابط فلا بد ان يرتاب الفلاح ، ويخاف على مصيره ...

ـ ثم ماذا أيها الفلاح من « دورا » ...؟

ويرتفع صوت الفلاح ، وهو لا يزال يتحسس اضلاعه ... كأنه كان يعدها في صدره :

ـ اصبح اسم فلسطين : المملكة الاردنية الهاشمية ... وهكذا تحولت القدس ، الى مدينة من الدرجة الثانية ... وهكذا سقط الخط الاسود فوق الخارطة ...

● ●

الفلاحون يعلمونه ... دروس الجغرافيا ... وها هو ذا راعي الغنم ، يعلم باجس ابو عطوان ، أول درس في السياسة ...

وكان على « باجس أبو عطوان » ، ان يواصل تلقي الدروس في الجغرافيا والسياسة ، وفي تلقي الدروس ، ضد الخط الاسود ، ومن اجل ان تعود القدس ، مدينة من الدرجة الاولى ...

[٣]

« من أين جاؤوا بكل تلك النياشين ...؟! »

كبرت المسؤولية ، وكبرت يده ... لقد أصبحت اكبر من الجمرة ... واكبر من قدح الشاي ... واكبر حتى من الصينية التي كان يحملها ...

كان يسمع من الفلاحين في « دورا » ومن بعض المدرسين وكأنه الهمس ، ان هناك مجموعة من الفلسطينيين ، قد أطلقت رصاصا ، وأصدرت بلاغا ، وأعلنت ثورة ...

الفلاحون الذين ضربوا بكعوب البنادق ، وملأت أفواههم حبال الكرابيج المصنوعة من أسلاك التليفون ، أحس باجس أبو عطوان ، بفرحهم العفوي ، وبومضات عيونهم تخترق وجهه ، وهم يهمسون بأخبار تلك المجموعة ، التي اطلقت وأصدرت البلاغ وأعلنت الثورة .

ـــ انه رصاص فلسطيني ...

كانوا يقولون هذا ، وهم يغرسون عيونهم في الارض ... كأن الارض توشك أن تمطر ...

أما بعض المدرسين ، فلقد كان يسأل عن هوية أولئك الفلسطينيين ، كان يسأل عن أسمائهم وبطاقاتهم السياسية ...؟

ولجأ « باجس ابو عطوان » الى « أبو علي » ، راعي الغنم ... وكان « أبو علي » ، قد سمع هو الاخر ، بأخبار البلاغ الاول الذي صدر في أول يناير ١٩٦٥ ... ، وخبر الرصاصة الاولى ... ونظر « أبو علي » ، طويلا في عيني « باجس ابو عطوان » ، قبل أن يقول وهو يضحك :

ـــ لقد أصبحت أنادي عليهم ، بهذه الشبابة كدليلة ، وسوف يأتون على صوت هذه الشبابة ، وعندها ، سوف تتعرف عليهم ...

غير انه كان على « باجس ابو عطوان » ، ان يحمل البندقية المرخصة ، قبل ان يلقي بها ... ويستبدلها ببندقية غير مرخصة ، وهكذا التحق كجندي بالجيش الاردني ... مستجيبا لتوصية ونصيحة احد اقربائه ... الذي وعده بأن يدخله دورة المرشحين ... في الجيش ... وحينما يحين وقت انعقاد الدورة ...

وبدأ « باجس أبو عطوان » ، يمارس أسلوبا جديدا من الحياة ... وكان يلاحظ وسط الدهشة الكبيرة ـــ ضباطا كبارا ، قد طرزوا ، صدورهم بالنياشين ... وما أكثر ما كان يسأل نفسه ، قبل ان يغمض عينيه ، من فرط التعب ، بعد ساعات التدريب الطويلة :

ـــ من أين حصلوا ، على كل هذه النياشين ، التي تطرز صدورهم ...؟ وفي أية معركة ...؟... وبعد اي انتصار ...

اذا كانت بعض اوراق التاريخ تكذب ... واذا كانت بعض الاوراق قد زورت ، فباجس أبو عطوان ، يعرف جيدا ، ان كل المعارك التي خاضها اولئك الضباط الكبار ... كانت معارك خاسرة ... وانتصر فيها العدو لمائة سبب وسبب ، فمن اين حصلوا على كل هذه النياشين ...؟

حين سأل باجس أبو عطوان بعض اصدقائه المجندين ، عن كيفية حصول اولئك

الضباط الكبار ، عن النياشين ، نصحه اصدقاؤه ، بأن يطرد من رأسه ، مثل هذه الاسئلة ، فسوف يقدم الى محكمة عسكرية على الفور ... وسوف يسجن وسوف يطرد من الجيش ...

وما اكثر ما كان يسأل نفسه :

ـ هل هذا السؤال ، خطير الى هذا الحد ...؟

● ●

وانعقدت دورة المرشحين ، ولم يكن اسم باجس أبو عطوان ، في قائمة المرشحين لتلك الدورة ...

اذن لقد « فعلوها به » ...؟ وعدوه بالدورة ، وكذبوا عليه ، وبدون أن يشاور أحدا من اصدقائه المجندين ... مضى الى مكتب بريد « الزرقا » ، وارسل برقية للملك ... ولعله لم يلاحظ من فرط الغضب ، ارتعاش يد موظف البريد ... وهو يقرأ البرقية ، ويحصي كلماتها ...

ودفع باجس أبو عطوان ، اجرة البرقية ، وتناول الايصال ودسه في محفظته ، ومضى ...

● ●

كانوا يقولون له ، ان اهم صفات الجندي ، هو الانضباط ... واطاعة الاوامر ...، وما اكثر ما كان يسأل نفسه :

ـ ماذا لو اصدر ضابطه ، امرا له ، باطلاق الرصاص على الفلاحين في خربة العقبة ؟ ماذا لو امروه حتى بالقاء القبض على « أبو علي » ، راعي الغنم ...

انه لن ينفذ هذا الامر ... ابدا ... وبدأ باجس أبو عطوان ، يحس بأنه يرتدي جلدا غير جلده ... ليس الكذب وحده بالنسبة الى دورة المرشحين ... هو الذي أهاجه ، ولكنه ... الكذب والنياشين ... واشياء اخرى كثيرة ... فهو لم يكن يثق بهم وكان يحس ، أن وجوده لا يمكن أن يكون بينهم ...

● ●

بعد أقل من ثلاث ساعات ، من ارساله للبرقية ... استدعوه لمقابلة الضابط المسؤول ... ، كان هائجا ... كالثعبان ... ، وانقض الضابط عليه وهو يلوح بالبرقية في يده :

ـ هل انت الذي أرسلت هذه البرقية ...؟

● نعم ...

ـ من الذي كتبها لك ...؟

● انني اعرف القراءة والكتابة ...

ـ سوف اقطع اليد التي كتبت بها تلك البرقية ... سوف ترى ...

● ●

وأوقف باجس أبو عطوان ، وقدم لمحكمة عسكرية وحكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وطرد من الجيش ... وفي احدى زنازين سجن « الزرقا » ، امضى مدة العقوبة .

وخرج من بوابة السجن ، بثياب جديدة ... لقد عاد اليه جلده ... وكان طـــول الوقت ، يحس انه كان جلدا مصبوغا ... وكان لا يحب لون جلده ...

لقد خرج باجس أبو عطوان بتجربة جديدة : أن الكتابة يمكن ان تكون خطرة جدا ، وأن اليد التي تكتب يمكن ان تقود صاحبها الى السجن ... ولكنه لم ينس ابدا ، مـــا قاله له الضابط وهو يتطلع الى يده .

ـــ سوف اقطع اليد التي كتبت بها ... سوف ترى ...

وبدأت مرحلة جديدة ... ، بدأت بهذا السؤال :

ـــ لماذا يكرهون اليد الفلسطينية الى هذا الحد ...؟

واحس باجس ابو عطوان ، بأنه قد اقترب كثيرا ، من تلك الايدي الفلسطينيـــة ، التي اطلقت الرصاص واصدرت البلاغ الاول ... واعلنت الثورة ...

[٤]

« وكانت الشبابة ، عنقا مثقوبا بالرصاص ... »

على طريق العقبة الصحراوي ... عاد باجس أبو عطوان ، يدس يديه مرة ثانية في النار ... وافتتح مقهى ... وشاركه احد اقربائه ...

في المقهى على طريق العقبة الصحراوي ... كانت الاحاديث كلها تدور حول الهزيمة ... هزيمة حزيران ١٩٦٧ ... وعاد باجس ابو عطوان يسأل نفسه :

ـــ الا يزال أولئك الضباط الكبار ، يحتفظون بالنياشين فوق صدورهم ...؟

اذن ... لقد احتل الاسرائيليون خربة الطبقة ... ، لم يحتلوا الخربة فقط ، بـــل احتلوا كل الخرب ... وكل القرى ... واحتلوا الخليل ايضا ... الخليل والقدس ونابلس ... وكل شيء ...

وكان باجس أبو عطوان يسأل نفسه طول الليل ، وهو لا يستطيـــع ان يغمـــض جفنيه :

ـــ ماذا يفعل والده الان ، هل لا يزال يعمل في المقهى في « دورا » ...؟ وماذا حل « بأبو علي » ، راعي الغنـــم ... وبالفلاحـــين ... في « دورا » و « الظاهـــرية » و « يطة » والسموع ... في « بني نعيم » ... و « بيت مرسم » ...؟

كان الفلاحون يرفعون في أيديهم عناقيد العنـــب ، وينادون علـــى غزة ويافا وبئر السبع ، فاصبحوا ينادون الآن ، على القدس ونابلس والخليل نفسها ...؟!

لم تعد نار المقهى ... تقدم الدفء لا ليديه ... ولا لقلبه ... ولم تكن تقدم الاجوبة على اسئلته ايضا .

ونظر الى يده ... وبصق على الارض ... ان عليه ان يفعل شيئا اخر بهذه اليد ... غير حمل الصينية وتقديم اقداح الشاي ، وفناجين القهوة ...

ونظر الى قدمه ... هل كل وظيفتها ، ان تسير خطوات بين زبائن المقهى ... تلك القدم التي تعودت على السير الطويل ... وما الـــذي يفعله ، في هـــذا الطريـــق الصحراوي ...؟

وقرر باجس ابو عطوان ان يترك المقهى لقريبه ... وان يعود الى خربة الطبقة ...

واحس ان تلك الطريق التي قطعها آلاف المرات من « دورا » الى خربته تنادي عليه ... وما اكثر ما كان يخيل اليه ، انه يسمع صوت شبابة « أبو علي » راعي الغنم ... وانه ينادي عليه ... من خلال ذلك الانين الطويل الذي ينطلق فيها ... كانت الشبابة المثقوبة ، تشبه الصدر العنق المثقوب برصاص الاحتلال .

وقطع باجس ابو عطوان النهر ... ومضى ... لقد مرت مياه كثيرة تحت الجسر ... تبدل وجه الحرس وتبدل وجه الاحتلال ... وتغيرت الراية ...

● ●

حينما وصل الى الخربة ، احس ان كل شيء قد تغير ... حتى الهواء اصبحت له رائحة اخرى ... واصبح ثقيلا كالرصاص ... وحتى والده ... صار لصوته رائحة أخرى ... الهواء والارض والاصوات ... ووجوه الفلاحين ... والطريق ... والجبال ... والنجوم وكل شيء ... كل شيء ...

كان الظلام كثيفا ، يكاد يقطع بالسكين ... ولم تكن تخترقه ... غير ومضات زخات من الرصاص ، تطلقها تلك الايدي الفلسطينية بين فترة واخرى ...

ما اكثر الاسئلة التي كان يريد ان يطرح على والده ؛ وعلى « أبو علي » ، راعي الغنم ، وعلى الفلاحين ايضا ... ولكنه لم يكن يتلقى غير القليل من الاجوبة ... فالناس في سنوات الاحتلال لا يتكلمون كثيرا ...

وسيأتي يوم يصبح فيه باجس أبو عطوان ، يتكلم من يده ... ان الايدي لا بد وان تخترع لغتها الخاصة ...

● ●

ما الذي على باجس ابو عطوان ان يفعله الان ...؟ ان العمل الى جانب ابيه في المقهى ، لم يعد يقنعه ، كان يعاوده الاحساس بأن يده قد كبرت كثيرا ، واصبحت اكبر من صينية الشاي والقهوة ...

فما الذي عليه ان يفعله ... انه يعرف ، كل تلك المنطقة بسلاسل جبالها ... بخربها وقراها ... بمسالكها ... وكهوفها ... كما يعرف خطوط كفيه ... واهم من ذلك كله ، كان يعرف جيدا ذلك الهواء الذي يتنفسه الفلاحون ... أيام الزرع وأيام القلع ...

لقد عرفت الخربة كلها ، انه سجن ، عرفوا بقصة تلك البرقية التي ارسلها للملك ... وما اكثر ما كان يسأله الفلاحون :

ـــ هل حقا ارسلت تلك البرقية للملك ...؟

وكان باجس يحس بومضات الاعتزاز تلمع في عيونهم ... فها هوذا شاب صغير من خربتهم ، يرسل برقية للملك ... وبرقية احتجاج ... وانه قد سجن من أجلها وطرد من الجيش ...

● ●

حينما يسترجع باجس ابو عطوان أيامه ولياليه في تلك الزنزانة ، في سجن الزرقا ، حينما كان يسترجع ذلك الباب الحديدي المغلق عليه ، وتلك العين المغروسة في الباب ، والتي يطل منها الحرس عليه ... والجدران الاربعة المغلقة فوقه ... كان الالم يعود الى قدميه ... فالقدم التي تعودت على قطع الكيلو مترات الطويلة كل يوم ... لا بد

وان تصاب بالمرض ... حيثما تصبح كل الارض التي تحتها ، هي ارض الزنزانة ... متران في ثلاثة امتار ...

غير أنه كلما كان يحاصره الاحساس بالسجن ، كان ينظر الى رؤوس الجبال ... ويشعر بالطمأنينة ... وكان يحس بالامان ...

ولكن ... لماذا هذا الاحساس بالسجن ...؟

● ●

في ايامه الاولى في خربة الطبقة ، حدثه والده عن الايام الاولى للاحتلال ... ساعات حظر التجول الطويلة ... وغارات التفتيش المستمرة عن السلاح ... وعمليات اخراج الخربة بأكملها في العراء ... وتدوين اسمائهم ... والكشف عن هوياتهم ... وعشرات الاسئلة التي كان يوجهها العسكري الاسرائيلي لهم ... عن ميولهم السياسية وعن رأيهم في « اسرائيل » ؟ وأسئلة كثيرة ... تشبه ضربة كعب البندقية فوق الوجه ...

ـ وهل صادروا أسلحة كثيرة من الخرب والقرى ...؟

ويرد عليه والده :

ـ لم يترك « الاردنيون » ، غير اكوام زبالتهم ... اما الاسلحة ... فقد انسحبوا بها وراء النهر ...

ـ و « ابو علي » ، راعي الغنم ...؟

ـ لم أعد اراه ... كثيرا ... ولكنه كان يسأل عنك كلما صادفته في الطريق ...

ـ والمدرسة والمدرسون والطلاب في « دورا » ...

ـ انتزعوا كتب التاريخ والجغرافيا من أيديهم ... وانتزعوا كتبا اخرى وكوموها في ساحة المدرسة ، واضرموا فيها النار ... قالوا ، انها تحرض على الكراهية ...؟

وهم ... يحرضون على ماذا ...؟ الذين يشعلون النيران في الكتب ، والذين يحتلون الارض ... هم بالحاكم العسكري الاسرائيلي ... وبضباطه ... هم بعمليات التصفية والقهر والنسف ، وبجنازير دباباتهم التي تعض الارض ... هل يحرضون على الحب ...؟

لاول مرة يدرك باجس ابو عطوان ، ان الكراهية هي احد الاسلحة التي يفتش عنها الاحتلال ، كما يفتش عن بقية الاسلحة ... وعلى باجس ابو عطوان ، ان يحافظ على هذا السلاح الذي يملكه الان : سلاح الكراهية ... هذه البوصلة التي سوف تقود قدميه في يوم قريب الى طريق الجبل .

[٥]

« ... ولم يكن العدو كيس رمل ولا كيس ماء ... »

كانت عودة باجس ابو عطوان ، لخربة الطبقة ، في ايام الحراثة ... ، حيث يشتد تعلق الفلاح بالارض وعشقه لها ... وبالذات في مراحل القهر والاحتلال حيث تصبح الارض في خطر ... وفي هذه المرحلة ، تجيء أيام الحراثة ، لتجدد ارتباط الفلاحين بالارض ، من خلال سكاكين المحاريث ... ومن خلال المحراث الذي يشق الارض ،

يؤكد الفلاح وجوده وملكيته للارض ... أخاديد ... أخاديد ... تفتح في الارض ... وعلى جانبي كل أخدود ... تظهر كتل جديدة من التراب المتجمد الذي يشبه الطين الذي جف ولا تزال فيه بعض رطوبة الماء ... يظهر الطوب ويأخذ أشكالاً متعددة ... ومنها شكل الطيور ... التي ألوانها لون الطوب الجديد ... الذي خرج من باطن الارض ...

من هذه الطيور الترابية ، طائر اسمه « الشنار » ... وهذا الطائر ، لا يتواجد الان في ايام الحراثة ... حيث لا يكاد أحد يميز بين طائر الشنار ... وبين « الطوبة » ... ومن أجل هذا ، فطائر « الشنار » ، طائر صعب الاصطياد ... لانه يأخذ لون الارض ... بالاضافة الى أنه ... طائر حذر ... وهو يختلف كثيرا ، عن طائر « السمان » ... الذي رغم لونه شبه الترابي ، فهو يسقط بالمئات ... في الشباك التي ينصبونها له على امتداد الشواطيء ... حيث يأتي من جزر البحر الابيض المتوسط ... ويسقط في الشباك ـ شبه أعمى ـ وقد أنهكه التعب ...

هل عرف باجس أبو عطوان ، كل هذا الذي يقال عن طائر الشنار ، عن الطائر الذي يأخذ شكل طوب الارض ... في أيام الحراثة ، والذي يمارس حياته ... يتنقل بمنقاره بين الطوب ...؟ ولانه لا يستطيع أن يغير جلده ... بعد أن يسقط المطر ... ويبدأ جلد الارض يخضر ... فما أسرع ما يرحل ... من أجل ان يعود من جديد ... في عام الحراثة القادم ...

هل عرف باجس أبو عطوان ، كل هذا ، عن طائر «الشنار » ، فأصبح اسمه الذي عرف به هو « أبو شنار »: الاسم الذي عاش به وقتل به ...؟ ومن الذي اختار له هذا الاسم ، « هو » ، أم والده ... أم أصدقاؤه ... أم الارض ... والتي كان قدره أن يرتبط بقطارها ...؟

● ●

سواء عرف باجس ابو عطوان « ابو شنار » ، طائر الشنار أو لم يعرفه ، وبغض النظر عن « الذي » أو « الذين » أطلقوا عليه هذا الاسم ... فلقد أصبح له : اسم طائر الشنار ، أصبح له هذا الاسم ولا يهم ان كان هو قد اختاره ... او قد فرض عليه ...

فلقد أخذ هو باجس أبو عطوان ، لون طوب الارض ، وعاش متنقلا بينها ... مقاتلا خلفها وفوقها وتحتها أخذ لون طوب الارض ، وأخذ لون جلد الفلاحين الترابي ... ومضى من أجل أن يضيف الى الراية الفلسطينية ذات الالوان الاربعة ، لونا خامسا جديدا ... هو لون طوب الارض ... في ايام الحراثة ...

● ●

سمع « أبو شنار » ، الكثير ، عن اخبار المداهمات الليلية والنهارية ، التي كانت تقوم بها الدوريات الاسرائيلية ... والتي تبدأ بالاعتقالات ... وتنتهي بالمحاكمات العسكرية وبأحكام السجن ...

ولكن ها هو يواجه بعينه ... تجربة جديدة ... تجربة مداهمة بيتهم في خربة الطبقة ... واعتقال والده ... « موسى أبو عطوان » ... ثم المحاكمة العسكرية السريعة ، ثم الحكم عليه بالسجن ، لمدة ثمانية اعوام ... وبعد الحكم عليه ، يتم ترحيله من سجن الخليل ، الى سجن غزة المركزي ...

لقد اغاروا على البيت ، وقلبوا كل شيء ، قلبوه ومزقوه ... بسناكي بنادقهم ... هل كانوا يبحثون ... عن الاسلحة فقط ... ام كانوا يبحثون عن ذلك السلاح الاخر ... الذي اسمه الكراهية ...

ولم يعثر العساكر الاسرائيليون على البنادق في بيت موسى أبو عطوان ... ولكن الكراهية ، كانت سلاحا في حيازة الجميع ... في حيازة عائلة موسى أبو عطوان ...

وحينما رآهم باجس أبو عطوان ، يجرون والده ... أمام عينيه ، وينطلقون به ، بعد ان مزقوا بسناكي بنادقهم كل ما في البيت ... الفراش والجدار ... وحينما حاكموا والده ، وحكموا عليه بثمانية أعوام ... ادرك « أبو شنار » ، ان سلاح الكراهية وحده لا يكفي لمقاومة الذين اعتقلوا الارض ، وها هم يعتقلون والده ... احس بأنه لا بد من سلاح اخر ... يقف الى جانب سلاح الكراهية ...

احس بأن الكراهية تنقذ الروح ... وادرك ان البندقية يمكنها ان تنقذ الروح وأن تنقذ الجسد معا ... ، وبدأ طائر الارض بحثه عن البندقية ...

طيلة ايام تدريبه في الجيش الاردني ، كان يطلق الرصاص ... وكانوا يدربونه على اطلاق الرصاص ... ولكن ضد « أكياس الرمل » ... كان العدو واضحا تماما ... ومع ذلك فلقد حولوه الى كيس رمل ... ، حولوه الى عدو غامض ... ، يمكن أن يكون كل شيء ، كيس رمل ... وكيس ماء ايضا ...

ولم يكن باجس أبو عطوان ، في حاجة لمن يدربه على استخدام البندقية ... ولم يكن في حاجة لمن يدربه على ممارسة الكراهية ، كان في حاجة الى ذلك الشيء الذي اسمه : البندقية ... فلقد حبلت يده بالكراهية ، حبلت يده ، وحبلت قدمه ... وحبل فمه ... ولا بد ان يلد الان ...

● ●

... وجاءه من قاده الى الجبل ... ووضع الكلاشينكوف في يده ... وقال له هذا هو العدو ، ليس كيسا غامضا من الرمل ، وليس كيسا غامضا من الماء ... ، فهو عدو يطلق الرصاص عليك ، فلا بد ان تطلق الرصاص عليه ...

... وبدأ باجس ابو عطوان ، « أبو شنار » ، يطلق الرصاص ... وضد عدو يعرفه ... ، في الجيش الاردني ، قالوا له : ان العدو هو كيس رمل وها هو يعرف الان ، ان العدو ... ليس كيس رمل وليس كيس ماء ، ولكنه دوريات تفتيش وعربات ملاحقة ... ، جنود مطاردة ، ومفرزة اعدام ... انه الدبابة والسجن ... والكيبوتسات ايضا ... الكيبوتسات التي تريد ان تحول فلسطين كلها الى « كيبوتس » ... الم يتحول البعض الى دجاجة — في كيبوتس جلعاد أو غيره من الكيبوتسات ... الى دجاجة ، في حوصلتها ، حبة قمح ... تختزنها لتأكلها لا لكي تلقي بها بذرة في الارض ... من اجل سنابل جديدة ... وما اكثر الدجاج الذي ظهر وفي مناقيره الرصاص ...؟ ولكن في سنوات الاحتلال ، فحبة القمح في حوصلة الدجاجة ، ليس شهادة مقاومة لها ... وليس الرصاصة في منقارها ايضا ... فالسؤال هو : بيضة الدجاجة لمن ... وفي راحة كف من ، تبيض الدجاجة ...؟

ولقد كان كل قمح الجبل ، في حوصلة باجس أبو عطوان ... قمح الخليل ، وخرب الخليل ، وقرى الخليل ...

ولكن ... في كف من يبيض باجس أبو عطوان ... ، « أبو شنار » ... في كف من يبيض طائر الارض ...؟

أنثى طائر الشنار ، تحرس بيضها ... وقبل حراسته تعرف أين تضع البيض ... ولقد عرف « أبو شنار » ، أين يضع بيضه ... لقد وضعه في داخل مغارة في جبل ... وكانت تجربة الجبل ...

● ●

الفلاحون ... يلقون ببعض « النطف » في ارحام نسائهم ... ويلقون بغالبية « النطف » ، كبذور ، في الارض التي تم حرثها ... وتنتظر سقوط المطر ... وهكذا فعل « أبو شنار » ، طائر الثورة ... ، وطائر الارض ... القى بطل « نطفه » ، في أخاديد الارض ... وسقط المطر وخرجت الرصاصة من داخل البيضة ... وهكذا خرج باجس ابو عطوان ... واخيرا ... باض الديك الفلسطيني ...

ولم تكن بيضة الديك هي تأكيد معجزته ، بقدر ما كانت تأكيد عجز الدجاجة ، التي تقدم للديك الاميركي المخصي ، شهادة الفحولة ...؟!...

[٦]

« حينما يكون الموت علنيا ... »

بعد الحكم على والده بالسجن ، تم اتصال باجس أبو عطوان ، بأولئك الرجال الذين أطلقوا رصاصة أول يناير ١٩٦٥ ... وجاءه منهم من يقول له ، أنهم على استعداد لتقديم كل شيء ...

وهو لا يريد منهم شيئا ، فكل الذي يريده ، ان يكون معهم ... فهو وحده الذي يحس بمأساة والده الان ... سوف يمرض من قدميه ... فطيلة ثمانية اعوام ... لن تلمس قدماه تلك الطريق التي اعتادا على قطعها معا ... من دورا الى خربة الطبقة ... والقدم تمرض حينما تبتعد عن الارض ...

ويرتفع صوته :

ـــ لا أريد منكم شيئا ... ولن أكلفكم نفقات توكيل أحد المحامين ... فأنا الذي سوف اكون محامي الدفاع عن والدي ...

ويسأله احدهم :

ـــ كيف ...؟

ـ ويرد باجس أبو عطوان :

ـــ سأترافع عنه بالرصاص ... انني املك بعض المال ... لقد بعت نصيبي في المقهى هناك على الطريق الصحراوي ... وسأدفع ثمن ... بندقية ... سأدفعه كاملا ... والان ...

بكل عفوية الجبلي ... يتكلم باجس أبو عطوان ... وبعفوية أيضا ، يقولون له :

ـــ ولكننا لا نبيع البنادق يا باجس ... فالقدرة تقدم الكلاشينكوف .

ليت الرصاص الذي سوف يعطونه له ، يكون بعدد قطرات دمه ... أو بعدد حبات العنب في عناقيد الدالية ... في بيته ...

ويرتفع صوته :

ـــ سوف أوفر عليكم ذخيرة التدريب ... وفوق ذلك ، فانا أعرف هذه الجبال ... كما اعرف وجهي ...

وأعرف عشرات الفلاحين ... أعرفهم بالاسم ... واعـــرف ايضا ... أسمـــاء اولادهم ... واعرف ايضا ، كيف يمكن ان يحفظ العنب ، ويؤكل طازجـــا ، في عـــز الشتاء ...

ـــ سوف نتصل بك ....

ـــ متى ...؟

ـــ لا تقلق ... ولن يطول انتظارك ...

أستأذنك الان ...

ويصرخ باجس أبو عطوان :

ـــ لا ... لا ... ليس قبل ان نأكل معا ...

ويجيبه الرجل :

ـــ ما اكثر ما سوف نأكل معا ...

ـــ أين ...؟

ـــ هناك ... في الجبل يا باجس أبو عطوان ...

سوف نأكل العنب معا ، في عز الشتاء ... لقد وعدتنا بهذا ...

● ●

ولقد كان « باجس » ، وفيا للعهد ... فهو لم يقدم لهم العنب الطـــازج ، في عـــز الشتاء ... بل قدم دمه ... دمه الفلسطيني ، ـــ هذا الزيتون الاخضر ـــ الذي لم يعد يخزنه الفلسطينيون في الجرار او في « التنك » ... ولكنهم صاروا يخزنونه ... في رئاتهم ... وبين اصابع أيديهم ... الايدي التي تضغط على الزناد ... والرئات التي تتنفس الهواء ...

● ●

ـــ أنت ...؟!

ويصرخ باجس أبو عطوان ... وهو يحتضن « أبو علي » ... راعي الغنم ...

● أجل أنا ... ما رأيك ...؟

ـــ لم أكن أتصور ابدا ... « انه » ، سيكون « أنت » ...

● هل لانني ... انفخ في « الشبابة » ...؟ حينما انضممت اليهم ، اشترطت عليهم ... شرطا واحدا ... ان لا استبدل الشبابة بالكلاشينكوف ... اشترطت عليهـــم أن اقاتل « بالشبابة » ، واقاتل بالكلاشينكوف ...

ولو قدر للذين يكتبون ومع ذلك يوجهون الاهانة كل يوم للقلم والورقة .. ان يمضي بعض الوقت في جبال الخليل ، مع « أبو علي » ، راعي الغنم ، لكـــان تعلم ... ان البندقية ليست بديل « الشبابة » وبديل الموسيقى ، وأن الرصاصة ، ليست بديـــل الكلمة ... فالموسيقى ليست في المعسكر الاخر ابدا ...

ـــ انني اقاتل بالكلاشينكوف واقاتل « بالشبابة » ايضا ، يا « أبو شنار » ... هل

تسمعني ... انك لا تعرف الى اي مدى يخافون ، حينما انفخ في « الشبابة » ... حينما يتحول هواء الرئتين ... الى صوت ... الى موسيقى ... وسوف ننتصر عليهم لا بالرصاص وحده ... ولكن بالموسيقى ... لا بد وان نمضي الان ...

ولم يسأل « أبو شنار » ، الى اين سوف يمضي مع « أبو علي » ، ــ راعي الغنم ــ كان يثق به ، ثقته بالاعشاب التي تنمو فوق قمم الجبال ... ، ثقته بالزبد والجبن ، الذي يخرج من حليب « الماعز » ...

●●

وجنبا الى جنب مع راعي الغنم « أبو علي » ، مضى باجس أبو عطوان ، « أبو شنار » ... ، مضى يتبع صوتين : صوت البندقية وصوت الشبابة ... ولم يكن يدري ... ان شجرة ما ، ستعطيه غصنا ، ومن هذا الغصن ، سوف يصنع « شبابة » ... وسوف ينفخ ... وكلما ازداد عدد الثقوب في « الشبابة » ، كلما كان « الصفير » ، اكثر ارتفاعا ... وكلما كان الصوت ــ ايضا ــ ... اكثر ارتفاعا ... هو الاخر ...

ــ حينما تكون معزولا ... محاصرا ... مطاردا ... لا تستطيع ان توقد نارا ... ودمك يكاد يتثلج ... فلا بد وان تفعل شيئا ما ... ولكن يجب ان تعرف ان الموسيقى التي تخرج الشعابين من اوكارها ... يمكن ان تخرج ايضا ... « الاسرائيليين » من « كيبوتساتهم » ... والافعى ترقص على صوت الشبابة على صوت الموسيقى ... ولكن الاسرائيلي ، يطلق الرصاص ... اتبعني الان ...

اتبع أبو شنار « أبو علي » ... تبع راعي الغنم الذي يحمل الكلاشينكوف بيد ، ويحمل « الشبابة » ، باليد الاخرى ... وقاده الكلاشينكوف وقادته « الشبابة » ... الى مجموعة ... « علي ابو مليحة » ،

وهكذا انخرط ، باجس أبو عطوان ، في « سلك الجبل » ... ، واصبح مقاتلا جبليا ، في مجموعة « علي أبو مليحة » ،

ــ مات البطل ...

ــ عاش الجبل ...

وسقط « علي ابو مليحة » ... سقط « ملك الجبل » ... وكان لا بد ان يخلفه ابنه ... ولكن الجبل ليس شجرة نسب لعائلة ...

مثل كوريولانس ... القائد الروماني القديم ... كان على المرشح ، الذي سوف يخلف « علي أبو مليحة » ، في قيادة المجموعة ، ان يخلع قميصه ... ويكشف عن جراحه ....

ورفض « أبو شنار » ، ان يخلع القميص ، ويكشف عن جراح صدره ... ورفض ايضا ، ان يدفن ، « علي أبو مليحة » ، بشكل سري ، كان يعرف الفلاحين جيدا ، ومن اجل هذا قال :

ــ المقاومة سرية ، فلا بد ان يكون الموت علنيا ... لا بد وان يعرف الفلاحون ... اننا نموت من اجلهم ... يجب ان يعرف مكان القبر الفلسطيني ... انني ارفض سرية الموت ... لا بد وان تكون ... كل العلنية للموت الفلسطيني ... ما دام القتال الفلسطيني ، والحياة الفلسطينية ، هو قتال وحياة سرية ...

ويصرخون جميعا :

ـــ اننا نعطيك اصواتنا ...

● ورغم ذلك فسوف انتظر ...

ويصرخون :

ـــ تنتظر ماذا ...؟

● انتظر ... قرار القيادة ...

ـــ ولكننا نعطيك اصواتنا ...

ويصرخ :

● انتظر قرار القيادة ...

● ●

لقد علمه الجبل ... كيف يحترم قوانين الجبل ... وصدر القرار ... واصبح « أبو شنار » ... خليفة « علي أبو مليحة » ...

ـــ مات البطل ...

ـــ عاش الجبل ...

[٧]

« آلو .. آلو ... انني « أبو شنار » ..

أصعب من العمل في الجبال الجرداء ... ، العمل في الجبال المزروعة ... وبالذات بالنسبة الى مقاتلي الجبل ... ففي الجبال المزروعة ، في تلك الارض المعلقة ، يتعامل المقاتل الجبلي مع الزرع ومع الفلاحين ... خاصة ، وان الفلاحين يعتمدون كليا ، على ما يزرعونه في صدر تلك الجبال ... وتحت أبطيها ... وبين أصابع قدميها ...

وبدأ تعامل « أبو شنار » مع الجبل ... « وكمقاتل جبلي » . كان يعرف ان مسؤوليته كقائد لمجموعة جبلية ، معزولة في الجبال ، تحتم عليه أقصى مستويات المقاومة للعزلة ... وأعلى مرحلة من مراحل الاتصال بالفلاحين ... وفي أعلى شكل من أشكال السرية .

ان الحياة الجبلية تفرض قسوتها ... على المقاتلين ... وبالذات الحياة في المغاور والكهوف ... ولقد عرف ابو شنار بتجربته ، ان عليه هو وافراد المجموعة الجبلية ، أن يحافظوا على انسانيتهم كمقاتلين ، رغم كل الظروف ...

ـــ هذا ما يريده المحتلون ، ان نفقد انسانيتنا ...

ونتحول الى مجموعة من الذئاب الجائعة ... والذئاب هي الد اعداء الفلاحين ... ولن نكون بالنسبة للفلاحين مجموعة من الذئاب أبدا ... فنحن نقاتل بالفعل ضد الذئاب ...

● ●

كان « أبو شنار » ... يعرف أن العدو ، يركز كل نشاطاته المختلفة لافشال تجربة الجبل ... وكان خبراء العصابات الجبلية من الاسرائيليين يؤكدون في تقاريرهم ، ان المقاتل الجبلي المعزول ، لا بد ومع مرور الايام ـــ واحكام الحصار السياسي

والاقتصادي والاجتماعي والجنسي عليـــه ــ لا بد وان يكتسب صـــفات الوحـــش الجبلي ...

وكان خبراء العصابات الجبلية من الاسرائيليين يؤكدون في تقاريرهم ... أن المقاتل الجبلي ، مهما حاول الدفاع عن انسانيته ، فلا بد وان ينهار عصبيا ، فـــي نهاية المطـــاف ...

ان باجس ابو عطوان ، كان يعرف هذا جيدا ، وكان يعرف أيضا ، أنهم يحاصرونهم ، الى درجة الموت جوعا ... ، من أجل أن يخرجوا من اطار انسانيتهم كمقاتلين ، وبدفعهم الجوع ، الى البحث عن صيد ، تماما كما تفعل الوحوش الجائعة ، وفي جبال الخليل ، في القرى والخرب ، لا توجد غير أبقار الفلاحين واغنامهم ...

وكان باجس أبو عطوان يعرف هو وأفراد مجموعته ، أن « اصطياد بقرة فلاح »، تعني اصطياد الفلاح نفسه ... (قبل موته الفاجع بأيام ، كان يريد بيع بقرته الوحيدة ... لمواجهة العديد من المسؤوليات ...) .

كانت الدموع تشتعل في عينيه حين كان يسترجع مـــا قاله الحـــاكم العسكري الاسرائيلي في الخليل لاحد المقاتلين الجبليين ، واسمه : يوسف اسماعيل مصطفى العواودة ... ، بعد ان وقع في الاسر :

ــ الم يبق لديك خبز ... ؟ ...

الخبز ... والرصاص ... والاتصال بالفلاحين ... لمعرفة اخبار العدو ... والاحتفاظ بانسانية البندقية ومقاومة العزلة ... الخ كل هذا لا بد وان يمارس وفي أعلى شكل من اشكال الانضباط التنظيمي ... والا سقطت المجموعة الجبلية كلها في مصيدة العدو ...

ولقد عرف باجس أبو عطوان ، ان النشـاط المسلح ضد الاحتلال ، نشاط المجموعة كلها ... هو الذي يفرض الانضباط التنظيمي ... ومن خلال ٥٢ عملية مسلحة ضد الاحتلال قام بها باجس أبو عطوان ، في منطقة الخليل هو ومجموعته ، استطاع أن يحقق مبدأ الانضباط التنظيمي في الجبل ... فلقد كان « ابو شنار » ، يعرف تماما ، أنهم لم يصعدوا الجبل من أجل الاصطياف الثوري ، والثرثرة الثورية ... ان الانفلات التنظيمي ، لا يتم الا في حالة « الراحة الثورية » ... وفي مرحلة الاستجمام الثوري ، يبدأ « الثوار » ، يتخاصمون ... ويخرجون النصوص الثورية من جيوبهم، ويرجمون بها وجوه بعضهم البعض ...

وضد هذا الاتجاه ... اغرق باجس ابو عطوان نفسه ، واغرق المجموعة الجبلية، التي كان يقودها في غمرة النشاط المسلح ... (معظم افراد المجموعة من رعـــاة الماشية ...)

● ●

ــ ابو علي ... كم طفلا انجبت ... بعد أن صعدت الجبل ... وتنفجر الضحكة في فم راعي الغنم :

● ثلاثة ... ثلاثة ...

ويرتفع صوته :

ــ بين فترة واخرى ، كانوا يقومون باستجواب زوجتي ... وذات مرة ، سألها

المحقق الاسرائيلي ، وقد لاحظ بطنها المنتفخ ... فنهض واقترب منها ، وقال فيما يشبه الهمس ... وهو يشير الى بطنها :

ـ هذا ... من أين ... ؟ ان لم تعترفي ، فسوف أعمل ، على أن يصل خبر بطنك المنتفخ الى زوجك ... وسوف يأتي ويقتلك ...

وتزغرد زوجتي ، كما لم تزغرد من قبل وهي تصيح :

ـ ولكن الذي في بطني ... هو ثمرته ... ثمرة زوجي ...

وهو يفضل أيضا الاناث على الذكور ... لانه راعي غنم ...

يروي « أبو علي » قصة زوجته مع المحقق الاسرائيلي ، وهو يضحك ... أجل لقد ، أنجب ثلاثة أطفال ، بعد صعوده للجبل ، ومن حقه ، ان يفرح بانتصاره على العدو ... ، حتى بطن زوجته ، كان يقاتل ضد الاحتلال ... ، وابنته الكبرى ، ابنة الذي يحمل الكلاشينكوف ، نالت شهادة البكالوريا ...

● ●

(٥٢ عملية مسلحة) ضد العدو ... تمت في الجبل وفي الشارع ... ، في القرية والخربة ... في ضوء الشمس وفي ضوء الليل ... ولم يقدم فلاح واحد ، شهادة واحدة ضد باجس ابو عطوان ، فهو لم يقتل بقرة ، ولم تمتد يده لتينة من شجرة فلاح ... ولا لعنقود عنب ... من دالية ...

كان يقول دائما لرفاق المجموعة :

ـ لم نأت كجراد ... والثورة تدفع مخصصاتنا ... وما اكثر ما تتأخر ... ولكننا لسنا موظفين في بنك ... ولم يستأجرنا احد ، لحمل البندقية ...

● ●

ـ آلو ... آلو ... أعطني الحاكم العسكري ... على الفور ...

● من يتكلم ... ؟

ـ قل له « أبو شنار » ... يتكلم ...

ويرفع الحاكم سماعة التليفون :

ـ آلو من ... ؟

● انني أبو شنار أو باجس أبو عطوان ...

ـ باجس ...

● أجل باجس ... ، اريد أن اقول لك ، ان « أبو علي » ، راعي الغنم . قد ولد له طفل هذا اليوم ، وان فلاحا من دورا ، قدم لنا ثلاثة ديوك ... وسلة تين ... و « صحارة » عنب ... وانا بدأنا نزرع القمح والتين والعنب في الجبل ... وان لدينا طاحونة ... ونحن نأكل خبزا ساخنا ... ولدينا بقرة ايضا ... ونحن نشرب الحليب ...

ويلقي ... باجس ابو عطوان بالسماعة ...

ويصرخ الحاكم العسكري الاسرائيلي ... :

ـ آلو ... آلو ...

ويلقي بالسماعة ... بعد أن صرخ طويلا ... على باجس ابو عطوان ...

● ●

ـ لقد نسفوا البيت ... بيت أبيك ...

● انني اعرف هذا ...

ـ ما الذي نفعله الان ... لا والدك في البيت ، ولا أنت ... أصبحت الحياة صعبة في خربة الطبقة ...

● ولكنهم يقيمون مستوطنات لهم في الخليل ، وانت تعرفين هذا ... لا بد وان تعيدي بناء البيت ...

ـ سوف ينسفونه من جديد ...

ولقد بنت الاختان ، وعاونهما بعض الفلاحين ، بيتهم من جديد ، بيت « موسى ابو عطوان » ، وجاء الاسرائيليون ، ونسفوه ثانية ... ، كانوا يرفضون ، ان يكون هناك سقف ... لعائلة باجس ابو عطوان ...

● لماذا لا تنضمين اليه في الجبل ... انت واختك ..؟

وتبصق ... الاخت الكبرى لباجس ابو عطوان ، في وجه الحـاكم الاسرائيلي للخليل ... وترتفع صرختها . وكف الحاكم العسكري ... تضرب وجهها :

ـ لماذا تكذب على والدي ، الذي سجنتموه ، وتقولون له ، ان باجس قد قتل ...؟ انه لم يقتل ... انك تعرف هذا ...

● ولكنه ... في عداد الموتى ... هل تسمعين ... انه في عداد الموتى ...

في ذلك الوقت تماما ، كان باجس ابو عطوان ، يدفع سبعة دنانير .. لاحد رعاة الغنم ، ثمن ... رأس من الغنم ...

وقبض الراعي الدنانير ومضى وهو يحدث نفسه ... :

ـ البنادق ... في أيديهم ... ومع ذلك فهم يدفعون ... الثمن ...

ولقـد دفعوا الثمن ... وكانوا دائما ، يدفعون ثمن ما يأكلون ...

[٨]

« تجوع البندقية ، فتصبح حياة الجبل في خطر ... »

● يجتمع الحاكم العسكري الاسرائيلي للخليل في مكتبه برئيس أعضاء المجلس البلدي لدورا ... فوق الحـائط ، كانت خارطة المنطقة معلقة ... بتضاريسـها الطبيعية ... بكل خربة وقرية وجبل وواد ...

ويحدق الحاكم العسكري في وجوه رئيس واعضاء المجلس البلدي ويرتفع صوته :

ـ اين هو على هذه الخارطة ... باجس ابو عطوان ومجموعته ...؟

ويسود الصمت ... وللمرة الثانية يرتفع صوت الحاكم العسكري الاسرائيلي :

ـ أين هو على هذه الخارطة ... ؟

ومن أين لهم أن يعرفوا أين هو ...؟ في دورا ، ام الظاهرية ام يطة ، ام السموع

... في أية قرية ... او خربة ... او مغارة ...؟

حتى لو كانوا يعرفون ، فمن الذي يمد يده ... الى الخارطة ...

ـــ انه يتجول بسلاحه في القرى والخرب ... وانتم تعرفون هذا ...

أجل انهم يعرفون هذا ، واكثر منه ...

ـــاذن فلن يتكلم احد منكم ...

ويرتفع صوت :

ـــ من أين لنا ان نعرف أين هو ...؟

ويصرخ :

ـــ ولكنه يأكل ويشرب وينام ... طيلة ثلاثة اعوام ... وفي هذه المنطقة ... لولا مساعدتكم أنتم وغيركم ... لما استطاع ان يظل في الجبل ... يوما واحدا ...

أجل ، لولا العلاقة الحميمة بين باجس ابو عطوان ، وبين الفلاحين ، لما تمكن من البقاء في الجبل ، والقيام بكل تلك الغارات ... وفي ضوء النهار ... وتلك الاشتباكات المسلحة مع دوريات الاحتلال ... وفي شوارع الخليل الرئيسية ...

انه لم يقطع شجرة ... حتى في ليالي الشتاء الدامية ... كانوا يكتفون بحـــرق الاعشاب ، في داخل الكهوف ... التي تكاد رطوبتها ، تحولهم الى الواح من الثلج ... وباجس ابو عطوان لم يفرض « أتاوة » ، او « خوة » ، على قرية او خربة ...

لم يسرقوا ولم يقطعوا ولم يفرضوا اتاوة ، ولم يعتدوا على امرأة ... كان باجس ابو عطوان ، يعرف المزارعين الفقراء من الفلاحين ، وكان والده ، مزارعا فقيرا ... ، لا يهتمون بما يقوله الفم ، ولكن بما تفعله اليد ...

كانت المجموعة الجبلية المسلحة ، تدفع دائما ثمن ما تأخذ ... وبين وقت واخر ، كانوا يقبلون بعض هدايا الفلاحين ... من الخبز والبيض والملح ... وبعد الحاح من الفلاحين ... وفي مقابل هذه الهدايا ، كان باجس ابو عطوان ... هـــو وأفراد مجموعته ، يقومون بجمع الاحطاب وتكويمها ... ويأتي الفلاحون ويأخذونها ... ويعرفون أنها هدية باجس ابو عطوان ... في أيام الشتاء ...

ومن أين للحاكم العسكري الاسرائيلي ، ان يدرك هذه العلاقة ، التي تربط بـــين الفلاحين ، وبين باجس ابو عطوان ورفاقه ...

ويرتفع صوته :

ـــ انكم لن تتكلموا اذن ... انني في هذه الحالة ... سأجعل اولادكم يبحثون عنه في المغاور والكهوف ... سوف يدخلون اولا الى تلك المغارات ... وقبل الجنـــود الاسرائيليين ...

ورغم هذا الانذار ، فلم يتكلم أحد ... انتظر الحاكم العسكري طويلا ... ثم غادر حجرة مكتبه ...

● ●

ـــ ان لي أما أنا الآخر ... وأنا أقدر مشاعرك ... ولكن اذا كنت حريصة على حياة ولدك « باجس ابو عطوان » ، فلا بد أن تساعدينا ...

ويرتفع صوت والدة باجس ابو عطوان ، وهي تواجه الحاكم العسكري الاسرائيلي:

ـــ وكيف اساعدكم ... ؟

● تسليمه لنا ، اقنعيه بأن يسلم نفسه ... لا أمل له في الافلات أبدا ... طائرات الهيلوكبتر ستبدأ منذ الفجر .. بالتحليق فوق كل صخرة وكهف وشجرة ... والدوريات ستفتش كل خربة وقرية ..

وتنظر « الام » ، التي نسفوا بيتها مرتين وحكموا عـــلى زوجها بالسجن ثمانية اعوام ، وطاردوا ولدها تنظر الى الحاكم العسكري ... وضوء عينيهـــا يكـــاد ينسفه ...

ـــ ليس لدي ما أقوله ...

● ولكنك ترينه ... اعرف انه يأتي الى البيت ...

ـــ أجل انه يأتي ... وأطبخ له بيدي هاتين ... واطعمه بيدي أيضا ...

● ان لم تسلميه أنت فسوف يسلمه احد الفلاحين ...

ـــ ولماذا يسلمه احد الفلاحين ... لقد كان دائما احد أبنائهم ... ان باجس ابو عطوان لم يخرب كروم العنب ، كما خربته أحذية جنودكم ... ولم يسلب الفلاحات سلال البيض ... ولم ينسف بيت فلاح ... ولم يعتقل الطلاب ... ولم يحـــاصر المنطقة عشرات المرات ...

● انك تقتلين ولدك ...

ـــ لقد قلت لي ان لك ام ، وانا اسألك هل لك زوجة ...

● أجل ...

ـــ لقد نقلتم زوجي موسى ابو عطوان ، من سجن الخليل ، الى سجن غزة ... وانتم ترفضون ان تعالجوه رغم مرضه ... وانتم تدسون عليه الاخبار الملفقة عـــن مقتل ولده باجس ... لكي تعجلوا في موته ...

● ولكن ولدك ... في عداد الموتى ... يجب ان تعرفي هذا ...

ـــ في تشرين مات لكم كثيرون ... وسوف يأتي عليكم تشرين اخر ...

● انك تستحقين السجن ...

ـــ ولكنني سجينة بالفعل ... ما دمتم تحتلون هذه الارض ...

● انك لن تسلميه اذن ...؟

ـــ لم أسلمه قبل تشرين ... فكيف اسلمه الان ...

● سوف تندمين ... وسوف تبكين ...

ـــ انك تعرف أننا لا نبكي على قتلانا ... ولكننا نزغرد لهم ... نحن نزغرد فوق اللحم المثقوب برصاصكم ... وانتم تنوحون فوق حائط ... وهـــذا هو الفرق بيننا وبينكم ...

● ●

وتعود أم باجس ابو عطوان الى بيتها المنسوف للمرة الثانية ... حيث تعيش مع بنتيها بين الانقاض ... وتحت سقف من الخيش والاغصان ، وفي هذه اللحظة ، كان

باجس ابو عطوان ، يفكر في شيئين :

في الكلمات التي قالها الحاكم العسكري الاسرائيلي للمقاتل الجبلي : يوسف اسماعيل مصطفى العواودة حينما وقع في يده ـ أسيرا ـ

ـ الم يبق لديك خبز ...

وكان يفكر ايضا ، في المصيدة التي نصبها المحتلون ، لعلي ابو مليحة ، حين كان يبحث عن ذخيرة ... فظل يقاتل وهو في الكمين ، حتى سقط في مكان اسمه : « ابو خروبة » ... الخبز لغم المقاتل الجبلي ... والرصاص لغم بندقيته ... وفي بعض الاحيان يوجد الخبز ولا توجد الذخيرة ...

وحينما تجوع البندقية ، تصبح حياة ... الجبل في خطر ... وها هي ذي بندقيته ، قد بدأت يوما ... من أيام الجوع ... وعليه ان يبحث لها عن طعام جديد .

[٩]

ـ « مات البطل ...

ـ عاش الجبل ... »

« علي ابو مليحة » ، لماذا يلح عليه هذا الاسم الان ... في صورة استشهاده الاخيرة ... ، في « أبو خروبة » ... وهو يبحث عن طعام جديد لفم بندقيته ...

لقد عاش ثلاثة أسابيع على الحشائش الخضراء الطرية وعلى الاعشاب الجافة... وفي استطاعته ، ان يعيش عشرة اسابيع اخرى ، ليس على الحشائش فقط ، ولكن على قضم الحطب أيضا ... غير أن البندقية لا تستطيع أن تعيش لا على الحشائش ولا على الحصى ... فلقد كان باجس ابو عطوان ، يحس أن يده تخون البندقية ، حينما تمر عربة دورية ، من عربات دوريات الاحتلال والبندقية صامتة في يده ...

باجس ابو عطوان ، ما الذي سوف تفعله الان ...؟

شريط طويل من الصور يمتد امامه ، مسلسل المعارك التي قد خاضها ... ومسلسل السنوات الاربع التي أمضاها في الجبل ... ومسلسل « أبو علي » راعي الغنم ، الذي ولد له ثلاثة أطفال ... وهو معه ... في الجبل ...

كل شيء يمر امامه الان ... ولم يبق معه غير حفنة من الرصاص ، لا تكفي لغير وجبة غذاء واحدة لبندقيته ... وباجس ابو عطوان يعرف ، ان البندقية حينما لا تجد ما تأكله ، تموت يد صاحبها ...

انه الموت اذن ... ولكن على طريقة الجبل الفلسطيني ... ، لقد كان يرفض ان يدفن القتلى من المقاتلين في الجبال ... ، وكان يقول دائما لمقاتلي المجموعة الجبلية التي يقودها :

ـ اذا كانت حياتنا سرية الى أقصى درجات السرية في الجبل ، فيجب ان يكون موتنا في أعلى مراحل العلنية ... يجب ان يعرف الفلاحون ، ان هناك من يسقط من أجلهم ... ، يجب ان تكون قبورنا على مرمى عيونهم ...

● ●

انه الموت اذن ... ولكنه يعرف ان الجبل لم يخذله ، ولم يخذله الفلاحون ... ولم تخذله رؤيته ...

وراح ينحدر من صدر الجبل وقد حشا بندقيته بوجبة الطعام الاخيرة ... كان كمن يبحث عن صيد ، لا لفمه ولكن لبندقيته ...

انه يتذكر الان ، كل رسائله الى قيادته ، ويتذكر ايضا تفاصيل العمليات «الـ ٥٢ »، التي قام بها ، يتذكر وجه أبيه بعد صدور الحكم عليه ... ووجه أمه وأختيه ، بعد ان نسفوا البيت للمرة الثانية ... ويتذكر راعي الغنم « ابو علي » ، الذي كان طموح حياته ، ان يمتلك « راديو ترانزستور » ، وها هو الان بعد أن امتلك الراديو ، يبحث له عن بطاريات جديدة ... وربما يقتل قبل ان يجدها ... ويظل الراديو ... بلا صوت ... تماما كما هو يبحث الان ، عن « بطارية جديدة » ... لبندقيته ... عن رصاص جديد ...

● ●

عربة دورية اسرائيلية ، يرتفع دوي محركها ... ويكمن باجس ابو عطوان خلف صخرة وينتظر ، يأخذ كطائر الشنار ، لون طوب الارض وينتظر ...

وتقترب عربة الدورية ... وينتظر ... انه لا يملك غير ما حشا به بندقيته ... ولو قتلهم جميعا ... لتمكن من الاستيلاء على بنادقهم وذخيرتهم ... وكان عليه ، ان ينتظر اكثر ...

وأصبحت عربة الدورية على مرمى مائة متر من بندقيته ، كانت الدورية تتألف من ضابط وثلاثة جنود ...

آه ، لو كانت معه قنبلة يدوية ... ولكن لا القلب يتحول الى قنبلة ، ولا العين تتحول الى رصاصة ...

عربة الدورية تقترب أكثر ، وهـذه هي فرصته الاخـيرة ... والحقد يتجمع في الاصبع ، كما تتجمع الكهرباء في الشلال ...

... وتنطلق الرصاصة الاولى ... وتخترق صدر السائـق ... فيسقط فوق المقود ... وتترنح العربة ... وتندفع ... وتصطدم بصخرة ... وتتوقف ... وتنطلق الرصاصة الثانية ... ويسقط الضابط ـ الى جوار السائق ـ نصفه في داخل العربة ... ورأسه يتدلى فوق الارض ...

لقد بقيت رصاصتان ... ويخـرج ... من خلف الصخـرة ويقترب أكثر ... رصاصة لكل جندي ... لو خدمه الحظ ...

مطر من الرصاص ... يتساقط حوله ... ثم يحس باجس أبو عطـوان ، ان عاصفة من النيران تلفه ... ويتراجع ... كان يحس بالدم ... يكاد يتفجر مـن عينيه ... ومطر الرصاص يلاحقه ... كان كالسحابة التي تمطر فوق رأسه ...

ويظل يتراجع ... ويتراجع ... بين الصخور ... انه يعرف الطريق جيدا الى تلك المغارة ... تلك الطريق التي مشى فيها مئات المرات ... المغارة التي حفرها بيديه ...

لم يكن يدري ، لماذا كل هذا الاصرار على التراجع ، وهو يعرف انـه ينزف حتى الموت ... ، لقد كان يريد ان يموت في بيته ، في داخل تلك المغارة التي عاش فيها أربع سنوات ...

ويواصل التراجع ... بين الصخور ... فوق جراح الرصاص في صدره ... فجراح الاشواك في يديه ... وفي ساقيه ...

ويبلغ باجس ابو عطوان ... باب بيته ، يبلغ باب المغارة ... وهو لا يسقط فوق عتبتها ... ولكنه يتسلل الى الداخل ...

● ●

انه النزع الاخير ... لقد بدأ شريط الصور يهتز ... وراحت الوجوه تختلط ببعضها البعض ... طلبت منه القيادة ذات يوم أن يرسل بصورة له ، وصور أفراد المجموعة ... وأسمائهم العلنية ... يا الله ... ألا يكفي كل تلك الصور الملصقة فوق الحيطان ... وفوق جدران المكاتب ... ولكن الجبل لن يتحول الى مكتب ...

ولاحظ باجس ابو عطوان ، انه قد استند في داخل المغارة ، الى كيس من الطحين ... وان بقعا من دمه تصبغ الكيس ...

لن يترك لرفاق المجموعة ... رغيفا مخضبا من الدم ...

يكفي كل الدم الذي امتزجت به حياتهم ... ويزحف بعيدا عن كيس الطحين ... لقد تأخر « علي ربعي » ...

خشخشة في باب الكهف ... ورغم احساسه بثقل جفنيه ... يفتح ابو شنار عينيه ... ورأى « علي ربعي » يزحف ، وحين اقترب منه ... واحتضنه ... رأى يد علي ربعي تنزف ... وأصابعها تتدلى ... وهي تقطر بالدماء ... كأنها مناقير الطيور ... لقد أصابته طلقة في يده ... انهم دائماً يطلقون الرصاص ... على يد الفلسطيني ... على يده وقدمه ...

فوق كتف علي ربعي ... سقط رأس باجس ابو عطوان ...

ـ سقط البطل ...

ـ عاش الجبل ...

● ●

في كهف في منطقة الجوف جنوب شرق قرية « الحدب » ، من قرى دورا ... عثروا على باجس ابو عطوان ... كان امام باب الكهف ... كومة من الحجارة ... ملطخة بالدم ... كومها علي ربعي بيديه ... لم يكن للكهف باب مكشوف ، ولم يكن يمكن الاستدلال عليه ، لولا كومة الحجارة التي وضعها علي ربعي ... ومضى ... وأخبر والدة باجس ابو عطوان ...

بعد التفتيش ظهر لهم مدخل منخفض جدا ولا يستطيع احد دخوله الا زحفا على بطنه . وزحف الجنود الاسرائيليون مسافة عشرة أمتار على بطونهم داخل الكهف ... كان الكهف يتشعب ، من الداخل ، الى اتجاهات أربع ... والظلام كان كثيفا ... وظلوا يبحثون والمصابيح في أيديهم حتى عثروا عليه ... وتعرفت عليه امه ...

● ●

في تلك الليلة ، التي دفن فيها باجس ابو عطوان ، رأى الفلاحون في دورا ، رؤى عجيبة ... رأوا طيورا في حجم الصخور ... تحمل في مناقيرها عناقيد العنب ، وتلقي بها فوق سقوف بيوتهم ... أما والدة باجس ابو عطوان فلقد رأت نحلة في حجم « طائر الشنار » ، يحط فوق تراب القبر ... ثم يطير ...

فلاح عجوز ... حينما سمع الرؤيا ... تطلع الى السماء وتمتم :

ـ هذا دم باجس ابو عطوان ، تحول الى قرص عسل ...

ـ مات البطل

ـ عاش الجبل

السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في المناطق المحتلة : اسس امبريالية جديدة

شيلا ريان

(الحلقة الثانية)

هذا هو القسم الثاني من هذه الدراسة المطولة وقد سبق ان نشرنا القسم الاول في العدد الماضي من شؤون فلسطينية .

غزة

لقطاع غزة ، بكثبانه وشطآنه الرملية ، وبيارات البرتقال والمدينة القديمة فيه ، عناصر جمال فائق ، ولكنه أصبح منذ عام ١٩٤٨ مكانا للتعاسة البالغة ، لقد فاق عدد اللاجئين الى القطاع عدد السكان الاصليين بنسبة ثلاثة الى واحد(١٤٥). وفقد معظم سكان غزة الدائمين أرزاقهم عندما فصلهم خط الهدنة عن حقولهم ، ولم يكن لدى القطاع الضيق على الاطلاق ما يكفي من الارض او المصادر الاخرى لاعالة سكانه المتكاثرين . وخلال فترة الادارة المصرية كان الـ ١٣٥ ميلا مربعا التي تشكل مساحة قطاع غزة مكتظة بالفقر والبؤس الانساني ، وعندما استولى عليها الاسرائيليون في عام ١٩٦٧ حشد اكثر من نصف عدد سكانها المكتظين في مخيمات اللاجئين التابعة للانروا . وفي عام ١٩٧٢ كان ٣٢٤،٥٦٧ لاجئا مسجلا يعيش في غزة ، من بينهم ٢٠٥،٧٣٤ من المخيمات(١٤٦). ولقد أشارت الحكومة الاسرائيلية الى انها لا تنوي الانسحاب من غزة .

في الضفة الغربية ، يلمس المرء أيدي الاحتلال الطويلة تصل الى المستقبل لتخلق اوضاعا مسبقة لسلام امبريالي في المنطقة عن طريق ابقاء الجسور الى أسواق الشرق العربي مفتوحة ، اما في غزة فان يد الحكم العسكري ممتدة فوق مخيمات اللاجئين ، في محاولة لاعادة تشكيل سكانها في هيئة يمكن اعلانها كـ « حل » لمشكلة اللاجئين ، وستكون في الواقع حلا دائما لسعي اسرائيل وراء العمل الرخيص .

في اوائل ١٩٧٣ قال موشيه دايان بشأن لاجئي غزة، « خلال سنتين او ثلاث، واذا كان لدينا الاموال التي نحتاجها ، نستطيع تغيير وضعهم في الواقع حتى لو استمروا في تسمية أنفسهم لاجئين وفي ابداء ادعاءاتهم . خلال سنتين او ثلاث، سيعيشون حياة طبيعية في مدن جديدة ، في شقق ماؤها في حنفيات ، وتعليم وخدمات للاطفال »(١٤٧). والاساس الاقتصادي للحياة الجديدة التي يصورها دايان للاجئين هو الدخول ضمن البروليتاريا الاسرائيلية .

العمـــل

تشير الاحصاءات الاسرائيلية انه خلال الاحتلال كان اجمالي ناتج الفرد والدخل الشخصي المتاح والاستهلاك الشخصي يتزايد باستمرار .

غـــزة

الارقام بالليرات الاسرائيلية للفرد(١٤٨)

السنة	اجمالي الانتاج	الدخل الشخصي المتاح	الاستهلاك الشخصي
١٩٦٨	٤٠٢	٥٣٦	٤٣٢
١٩٦٩	٤٥٣	٥٨٠	٤٩٧
١٩٧٠	٥٨٧	٧١٥	٥٧١

ومع بداية ١٩٧٣ سجل ان مستوى المعيشة في غزة قد ارتفع ٥٨ ٪ في الاعـــوام الاربعة السابقة(١٤٩). وهذه زيادة ملموسة حتى على اساس مؤشر اسعار الاستهلاك الذي ارتفع من ١٠٤٫٩ عام ١٩٦٩ الى ١١٩٫٦ في كانون الثاني (يناير) الى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١(١٥٠).

ويمكن ان يعزى معظم هذه الزيادة الى الارتفاع السريع في استخدام الاشخاص الذين يعيشون في غزة .

مشاركة الذكور في غزة في قوة العمل ومعدل الاستخدام(١٥١)*

الفـــترة	عدد المشاركين في قوة العمل	معدل الاستخدام
آب ــ كانون الاول ١٩٦٨	٥٨٬٨٠٠	٪٨٥٫٨
١٩٦٩ معدل	٦١٬٩٠٠	٪٩٣٫١
١٩٧٠ معدل	٦٣٬١٠٠	٪٩٥٫٧
كانون الاول ــ حزيران ١٩٧١	٦٢٬٤٠٠	٪٩٨٫١

ومعظم هذه الزيادة في الاستخدام ناتجة بدورها عن الاستخدام في اسرائيل : حوالي ٧٥ ٪ في الزيادة في الاستخدام بين رجال من غزة في الفترة الواقعـــة بـــين ١٩٦٨ و١٩٧١ ، على سبيل المثال ، تتشكل من العاملين في اسرائيل، وهذا ما يظهره الجدول التـــالي :

عمال غزة المستخدمون في اسرائيل(١٥٢)

الفـــترة	عدد المستخدمين
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨	٨٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩	٢٬٥٠٠

* يضم « المشاركون في قوة العمل » اولئك الذين يبحثون بنشاط من عمل واولئك الذين هم مستخدمون فعلا . « معدل الاستخدام » هو نسبة المشاركين في قوة العمل الذين هم مستخدمون فعلا .

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠	٥٠٩٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧١	٨٠٨٠٠

وفي اوائل ١٩٧٣ ، قدر رئيس بلدية غزة السابق رشاد الشوا عدد العاملين في اسرائيل بـ ٣٠٠٠٠ غزاوي(١٥٣). واذا كان تقديره صحيحا ، فان نصف الرجال المستخدمين في غزة يعملون في اسرائيل .

وتخطط سلطات الاحتلال بوضوح لزيادة استخدام الغزاويين في اسرائيل في السنوات القادمة . وقد جاء في تقرير للصحيفة الاسرائيلية « **دافار** » ان السلطات العسكرية قد أعدت خططا مفصلة لقطاع غزة تشمل الفترة حتى عام ١٩٨٥ . ومع وضع الهجرة ، التي يتوقع ان تكون صغيرة ، بعين الاعتبار تقدير قوة العمل عام ١٩٨٥ بحوالي ١٠٦٠٠٠ ذكر و١٥٠٠٠٠ انثى و١٩٠٠٠٠ غير محدد الجنس.ومن بين هؤلاء « سيوجه الى العمل في اسرائيل ٩٠٠٠٠ على الاقل ، تبعا لاقوال ضابط الاركان المسؤول عن الاحصاءات تزفا جانوت »(١٥٤).

لقد أكد الارتفاع في الاستخدام في قطاع غزة ، والارتفاع في مستوى المعيشة والذي جاء الى حد كبير نتيجة عنه ، نظرة سلطات الاحتلال القائلة بأنه يمكن حل مشكلة اللاجئين ، في جزئها الاعظم ، من خلال جر لاجئي وسكان غزة ضمن البروليتاريا الاسرائيلية . ويستطيع الاسرائيليون الاشارة الى حقيقة ان عمال غزة قد جذبوا للعمل في اسرائيل بالرغم من شن الفدائيين هجمات مسلحة على الرجال الذاهبين الى اعمالهم في اسرائيل في محاولة لمنعهم عن ذلك . ويناقش الاسرائيليون بأن اجور الغزاوي العامل في اسرائيل أعلى منها في غزة بنسبة ١١٠ ٪ (١٥٥). وتشكل الـ ٢٢ مليون ليرة اسرائيلية التي يحصلها الغزاويون كأجور في اسرائيل عام ١٩٧٠ حوالي ١٠ ٪ ناتج غزة الاجمالي لنفس العام(١٥٦). وفي السنة المالية ١٩٧٢ ، ارتفعت اجور الاعمال في اسرائيل حوالي ٦٠٠ ٪ ، وحصل عمال غزة في اسرائيل على ١٢٠ مليون ليرة اسرائيلية*.

وعلى اي حال ، في مجرى محاولة اسرائيل لـ « حل » المشاكل القديمة بعلاقتها مع شعب غزة ــ وضع اللاجئين واملاق البطالة ــ من خلال عرض حل هو بالاساس لصالح المستخدمين الاسرائيليين ، فان الحكومة الاسرائيلية ، في الواقع ، تخلق تناقضات جديدة . فالرجل القادم من غزة ويعمل في اسرائيل يعرف أنه يعامل بشكل أسوأ كثيرا مما يعامل به عامل اسرائيلي ، وأنه ما يزال لا يحصل ما يكفي لاعالة عائلته على أساس مستوى معقول وان الظروف التي عليه ان يعمل ضمنها هي ظروف غير انسانية .

« في تل أبيب ، وخلال السنوات الخمس الاخيرة كان [العمال] العرب ينامون في الاقنية ــ لماذا تغييب ذلك ؟ » هذا ما اعترف به موشيه دايان(١٥٨). يمكث الاف العمال من غزة خلال الليل في اسرائيل « بصورة غير مشروعة » غالبا لان مصاريف النقل والوقت الى بيوتهم يمنعهم عن ذلك . وقد تلقى البوليس والحكم العسكري تعليمات باتخاذ اجراءات مشددة بحق العمال العرب الفلسطينيين « الاتين من المناطق [والذين] ينامون في الليل قرب أماكن عملهم في اقبية البنايات التي يجري انشاؤها ،

* ولكنهم انفقوا ٤٠ مليون ليرة اسرائيلية ، اي حوالي ثلث اجورهم في اسرائيل ، على الطعام وربما غرفة وضرائب ومشتريات ومصاريف اخرى .

وفي مطابخ المطاعم ، وفي البساتين والمناطق الزراعية الاخرى »(١٥٩)، وقد كان هنالك تقارير في الصحافة الاسرائيلية حول « عائلات بأكملها [من غزة] بمن فيها الاطفال والرضع ينامون في الليل في بيوت دجاج المزارعين اليهود »(١٦٠).

وقد وصفت صحيفة اسرائيلية حالة عامل من غزة يمكث بصورة غير مشروعة في الموشاف حيث يعمل ، بقولها : « فايق حمد دليس ، شاب نحيف ذو بنية ضعيفة وعمره في الاغلب ٢٦ عاما ، هو عامل يعتني بمزرعتين لا يعمل فيهما مالكاهما على الاطلاق . وفايق أب لطفلة عمرها ثلاث سنوات وطفل عمره سنة ونصف . على شفتيه ابتسامة كالحة ويتكلم العبرية بشكل واضح . وهو يشرح قائلا : والدي ميت ، وهنالك امي وخمس اخوات غير متزوجات واربعة اخوة ما زالوا صغارا . أنا الاكبر من بينهم ، وأعطيهم أموالا وملابس . عملي ليس لي ، انه لهم . اننا عائلة واحدة ، زوجتي ، وامي واخواتي ، كلنا معا ... انني أعمل ما يقارب الست عشرة ساعة ، من الرابعة صباحا حتى العاشرة ليلا . في البدء كنا ثلاثة رجال ، بعدها أصبحنا اثنين . والان لا يريد المالك ذلك . انني اقوم بكل العمل لوحدي . لمدة سنتين عملت بأجر ١٢ ليرة اسرائيلية في اليوم ، ولكن كان معي عامل اخر . وحتى شهر مضى كنت أتلقى ١٦ ليرة اسرائيلية ، والان ٢٥ ليرة . على خمسة عشر شخصا ان يأكلوا ويلبسوا منها . يعيش فايق في بيت دجاج قديم ذي مصطبة اسمنتية مشققة وجدران صفيح حارة . وعلى سرير ضيق مغطى بفرشة بالية . تتكوم كومة من الملابس الوسخة . والى جانب السرير صندوق عليه صينية عليها بقايا مائدة ، وبجانبها زوج من أحذية العمل »(١٦١).

وكالعمال القادمين من الضفة الغربية ، يستخدم عمال غزة في الاعمال التي لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ، وهي أقل الاعمال أجورا في اسرائيل . وعمال غزة أقل صلاحية للعمل في البناء ، بسبب بعدهم عن القدس حيث تتركز الانشاءات الجديدة ، وهم غالبا ما يعملون في الزراعة الاسرائيلية : ٤١٪ من الغزاويين العاملين في اسرائيل يستخدمون في الزراعة ، بينما نسبة عمال الضفة المقابلة هي ١٩ ٪* .

استخدام العمال الغزاويين عام ١٩٧٠
حسب القطاع الاقتصادي(١٦٢)

القطاع	النسبة المئوية
البناء	٤٩
الزراعة	٤١
الصناعة	٩
الخدمات	١

وللحكومة الاسرائيلية مراكز تدريب مهني في غزة كتلك التي لها في الضفة الغربية . وتعترف سلطات الاحتلال صراحة ان هذه المدارس قد انشئت بحيث تنتج العمال الذين

* ان اتجاه عمال غزة للاستخدام في الزراعة في اسرائيل والتشجيع الرسمي للزراعة في غزة قد تسببا في تغيير في النسب المئوية للغزاويين العاملين في قطاعات الاقتصاد المختلفة لصالح الزراعة ، على عكس النموذج في الضفة الغربية حيث تسبب الاحتلال في تغير في الاستخدام بعيدا عن الزراعة .

تحتاجهم سوق العمل الاسرائيلي(١٦٣). وهنالك مركزان في مدينة غزة وواحد في كل من دير البلح وخان يونس . وقد شهد عدد الطلاب الداخلين الى هذه المراكز ارتفاعا سنويا ، كما يظهر في الجدول التالي :

عدد الطلاب الداخلين الى مراكز التدريب المهني
التي تديرها اسرائيل في غزة ، حسب العام والدراسة(١٦٤)

الدراسة	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠
الصناعة	١٢٢	٧٠٦	٩٠٣
البناء	١٣٦	١٠٠٦٨	٢٤٠٨٧
المجموع	٢٥٨	١٠٧٧٤	٢٤٩٩٠

استخدام العمال الغزاويين
حسب القطاع الاقتصادي(٪)(١٦٥)

القطاع	قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧	١٩٦٩	١٩٧٠
الزراعة	٢٤	٣٣	٣٤
الصناعة	١٤	١٢	١٣
البناء	٩	١٠	١٠
الخدمات ، التجارة والصناعة	٥٣	٤٥	٤٣
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

وتخطط الحكومة الاسرائيلية لانشاء ثلاثة مراكز تدريب اخرى لمهن البناء . وفي عام ١٩٧١ لوحده انفقت اسرائيل ١٫٤٢٩٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية على التدريب المهني في غزة وسيناء(١٦٦).

ان نوعية التدريب الجاري تحت رعاية اسرائيلية في غزة ، كما في الضفة الغربية ، متدنية . ويمكن اجراء مقارنة ذات دلالة بين مدارس التدريب المهني الحكومية الاسرائيلية **ومدرسة غزة المهنية** التابعة للانروا التي كانت ، وما تزال ، تنتج عمالا مهرة في مهن مختلفة منذ الخمسينات . ان كلا من الصفوف الاسرائيلية وصفوف الانروا هي عناصر خطط لتصفية مشكلة اللاجئين ، ومن ثم تصفية مسألة الحقوق الوطنية الفلسطينية . (لقد كانت برامج الانروا منذ وقت طويل عرضة لانتقاد الوطنيين العرب الفلسطينيين على اساس انها مجهودات لتسكين وتهدئة الشعب الفلسطيني) . ولكن بينما تقوم خطة الحكومة الاسرائيلية على استيراد العمال من مخيمات اللاجئين للقيام بأعمال لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ضمن المستوى الاكثر انخفاضا للبروليتاريا الاسرائيلية ، يقوم برنامج الانروا على تصدير العمال المحترفين والتقنيين الجيدي التدريب من مخيمات اللاجئين الى البلدان العربية المختلفة ، أو حتى الى اوروبا . وعندئذ يرسل العمال المصدرون الاموال الى عائلاتهم التي تعيش في مخيمات اللاجئين أو بالقرب منها ، او يجلبون عائلاتهم الى البلد الذي يعملون فيه .

وهكذا ، فان دروس مدارس الانروا معدة لتعليم مستوى مهارة أعلى بكثير من دروس الاسرائيليين ، وتدوم دروس الانروا فترة ٢٣ شهرا بينما في المقابل تدوم دروس الاسرائيليين فترة ٣ — ٦ أشهر في مجال البناء وسنة واحدة في المجالات الاخرى . وقد علق مدرس عربي في الانروا بقوله ان الدروس الاسرائيلية تعلم المشاركين « كيفية التفريق بين المطرقة والمنشار فقط . وعندما ينهون الدرس فانهم لا يتعدون كونهم شبه مهرة — بالتأكيد لن تستطيع القول انهم عمال مهرة . فهم يعلمون فقط بما يكفي لان يعملوا تحت اشراف مراقب اسرائيلي » . ولان المنهج الاسرائيلي يعتمد على وجود عامل اسرائيلي ماهر كرئيس للعمال العرب غير المهرة ، لا يقدر خريجو مدرسة الانروا على ايجاد أعمال في اسرائيل متناسبة مع المهارات التي تعلموها ، بالرغم من الازدهار في الاقتصاد الاسرائيلي بعامة والبناء بخاصة . قبل حرب ١٩٦٧ ، قدر عضو في الهيئة التعليمية لمدرسة غزة المهنية التابعة للانروا أن ٩٥٪ من خريجي المدرسة وجدوا اعمالا متلائمة مع مستوى تدريبهم في مصر غالبا . والان تتخوف الهيئة التعليمية من مشاكل بطالة جدية لخريجيهم طالما ليس في استطاعتهم المجيء والذهاب بحرية الى مصر ويحرمون من العمل العالي المهارة في اسرائيل لانهم عرب(١٦٧) .

تلعب حكومة الولايات المتحدة دورا مهما في برنامج التدريب المهني الاسرائيلي وفي جهود الحكم العسكري الاخرى من أجل اعادة تشكيل قوة عمل المناطق المحتلة واعادة توجيهها نحو اسرائيل . اذ يتلقى طلاب الدروس المهنية الاسرائيلية في غزة والضفة الغربية حصة شهرية من فائض الغذاء الامريكي عبر هيئة كير ، بالاضافة الى مرتبهم اليومي من الحكومة الاسرائيلية(١٦٨) . ويختلف حجم مساعدة كير تبعا لعدد أفراد عائلة المتدرب . وكذلك ، فان بعض مراكز التدريب المهني الاسرائيلية تمول ايضا بهبات معدات من كير .

ان توزيع الغذاء للطلاب المهنيين في الدروس التي تشرف عليها سلطات الاحتلال هو وجه لبرنامج كير المسمى « الطعام من أجل العمل » . وعلى اساس القانون المسمى P.L. 480 ، تمنح حكومة الولايات المتحدة الغذاء الفائض لهيئة كير ، وهي مجموعة من المنظمات الامريكية تدير سلسلة مجموعات اغاثة تتراوح بين AFL-C 10 ومجموعات دينية للاغاثة . ومن ثم توزع كير الغذاء في المناطق المحتلة طبقا لخطة معدة بالتعاون مع وزارتي الشؤون الاجتماعية والعمل الاسرائيليتين ، وموافق عليها من قبل ضابط برنامج الطعام من أجل السلام في السفارة الامريكية باسرائيل(١٦٩) . وفي غزة وشمالي سيناء يتم توزيع مؤن لـ ٥٠٠ر٥٠ شخص منهم ١٠٠ر٠٠٠ عامل والبقية معوزون تحت اشراف برنامج كير « الطعام من أجل العمل » . (ويعمل هذا البرنامج في الضفة الغربية ايضا . ففي السنة المالية ١٩٧٤ ، اقترحت كير توزيع مؤن لـ ٥٠٠ر٢٧ عامل ومعوز في الضفة الغربية ، بمن فيهم اشخاص في التدريب المهني الذي تشرف عليه اسرائيل ، وعائلاتهم)(١٧٠) .

في غزة يوزع « الطعام من أجل العمل » ايضا على ما لا يزيد عن ١٧٫٠٠٠ عامل وعائلاتهم لا يعيشون في مخيمات لاجئين . ويستخدم العمال من قبل دائرة الاشغال العامة في المشاريع التي يوافق عليها الحكم العسكري . ومن بين هذه المشاريع « توسيع وتصليح الطرق »(١٧١) ، وهو عنوان غالبا ما يستعمل كتورية عن هدم بيوت اللاجئين وتقليص عدد سكان المخيم من اجل اغراض مواجهة الانتفاض .

يخصم نصف قيمة مساعدة كير من اجرة العامل(١٧٢) ، وهكذا فانه من خلال برنامج

« الطعام من أجل العمل » تمول حكومة الولايات المتحدة ، بطريق غير مباشر ، استخدام العمال الفلسطينيين من قبل حكم الاحتلال العسكري ، وتساعد الاسرائيليين في خططهم لاعادة تركيب قوة العمل في غزة . وتحت برنامج « الطعام من أجل العمل » توزع كير ايضا مؤنا للنساء العاملات في تعاونيات الخياطة التي بعضها مشاريع تقيمها وزارة الشؤون الاجتماعية الاسرائيلية ومصممة لنقل زبائنها عن كاهلها . وقد تم التعاقد مع احدى هذه التعاونيات لعمل بناطيل زرقاء تباع في اسرائيل .

تقسم المؤن المتبقية بين ٦٦ر٤١٠ بدوي في سيناء للعمل في امدادات المياه والطرق . ولجزء من هذا العمل منافع مباشرة بالنسبة للاحتلال العسكري . وقد جاء في تقرير لايرين بيسون من سيناء انه « من وقت لوقت يصادف المرء مجموعات من المصريين المسلحين بالمقشات والرفوش ، يكنسون ويجرفون بطريقة متقطعة عابرة ، ويبقون الطريق نظيفة من الرمل والحجارة والمسامير والاجسام الاكثر ضررا » . وقد شرح أحد السكان المحليين الامر بقوله : « انهم مستفيدون من برنامج كير ، فقد ابتدأ مشروع عمل من أجل الطعام منذ الحرب . هدفه اعطاء عمل ، بدل الصدقات ، للعاطلين عن العمل وللاجئين » . وتابع قائلا « ان ذلك يبقي الرجال مشغولين والطريق نظيفة امام الجيش الاسرائيلي ، ولا يكلف سوى ثلاث ليرات يوميا للرجل الواحد . واذا اصطدمت آلية اسرائيلية بلغم فان الرجال الذين يكنسون تلك القطعة المحددة من الطريق يتحملون المسؤولية »(١٧٣) . ويستخدم الطعام ايضا كحافز للعشائر من اجل التعاون مع خطط الحكم العسكري الخاصة بسيناء ، ويلاحظ تقرير لكير ان « الجهود تبذل لمكافأة العشائر التي تعمل أكثر بمؤن اكثر ، واما الذين سجلات عملهم غير حماسية فيحصلون على مؤن اقل »(١٧٤) .

الزراعة

تشجع اسرائيل تصدير منتجات غزة الزراعية الى اوروبا ، والعملة الصعبة التي تحصلها الصادرات في أوروبا تقلص مشكلة ميزان مدفوعات اسرائيل ، لان قطاع غزة قد دمج ماليا مع اسرائيل . ما بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٦٩ ، ازدادت الفواكه والخضروات المشحونة من غزة الى اوروبا من ٥٥ طنا الى ١٢٤ طنا(١٧٥) . وقد أدى ارتفاع الانتاج الى زيادة الصادرات . وقد جاء في تقارير سلطات الاحتلال ان « أضخم هذه الزيادات كان في الباذنجان ، الذي ارتفع ناتجه من ٣٠٠ طن عام ١٩٦٨ الى ١٫٨٠٠ طن عام ١٩٦٩ . وقد ارتفع ناتج الباذنجان المزروع تحت أغطية بلاستيكية واقية من ١٥٠ طنا عام ١٩٦٨ الى ٨٠٠ طن عام ١٩٦٩ . وارتفع ناتج الفراولة من ٢ طن فقط عام ١٩٦٨ الى ١٢٠ طنا عام ١٩٦٩ »(١٧٦) . وكانت الخضروات المعدة للتصدير تزرع تحت غطاء بلاستيكي واق بشراكة ملاك أراض من غزة واسرائيلي ، وبشراكة أخرى بين عربي « اسرائيلي » ومزارع غزاوي(١٧٧) . وقد بيعت الخضروات في اوروبا على أيدي وكالة تسويق اسرائيلية .

ان حوالي ثلثي منتجات غزة الزراعية من الحمضيات ، والناتج ، خاصة المعد للتصدير ، يتزايد . وحوالي ثلثي ما تحصله حمضيات غزة تأتي من صادراتها الى اوروبا ، ومعظم الباقي يأتي من الصادر الى الضفتين الغربية والشرقية ، الذي يعاد تصدير جزء منه حينئذ الى البلدان العربية الاخرى(١٧٨) . ويبلغ انتاج غزة من الحمضيات حوالي عشر انتاج اسرائيل(١٧٩) .

تسوق الحمضيات المصدرة الى اوروبا الغربية من قبل مجلس تسويق الحمضيات المركزي الاسرائيلي(١٨٠) . توفر فواكه غزة منافع تجارية لصادر اسرائيل من

الحمضيات بأكمله ، كما قالت جريدة **التجارة والمصادرات الاسرائيلية** بشأن الكريفوت عام ١٩٧١ : « لقد فاقت الصادرات الاجمالية لعام ١٩٧٠ بشكل ملموس كل الاهداف المرسومة لها ... وهنالك عاملان مهمان وراء هذه الزيادة ... [والثاني هو أن] المجلس تلقى حوالي ٩٫٠٠٠ طن من الكريفوت من قطاع غزة في الشهرين الاخيرين من العام ، ساهمت في تخفيف النقص ، وقد دفع لها سعر أعلى من الاعتيادي . لقد ذهبت معظم فواكه غزة الى ايطاليا ، التي لا تشتري الا الكريفورت من اسرائيل » .

الصناعة

في تموز (يوليو) ١٩٦٩ قررت لجنة وزارية اسرائيلية في المناطق المحتلة تأسيس مركز صناعي وتجاري في الجزء الشمالي من القطاع(١٨١) . وقد بني المرفق بالقرب من خط ايريز ، رمزيا على الحد بين العمل العربي والرأسمال الاسرائيلي. ومع ١٩٧١ أصبح هنالك ١٤ مشروعا في المنطقة تستخدم حوالي ٥٠٠ عامل ، ومشروعين اخرين خطط لهما ان يستخدما ٦٥ اخرين(١٨٢) . وفي منتصف ١٩٧٢ جاء في تقارير الصحافة الاسرائيلية ان كل اصحاب المشاريع كانوا اسرائيليين ، وكل العمال كانوا عربا فلسطينيين ، مع أن الملتزم العربي الاصلي ، وهو ابن عم رئيس بلدية غزة (السابق) ، قد استأجر دونمين ليبني عليهما مصبغة . وقد تلقى الصناعيون قروضا بقيمة ٤٠ الى ٥٠ بالمئة من رأس المال المستثمر من الحكومة و « اصحاب المشاريع هي شركات كبيرة مثل كور ومديرو بنوك سابقون وضباط سابقون عملوا في قطاع غزة واماكن أخرى »(١٨٣) .

وحتى خارج المركز الصناعي الجديد فان المستثمرين الاسرائيليين يؤسسون مشاريع مستقلة وبالشراكة مع سكان محليين . ان أحد معملي تغليف الحمضيات اللذين فتحا في غزة منذ حرب ١٩٦٧ يملكه اسرائيلي(١٨٤) ، وأسس مستثمرون اسرائيليون مصنعا لصب النحاس في غزة ، مستعملين المعدن الخردة الذي يجمعه بدو من ساحات المعارك في سيناء(١٨٥) . وأصبح احد الاسرائيليين شريكا في شركة بيع بالجملة في غزة ، واخر في شركة لبيع مبيدات الحشرات والاسمدة . ودخلت شركتان غزاويتان للباصات في مشروع مشترك مع شركة ايجد ، وهي شركة باصات اسرائيلية ، لتوفير المواصلات في غزة(١٨٦) .

وبالاضافة الى ذلك ، تقوم المعامل في غزة بجزء كبير من العمل الملحق بالصناعة الاسرائيلية ، فعلى سبيل المثال ، بلغت قيمة الحقائب البلاستيكية المخاطة في غزة لصالح الشركات الاسرائيلية حوالي ٤٥٠٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٠(١٨٧) . وقد تعهدت معامل الخياطة في غزة بتوفير متطلبات الشركات الاسرائيلية ، بما فيها شركات : كتان دايمونا وخضوري وشهيبا في يافا(١٨٨) .

يبدو أن سياسة الحكومة الاسرائيلية هي محاولة ناجحة في امتصاص خزان العمل في غزة ولكن القادة السياسيين الاسرائيليين يجمعون على أن الخزان ممتلىء الى مستوى خطر : اذ أن تركز ٣٢٥٫٠٠٠ لاجيء في غزة يمتلكون تاريخا مفعما بروح المقاومة يشكل تهديدا ضمنيا للاحتلال الاسرائيلي . وقد اقترح نائب رئيسة الوزراء ، ايغال آلون ، ان يطلب من الملك حسين العمل على توطين لاجئي غزة في الضفة الشرقية مع مساعدة اسرائيلية ، كجزء من تسوية سلمية(١٩١) . ولكن يبدو أن الرأي بتوطين بعض لاجئي غزة حول العريش ، وهي مدينة صغيرة جنوب غزة على ساحل البحر المتوسط ، هو الذي له تأثير عملي على نموذج سياسات الاحتلال .

العمل والصناعة

بعد أن تسلمت جولدا مائير رئاسة الوزارة بفترة وجيزة طلبت من رئيس دائرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية ، الدكتور رعنان فايتس ، رسم خطة لاعادة توطين اللاجئين العرب الفلسطينيين . فقام ، بدوره ، بتفويض فريق من « الخبراء » يرأسه شمشون كارمل لتقديم خطة . وقد جاء في اقتراح فايتس وكارمل ، توطين ١٠٫٠٠٠ عائلة من غزة بالقرب من العريش ، ضمن مشروع سيتناول في النهاية ١٠٠٫٠٠٠ شخص(١٩٢) . وكانت العناصر الاقتصادية لمشروع التنمية تشبه تماما عناصر الخطط الاقتصادية الفعلية لغزة نفسها ، بما فيها تبعية زراعية وصناعية للاقتصاد الاسرائيلي: « يجب ان تكون المحاصيل في الغالب من الخضروات والازهار والفواكه ، ولا يستعمل منها لاستهلاك المزارعين الخاص سوى جزء ضئيل ، ويسوق الجزء الاعظم فيما وراء البحار (في أوروبا الغربية) أو في الاسواق العربية او في اسرائيل (من اجل العمليات الصناعية) . ويجب ان تكون الصناعة في الغالب معامل نسيج وجلد واغذية وكرتون ومعادن ، على نطاق ضيق ، وتعمل بالاساس من اجل توفير الطلبيات القادمة من اسرائيل . ويتوقع للصناعة ان تقام غالبا — ان لم يكن دائما — من قبل مستثمرين اجانب (بما في ذلك شراكات مع مالكين اسرائيليين) وان تجتذب العمل الذي يتطلب المهارة ، من الخارج »(١٩٣) .

لقد كان القصد من الخطة جلب منافع سياسية واقتصادية لاسرائيل ، كما اشار المحرر الاقتصادي لصحيفة « **الجيروزالم بوست** » (الذي اعتقد ان الاقتراح غير عملي) : « لا يتوقع من خطة التوطين في العريش الاسهام في التنمية الاقتصادية للبلد وامتصاص فائض العمل (العاطل) في قطاع غزة وتحسين مستوى الشعب المعيشي وحسب ، بل ويتوقع منها ايضا خلق « بنية اجتماعية مستقلة » ومن ثم توفير حافز وفرصة لتطوير « قيادة محلية » من بين اللاجئين انفسهم ، وتحويل طاقاتهم الثقافية والسياسية من العداوة العقيمة والنشاط الارهابي الى مجاري انتاجية بالتعاون مع اسرائيل »(١٩٤) .

لا بد انه كان لخطة فايتس — كارمل ، او خطة شبيهة بها ، تأثير ما على سلطات الاحتلال العسكرية ، ذلك انه عندما بدأ الجنود الاسرائيليون في صيف عام ١٩٧١ باجلاء العائلات ونسف بيوتهم في مخيمات اللاجئين من اجل بناء طرق لـ « اغراض أمنية » ، فانهم كانوا يحثون الناس الذين دمرت بيوتهم على الذهاب الى العريش . وجاء في تقارير الانروا ان الجنود الاسرائيليين الذين وصلوا الى المخيمات ، في منتصف الليل أحيانا ، من أجل وضع علامات على البيوت التي ستدمر كانوا يعطون العائلات ٢ — ٤٨ ساعة ليغادروا مع امتعتهم ، ويحثونهم بقوة على الذهاب الى العريش : « لقد كان يقال للاجئين عن وجود منازل جيدة لهم في العريش ، ولكن ، ان فضلوا ، بامكانهم الذهاب الى الضفة الغربية من الاردن او البقاء في غزة اذا استطاعوا ايجاد منازل شاغرة وتوفير موافقة المالك الخطية على استعمالها . وكان يقال لهم ايضا بأن المواصلات المجانية ستتوفر للذين يوافقون على الذهاب الى العريش او الضفة الغربية من الاردن وان السكن هناك سيكون مجانيا لفترة معينة وان العمل سيكون متوفرا ... »(١٩٥) .

وبشكل عام ، طرد ١٤٫٧٠٤ لاجئين بعد سلسلة التدميرات . وبالاساس ذهب حوالي ٤٠٠ عائلة من الـ ٢٫٤٠٠ عائلة المطرودة ، الى العريش ولكن ١٣٠ عائلة منها عادت مؤخرا الى غزة . وذهبت ٣٠ عائلة الى الضفة الغربية(١٩٦) .

وبعد قليل من طرد هؤلاء اللاجئين من بيوتهم ، علقت صحيفة « **اسرائيل اكونومست** » بقولها ان « تطويرا فوريا لقوة العمل في منطقة سيناء ... يستدعي انشاء معمل اثاث في العريش ، مشروع مستثمر اسرائيلي . ويتوقع ان يستفيد هذا المشروع وغيره في مدينة العريش من تدفق العائلات التي يتم اجلاؤها من قطاع غزة »(١٩٧) . وقد انشأ الملتزمون الإسرائيليون ايضا معمل سمك في العريش ، واستولت مجموعة من شركات الزيوت النباتية الاسرائيلية على معمل لزيت الخروع كانت قد دمرته الحرب واستثمرت ٠٠٠ر١٠٠ ليرة اسرائيلية في اصلاحه(١٩٨) . تستعمل صناعة الكيماويات الاسرائيلية زيت الخروع في انتاج البلاستيك والدهانات ومبيدات الحشرات والزيوت الهيدروليكية(١٩٩) .

سيناء

تبلغ الـ ٠٠٠ر٢٣ ميل مربع من شبه جزيرة سيناء التي استولت عليها اسرائيل من مصر في حرب حزيران حوالي ثلاثة اضعاف مساحة اسرائيل ما قبل ١٩٦٧ . ومعظم سيناء صحراء ، وفيما عدا سكان بعض المدن على شاطىء البحر وقناة السويس ، لا يقطن هذه الارض ـ الجسر بين افريقيا وآسيا سوى ٦٠ ـ ٧٠ الف بدوي ، وهي طريقة تجارية ذات اهمية تاريخية* .

ولقد اعتبرت سيناء ، بشكل عام ، المنطقة المحتلة التي اكثر ما ترغب اسرائيل في التخلي عنها ضمن تسوية سلمية . وعلى اي حال ، فان سيناء توفر لاسرائيل منافع اقتصادية ومواد خام استراتيجية هامة ، وهي عامل مهم في جعل الاحتلال مشروعا جيدا للحكومة الاسرائيلية .

النفط

تضخ اسرائيل كميات كبيرة من نفط الابار المصرية المستولى عليها في سيناء(٢٠٠) . ومع ان الاسرائيليين لم يمسوا حقول نفط مورجان وجارة ، التي تديرها بصفة مشتركة شركة النفط الامريكية والهيئة المصرية العامة للبترول (ربما لان شركة امريكية تشارك في استغلالها) ، فانهم صادروا ١١٧ بئر نفط في سيناء التي كانت تديرها بصفة مشتركة شركة اي. ان. آي الايطالية والشركة المصرية . وفي ١٩٧١ ، انتجت هذه الآبار حوالي ٦ ملايين طن من النفط تعادل ما قيمته ٨٠ مليون دولار تقريبا لاسرائيل . وفي اوائل السبعينات ، يفوق نفط سيناء احتياجات اسرائيل الخاصة بحوالي ٥ ملايين طن سنويا ويسمح بتصدير جزء منه . وقد جاء في التقارير ان اسرائيل تسوق نفط سيناء ، بشكل سري ، في اوروبا(٢٠١) وتطالب من سكان المناطق المحتلة ان يشتروا نفطهم من الاحتكار الاسرائيلي(٢٠٢) .

ان ثروة سيناء النفطية ذات قيمة خاصة لاسرائيل لان انتاجها الخاص ما قبل حرب ١٩٦٧ كان قليلا جدا ، حوالي ٦٪ من الاستهلاك المحلي عام ١٩٦٦ . وفي الماضي كانت اسرائيل مضطرة للاعتماد على النفط الخام الايراني لمعظم احتياجاتها الداخلية .

وتتوقع التقديرات ان يكون احتياطي النفط الاجمالي في سيناء كبيرا ، لكن صحيفة

---

* وفر احتلال سيناء فرصا مهمة في المواصلات لرجال الاعمال الاسرائيليين . فقبل حرب ١٩٦٧ ، كان الطيران من اسرائيل الى جنوب افريقية ، وهي مصدر المواد الخام للماس المصقول ، اكثر صادرات اسرائيل ، يتطلب خطا تسلكه طائرة العال وتدور الى تركيا وايران ومنها الى جوهانسبرج عبر نيروبي ، ويستغرق ١٦ ساعة . أما الخط المباشر الجديد عبر سيناء فيستغرق ١١ ساعة ونصف طيران فقط .

« **الفايننشال تايمز** » تقدر الانتاج الممكن بحوالي ٤٠ مليون طن سنويا(٢٠٣)، أو حوالي سبعة أضعاف الانتاج عام ١٩٧١ . وهنالك ايضا احتياطي كبير في المعادن والغاز في قاع خليج العقبة والبحر الاحمر ، ومن الممكن أن تلجأ اسرائيل الى استغلاله في المستقبل .

ان النفط المصادر من آبار سيناء هو عامل مهم في جعل الاحتلال العسكري في المناطق المحتلة مشروعا مربحا لخزينة الحكومة الاسرائيلية وكذلك للطبقة الرأسمالية . وتبعا للارقام التي أعطاها دافيد كوهاف ، المستشار الاقتصادي لوزارة الدفاع الاسرائيلية ، فان الحكومة الاسرائيلية حصلت على ربح صاف مقداره ٩٨ مليون ليرة اسرائيلية من الاحتلال عام ١٩٧١ ، اي حوالي ٢٨ مليون دولار . وقال ان الارباح الناجمة عن بيع نفط سيناء بلغت ١١٠ ملايين ليرة اسرائيلية ، وبلغت عائدات الضرائب ومصادر اخرى ٢٣٦ مليون ليرة اسرائيلية ، بينما كانت المصاريف ٢٤٨ مليون ليرة اسرائيلية فقط(٢٠٤) .

الخلاصة

لقد كان للاحتلال الاسرائيلي اثر عميق على كل الطبقات في المناطق المحتلة . اذ تجري عملية بلترة لسكان مخيمات اللاجئين ، الذين كان معظمهم فلاحين طردوا عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . وجنبا الى جنب مع بعض فلاحي الضفة الغربية الذين يجبرون على ترك اراضيهم ومع الطبقة العاملة في المناطق المحتلة ، يدمج اللاجئون بأعداد كبيرة في البروليتاريا الاسرائيلية . ومع أن الاعمال الجديدة قد أجرت بعض التحسينات في مستوى معيشة العمال الفلسطينيين العرب في اسرائيل ، الا انهم (أي العمال) يحالون الى الاعمال التي لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ذات اكثر الاجور انخفاضا ، ويعانون من التمييز الحاد .

كما كان اثر الاحتلال على البرجوازية الصغيرة عكسيا . اذ يجري دمج بعض المستخدمين — الحرفيين واصحاب الدكاكين وصغار المزارعين — في الطبقة العاملة ، عادة في اعمال بأسرائيل ، أو على الاقل يجري الدمج الى حد ما . أما المثقفون والمهنيون ، مثل المحامين والاشخاص ذوي الشهادات الاكاديمية العالية ، فهم بدون عمل : يرفض بعضهم ، لاسباب تتعلق بالموقف الوطني ، العمل للاسرائيليين او للاحتلال ، وحتى الذين يرغبون في العمل فليس امامهم فرص للعمل بمستوى مهني في اسرائيل لاشخاص من المناطق المحتلة .

وتغدو قطاعات البرجوازية الصناعية كمبرادورية ، تشغل العمال في معاملها لصالح الرأسماليين الاسرائيليين . ويستفيد بعض الكمبرادوريين من الاحتلال ، عبر حوافز التصدير ووسائل أخرى ، وقد يكون باستطاعتهم توسيع عملياتهم في المستقبل مع الرأسمال الاسرائيلي . ولكن الرأسماليين الفلسطينيين يفقدون تدريجيا استقلالهم: عليهم أن يعتمدوا على المولين الاسرائيليين في قروضهم ، وبسبب توفير الحكومة الاسرائيلية ظروفا ملائمة للغاية أمام الرأسماليين الاسرائيليين للاستثمار في المناطق المحتلة ، فسيكون على رجال الاعمال العرب اقتسام فرص الربح في المناطق المحتلة مع اسرائيليين . ويلاحظ ان المشاريع الاسرائيلية — الفلسطينية المشتركة تتزايد عدديا .

ان تحول البرجوازية الوطنية الى كمبرادور والجماهير الى عمال للبلد المستعمر هو نموذج خاص بالامبريالية تكرر في انحاء العالم . لا يهمنا كثيرا واقع انه لا الحكومة الاسرائيلية ولا الكنيست اتخذا قرارا رسميا باستعمار المناطق المحتلة ، المهم هو الاثر

الراسخ للسياسات اليومية للحكم العسكري . وكما لاحظ الياهو كانوفسكي فان « للقوى الاقتصادية منطقا وزخما خاصين بها . فعندما قررت اسرائيل التجارة مع المناطق (في ظل تحديدات على استيراد منتجات زراعية معينة) ظهرت نتائج لا مفر منها : عملة مشتركة (بالرغم من حقيقة استمرارها في السماح باستعمال العملة الاردنية في الضفة الغربية جنبا الى جنب مع العملة الاسرائيلية) ، حرية الحركة النسبية للسكان بين اسرائيل والمناطق (مع تحديدات ، يصعب تطبيقها ، على استعمال العمل غير المرخص من المناطق المحتلة في اسرائيل) ، وتكامل طرق المواصلات بين المناطق وسهل اسرائيل الساحلي . وبغض النظر عن مستقبل الوضع السياسي للمناطق بأكملها او لجزء منها، فان تلك كانت بدايات سوق مشتركة »(٢٠٥) .

لا تقوم هذه « السوق المشتركة » على أساس المساواة بين اسرائيل والمناطق المحتلة ، بل على اساس علاقة كولونيالية تتميز بالعوامل — اغراق سوق المستعمرة ببضائع البلد المستعمر ، استخراج المواد الخام والاستغلال الاقصى للعمال في المستعمرة — التي عملت في القرنين الاخيرين على اغناء برجوازية البلدان الرأسمالية ودفع شعوب معظم العالم غير الصناعي الى قيود التبعية .

لقد قال القادة الاسرائيليون مرارا وتكرارا انهم لن يقبلوا بتسوية ما الا بشرط فتح الجبهات الاقتصادية مع الدول العربية . ان تسوية كهذه ستسمح باستمرار أوجه عديدة من النظام الاقتصادي الكولونيالي الذي فرضته اسرائيل على المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، واكثر من ذلك ، فانها قد تطرح خطر امتداد عناصر ذلك النظام الى مناطق اخرى في الشرق العربي .

---

١٤٥ — دون بريتز، **مشكلة اللاجئين الفلسطينيين العرب** (**راند** ، ١٩٦٩) ، ص ٢٣ .

١٤٦ — تقرير المفوض العام لوكالة الغوث ، الجمعية العمومية (الجلسة السابعة والعشرون، ملحق رقم ١٣ [A/٨٧١٣/Rev.١]) ، ص ٧٦ .

١٤٧ — **معاريف** [٩ شباط (فبراير) ١٩٧٣] ، ص ٢ مترجمة في صحيفة **نو** [٨ آذار (مارس) ١٩٧٣] ، ص ٧ .

١٤٨ — **أربع سنوات ...**، ص ص ١٤٥ — ١٤٦ .

١٤٩ — **اسرائيل اكونومست** [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣] ، ص ١٣ .

١٥٠ — **أربع سنوات ...**، ص ١٥١ .

١٥١ — **المصدر نفسه** .

١٥٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .

١٥٣ — **كريستشان سينس مونيتور** [٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٢ .

١٥٤ — بيتر مانسفيلد ، «أخبار خارج اسرائيل»، **ميدل ايست انترناشيونال** [كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢] ، ص ٢٥ ، نقلا عن **داڤار** [تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٢] .

١٥٥ — **أربع سنوات ...**، [١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٣ .

١٥٦ — **المصدر نفسه** .

١٥٧ — **جيروزالم بوست** [١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٣ .

١٥٨ — **هآرتس** [٣٠ تموز (يوليو) ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢] ، ص ٢ .

١٥٩ — **هآرتس** [٣ آب (أغسطس) ١٩٧٢]، مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢] ، ص ٣ .

١٦٠ — **يديعوت آحرونوت** [٩ آب ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول ١٩٧٢] ، ص ٦ .

١٦١ — **المصدر نفسه** .

١٦٢ — **أربع سنوات ...** ، ص ١٤٩ .

١٦٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٢ .

١٦٤ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٣ .

١٦٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ .

١٦٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٤ .

١٦٧ ــ مقابلة أجرتها الكاتبة ، المدرسة المهنية التابعة للانروا ، غزة [٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٧١] .

١٦٨ ــ **ثلاث سنوات ...** ، ص ١٨ .

١٦٩ ــ معظم المادة التي حول **كير** قدمتها دائرة العلاقات العامة لـ **كير** في نيويورك [٢٦ آذار (مارس) ، ١٩٧٣] .

١٧٠ ــ تقرير **كير ــ اسرائيل** للسنة المالية ١٩٧٢ ــ ١٩٧٣ .

١٧١ ــ **المصدر نفسه** .

١٧٢ ــ **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٨ .

١٧٣ ــ **ديلي ستار** (بيروت)، ١٥ آذار (مارس)، ١٩٧٠ .

١٧٤ ــ **المصدر نفسه** .

١٧٥ ــ **ثلاث سنوات ...** ، ص ٦٧ .

١٧٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص‌ص ٩٦ ــ ٩٧ .

١٧٧ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .

١٧٨ ــ **أربع سنوات ...** ، ص ١٥٣ .

١٧٩ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .

١٨٠ ــ **اسرائيل اكسبورت اند تريد جورنال** (كانون الاول ١٩٧٢ ــ كانون الثاني ١٩٧٣) ، ص ٢٢ .

١٨١ ــ **ثلاث سنوات ...** ، ص ٨٧ .

١٨٢ ــ **أربع سنوات ...** ، ص ١٧٣ .

١٨٣ ــ ملحق **هآرتس الاسبوعي** [١٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٢] ، ص ١٠ ، مترجمة في نو [٣١ آب ، ١٩٧٢] ، ص ٥ .

١٨٤ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .

١٨٥ ــ **جيروزالم بوست اوفرسيز ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .

١٨٦ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٨٧ .

١٨٧ ــ **أربع سنوات ...** ، ص ١٧٦ .

١٨٨ ــ **جيروزالم بوست ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .

١٩٠ ــ **كانوفسكي** ، ص ٦٠ .

١٩١ ــ **بكر** ، ص ٣٠ .

١٩٢ ــ **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [١١ اب (اغسطس) ١٩٦٩] ، ص ١١ .

١٩٣ ــ **المصدر نفسه** .

١٩٤ ــ **المصدر نفسه** .

١٩٥ ــ التقرير الخاص للمفوض العام لوكالة غوث اللاجئين في الشرق الادنى حول اثر العمليات الاخيرة التي قامت بها السلطات العسكرية الاسرائيلية في قطاع غزة على اللاجئين الفلسطينيين [١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١] الجلسة السابعة والعشرون ، رقم ٤١ على جدول الاعمال [٨٣٨٣/أ] .

١٩٦ ــ ملحق للتقرير الخاص الذي قدمه المفوض العام لوكالة الغوث في الشرق الادنى حول اثر العمليات التي قامت بها السلطات العسكرية الاسرائيلية في قطاع غزة في تموز واب ١٩٧١ ، على اللاجئين الفلسطينيين [٢٣ تشرين الثاني ١٩٧١] .

١٩٧ ــ **اسرائيل اكونومست** [تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩٧١] ، ص ٣١٩ .

١٩٨ ــ **جيروزاليم بوست اوفر سيز ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .

١٩٩ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٩٥ .

٢٠٠ ــ اخذت المادة الخاصة بنقط سيناء من مقال الياس شوفاني المهم ، « اسفين سيناء »، مجلة **الدراسات الفلسطينية** ، مجلدا ، ع ٣ (ربيع ١٩٧٢) .

٢٠١ ــ **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١] ، ص ١٥ .

٢٠٢ ــ **أربع سنوات ...** ، ص ٣٨ .

٢٠٣ ــ **فايننشال تايمز** [٢٨ شباط (فبراير) ، ١٩٦٨] .

٢٠٤ ــ **بيتر مانسفيلد** ، ص ٢٦ .

٢٠٥ ــ **كانوفسكي** ، ص ١٨٦ .

الأساليب الاسرائيلية في مواجهة العمل الفدائي

عبد الحفيظ محارب

اثر تصاعد الاعمال الفدائية داخل اسرائيل ، واتصافها بالروح الانتحارية والقدرة القتالية العالية ، أخذ الاسرائيليون سواء على الصعيد الرسمي او الجماهيري يفتشون عن وسائل جديدة لردع الموجة الفدائية التي بدأت تتصاعد منذ عملية كريات شموناه . وقبل التحدث عن وسائل التصدي الاسرائيلية لا بد من الوقوف قليلا حول انعكاس العمليات الاخيرة على المجتمع الاسرائيلي، وتتلخص هذه في ادخال الاحساس في نفوس المستوطنين الاسرائيليين أينما كانوا سواء بالقرب من الحدود أو بعيدا في الداخل ، بأنه لا يوجد مكان آمن داخل اسرائيل ، وكذلك عرقلة سير الأعمال في كثير من الاماكن. ويعترف بذلك معلقون اسرائيليون مرموقون مثل ايتان هفار المراسل العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت ، اذ يذكر « ان النشاط المكثف الاخير لتنظيمات المخربين في المنطقة الشمالية عرقل بشكل ليس بسيط مجرى الحياة في المستوطنات ، وكذلك تلك البعيدة عن خط الحدود . ان الناس في الشمال قلقون . ويمكن القول ان المخربين نجحوا في القاء الفزع والخوف حتى بين صفوف مواطنين اسرائيليين في وسط البلاد وجنوبها ، وبمقدار معين نجحوا في تأكيد الاحساس بالضيق بأن لا مكان آمن في البلاد». (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٦) . ويؤكد يشعياهو بن بورات الكاتب المعروف ، ما توصل اليه ايتان هفار ، بل ويمتدحه لانه لم يتخوف من مس كبد الحقيقة ، الا انه يعتبر ذلك بمثابة أمر مروع : « ان الامر المروع هو ان يعترف بالفعل ، مراسلون محترمون في صحف رزينة بنجاح المخربين ... ان الامر المروع هو ان يجد مراسل عسكري رزين نفسه ، عقب مرور اربعين عاما على فترة « سيور وبرج » ،مضطرا للكتابة عن الاحساس بالضيق بأن لا يوجد مكان آمن في البلاد » لينتقل بعد ذلك لمطالبة المسؤولين باعطاء رأيهم حول هذا الوضع : « من المناسب ان تعطي القيادة السياسية رايها وبسرعة حول هذا الوضع الذي يعتبر أكثر من مشين ، وأقل بكثير من كونه ضروريا ، لانه ليس هنالك أية ضرورة موضوعية بأن تلقي مجموعات ارهابية ، مركزها بيروت ، يبلغ تعداد أفرادها بضعة آلاف شخص يتمتعون بقدرة تنفيذية ، الخوف والفزع على اسرائيل لدرجة انها تضطر للتحصن خلف اكوام من الاثاث » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٨) .

في مواجهة هذا الواقع « الذي يعتبر اكثر من مشين » واحتمال تزايد عنف المقاومة الفلسطينية ، بدأت السلطات الاسرائيلية باتخاذ اجراءات وخطوات ، كما وأخذت الدعوات تنطلق ، لتقليص حدة العمل الفدائي ، وتتلخص تلك الاجراءات والدعوات في التالي :

الحرس المدني أو « العيون والاذان » : اضافة الى قوات الجيش ورجال الدفاع المدني الخاضعين للجيش ، وقوات الشرطة ، تعمل السلطات الاسرائيلية الان جاهدة لتشكيل قوة مساندة من المتطوعين يبلغ تعدادها حوالي ٣٠ الف شخص ، ومن المقرر ان تكون هذه القوة متحركة ومجهزة بأسلحة حديثة لمساعدة قوات الجيش والشرطة في الحفاظ على الامن الداخلي من الهجمات الفدائية داخل المستوطنات والمدن . وتخضع قوات الحرس المدني للشرطة . اما الاعمال المنوطة بهذه القوة الجديدة فهي التجول وسط المارة في الشوارع الرئيسية ومراكز التجمعات والحوانيت الكبيرة ودور السينما وخاصة في ساعات المساء حيث تكون الحركة على أشدها ، وكذلك فحص صناديق القمامة، وتطويق الاشياء المشبوهة، واستدعاء قوى الشرطة على الفور في حالة العثور على شيء مشبوه ، ولا تشمل مهامها التصدي للفدائيين ومجابهتهم ، بل تقتصر على القيام باشعار

المسؤولين وانذارهم بوجود فدائيين ومشاغلة هؤلاء حتى مجيء قوات الجيش . ووصف رئيس شعبة التنظيم في شرطة اسرائيل المفوض مئير نوبيك مهام الحرس المدني بقوله « انهم سيكونون بمثابة عيون وآذان في المدن والمستوطنات ، وسيستخدمون خطوط الاتصال ، ويقومون بترتيبات الحماية ، وعندما يصطدمون بالمخربين فانهم سيكونون بمثابة عامل انذار . ان واقع وجودهم ينطوي على الردع، وهنالك شواهد على ذلك » (دافار ٧٤/٧/١٢) .

لقد نجمت الحاجة لاقامة الحرس المدني لان القوى البشرية التي تمتلكها قوات الشرطة والدفاع المدني لا تكفي لتلبية جميع الطلبات في ساعات الطوارىء داخل المستوطنات او المدن . ومن هنا ظهرت فكرة اقامة الحرس المدني لكي يكون ظهيرا لقوات الشرطة والجيش ، الا ان هذا الحرس الذي اعتمد اسلوب التطوع للانخراط فيه (يعمل كل فرد ٤ ساعات خلال الاسبوع) ما زال يواجه المصاعب، وأهمها الاقدام على التطوع ، فالسقف الذي أقرته السلطات الاسرائيلية (٣٠ الفا) لا يزال يحتاج الى عدد كبير من المتطوعين ، حيث انه ظهر للمسؤولين ان عدد المتطوعين اقل بكثير مما كان متوقعا ، الامر الذي دعا احد المسؤولين عن الحرس المدني في تل ابيب للقول بأن « حجم المتطوعين يجلب الخذلان » ودفع قائد شرطة حيفا للاعراب عن شعوره بالخذلان هو الاخر ، وكذلك رئيس بلدية القدس الذي اعرب عن خيبة أمله من ضآلة عدد المتطوعين . الا أنه تجدر الاشارة هنا الى أن وتيرة سير حركة التطوع في مستوطنات المنطقة الشمالية وسائر المستوطنات و« قرى التطوير » ، وكذلك في ضواحي المدن ، هي أعلى منها في المدن الكبيرة . فحركة التطوع في القرى المحيطة بحيفا أعلى منها في حيفا نفسها ، وكذلك الحال بالنسبة للمستوطنات المحيطة بتل ابيب .

لا يعتبر الحرس المدني ظاهرة جديدة في اسرائيل، فقد سبق وأن تكون في حيفا عند تعاظم عمليات المقاومة الفلسطينية هناك ، حيث اقامت السلطات الاسرائيلية حرسا مدنيا في المدينة تشكل من حوالي ٥٠٠٠ شخص عند أواخر الستينات (اليوم يقل عدد المتطوعين في حيفا عن ٥٠٠ شخص) الا أنه تلاشى فيما بعد .

الى جانب العمل على اقامة الحرس المدني هنالك دعوة لتوزيع السلاح على من يقدر على حمله من المواطنين كما دعا الى ذلك وزير الشرطة . بيد ان هذا الامر يحمل بين طياته مخاوف عدد كبير من الاسرائيليين ، خاصة وان ظاهرة الاستقطاب الاجتماعي بالاضافة الى التوتر النفسي غدت أكثر وضوحا وبروزا في اسرائيل ، واذا لم تضبط عملية توزيع السلاح سواء على المتطوعين في الحرس المدني او على المواطنين ، هنالك احتمال بأن تبرز « ظواهر سلبية » ، مثل استخدام السلاح لتصفية الحسابات الشخصية او توجيهه ضد السكان العرب في اسرائيل ابان الهيجان ، او استخدامه من قبل عناصر حزبية ضد خصومها الحزبيين ، وتصل هذه التخوفات لدى بعض الصحفيين مثل يهودا سبوراي الى ترجيح كفة سلبيات عملية توزيع السلاح على المواطنين على الايجابيات الكامنة فيها، فقد ذكر في مقال له : « ان حالات مهاجمة السكان الغاضبين الوزراء والوجهاء في حالة توتر نفسي عال — وخاصة التعرض لرئيس الدولة اثناء المسيرة الجنائزية في صفد ، تشير الى مدى تفجر الحالة الاجتماعية والنفسية التي تراكمت بين صفوف جمهورنا . ان عملية توزيع السلاح من شأنها ان تزيد ، بنسبة كبيرة ، الخطر الذي يمكن أن يواجه رجال القانون وكل من يضطر ، بحكم مهمته ، الوقوف أمام جماهير غاضبة في حالات التوتر . من يضمن عدم قيام الهائجين باطلاق نيران (نيران تحذيرية) صائبة ، بدل القاء الحجارة ! ». (معاريف ٧٤/٥/٢٠) .

جدار الامن في الشمال : أقامت السلطات الاسرائيلية جدارا أمنيا على امتداد الحدود مع لبنان ، بغرض تقليص نشاط المقاومة الفلسطينية ، ومع تعاظم العمليات الفدائية مؤخرا داخل اسرائيل أخذت تعمل على توسيع وتسميك الجدار ، حيث تضيف عليه شبكة من الاسلاك الشائكة مع جهاز الكتروني . وتقوم قوات متحركة بأعمال الحراسة على امتداد الخط ، بالاضافة الى قوات كبيرة ترابط خلفه . ومن اجل تشديد الاشراف عليه ليلا اقيمت على امتداده ابراج للكشافات بغرض انارة المنطقة في حالة الاشتباه بشيء ، هذا بالاضافة الى قيام طائرات الهليكوبتر بتغطية اجواء المنطقة بحثا عن فدائيين محتملين .

ومن الجدير بالذكر ان جدارا أمنيا آخر كان قد

أقيم عام ١٩٢٨ لنفس الغرض ، حين قامت سلطات الانتداب البريطاني بالتعاون مع الوكالة اليهودية في اقامة سياج أمني على امتداد الحدود الشمالية لفلسطين ، حيث عمل فيه حوالي الف مستوطن يهودي ، الا ان الثوار الفلسطينيين كانوا يتخطونه بل وينجحون في تدمير أجزاء منه ، ففي ليلة واحدة تم تدمير ١٤ كم من ذاك السياج .

واذا كانت سلطات الانتداب بالتعاون مع المؤسسات الصهيونية ابان ثورة ١٩٣٦ لم تتمكن من منع المجاهدين الفلسطينيين في ذلك الوقت من تخطي ذلك الخط ، والقيام بعمليات ضد المنشآت البريطانية والمؤسسات الاستيطانية ، كما حدث لمستوطنات عدة ، فانه يوجد هنالك من يعترف في اسرائيل ، بأن هذا الخط الجديد قابل للاختراق من قبل فدائيي اليوم. « ..ان مجموعات المخربين، المدربة وقتا طويلا ، والمتمسكة بهدفها حتى الانتحار تستطيع بدون شك ، التغلب على جدار او عائق آخر وتخطيه ، الا ان كل عائق يؤخر عمليات المجموعة ويضع مشاكل في طريقها ، حيث تكون مضطرة لتخصيص وقت وتفكير لدراسة كيفية التغلب عليها » (معاريف ٧٤/٦/١٦) . وازاء ذلك ليس من المستغرب ان يظهر في اسرائيل من يدعو الى اقامة سور شاهق وقوي في أماكن معينة على امتداد الحدود مع لبنان او اقامة ستائر رملية ضخمة تكون مزروعة بالالغام او التفتيش عن اية وسائل اخرى .

وحدة « يولي » او « يقتل ولا يمر » : لعل عامل تعثر سير حركة التطوع في الحرس المدني بالاضافة الى عاملي التنافس بين الكتل السياسية الاساسية في اسرائيل ، وتزايد عنف المقاومة الفلسطينية في الداخل ، من بين الاسباب التي دفعت بعض الفئات المتطرفة الى التفكير بانشاء وحدة من المتطوعين في محاولة للقضاء على العمل الفدائي داخل اسرائيل وخارجها .

يقف وراء وحدة « يولي » (وهي اختصار للاحرف الاولى من الجملة العبرية يقتل ولا يمر) عدد من الضباط الذين خدموا في الفرقة التي قادها اريك شارون في الحرب الاخيرة . لم يصدر عن الوحدة الا مذكرة واحدة نشرت في الصحف الاسرائيلية على شكل رسالة يوقع عليها المتطوع ، وكذلك نشر مقابلة اذاعية مع احد قادة التنظيم .

تقول المذكرة : « حضرة وزير الدفاع ، أطلب نقلي من وحدتي الحالية في الاحتياط (في الخدمة الالزامية) لفرقة المتطوعين التي ستقام بهدف تصفية المخربين في قواعدهم ، بدون ارتداء البزة العسكرية لجيش الدفاع الاسرائيلي ، وبدون علامات اسرائيلية مميزة ، وبدون تعليمات صادرة من قبل السلطات العليا ، في الوقت الذي اتلقى انا وزملائي في السلاح اجازة مدفوعة . مع الاحترام » (هآرتس ٧٤/٧/٧) .

من الواضح ان القائمين على التنظيم يسعون الى بناء قوة من داخل الجيش الاسرائيلي ، تتمتع بامتيازات ومخصصات افراد الجيش ، ولكن **دون تلقي أوامرها من القيادة العليا** . ولعل الشرط الاخير يعتبر ضربا من المحال ، لان ذلك يعني في حال تطبيقه احياء سلطتين عسكريتين مختلفتين في المنطلقات والمفاهيم ، اي عودة المجتمع الاسرائيلي الى فترة تنوف عن ربع قرن حيث كانت القوتان العسكريتان تتمثلان في الهجناه واتسل، واذا اخذنا بعين الاعتبار ان كثيرا من السياسيين والعسكريين المسؤولين في اسرائيل يعارضون حتى مجرد عودة اريك شارون (من كتلة جاحال) الى الجيش ، فكيف تكون معارضة هؤلاء تجاه عملية اقتطاع جزء من الجيش ووضعه تحت امرته او امرة رفاقه ؟ ولذا ليس من المستغرب في شيء ان يكون رد الفعل لدى المسؤولين الاسرائيليين يتسم بالرفض للشرط الاخير ، بل وحتى عدم الاكتراث بمجمل الموضوع .

أما المقابلة الاذاعية التي نشرت بتاريخ ٧/٩/ ٧٤، ونقلتها نشرة «رصد اذاعة اسرائيل» الصادرة عن مركز الابحاث الفلسطينية ، فتعتبر المعلومة الثانية التي تشير الى ماهية التنظيم ، وسنقوم هنا بتقديم الجزء الاهم منها :

« س : ما اسمك :

ج : ايتان .

س : اسم العائلة ؟

ج : أفضل عدم ذكر اسم عائلتي .

س : لماذا ؟

ج : لاسباب أمنية .

س : ما هي الاسباب الامنية ؟

ج : **لا نريد ان يلحق ضرر بعائلاتنا** .

س : من قبل من ؟

ج : **من جانب المخربين .**

س : ما هو هدف التنظيم ؟

- ج : ليس لدينا هدف مفصل عدا القضاء على المخربين ...

س : هل يمكنك تنفيذ مثل هـذه المهام دون مساعدة السلاح ، كالطائرات والاسلحة الثقيلة ؟

ج : هذا هو احد المواضيع التي أعالجها حاليا ، وهو الحصول على طائرات من صنع سوفييتي ، وبعدها سنحتاج الى طيارين متطوعين للقيام بمساعدتنا في الجو » .

هنالك ملاحظتان حول اقوال المدعو ايتان، الاول انه يؤكد بشكل واضح الاحساس بـ « الامر المروع » الذي تحدث عنه كل من هنار وبن نورات والقائل بأن لا مكان آمن في اسرائيل ، والتخوف من قوة ساعد المقاومة الفلسطينية من الوصول الى كل مكان ، ويتضح ذلك من رفضه الكشف عن اسم عائلته خشية « أن يلحق ضرر بعائلاتنا من جانب المخربين » . والثانية ان تنظيم يولي هو أقرب الى التقاليع الجديدة منه الى التنظيم ، حيث تسيطر على اعضائه روح المغامرة المشفوعة بالخيال البعيد عن الواقع ، كما يبدو من أقوال ايتان الذي يسعى للحصول على « طائرات من صنع سوفييتي » من أجل تصفية الفدائيين !!

ومن هنا يمكن القول ان هذا التنظيم هو بمثابة ردة فعل لدى الفئات اليمينية المتطرفة ازاء تصاعد العمليات الفدائية داخل اسرائيل من جهة ، وازاء حالة الصراع على السلطة بين كتلة الليكود اليمينية وبين كتلة المعراخ العمالية الحاكمة من جهة اخرى. ولا يكون المرء مغامرا في حكمه اذا ما قرر ، من خلال الاخذ بعين الاعتبار الصراع الدائر بين الكتلتين آنفتي الذكر بأن تنظيم يولي (يقتل ولا يمر) محكوم عليه بالقتل قبل المرور .

المطالبة بفرض عقوبة الاعدام على الفدائيين :

مع اتساع دائرة الخوف التي أحدثتها الموجة الجديدة للاعمال الفدائية ، وفي غمرة البحث عن وسائل لتقليص العمل الفدائي ، اخذت الاصوات الداعية الى فرض عقوبة الاعدام بحق الفدائيين تتزايد، الا أن أصواتا أخرى تصدت لهذه الدعوة ، ليس من منطلق مبدئي معارض لفكرة الاعدام ، بل لان وسيلة الاعدام بحد ذاتها قد تكون عاملا معززا لقوة العمل الفدائي وفاعليته !

للوهلة الاولى تبدو عقوبة الاعدام غير قائمة في اسرائيل ، الا ان هنالك خمسة قوانين ما زالت قائمة وتمكن السلطات من تنفيذ عقوبة الاعدام على كل من يتعدى حدود تلك القوانين . وقبل ان تستعرض الحجج التي يطرحها كل من الفريقين تجدر الاشارة الى هذه القوانين وهي :

١ — قوانين الطوارىء لعام ١٩٤٥ بجرم حمل السلاح واستخدامه ضد الاشخاص ، او الانتماء الى تنظيم سري يستخدم السلاح .

٢ — القانون الخاص بجريمة افشاء شعب لعام ١٩٥٠ .

٣ — قانون محاكمة النازيين ومساعديهم لعام ١٩٥٠ بتهمة ارتكاب جرائم ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية .

٤ — قانون بشأن الاحكام العسكرية لعام ١٩٥٥ بشأن خيانة الجندي ابان القتال .

٥ — قانون لتعديل احكام العقوبات لعام ١٩٥٧ والخاص بجريمة المس بسيادة الدولة ووحدة أراضيها والتسبب في الحرب بغرض مساعدة العدو .

ومن المعروف ان المحاكم الاسرائيلية درجت على محاكمة الفدائيين المعتقلين وفق قوانين الطوارىء التي سنتها سلطات الانتداب البريطاني عام ١٩٤٥، الا أنها بايعاز من الحكومة منذ عام ١٩٦٧ تقتصر أحكامها على العقوبة بالسجن لمدد مختلفة . ومن هنا فان المطالبين بفرض عقوبة الاعدام بحق الفدائيين يجمعون على تطبيق قوانين الطوارىء بحذافيرها ، ومع ذلك يوجد هنالك من يطالب بمحاكمة الفدائيين وفق قانون منع ابادة شعب مثل عضو الكنيست يديديا بئيري ، وليس وفق قوانين الطوارىء الانتدابية التي أزهقت ارواح بعض اليهود ، في محاولة منه لاظهار ان المجتمع اليهودي يواجه حالة افناء ، بغرض تقليص الاحتجاجات من قبل العناصر والهيئات المستنيرة في العالم ، ويذهب عضو الكنيست المذكور اكثر من ذلك اذ يرى انه من الافضل محاكمة الفدائيين وفق قانون محاكمة النازيين ومساعديهم لعام ١٩٥٠ ، لولا ان هذا القانون يقتصر على فترة زمنية معينة (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٣) .

يتفق دعاة فرض عقوبة الإعدام على الفكرة بحد ذاتها الا انهم يختلفون حول كيفية تطبيقها وعلى من من الفدائيين ، فبينما نجد البعض يقتصرها على الفدائيين الذين قد يعتقلون ، نجد آخرين يدعون الى تطبيقها ايضا على اولئك المعتقلين الذين صدرت بحقهم الاحكام بالسجن . يقول يهوشوع بار يوسف « انني أعود وأقترح ما كنت قد اقترحته في هذه الزاوية قبل حوالي سنتين : كل مخرب سفك دما ، دمه يسفك بأمر من المحكمة ، كما وان جميع اولئك المخربين الذين يجلسون اليوم في المعتقلات الاسرائيلية والذين يعتبرون بمثابة اغراء لقتل رهائن اسرائيليين،يجب ان يغدوا وسيلة ناجعة لمنع قتل رهائن اسرائيليين، ذلك انه ينبغي اعدام عدد من المخربين القتلة الموجودينفي المعتقلات الاسرائيلية فورا ، مقابل كل ضحية جديدة من بين الرهائن الاسرائيليين في عملية تخريبية تقع في المستقبل » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٧) .

واذا كان بار يوسف يقتصر حكم الاعدام على الفدائيين المعتقلين او الذين قد يعتقلون ، فان هنالك من يرى ضرورة فرض عقوبة الاعدام على جميع الفدائيين ، بدون استثناء ، وفي كل مكان مثل البروفيسور يوسف دان ، اذ يقول بهذا الصدد : « ليس هنالك شك ، اذا كان القصد قبل كل شيء ردع المخربين عن القيام بأعمال تخريب في اسرائيل ، فانه ينبغي فرض عقوبة الاعدام عليهم قبل أن ينفذوا مآربهم . فقط بهذه الطريقة يمكن أن تدار حرب فعالة ضد الارهاب العربي ، ويمكن ان يكون هنالك ردع له... حرب شاملة ضد المخربين، في كل مكان يتواجدون فيه ، لكي يدرك كل صعلوك ينضم بلا وعي لمنظمة تخريبية ، انه فور قيامه بذلك ، فور تسجيله في قائمة المنظمة او دخوله معسكر تدريب ، تكون اسرائيل قد فرضت عليه الحكم بالاعدام حتى ولو لم يحاول الاقتراب ابدا من حدود دولة اسرائيل ، او الخروج للقيام بعملية ضد هدف يهودي او اسرائيلي في خارج البلاد » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/١٦) .

الى جانب هؤلاء يقف عدد آخر من دعاة فرض عقوبة الاعدام ويمكن تلخيص الذرائع التي يوردونها بما يلي :

١ ــ التصور بأن الفدائيين اذا كانوا يعرفون سلفا بأنهم لن يواجهوا حكم الاعدام في حالة القاء القبض عليهم ، فان ذلك سيشجع انضمام الكثيرين الى صفوف التنظيمات الفلسطينية والانخراط في المجموعات المقاتلة .

٢ ــ التصور بأنه اذا ما اقدمت اسرائيل على تنفيذ حكم الاعدام بحق الفدائيين الموجودين داخل المعتقلات الاسرائيلية ، فان مبرر احتجاز الرهائن من قبل الفدائيين سيزول .

٣ ــ هنالك ادعاء يطرحه البعض لتبرير حكم الاعدام متذرعا بالعامل الاقتصادي « لماذا ينبغي علينا اعاشة القتلة ... طيلة حياتهم ؟ لماذا ينبغي علينا تشييد سجون ، واستئجار سجانين لكي يعيشوا أناسا يسعون لازهاق ارواحنا » (معاريف ٧٤/٥/٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ان أصوات أصحاب هذا الفريق تتزايد عقب كل عملية فدائية جريئة ، كما وتزداد تهكماتهم على الفريق الثاني وهم في الغالب من فئة اليسار الصهيوني او اليمين الصهيوني غير المتطرف بتوزيع القاب عليهم كـ « المستنيرين » الا ان هؤلاء لا يقفون مكتوفي الايدي ، بل يردون ، وربما بحجج اقوى لانهم لا يدافعون ضد عقوبة الاعدام على الفدائيين بحد ذاتها بل ضد الانعكاسات التي يمكن ان تتأتى عنها على المجتمع الاسرائيلي ، ويتهم هؤلاء اصحاب الفريق الاول بأنهم يسيرون وفق غرائزهم وأهوائهم . ويمكن تلخيص معارضة هؤلاء بالامور التالية :

١ ــ خشية ان يقاتل الفدائيون « حتى النهاية » على أساس انهم يعرفون ما ينتظرهم .

٢ ــ بالنسبة للقول بأن مبرر احتجاز الرهائن من قبل الفدائيين سيزول من خلال اعدام الفدائيين المعتقلين ، يرد هؤلاء بأن العمل الفدائي حينذاك سيأخذ شكلا أقوى واعنف ، كما يقول جبرائيل شيرن : « حتى لو اننا نقدم على قتل جميع المخربين والمتهمين بالقيام بأعمال تخريب او بالانتساب للتنظيمات المعادية ، فهل لا نتوقع بأن موجة من الانتقام ستأتي ليس على شكل احتجاز رهائن .. بل على صورة القيام بمجازر جماعية ، حيث يقتلون كل من تطاله ايديهم ... » (عل همشمار ٢٢/ ٧٤/٥) .

٣ ــ خشية ان يلاقي الفدائيون عطفا عالميا ،

خاصة عندما يستغلون قاعة المحكمة لترديد مطالبهم المشابهة لمطالب كل شعب يواجه الاحتلال ، مما يتأتى عنه تدفق العرائض والاحتجاجات من قبل مفكرين مشهورين في العالم وحتى من قبل بعض اليهود . ومن بين الذين أوردوا هذا التبرير بنيامين بيت هلحمي استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا : « ... كل محاكمة ضد مخرب ستتحول اوتوماتيكيا الى محاكمة سياسية مع اصداء دولية ، وذلك على ضوء واقع رؤية قسم كبير من العالم الغربي بعين الرضا نضال الفلسطينيين. قبل سنين عدة كان بامكاننا ان ندعي بأن الفدائيين هم مرتزقة، اما اليوم فاننا ندرك بأن الدافع هو ايديولوجي في أساسه » (حوتام ٧٤/٥/٢٤) .

٤ — التخوف من ان يؤدي ذلك الى زيادة التطرف لدى كل من اليسار واليمين في اسرائيل ، ودفع بعض الاسرائيليين اليساريين الى التقرب من المقاومة الفلسطينية او كما يقول اوري دودزون المرشد في قسم العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا : « في اللحظة التي تشغل فيها المشنقة الاولى ، ستجر في اعقابها استقطابا اجتماعيا . من ناحية ستصبح الاوساط اليسارية اكثر يسارية . ان « راكاح » و« مئسبين » اللذين لم يقدما حتى الان مساعدة ملموسة للمخربين ، سيدفعان عقب ذلك نحو اعمال أكثر فاعلية ... ومن ناحية اخرى ، فان الاوساط اليمينية ستجر نحو مزيد من التطرف وستكون النتيجة تأزيم الوضع » (المصدر السابق).

٥ — التخوف من أن يصبح الفدائيون بمثابة « قديسين معذبين ، وأبطالا وطنيين ، كما وتغدو قبورهم أماكن مقدسة » ذلك « اننا لن نحرق الجثث ونذروها للرياح » .

الى جانب هذه التبريرات والحجج هنالك من يعتقد بأن عقوبة الاعدام تتنافى و« الاخلاقية اليهودية » كما ويوجد كثيرون يتصدون بسهولة للحجة السخيفة القائلة بأنه اذا ما اقدمت اسرائيل على تنفيذ حكم الاعدام بالفدائيين المعتقلين ، فانها تكون قد حالت دون تبذير الاموال عليهم ووفرت تلك المبالغ لصالح المشاريع ، بقولهم ، ما اكثر الاموال التي تبذر باسم المشاريع .

حيال هذين التصورين واحتدام الحوار حولهما على اثر الشروع بالعمليات الفدائية الجريئة مؤخرا ، كان لا بد من ان تعكف الحكومة على دراسة الموضوع من جديد واتخاذ قرار بشأنه . وبالفعل عقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة في أوائل شهر آب الماضي جددت فيها التصديق على المقررات التي كانت قد اتخذتها عام ١٩٦٧ ، اي محاكمة الفدائيين المعتقلين وفق قوانين الطوارىء لعام ١٩٤٥ ، مع ايعاز للمحاكم الاسرائيلية بأن تتجنب اصدار عقوبة الاعدام بحق الفدائيين .

توجيه ضربات مع محاولة ايجاد مخرج سياسي :

يجمع الكتاب والمعلقون الصحفيون الذين يعالجون العمل الفدائي على أمرين : الاول ، ضرورة توجيه ضربات قوية ضد الفدائيين بغرض تقليص نشاطهم، والثاني ضرورة ايجاد مخرج سياسي للقضية المستعصية ، ويتفق هؤلاء على ان الضربات العسكرية مهما بلغت من الشدة والعنف لن تؤدي الى القضاء على العمل الفدائي اذا لم تكن مصحوبة بحملة سياسية موازية تعطي الفلسطينيين الامل في الحصول على شيء . كما ويجمعون على ضرورة أخذ زمام المبادرة والقيام بعمليات هجومية مدروسة ، الا أنهم يختلفون في اعطاء تصورات للاساليب الناجعة لمهاجمة الفدائيين وفي كثير من الاحيان يقفون حيارى تجاه ضرورة اتباع هذا الاسلوب او ذاك ، ولعل أبرز الاساليب تتمثل في ثلاث : (١) استخدام الطائرات ضد قواعد الفدائيين داخل المخيمات وخارجها ، (٢) احتلال مناطق من جنوب لبنان بشكل مؤقت ، (٣) خلق قيادة خاصة داخل الجيش الاسرائيلي لمهاجمة الفدائيين ومباغتتهم في أماكن تواجدهم ، وكذلك مهاجمة قياداتهم .

فيما يتعلق بالاسلوب الاول ، وهو الذي درجت اسرائيل على استخدامه اثر العمليات الفدائية الاخيرة ، توجد تحفظات كثيرة عليه ، أهمها التخوف من أن تؤدي ردود الفعل الاسرائيلية الى اندلاع الحرب مرة اخرى ، « ليس هنالك شك بأن الشرق الاوسط ، اذا ما استمرت اسرائيل في الرد على غرار رد الاسبوع الماضي ، سيعود بسرعة الى ساحة معارك وحروب » والتخوف من ان يؤدي الى دفع الفدائيين للحصول على اسلحة دفاعية متطورة ، واحتمال قيام بعض الدول العربية بادخال وحدات عسكرية مضادة للطائرات داخل الاراضي اللبنانية (انظر مقال ايتان هنار، يديعوت احرونوت

٧٤/٦/٢٣) وكذلك هنالك تخوف من ان تثير اعمال القصف الجوي الرأي العام العالمي ، والضغوط على اميركا من قبل بعض الدول العربية خاصة وان الطائرات التي تقصف المخيمات هي من صنع اميركي ، وهنالك من يرى بأن القصف الجوي من شأنه ازهاق أرواح مدنيين الامر الذي يؤدي بدوره الى دفع مزيد من الشباب للانتساب للعمل الفدائي « ... كل قتيل او جريح من بين صفوف السكان المدنيين في لبنان يؤدي الى انضمام مرشحين جدد لحركة المخربين وتأييدها من قبل جميع افراد عائلته واقاربه . ينبغي ايضا ان نذكر ، بأن اعمال القصف الجوي ، لا تلاقي الاستحسان وتثير ضدنا الرأي العام العالمي . ويجب ان لا نستخف بذلك » (انظر مقال يشعياهو بن فورات ، يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٦) .

ويجب ان لا يغيب عن بالنا ان هذه تحفظات فقط ، وجميع هؤلاء بالاضافة الى عدد كبير آخر يرون في هذا الاسلوب وسيلة ردع للعمل الفدائي . اما الاسلوب الثاني وهو احتلال اجزاء من جنوب لبنان مؤقتا ، فان اسرائيل لم تقدم عليه حتى الان ، بالرغم من التهديدات المتكررة والدعوات الداعية الى ذلك بين الحين والاخر بين صفوف الاوساط اليمينية المتطرفة . يقف المعلقون والصحفيون الاسرائيليون تجاه هذا الاسلوب ضمن دائرة التشكيك والتحفظ ، ويمكن تلخيص تحفظاتهم بالامور التالية : (١) ان الاقدام على هذا الاسلوب من شأنه ان يدفع المنطقة الى ساحة القتال من جديد في الوقت الذي تمر فيه اسرائيل باعادة بناء جيشها واستيعاب أسلحة جديدة ، وليست هذه هي الفترة الافضل بالنسبة لها لخوض غمار معركة جديدة ، (٢) التخوف من مواجهة اسرائيل لضغوطات دولية ، خاصة من قبل الدول الغربية التي اعتمدت على كبح جماح اسرائيل لعدم تعريض سلامة لبنان للخطر ، (٣) ان الوضع اللبناني الداخلي وميزان القوى فيه لا يؤديان الى قيام لبنان ضد المقاومة ، وان الضغوطات الاسرائيلية عليه ربما تؤدي في احسن الاحوال من وجهة النظر الاسرائيلية الى وضع عراقيل على الحدود أمام الفدائيين ، او ان تؤدي الى دفع لبنان لاتباع سياسة اكثر راديكالية تجاه اسرائيل (للاستزادة انظر مقال زئيف شيف . ملحق هآرتس ٧٤/٧/٥ ومقال هفار ، يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٣) .

اما الاسلوب الثالث وهو الذي ينال اجماع ومطالبة جميع المعلقين الاسرائيليين فيتمثل في خلق وحدة عسكرية خاصة ، تتشكل من عناصر الكوماندو في الجيش الاسرائيلي ، تحت قيادة خاصة تابعة لقيادة الجيش تكون مهمتها القيام بأعمال عسكرية ضد تجمعات الفدائيين سواء داخل المخيمات او في القواعد ، وكذلك القيام بعمليات ضد قيادة المقاومة الفلسطينية على غرار عملية فردان . ومن الجدير بالذكر ان مهمة محاربة العمل الفدائي مناطة بقيادة المنطقة الشمالية ، واذا ما تم خلق هذه القيادة الجديدة فستعفى قيادة المنطقة الشمالية من هذه المهمة . ومن بين الذين دعوا الى انشاء قيادة خاصة لمحاربة العمل الفدائي يشعياهو بن بورات في مقال له تحت عنوان « ينبغي اقامة قيادة خاصة لمحاربة الارهاب » (يديعوت أحرونوت ١٩٧٤/٦/٢٦) قال فيه : « ان السياج على امتداد الحدود ، ومرابطة وحدات من الجيش هناك ، وقيام وحدات حرس الحدود بأعمال الدورية ، وتجنيد المتطوعين ، وتوزيع السلاح على كل من يطلبه من ناحية ، وأعمال القصف الجوي من ناحية اخرى ، ليس فيها ما يكفي لصد موجة الارهاب المتصاعدة ، كما وانها ليست كافية للحيلولة دون تحول اسرائيل الى معسكر كبير مغلق. لقد طرحت منذ مدة فكرة اقامة قيادة خاصة ضمن اطار الجيش — بالتعاون مع اجهزة الامن المختصة — لمحاربة الارهاب ، حيث تشرف على قوة مختارة ومدربة لهذا الهدف . وينبغي على هذه القيادة التي ستوكل اليها مهمة المهاجمة ، العودة الى اساليب الماشي التي اثبتت نجاعتها ، واعداد أساليب جديدة وعمليات جريئة ...» . وكذلك الكاتب « ايلان كفير » الذي طالب هو الاخر باقامة مثل هذه القيادة الخاصة ، ففي مقال له : « ينبغي اقامة هيئة داخل الجيش الاسرائيلي لمحاربة الارهاب » (يديعوت أحرونوت ١٩٧٤/٧/٥) يقرر فيه ان الفدائيين استفادوا من الاساليب التي اتخذتها اسرائيل ضدهم ، « وكلما اكثر الجيش الاسرائيلي من ضرباته ضد المخربين ، فان هؤلاء تعلموا كيف يمتصون الضربات . ومثل الفيتناميين الشماليين تعلموا كيف يعيشون تحت القصف المكثف لسلاح الجو الاميركي ، هكذا ايضا المخربون في

لبنان ... » لينتقل بعد ذلك للقول بأنهم يجزئون قواتهم الى وحدات صغيرة ومنتشرة هنا وهناك ، كما انهم على صعيد القيادة وخاصة بعد عملية الفردان شرعوا يتخذون احتياطات أمنية شديدة « واذا كان ضرب المخربين أخذ يغدو أكثر صعوبة، فان المحاولات لضرب كبار قادتهم — جبريل، عرفات، حبش وحواتمه — غدت مستحيلة تقريبا . فمنذ الضربة التي وجهها الجيش الاسرائيلي لكبار قادة المخربين في قلب بيروت ، وقبل ذلك ، ينتقل عرفات وشركاؤه من مكان سري الى آخر ، وهم محاطون بقوات حراسة لذا فان عملية اكتشافهم تعتبر بمثابة مهمة استخبارية معقدة ، وتوجيه ضربة لهم بواسطة قوة عسكرية تعتبر امرا صعبا وجريئا » الى ان يصل الى بيت القصيد ويطالب المسؤولين الاسرائيليين بانتهاج اسلوب جديد : « يجمع المختصون الذين تحدثت معهم على الرأي القائل بأن محاربة الارهاب والتصدي له ، ينبغي ان يكون أحد المواضيع المركزية ضمن معالجة الجيش الاسرائيلي . لذا ينبغي على الجيش الاسرائيلي ان يقيم هيئة مع صلاحيات ، تقتصر مهامها على معالجة الارهاب . هيئة تكون تابعة مباشرة لرئيس هيئة الاركان ويقف على رأسها ضابط كبير ذو خبرة ميدانية واصالة تفكير وملم على الصعيد النظري بكل ما يتعلق بالتنظيمات ، رجالها وتدريباتها وايديولوجيتها . ضابط مع افراد اركانه ، يقف على خصائصهم ونقاط ضعفهم . هيئة كهذه بوسعها انعاش الفكر في محاربة المخربين » . وهنالك عدد اخر يقف الى جانب هذه الدعوة ويروج لها ، مثل الكاتب « يعقوب كروز » الذي دعا بدوره الى اقامة سلطة خاصة لمحاربة الفدائيين : « ان متطلبات محاربتهم تستلزم قيام سلطة خاصة ، تدير وتنسق الجهود العامة ضد منظمات التخريب دون كلل وفي كل مكان وزمان . وفوق ذلك فانها ستأخذ المبادرة من ايديهم . وتنطوي هذه الطريقة على أمل لتقليص النشاط الارهابي لادنى درجة ممكنة » (المصدر السابق) .

اذن يمكن القول ان اسرائيل تمر الان في مرحلة اختيار للاساليب التي تراها انجع لمحاربة العمل الفدائي ، آخذة بعين الاعتبار الانعكاسات المحلية والدولية التي يمكن ان تتأتى عن عملية الاختيار ، ومع ذلك يوجد هنالك من يعتقد بان اسرائيل ستتبنى الاساليب الثلاث الانفة الذكر فيما اذا تعاظمت موجة العمل الفدائي ، مثل المعلق « حاجي ايشد » الذي يذكر على شكل تساؤلات في مقال له تحت عنوان : « كيف يمكن محاربة الارهاب » (دافار ٧٤/٧/٥) : « ينبغي ان يطرح السؤال هل تقتصر الهجمات على القصف الجوي او ينبغي ايضا القيام بهجمات برية ، هل من المجدي ان تنجز جميع الهجمات علنا على يد وحدات من الجيش الاسرائيلي ، او انه من المجدي استخدام وحدات خاصة شريطة ان تكون خاضعة لسلطة حكومية وصية عليها ، والسؤال هو هل من الممكن قطع شوط بعيد لدرجة القيام باحتلال مؤقت لجنوب لبنان او اجزاء واسعة من هذه الدولة كيلا تستخدم كقاعدة لاعمال المخربين ضد اسرائيل ، وذلك عندما يتضح ان جميع الاعمال الاخرى لم تثمر » ليصل الى القول : « يمكن ان نقيم ، بأنه اذا ما استمر الارهاب لن يكون مناص من تصعيد الاعمال ضد المخربين في جميع هذه الاتجاهات » .

الا انه يمكن لنا من خلال استقرائنا لمجموعة اراء الكتاب والمعلقين الاسرائيليين القول بانه سواء تم بناء قيادة خاصة جديدة لمحاربة العمل الفدائي او لم يتم ، فان الاحتمال الاقوى والارجح ، هو ان تتوجه اسرائيل الى القيام بسلسلة من العمليات الخاصة ضد قواعد الفدائيين داخل المخيمات او خارجها سواء عن طريق الانزال الجوي او البحري او عن طريق التسلل البري ، مشفعة ذلك بعمليات ذات طبيعة استخبارية ضد قيادات المقاومة الفلسطينية وليس من المستغرب ان تعتمد على اساليب الخداع في بعض عملياتها، كارتداء ملابس معينة لبعد الاشتباه .

ذكرنا في مطلع حديثنا ان المعلقين الاسرائيليين الذين يعالجون ظاهرة العمل الفدائي يجمعون على ان الضربات العسكرية مهما بلغت من الشدة والعنف لن تؤدي الى القضاء على العمل الفدائي اذا لم تكن مصحوبة بحملة سياسية موازية تعطي الفلسطينيين الامل في الحصول على شيء ، الا ان هذا « الشيء » يبقى ضبابيا وعائما ومتفاوتا بين شخص واخر بين تيار واخر وفي بعض الاحيان بين الشخص وذاته ! ولعل مرد ذلك يعود الى رغبة هؤلاء بان يكون الشيء بمثابة تكتيك او مناورة

لخدمة الخط الاستراتيجي ، ومن هنا نجد من يبدي اسفه وحزنه على تغييب اسرائيل للخيار السياسي امام الفلسطينيين وتمسكها فقط بالخيار العسكري ، مثل بن فورات : « علينا ان نقبل مع الاسف او الندم المتأتيين من ذلك ، بأن السياسة التي كانت تعتمد على نفي وجود الهوية الفلسطينية قد افلست » ولذا فانه يطالب بمواصلة توجيه الضربات للفدائيين مع التوجه لحل القضية الفلسطينية من خلال الاردن وسكان الضفةالغربية.

اما زئيف شيف فيعرب هو الاخر عن أسفه من واقع عدم قيام اسرائيل بالعمل على جبهتين تجاه الفلسطينيين بل اقتصارها على جبهة واحدة هي الجبهة العسكرية . « مثلما هو واضح للجميع بأن هذه الحرب ليس بوسعها ان تقتصر على الدفاع فقط ، هكذا ينبغي ايضا ان يكون واضحا بان القضية برمتها (المسماة بالفلسطينية) لا يمكن حلها بالوسائل العسكرية فقط ، ذلكلانها قضية سياسية في اساسها . وفي الوقت الذي نقاتل فيه منظمات التخريب ... من الاهمية بمكان ان تهتم اسرائيل بايجاد مخرج سياسي للحركة الفلسطينية. والقصد ليس فقط اثبات ان الخيار العسكري الخاص بهم لا امل فيه ، بل ايجاد مخرج سياسي لهم ، وهذا الامر سيدخل الشكوك في قلوبهم ويقسمهم ويعزز المعتدلين من بين صفوفهم . ان اسرائيل — للاسف الشديد — تمتلك فقط خطة عسكرية تجاه هذا الموضوع ... » (ملحق هآرتس ٧٤/٧/٥) .

ليس هنا مجال التوسع ، في القاء الضوء على وجهات النظر الاسرائيلية المختلفة والمتباينة تجاه ضرورة ايجاد مخرج سياسي للقضية الفلسطينية، وانما سنكتفي بالوقوف على وجهة نظر فريدة من نوعها .

بروفيسور دان ومخيمات لبنان : من المعروف ان الكتاب والمعلقين في اسرائيل درجوا عند تطرقهم لموقف سوريا او دورها في الصراع العربي الاسرائيلي على القول بأن « الرياح الشريرة تهب من الشمال » ايماء بان سوريا هي البلد العربي الاكثر تطرفا تجاه اسرائيل ، وتنفيسا من روح الكراهية تجاه سوريا . وقد اخذ هؤلاء اثناء معالجتهم لظاهرة العمل الفدائي يرددون بأن « الرياح الشريرة تهب من مخيمات لبنان » على اساس ان المخيمات هي منبت العمل الفدائي والقاعدة الامينة الحامية له ، ومن هنا انطلقت الدعوات من قبل بعض المعلقين ، مستهدفة احداث ثغرة بين جماهير المخيمات والفدائيين ، من خلال توجيه ضربات عسكرية مصحوبة بطرح خيار سياسي امام الفلسطينيين على أمل ابعاد السكان عن العمل الفدائي وبالتالي القضاء عليه ، الا ان هؤلاء لم يفصحوا عن هذا الخيار السياسي باستثناء البروفيسور يوسف دان (يمين متطرف) الذي انفرد باعطاء تصور اوضح للخيار السياسي الذي يرتأيه ، وقد عبر عن ذلك في مقال له تحت عنوان « كيف يمكن تصفية مخيمات اللاجئين في لبنان » (يديعوت احرونوت ٧٤/٧/٧) حيث يتطرق الى ضرورة تصفية مخيمات اللاجئين في لبنان ، ليس من خلال دافع انساني حيث يعيش اللاجئون فيها حياة البؤس والشقاء او من خلال تأنيب ضمير لدور الصهيونية في ظهور هذه المخيمات ، بل لان « مخيمات اللاجئين في لبنان قد غدت الان المشكلة الاساسية التي تواجه اسرائيل على الصعيد الامني ، والقاعدة الاساسية للمنظمات ، فمن هنا ترسل الى جميع ارجاء المعمورة سواعدهم، سواء لزرع القتل وبث الخوف او للقيام بحملة دعائية ضد اسرائيل ، ومن الطبيعي ان يستخدم ضد هذه المخيمات ساعد الجيش الاسرائيلي في صراعه ضد التنظيمات ، الا ان السؤال هو هل بالقوة وحدها يمكن تصفية اعشاش الدبابير هذه التي تلحق الاضرار الجسيمة بالارواح الطاهرة في اسرائيل ، وبجهودهاالعسكرية وصورتها الدولية ؟ » .

وقبل ان يتطرق الكاتب الى الطريقة التي يمكن بها تصفية « اعشاش الدبابير » يذكر بان هنالك فرقين بين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان وبين اللاجئين في الضفة والقطاع والاردن ، الاول ان لاجئي لبنان قد فقدوا بيوتهم ووطنهم ، بينما اللاجئون في الضفتين والقطاع فقدوا بيوتهم فقط وبقوا في وطنهم . « انهم لا يزالون يعيشون في وطنهم داخل فلسطين بمفهومها التاريخي والقانوني — الواقعة على ضفتي النهر » والثاني حسب اعتقاده ان لاجئي لبنان يشكلون قضية امنية ليس بالنسبة لاسرائيل فحسب بل بالنسبة للبنان ، « ولهذا السبب هنالك اساس للامل بانه يمكن

التوصل الى تعاون بين اسرائيل ولبنان لحل هذه المشكلة .. »

ثم يعود ويكرر ما يجمع عليه الكتاب الاسرائيليون من غياب خطة سياسية الى جانب الخططالعسكرية الاسرائيلية ، ليطالب كالاخرين بطرح بديل سياسي امام الحكومة اللبنانية وسكان المخيمات وذلك « للحيلولة دون استمرار سيطرة منظمات التخريب على هذا الجمهور الكبير » ليصل بعد ذلك الى طرح مشروعه ويتلخص في التالي : قبول اسرائيلي مبدئي بعودة من يرغب من سكان لبنان الى الضفة الغربية وقطاع غزة وتعويض من لا يرغب في ذلك عن ممتلكاته . ويلحق ذلك بشروط (١) اذا كان هذا الامر يؤدي الى تخفيف عبء الامن ويهز سيطرة المنظمات الفلسطينية في المخيمات (٢) ان انضمام اي شخص للمقاومة يفقده حق المطالبة بالعودة ، او حق المطالبة بالتعويض ، ويشمل ذلك اهله واقاربه وذويه . اما فيما يتعلق بكيفية تطبيق ذلك فيقترح ان تجري عملية عودة الاشخاص على اساس توحيد شمل العائلات ، الا انه هنا يضع شرطا اخر علاوة على شروطه السابقة ، يتمثل في ضرورة تواجد معظم افراد العائلة في المناطق الخاضعة لسيطرة اسرائيل « اذا ما اتضح بعد الفحص ان معظم ابناء تلك العائلة يعيشون في الاردن او سوريا او الكويت،فان الطلب سيرفض، وسيقبل فقط اذا كان المقصود بالفعل عائلة معظم افرادها يعيشون في البلاد » . وبالرغم من ان اشتراطات البروفيسور تحول دون عودة الاكثرية الساحقة الى المناطق المحتلة ، فانه يحاول طمأنة الاسرائيليين بالقول ان عدد اللاجئين في لبنان يناهز المئتي الف ، ويذكر بان هذا الرقم مبالغ فيه مع ان العدد التقريبي للفلسطينيين في لبنان ــ لسوء حظ البروفيسور دان ــ يناهز الـ ٣٥٠ الف نسمة ، وزيادة في الحرص على طمأنة القارىء بان لا تعود هذه الاعداد دفعة واحدة ، يرى ان العملية ستتم بالتقسيط ، حيث يسمح كل عام على امتداد فترة حددها بعشر سنوات ، عودة او تعويض عشرة الاف شخص .

يشدد الكاتب على ان الاهمية لا تكمن في البديل بقدر ما تكمن في طرحه ، واذا ما احبطته فصائل المقاومة ، فانها كما يتصور « ستكشف عن وجهها الحقيقي ، واظهار نظرتهم الحقيقية سواء تجاه قضية اللاجئين او تجاه وجود اسرائيل » واذا ما رفضه سكان المخيمات « فان المسؤولية كلها تقع عليهم ، وبذلك يكون مركز اسرائيل على الصعيد الدولي ، كما يتخيل قد تعزز ، وتكون يدها « طليقة اكثر في استخدام الخيار العسكري لمعالجة قضية الارهاب » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول ان المجتمع الاسرائيلي ، عقب الموجة الفدائية مؤخرا ، غدا يشعر اكثر من اي وقت مضى بفقدان الامن ، وان الانسان العادي يعيش تحت وطأة الخوف والترقب للضربة بسبب الاحساس السائد بان لا وجود لمكان آمن في اسرائيل ، الامر الذي دفع السلطات الاسرائيلية للعمل في اتجاهين ، الاول يتسم بالدفاع المحض ، مثل اقامة سياج امني على امتداد الحدود الشمالية ، والعمل على تسميكه بين الفينة والاخرى وكذلك احاطة قرى الحدود باسيجة امنية مما يعيد الى الاذهان صورة « سور وبرج » في اواخر الثلاثينات ، والعمل على اقامة الحرس المدني في جميع قرى ومدن اسرائيل ، والثاني ، يتسم بالهجوم الا انه لا يزال حتى الان يقتصر على اعمال القصف الجوي او البحري ، وهنالك احتمال كبير بان يتطور الى عمليات انتقامية خاصة ضد تجمعات الفدائيين ، ومراكز قيادات المقاومة .

مراجعات

J. Berque, J. Couland, L. Y. Duclas, J. Hadamard, M. Rodinson,
Les Palestiniens et la crise israélo - arabe,
(Paris, Editions Sociales, 1974).

لم تقتصر حرب اوكتوبر على احداث خلخلة خطيرة داخل التفكير الصهيوني وحسب بل وتجاوزت ذلك الى اعادة تصحيح بعض « المسلمات » لدى ما يسمى بالرأي العام الغربي . ولقد أدت هذه العملية السريعة الى تشجيع بعض الاصوات الخجولة التي كانت تؤيد الموقف العربي بحذر ودون ان تحاول « خدش » الشعور الصهيوني الى التخلي عن بعض خجلها وحذرها والمناداة علنا بما كانت تردده في نطاق ضيق ومحدود . والكتاب الجديد الذي بين ايدينا يسير في هذا الاتجاه لا بل هو ، ان صح التعبير ، ثمرة مباشرة لحرب اوكتوبر وما أدت اليه من تغيير وتعديل في ميزان القوى . فبعد أن تعودنا سماع اصوات التأييد للقضية العربية من بعض الاوساط اليسارية التي كانت توصف في فرنسا بالمتطرفة ها نحن نرى بين ايدينا كتابا عن القضية الفلسطينية تتولى نشره وتوزيعه « المنشورات الاجتماعية » وهي من اكبر دور النشر التابعة للحزب الشيوعي الفرنسي ويحمل توقيع نخبة ممتازة من المفكرين الماركسيين الفرنسيين منهم من تعود القارىء العربي على سماع أسمائهم كثيرا **كرودنسون وبرك وكولان** الذين كتبوا الكثير عن قضايا الشرق العربي ومنهم من بدأ حديثا الكتابة عن هذه القضايا وهم بمعظمهم من الشباب التقدميين الذين يتعاطفون مع الثورة الفلسطينية . الا ان الكتاب ليس مجرد مواقف بل يضم ايضا مجموعة وثائق سياسية تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ومن ضمنها بعض الوثائق الرسمية الصادرة عن فصائل الثورة الفلسطينية . ولعل من المفيد هنا ان نرجع الى الكتاب بالتفصيل لعرض محتوياته ومناقشتها .

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء رئيسية يشكل كل جزء منها مرجعا وثائقيا هاما لكل من يريد متابعة الصراع العربي — الاسرائيلي في الفترة الزمنية الواقعة بين حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب اوكتوبر ١٩٧٣ . فالقسم الاول — وهو القسم الذي يبدو ان واضعي هذا الكتاب يولونه اهتماما خاصا — يضم نصوص ووثائق الـ «G.R.A.P.P.» وهي « مجموعة البحث والعمل » لتسوية المشكلة الفلسطينية . ويعرف مكسيم رودنسون هذه المجموعة بأنها تأسست سنة ١٩٦٧ « وسط موجة الانفعالات التي سببتها حرب الايام الستة » . والذين أسسوها كانوا مدفوعين الى ذلك بالرغبة الجارفة في أن يعرفوا الرأي العام الفرنسي بمجموعة من المعطيات التي كانت آنذاك مطموسة بشكل متعمد ومكثف بواسطة دعاية منظمة تنظيما جيدا وبواسطة مشاعر كانت أحيانا تختبىء وراءها نوايا حسنة الا أنها تؤدي الى استنتاجات خاطئة تحت تأثير الجهل او التحيز الاعمى . وكان مؤسسو مجموعتنا يتطلعون ايضا الى هدف آخر وذلك بحكم تكوينهم الفكري من جهة وبحكم معلوماتهم الخاصة من جهة اخرى . « ذلك ان الكثيرين منا كانوا مطلعين ، بحكم تخصصهم او مجرى حياتهم الشخصية ، اطلاعا واسعا على المشاكل العربية ويعرفون عن كثب الشعب العربي . وهذه كلها أمور غير متوفرة عند الغالبية العظمى من مواطنينا ... »

ويضيف رودنسون معرفا بهذه المجموعة « بالاضافة الى هذا فان أحدا منا لم يكن يجهل معطيات المشكلات اليهودية . لا بل ان البعض منا كانت لديه الاسباب الخاصة جدا للاهتمام بها لكونهم هم انفسهم من اصل يهودي » (وبالتحديد مكسيم رودنسون الذي ينتمي الى عائلة يهودية

معروفة) ويستمر تعريف رودنسون بهذه المجموعة بحذر شديد فهي ليست مجموعة تعطي تأييدا غير مشروط لاي احد كان (أي للعرب) كما انها لا تنادي بابادة اي شعب . « ولكن الكثيرين من بيننا يشعرون بتعاطف خاص ، وبدرجات متفاوتة ، كل حسب طباعه ، مع الشعب العربي » . « نحن مع انصاف العرب ... ولكننا لا ندعو الى ارتكاب ظلم آخر في سبيل رد العدالة اليهم ... » . « نحن مع الحكومات العربية بقدر ما تعمل هذه الحكومات على تخليص شعوبها من التخلف والتبعية ... » .

وهكذا بعد سلسلة طويلة من الجمل التمهيدية التي تهدف بشكل او بآخر الى اقناع القارىء الغربي بحسن نية المجموعة تجاه اليهود او بمعنى أدق لانتزاع صك براءة من اية ميول او اتجاهات لاسامية قد يتهمون بها يدخل رودنسون في صلب المشكلة فيقول بأن تطلعات اليهود جديرة بالاحترام وينبغي ان يدافع عنها بقوة عندما تسعى الى أهداف لا يجوز ان يحرم منها أي انسان : أعني الحرية ، المساواة في الحقوق والفرص ، الكرامة ... ولكن ليس هناك اي مبرر لتحويل متطلبات كما يفهمها المرء او حتى متطلباته الفردية الى قانون ملزم للاخرين . ان كل طموح ينبغي ان يجد حدوده عند طموحات الآخرين عندما تكون مشروعة . ثم يقول بأن من الممكن ان نناقش بشكل تجريدي فوائد او مساوىء ان يكون لليهود دولة تضم أولئك الذين يريدون ان ينشئوا أمة جديدة يكون بمقدورهم ان ينخرطوا فيها بملء حريتهم . ويعطي رودنسون كمثل التجربة السوفياتية في هذا المجال حين أنشأوا دولة لليهود في بيروبيدجان ولكن بدون نجاح واضح . الا ان « اختيار » اليهود وقع على وطن يسكنه أصحابه وبالضبط في فلسطين التي لم تكن في تلك الحقبة مجموعة من المستنقعات والصحاري كما تروج لذلك الدعاية الصهيونية . « لقد كانت فلسطين بدون أدنى شك على الاطلاق وطنا يسكنه العرب تحت حكم العثمانيين . وبالطبع فان المنطق الاكثر بداهة يدفعنا الى القبول بأنه ليست هناك سوى وسيلتين لتحويل هذا البلد العربي الى بلد يهودي : اما طرد السكان الاصليين واما تحويلهم الى مواطنين من الدرجة الثانية . وأيا كانت الظروف فان هذه هي في الواقع الوسائل التي استعملت في هذا السبيل . اما رأي أهل البلاد المعنيين فلم يؤخذ ابدا بعين الاعتبار » .

بهذه الكلمات البسيطة يلخص رودنسون كل المشكلة ولذلك فانه يعلن بكل وضوح عداءه — وعداء كل المجموعة التي ساهمت في وضع هذا الكتاب — للايديولوجية وللحركة الصهيونية ، هذا العداء الذي لم ينشأ بسبب التعليلات التي أعطاها أصلا لجذور الصراع العربي — الاسرائيلي بل ايضا بسبب التحالفات او الاساليب التي سعت وراءها او اتبعتها والتي في النهاية تنجم في معظم الاحيان عن مشروعها الاساسي .

الا ان هذا العداء لا يتضمن بالضرورة عداء مماثلا للشعب الاسرائيلي وان الحل الوحيد الممكن يكمن في تخلي اسرائيل عن طابعها الاستعماري وتتحاور مع المعنيين المباشرين بالقضية للتوصل الى صيغة من التعايش على اساس من المساواة التامة . وهنا يشرح رودنسون آراءه المعروفة حول هذا الموضوع والتي لخصها في كتاباته العديدة حول قضية الصراع العربي الاسرائيلي ونخص منها بالذكر « اسرائيل واقع استعماري » (مجلة الازمنة الحديثة . عدد خاص . أيار ١٩٦٧) و« اسرائيل والرفض العربي » . الا ان ما يمكننا ان نثيره حول ما قاله رودنسون بالذات هو ان ما ينادي به هو في النهاية قريب نوعا ما من أطروحات المقاومة الفلسطينية حول الدولة الديمقراطية . الا ان المشكلة ليست بالنوايا الحسنة ولا بالتصريحات المتفائلة بل في السؤال التالي : ما العمل لتجسيد هذه الامال والمطامح ؟ انها حتما لا تتحقق برغبة ذاتية من اسرائيل بل ان نتيجة الصراع هي التي تحدد مصير هذه الامال اي بمعنى آخر الهزيمة المادية والايديولوجية للصهيونية . وكل كلام آخر في رأينا لا يتعدى كونه كلاما رومانسيا مثاليا يشكر اصحابه عليه الا انه في عالم الواقع لا يغير شيئا . ان تحول ميزان القوى لصالح القوى التقدمية العربية والعالمية كفيل بتحقيق السلام الحقيقي القائم على انقاض الصهيونية ومؤسساتها .

بعد هذه المقدمة التمهيدية للكتاب يجد القارىء مجموعة هامة من الوثائق المتعلقة بالصراع العربي — الاسرائيلي ما بين حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب اكتوبر ١٩٧٣ ومن بينها بعض الفقرات من نظام « مجموعة البحث والعمل لتسوية المشكلة الفلسطينية » «G.R.A.P.P.»والنداء الذي وجهه

المؤتمر الدولي المنعقد في بولونيا « من أجل السلام والعدالة في الشرق الاوسط » . ثم يعرض « جاك كولان » — وهو من كبار الباحثين الفرنسيين الشيوعيين المهتمين بقضايا الشرق العربي (اشتهر بكتابه عن النقابات في لبنان) — لمواقف كل الدول والمنظمات المعنية مباشرة بالصراع ويشرح «امكانيات التعايش السلمي العادل » في المنطقة . وتغلب على هذا الفصل روح البحث والتقصي والموضوعية بالاضافة الى الالمام الدقيق بتطورات القضية الفلسطينية من ٥ يونيو الى ٦ اكتوبر . اما فيما يتعلق بالاستنتاجات التي يستخلصها من عرضه التاريخي فهو يتبنى كلية موقف الحزب الشيوعي الفرنسي القريب جدا من الموقف السوفياتي القائم على :

— ادانة الاوساط الحاكمة في اسرائيل بصفتها وراء العدوان .

— انتصار الطبقة العاملة في اسرائيل هو الكفيل بالقضاء على الصهيونية واعادة السلام الى المنطقة .

— ان ميزان القوى على الصعيد المحلي سيتحول بلا شك لصالح العرب مهما طال الزمن ومهما كثرت الصعوبات . أما اولئك الذين يهمهم قبل كل شيء وجود دولة اسرائيل فانهم لا يستطيعون الزعم بأنهم يحافظون على هذا الحق الا اذا عملوا على جعل اسرائيل تنفذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ .

— لا يمكن ان يكون هناك سلام دائم في المنطقة وبالتالي تعايش عادل طالما ان الشعب الفلسطيني ليس سيد مصيره وطالما انه لم يعط ارضا يمارس فوقها سيادته : قد تكون هذه السيادة في دولتين منفصلتين او متحدتين او في دولة ديمقراطية ، علمانية ...

ويعود رودنسون بعد ذلك ليشرح بتفصيل وتوسع « امكانيات التعايش » وذلك من خلال تأكيده هو الاخر على اهمية قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . الا انه بعد مناقشة طويلة ومستفيضة لمسألة وجود « مجموعتين اثنيتين » Ethnique متمايزتين على ارض فلسطين (نجد هنا ان المجال لا يسمح لنا بمناقشة تأكيد رودنسون على ان الاسرائيليين يشكلون فعلا مجموعة بشرية متجانسة. ولكننا نكتفي بالقول ان من الواضح جدا ان المجتمع الاسرائيلي مؤلف من مجموعات بشرية متنوعة وان كل مجموعة تحدد نفسها ، بالاضافة الى يهوديتها، بانتمائها الاصلي : فهناك الاسرائيلي البولوني والاسرائيلي الامريكي او السوفييتي او الشرقي الخ ...) وبعد استعراض امكانات التعايش من خلال اعطائه بضعة امثلة تاريخية وبعد تركيزه على ان الانسان العربي يتسم بالتسامح والطيبة يعود فيقول : اننا لن نحدد مشروع « حل » للصراع الفلسطيني فهذا عمل لا يجدي نفعا . ان الحل — وهذا في رأينا استنتاج صحيح — سيكون نتيجة تطور ميزان القوى بين الطرفين وقد يكون نتيجة مفاوضات بين المتصارعين او حتى بين القوتين العظميين . و« كل ما نتمناه هو تحديد صورة الحل في مثله الاعلى أي التعايش بين المجموعتين بشكل متساو على ارض فلسطين » .

وفي الفصل الخامس من الكتاب يناقش رودنسون مشروع الملك حسين و« الارهاب الدولي » وبالاخص العمليات التي شهدتها بلدان اوروبية عديدة من ميونيخ الى روما مرورا بباريس ومدريد وبروكسل. وطبعا فان ما يقوله رودنسون هنا سبق ان نشر الا ان اهميته هو انه كاد يكون الصوت الوحيد الذي ارتفع آنذاك في وجه الاعلام الغربي والصهيوني الذي اخذ يحرض الرأي العام العالمي على الفلسطينيين وتشويه الحقائق والاستهتار بكل المقاييس المنطقية والمقبولة . بالنسبة للموضوع الاول يشرح رودنسون علاقة النظام الهاشمي التاريخية بالقضية الفلسطينية ويستعرض بسرعة النوايا الحقيقية الكامنة وراء مثل هذا المشروع لينتهي أخيرا الى ادانته اذ « ليس فيه اطلاقا أثر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني في التصرف بكامل حريته لاختيار نظام الحكم الذي يريده . وهذه صفة تدعو الى ادانته بشدة وذلك أقل شيء يمكن ان يقوم به انسان » . أما بالنسبة لما يسمى « بالارهاب الدولي » وللضجيج الاعلامي المفتعل الذي رافق بعض العمليات الفلسطينية (كعملية ميونيخ مثلا) فيدعو رودنسون جميع قارئيه (الاوروبيين طبعا) الى عدم فقدان التوازن وعدم نسيان عناصر الصراع ككل ومن أهمها استعمار فلسطين من قبل الصهيونية . ويقول ان من كانت لديه رؤية واضحة للصراع يجب ألا يستهول بعض التفاصيل او يستنكر بعض العمليات لمجرد استنفار ما يسمى بالرأي العام العالمي ضدها . ان مناقشة

هذه العمليات من حيث فعاليتها واهميتها السياسية شيء وادانتها من حيث لاأخلاقيتها وعنفها شيء آخر . « ان اولئك الذين أدانوا هذه العمليات من وجهة النظر الثانية يعتبرون ان موقفهم من جذور الصراع يعفيهم ، بالنسبة للتفاصيل ، عن كل بحث عن المنطق والعقل والنية الحسنة والاتزان في اصدار الاحكام » . ان المنطق والحس السليم يفرضان على الانسان المنسجم مع نفسه ان يذكر دائما بالخطيئة الاصلية الكامنة وراء مثل هذه التفاصيل ، اي العمليات . وعلى كل حال ، كما يقول في نهاية المقال ، ان اسرائيل هي آخر من يحق لها ادانة الارهاب لانها انما قامت على الارهاب . وكذلك الحال بالنسبة الى معظم الدول فان تاريخها لا يسمح لافرادها بأن يدينوا الارهاب على الاطلاق . والجدير بالذكر ان رودنسون يشير في ملاحظة بنهاية المقال الى أنه قد كتبه قبل أن تنفذ اسرائيل سلسلة عملياتها الارهابية ضد بعض المسؤولين الفلسطينيين في أوروبا . وهذا في رأينا موقف لا يخلو من الشجاعة وسط موجة الاحداث العنصرية الحاقدة التي كانت آنذاك لا تترك مناسبة دون شتم العرب والفلسطينيين وتصويرهم على انهم النقيض الكامل لكل ما هو مدنية وحضارة .

أما **جاك برك** فقد جاءت مساهمته في هذا الكتاب — وبالتحديد في الجزء الاول منه — من خلال مقالين قصيرين الاول بعنوان « الامم والشعب العربي أمام فلسطين » والثاني بعنوان « الواقع والحق في فلسطين » . يقول برك في مقطع من مقاله الاول ما معناه ان اسرائيل تستند الى رؤيا مسيانية Messianique أي الى فكرة العودة الى أرض الميعاد والى قومية مستوردة قائمة على سيطرة حضارة غربية معينة. وهذا التضافر بين العاملين : المسيانية السلفية والقومية الغربية يشكلان قوة لا بأس بها الا ان خطأها الاساسي انها تنتمي الى الماضي . ويقول برك ان « أفضل سبيل لمواجهة هذا الواقع لا تكمن في مجابهته بقومية اخرى . ان رجحان الكفة في مثل هذا النوع من المناقشات هو من نصيب القضية التي تعرف كيف تتخطى غيرها وتتخطى نفسها » أي بمعنى آخر انه يدعو الفلسطينيين — والمقاومة بالتحديد — الى التخلي عن مجابهة ما يسميه بالقومية الاسرائيلية المستوردة بقومية فلسطينية من نفس النوع . والمأخذ الاساسي الذي يوجه الى هذا النوع من الكلام هو انه يوحي وكأن للفلسطينيين قومية خاصة بهم ، قومية فلسطينية مميزة عن القومية العربية . ان برك يدعو هنا الى فلسطنة الفلسطينيين لان في هذه الفلسطنة السبيل الوحيد الى انتصارهم . ليس هذا وحسب بل انه يسمح لنفسه بالتساؤل عما اذا كانت المرحلة العربية البحتة من المشكلة ليست في طريقها لان تتلاشى او ان تغرق بالتزامات اخرى أكثر عمقا واتساعا . ويعتقد برك ان فصل القضية الفلسطينية عن محيطها العربي اي تخليص القضية من أيدي الحكومات العربية سيساهم في تغذية التيار العالمي المؤيد للحق الفلسطيني . طبعا قد يكون في هذه الاقوال بعض الفائدة لو اننا نظرنا اليها من ناحية تكتيكية .

أما اذا وضعنا القضية الفلسطينية ضمن اطارها الموضوعي التاريخي ونظرنا اليها استراتيجيا فان كل هذا المنطق التجزيئي او الاقليمي سرعان ما ينهار ويفلس . ان مصير الشعب العربي الفلسطيني مرتبط ارتباطا نهائيا بمصير كل الاقطار العربية والتطورات الاخيرة تؤكد هذه الحقيقة وكل محاولة لعزل القضية الفلسطينية عن محيطها الطبيعي في سبيل كسب تأييد ثوري عالمي لها تشبه في رأينا محاولة من يريد ان يخسر اهم الاوراق الرابحة في أيديه من اجل ورقة غير اكيدة. على كل حال فان ما يسوقه الينا برك هنا ليس في النهاية سوى كلام مثالي يعتقد انه يخدم القضية الفلسطينية خدمة مخلصة وصادقة الا انه في الحقيقة يساعد ، فيما لو نفذ ، على عزلها وحصارها . ويكفي ان نذكر ان تاريخ كتابة هذا المقال يرجع الى ايار ١٩٦٩ حتى ندرك مغزى كلام برك ونضعه في مكانه الصحيح اي في موجة الكتابات والحركات التي كانت مسيطرة على الاجواء والتي كانت ترى في التركيز والتشديد على القطرية الفلسطينية سبيلا ناجحا لانتصار القضية . الا ان النكسة الخطيرة التي اصيبت بها حركة المقاومة في مذابح ايلول ١٩٧٠ جاءت لتؤكد ان السبيل الوحيد للانتصار هو في الالتحام المصيري بنضال الشعب العربي في كل مكان اذ كل انتصار عربي ثوري هو في النهاية انتصار للقضية الفلسطينية اي العربية. ويكمل جاك برك في مقاله الثاني في الكتاب ، الشق الثاني من فكرته فيدعو الدول العربية الى اختيار الحل السياسي للقضية على اساس انه اقل سوءا من غيره . الا انه في الوقت نفسه يقول بأن كلامه

لا يشمل الطليعة الثورية التي تشكل فلسطين بالنسبة اليها كل مآسي الخارج والداخل . انه يدعو الدول العربية الى الحل السياسي وبالوقت نفسه يدعو الفلسطينيين الى مواصلة النضال لانهم من غير الممكن ان يستسلموا ويرضخوا ... وهنا ايضا يقع برك في تناقض خطير هو بالحقيقة نتيجة حتمية لمنطقه التجزيئي القطري . ان التناقض وعدم التماسك في كلام برك ، رغم كل نواياه الطيبة نحو العرب والفلسطينيين يبرز بشكل واضح عندما نقارنه برودنسون . فالاول يحاول التوفيق بين الثورة والمؤسسات والثاني ينظر الى الصراع نظرة شاملة نافذة ولا يخشى من ان يعطي رأيه بصراحة حتى ولو جاء مخالفا للثورة الفلسطينية وللحكومات العربية .

وينتهي القسم الاول من الكتاب بالمذكرة التي أصدرتها « مجموعة البحث والعمل لتسوية المشكلة الفلسطينية » بشأن حرب اكتوبر وهي مذكرة سريعة كتبها رودنسون نفسه ولا نجد من المفيد الوقوف عندها .

أما القسم الثاني من الكتاب فيدور بمجمله حول العرب في اسرائيل وفي الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . ويضم هذا القسم دراسات ووثائق هامة ومكثفة عن واقع الاستغلال الذي يعيشه عرب الارض المحتلة .

ومن المواضيع الهامة التي كتبتها جاكلين هادامار وهي عضوة نشيطة في رابطة حقوق الانسان العالمية ، دراسة هامة عن « التمييز المتصاعد في الجامعة ضد الطلاب العرب . وهذه الدراسة عبارة عن مقابلات ومشاهدات جمعتها ونظمتها الكاتبة اثناء اقامتها في اسرائيل . بالاضافة الى هذه الدراسة ضم الكتاب بعض الوثائق الاسرائيلية التي تدين تصرفات الحكومة الصهيونية تجاه السكان العرب كما ضم تقرير لجنة العقد الدولية عن وضع السجناء العرب في المعتقلات الاسرائيلية سنة ١٩٧٠ وكذلك تقرير نفس اللجنة عن طريقة اجراء التحقيقات مع السجناء العرب وطريقة معاملتهم وانتزاع الاعترافات منهم .

ويجد القارىء ايضا في هذا القسم الوثائقي دراسة جيدة عن «بعض جوانب المالية الاسرائيلية» كتبته ايضا جاكلين هادامار .

أما جان لوي دوكلو ، وهو اختصاصي بقضايا الصراع العربي — الاسرائيلي واحد المشاركين في وضع هذا الكتاب فقد قدم وصفا مطولا ومثيرا للاحتلال العسكري الاسرائيلي .

القسم الاخير من هذا الكتاب يضم وثائق مترجمة عن العربية تهدف بالدرجة الاولى الى تعريف القارىء الفرنسي « بالاختيارات الفلسطينية » . وأهم الوثائق المترجمة :

— مقتطفات من الميثاق الوطني الفلسطيني .

— اعلان اللجنة المركزية في فتح (أول ك ٢ ١٩٦٩) .

— الوثيقة الصادرة عن المجلس الوطني الفلسطيني السابع (اب ١٩٧٠) .

— مقتطفات من الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (١٩٦٩) .

— مقتطفات من « حركة المقاومة الفلسطينية في الوضع الراهن » نايف حواتمه (ايلول ١٩٦٩) .

— موقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي من فكرة الدولة الفلسطينية ، بقلم اميل توما .

— « فلسطين المستقبل » لنبيل شعث .

— واخيرا يجد القارىء بعض المقتطفات من مشروع اتحادي فلسطيني اوصت به لجنة خاصة تابعة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ .

وفي النهاية الحق بالقسم الوثائقي من الكتاب دراسة تاريخية شارك في اعدادها كل من موريس بوكان واوليفيه كاري ومكسيم رودنسون تستعرض، حسب التسلسل الزمني ، تاريخ فلسطين من بداية التاريخ وحتى حرب اوكتوبر مع التوقف طويلا امام احداث الفترة المعاصرة من ١٩٤٧ وحتى الان .

وينتهي الكتاب بلائحة بيليوغرافية عن اهم المراجع في القضية الفلسطينية .

ان هذا الكتاب ، بالرغم من ان معظم ما اشتمل عليه من دراسات وابحاث ووثائق قيمة قد سبق ونشر في فترات زمنية مختلفة وفي مجلات عديدة ، وبالرغم من المآخذ الكثيرة التي يمكن ان توجه الى بعض مضامينه والتي اشرنا الى

بعض منها ، يعتبر بحق مساهمة مخلصة وأمينة في نقل صورة الوضع العربي ما بين الخامس من حزيران ١٩٦٧ والسادس من تشرين ١٩٧٣ الى القارىء الغربي التقدمي وفي تسليط الاضواء على جذور القضية الفلسطينية وكشف الممارسات القمعية والاستغلالية التي تقوم بها سلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين . ثم ان هذا الكتاب يشتمل على فضيلة اخرى وهي انه جاء في فترة تصاعد موجات العداء العنصرية ضد العرب في معظم انحاء فرنسا ، خاصة بعد حرب تشرين وازمة الطاقة العالمية . ومن هذه الزاوية فانه يمثل محاولة شجاعة للوقوف ضد التيار العنصري الجارف واعادة بعض الاعتبار الى العقل والحس السليم .

وهو في النهاية يعطي القارىء العربي فكرة واضحة عن آراء بعض التقدميين الفرنسيين الذين يعتبرون انفسهم — وعن حق — اصدقاء للعرب وخاصة فيما يتعلق بقضيتهم الاولى وعلى هذا الاساس فهو جدير بالقراءة والدراسة والتحليل .

ماجد نعمه

Pamela Ferguson, **The Palestine Problem** (Martin Brian and O'Keefe, London, 1973).

كنا ندرك منذ عهد بعيد ان دور النشر الغربية ، الصهيونية والمراعية لمشاعر الصهيونية خوفا من انتقامها ، تتجنب قدر الامكان قبول الكتب التي تدور حول موضوع القضية الفلسطينية الا اذا كانت مؤيدة بوضوح لاسرائيل ولوجودها . صحيح ان البعض القليل من دور النشر هذه ، ولا سيما الكبيرة والمعتبرة منها ، تعمدت ان تضم قوائمها عينة صغيرة رمزية من الكتب التي تحمل وجهة النظر العربية والفلسطينية لتكسب مظهر الدار الحيادية حسنة النية . الا ان معظم الكتب المؤيدة ، بدرجات متفاوتة ، للقضية الفلسطينية في هذه العينات الصغيرة الرمزية كانت لمؤلفين فلسطينيين وعرب او من النوع العلمي ، التاريخي المحدود الانتشار ، الذي تقبل تلك الدور بنشره لاسباب يشتبه المرء بانها تتعلق بالاعتبار ليس الا.

والكتب التي تجد صعوبة فائقة ، في العثور على دار نشر غربية كبيرة تقبل بها تكون عادة لمؤلفين يهود او غربيين مناهضين للصهيونية ، او حتى غير متحمسين لها فحسب ، وتنطوي على انتقادات واضحة او عنيفة للدولة الصهيونية . والامثلة هنا كثيرة ومعروفة ، ولعل ابرزها هي كتب الفرد ليلينتال وموشيه مينوحين ، وكان الغاية الكامنة وراء هذه السياسة هي نشر الانطباع بان القضية الفلسطينية العربية لا تتمتع باي تأييد يذكر في الغرب نفسه . وكانت باميلا فيرغوسون احدى ضحايا هذه السياسة التمييزية المفضوحة والمشينة . فبعد ان تعاقدت مع احدى دور النشر المعروفة في لندن على تأليف كتاب يصدر عن الدار ، عادت هذه الاخيرة فرفضت اصداره [راجع خلفية هذا الموضوع وتفاصيله في باب « تقارير » في عدد ٣٦ من شؤون فلسطينية ، ص ١٧٠ — ١٧٨] . ويبدو واضحا بعد قراءة الكتاب ان الدار اللندنية رفضته في النهاية لا لانه معاد للصهيونية واسرائيل او لليهود ، ولا لانه متحيز للعرب بل ، ببساطة ، لان مؤلفته تعمدت ان تشرح « المشكلة الفلسطينية » بصورة موضوعية تدر المستطاع ، وتورد وجهات النظر المتقابلة والمختلفة حول وجوهها العدة .

فالكتاب يعرض وجهة نظر تبدو بوجه عام حيادية تماما بالنسبة للفلسطينيين والعرب . بل ان آراء المؤلفة تتعارض بشكل واضح مع آرائنا حول الكثير من القضايا الاساسية والجوهرية . فهي ، بادىء ذي بدء ، تنطلق في بحثها كله من التسليم ببقاء اسرائيل وبضرورة بقائها . تقول ، على سبيل المثال : « مما لا ريب فيه انه لا يوجد ثمة حل الى ان يحل اولا مأزق الفلسطينيين بطريقة لا يعتبرها اليهود خطرا يهدد بتفكيك اسرائيل » (ص ١٥ — ١٦) . ومن البديهي القول ان هذا الموقف يتعارض تماما مع موقف الفلسطينيين العرب ، وبالتالي فان كل رأي او تحليل يرتكز عليه هو خاطىء ومرفوض بالنسبة لنا . فليس مستغربا ، والحال هذه ، ان فيرغوسون لا تتبنى وجهة النظر الفلسطينية قط ، ايضا ، حول تصور المقاومة للحل المتمثل في اقامة دولة ديموقراطية علمانية في فلسطين ، وحول اعتبار الصهيونية شرا بحد ذاتها ، نظرا لما تنطوي عليه من عنصرية وغطرسة وفاشية واغتصاب . وهي ، بالفعل ، تبدي اسفها (ص ٩٩) لكون المدارس التي تديرها فصائل المقاومة « تشرب » اولادها « الى حد كبير الافكار المناهضة بعنف للصهيونية » . وكان بود الفلسطيني ان يسأل المؤلفة لماذا تعتبر انه امر يؤسف له ان يشرح لاولاده حقيقة الحركة التي شردته واضطهدته وارادت وتريد ابادته كشعب . لكن فيرغوسون توجه كتابها لابناء الغرب بالدرجة الاولى ، وما يزال الموقف المعادي للصهيونية ولاسرائيل موازيا للاسامية في نظر الكثيرين من ابناء الغرب . لذلك فانها ، كالكثير غيرها من الكتاب الغربيين الذين لم يعودوا مستعدين للقبول بالاراء والاساطير والاكاذيب التي تبثها الدعاوة الصهيونية دون استقصاء وتمحيص وتحليل ، تجتهد اكثر من اللازم لكي لا يبدو انتقادها لبعض اوجه السياسة الاسرائيلية والصهيونية موقفا لاساميا عنصريا .

وهكذا فانها ، اذ تنتقد اسرائيل والصهيونية ، ترى لزاما عليها ان تنتقد ايضا الفلسطينيين والعرب . ولا شك في ان بعض انتقاداتها الموجهة للعرب محقة ولا مجال لنكرانها . فهي تروي بعض الحقائق القاسية والمريرة المتصلة باساءة معاملة النازحين الفلسطينيين في بعض الاقطار العربية والمتعلقة بالاتصالات التجارية والسياسية السرية — التي جرت بين بعض العرب واسرائيل — وبعض هذه الحقائق لم يجرؤ العرب انفسهم على فضحها او اعلانها . الا انها توجه انتقادات اخرى لا يمكن فهمها البتة لعدم استنادها الى اية ادلة او شرح . فهي تقول (ص ٩٢) ان الشقاء البشري الذي قاساه النازحون الفلسطينيون « قد استغل لاغراض سياسية ، احيانا من قبل الفلسطينيين انفسهم ، رغم صعوبة تصديق هذا الامر » . ولكنها لا تقول لنا ماذا تقصد بالضبط ، ولا كيف استغل الفلسطينيون شقاء الفلسطينيين ، كما انها لا تسمي هؤلاء الفلسطينيين ولا تشير اليهم حتى من طرف بعيد . وعلى هذا يبقى الانتقاد مرفوضا ، وغير مفهوم .

كما انها تردد بعض الافكار التقليدية المحببة للغربيين بنوع خاص ، كقولها (ص ٥٥) ان الملك الاردني الراحل عبد الله « برز بوصفه اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة ، وهما صفتان مميزتان كانت عائلته دائما تكره على تحمل الالام بسببهما » . ولماذا تعتبره « اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة » ؟ لانه اجتمع فعلا بغولدا مئير عام ١٩٤٧ ، يوم تسللت عبر نهر الاردن متخفية في زي امرأة عربية ، ثم عام ١٩٤٨ ، حيث اتفق والزعيمة الصهيونية على ان عدوهما المشترك هو المفتي الحاج امين الحسيني. واذا كان الملك عبد الله هو عنوان الاعتدال والمخيلة الواسعة ، في نظر الكاتبة الغربية ، فمن الطبيعي ان يكون الحاج امين والحسينيون رمزا للتطرف في نظرها ايضا . وواضح انها تعتبره متطرفا لوقوفه موقفا برفض المساومة والتسوية مع العدو الصهيوني . والحقيقة هي ان الكاتبة لا تفهم ، ولا توضح كفاية ، ان الفلسطينيين والعرب ما كان باستطاعتهم ، ولا من مصلحتهم ، التصرف « كمعتدلين » بمعنى القبول بحل وسط او بالتقسيم ، لا عام ١٩٤٨ ولا اليوم . ويبقى صحيحا القول ان ما تعتبره الكاتبة ، ومن تمثلهم من الغربيين الداعين الى حل وسط ، « اعتدالا » هو في نظر الفلسطينيين خيانة واضحة . وفي الواقع ، تعرب الكاتبة (ص ١٣٣) عن حزنها لكون « الفلسطينيين الاكثر تطرفا سيقفون دوما على الارجح ، في المستقبل المنظور ، في طريق

حل وسط معتدل وتقدمي — على الرغم من حقيقة ان عدة فلسطينيين اثرياء سيكونون مستعدين للقبول بأي حل لاعتبارات انسانية ليس الا » . والغريب انها تقول ذلك رغم اعترافها في الفقرة التالية مباشرة (مع تكرار الشعور بالاسف) بان « جميع الحلول الممكنة الاخرى تصل الى مأزق : فهي جميعها تبدو غير عملية لدى دراستها على خلفية الاوضاع السياسية في الاردن واسرائيل، وكلاهما غير مقبول من الفلسطينيين » .

ومع هذا ، فان مما لا ريب فيه ان الكاتبة تكن عطفا ومحبة واضحين للفلسطينيين ، مع التشديد على الناحية الانسانية في القضية بالدرجة الاولى . وفي وصفها لمحنة الفلسطينيين وصمودهم تبلغ احيانا مستوى رفيعا من البلاغة والصدق . فهي تقول في الصفحة ٨٤ : « الفلسطيني فلسطيني ويبقى فلسطينيا — ولا يمكن لاي امتداد من التاريخ او الاستيعاب او الضغط السياسي ابدا ان يجعله اي شيء اخر ، سواء اعيدت فلسطين ام لم تعد. فان فلسطين تحيا بقوة في ذهنه بحيث اضحت هي الحقيقة : وصارت البلدان المضيفة عوالم احلام . ويتذكر الفلسطينيون بيوتهم وممتلكاتهم ومقاعدهم المفضلة وحقولهم وبيارات برتقالهم جميعها بوضوح وكأنهم تركوها امس فقط . ويتكلم الفلسطينيون عن الامس والغد وكأنهما الواقع : واليوم هو الوهم العابر . وهكذا تحافظ العائلات التي تقيم في المنفى على الذكرى والامل — سواء كانت اقامتها في البيئات الوردية الزاهية في عمان او بيروت ، او في اكواخ النازحين الكئيبة ... » .

وفي الواقع ، يبدو الكتاب بوجه الاجمال اكثر موضوعية مما اعتدنا توقعه من الكتب الغربية التي تتناول الموضوع نفسه. ولا شك في ان المؤلفة تجرأت ان تقول امورا لا يرضى عنها الصهاينة ويتطلب قولها شجاعة — ولكن دائما في نطاق الموضوعية . بل ان « موضوعيتها » تبدو احيانا غير مسوغة ، كما يحصل عندما تتكلم في الصفحة ١٤٧ ، وهي التي واجهت متاعب جمة في نشر كتابها هذا ، عن تبادل الاتهامات في انكلترا بين العرب والاسرائيليين حول تحيز الصحافة ودور النشر البريطانية ! فالكاتبة تكتفي بعرض هذه الاتهامات المتبادلة ، دون ان تعترف بتحيز الصحافة ودور النشر البريطانية السافر مع اسرائيل وضد العرب .

ويبقى ان نقول ان الكتاب يقع في ١٥٨ صفحة ، وينقسم الى ١٩ فصلا ، مع مقدمة وفهرست وثبت مراجع . ولا يخلو الكتاب ، للاسف ، من عدة هفوات واخطاء بارزة ، منها : ان الكاتبة تنسب الى حزب حيروت الاسرائيلي (ص ١١٧) قوله ان اسرائيل تمتد « من دجلة الى الفرات » ، وقولها (ص ٩) ان طائرات « الميغ » والهانتر اللبنانية — قصفت مخيمات النازحين في ضواحي بيروت في « ايار الاسود » ، وترجمتها (ص ٩٦) لعبارة « انشاء الله » العربية على انها تعني « انها مشيئة الله » . غير ان هذه الهفوات تبقى غير مهمة بالمقارنة مع حسنات الكتاب . فهو موضوع في لغة بسيطة واضحة وسلسة . ويظهر صدق المؤلفة وايمانها بما تقوله في كل سطر من اسطر الكتاب .

رجا جورج

التوسع الاسرائيلي ــ عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلي [يونيو ١٩٦٧ ــ اكتوبر ١٩٧٣] .

اعداد محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان ــ تقديم د. علي الدين هلال (اصدار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام) .

تحدث الدكتور علي الدين هلال في مقدمة الكتاب عن المفهوم الاسرائيلي للسلام ، ولا يتعدى الكتاب ان يكون مجموعة من التصريحات الصادرة عن الجماعات السياسية في اسرائيل على اختلاف اوزانها ، وان كان الكتاب قد اعتبرها مشروعات سلام . ويقع الكتاب في ٦٠ صفحة بالاضافة الى ١٤ خريطة . وينقسم الكتاب الى اربعة اقسام الاول عن الائتلاف الحاكم والثاني عن جاحال والثالث عن قوى الرفض والرابع خاص بالخرائط.

وفيما يتعلق بالقسم الاول الخاص بالائتلاف الحاكم ، بدأ الكتاب بالحديث عن حزب العمل وفي هذا الصدد تعرض لجناح المباي ، وجناح رافي ، واحدوت هاعفودا ، ومشروع رعنان فايتس ، ووثيقة جاليلي ، ثم تحدث الكتاب عن مشروع السلام الخاص بالمبام وتصريحات مائير يعارى .

وفيما يتعلق بالقسم الثاني الخاص بجاحال ، اورد الكتاب بعض تصريحات مناحم بيجين وعزرا وايزمان ، وبيان حركة العمل من اجل اتمام ارض اسرائيل « في سبيل اسرائيل كاملة » ولم يذكر تاريخ البيان او مصدره ، ثم بيان صادر عن حركة ارض اسرائيل ١٩٦٨ .

وتعرض الكتاب في القسم الثالث الخاص لقوى الرفض لاوري افنيري وذلك بالحديث عن مشروع حركة هاعولام هازيه ، وموقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » ، وموقف « سياح » وهي احدى منظمات اليسار الاسرائيلي وموقف الماتسبن وهي المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية .

وفي القسم الرابع اورد الكتاب خرائط عن الاراضي الفلسطينية واللبنانية والسورية والاردنية التي طالبت بها الحركة الصهيونية ، والاراضي التي استولت عليها اسرائيل عقب حرب ١٩٤٨ ، ومشروع ايجال الون للحدود الامنة ومشروع موشيه ديان ، ووثيقة جاليلي ، ومشروع الحزب القومي الديني ، وخريطة جاحال ، والمستعمرات الاسرائيلية في قطاع غزة وشمال سيناء ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، والمستعمرات الاسرائيلية في جنوب سيناء ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، والمستعمرات الاسرائيلية في الضفة الغربية للاردن ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، والمسطح الهيكلي الاسرائيلي للواء القدس الكبرى ، ومدينة القدس الكبرى حسب المخطط الاسرائيلي والمستعمرات الاسرائيلية في المرتفعات السورية ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، وبيان بالمستعمرات الاسرائيلية المقامة في الاراضي العربية ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ .

ويمكن ابداء الملاحظات التالية :

١ ــ وصف هذا العمل في المقدمة بانه دراسة ولكن العرض السابق يبين انه ليس دراسة ولكنه تجميع لمجموعة من المعلومات معظمها تصريحات للمسئولين الاسرائيليين .

٢ ــ تتحدث المقدمة في ص ٧ عن الانطباعات والمفروض في الدراسة ان لا تكون انطباعية ، وتبتعد عن الانطباعات .

٣ ــ تتحدث المقدمة عن ارتباط السلام بالحرية والعدالة ، ومعروف ان هذه مفاهيم نسبية يختلف عليها وعلى سبيل المثال فان الحرية والعدالة بالنسبة للفلسطيني تختلف عن الحرية والعدالة بالنسبة للصهيوني وذلك فيما يتعلق بمفهوم الحرية والعدالة تجاه الوطن .

٤ ــ اعتمد هذا العمل في كثير من الاحيان على المصادر غير الاساسية وعلى سبيل المثال فانه لم ينقل عرض جولدا مائير الخاص بالسلام عن المصدر الاصلي ولكن نقله عن تقرير لليلى القاضي حول مشاريع التسوية السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي ، كما انه لم ينقل مشروع ديان عن المصدر الاصلي . اي ان الظاهرة السائدة هي النقل من المصادر غير الاصلية والاعتماد كثيرا على المصادر العربية كبعض المقالات في مجلة شؤون فلسطينية او نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية وبعض النشرات التي تصدرها مؤسسات عربية . وكان الاجدر اللجوء الى المصادر الاصلية .

٥ ــ كان من الافضل الاستعانة بخبراء في

التوثيق لان العمل ذو جوانب توثيقية في المقام الاول وهذا لم يتم .

٦ — يخلط هذا العمل بين مشروعات السلام والتصريحات ، فأحيانا يأتي بتصريحات على انها مشروعات للسلام مثل ما ورد عن مشروع السلام الخاص بجولدا مائير وبالرجوع اليه تبين انه مجموعة تصريحات منقولة عن مصادر غير اسلمية .

٧ — عنوان هذا العمل هو « التوسع الاسرائيلي — عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلي » [يونيه ١٩٦٧ — اكتوبر ١٩٧٣] وبالرجوع الى الكتاب يتبين ان هذا العمل لا يتمشى مع العنوان اذ انه لا يوجد تحليل على الاطلاق والموجود هو سرد وصفي ونادرا ما يوجد مشروع للسلام بمعنى هذا المفهوم الذي يقتضي وجود نص مشروع السلام ، ولكن الموجود هو اساسا مجموعة من التصريحات لذلك فان العنوان الملائم هو « بعض تصريحات المسئولين الاسرائيليين الخاصة بالتوسع » .

٨ — لا تعد هذه الدراسة تجميعا شبه كامل للتصريحات الاسرائيلية التي وصفت حيفا بانها « مشروعات سلام » ، وقد اعترف بذلك في المقدمة .

٩ — اورد الكتاب بيان ايبان في الامم المتحدة ضمن التصريحات الخاصة بجناح الماباي الداخل في حزب العمل ، وهذا غير صحيح ، لان هذا بيان سياسي يعبر عن سياسة اسرائيل كدولة عضو في الامم المتحدة ويلاحظ ان هذا البيان نقل عن ليلى القاضي — تقرير حول مشاريع التسوية السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي الذي نشر في مجلة شؤون فلسطينية ، وكان من الافضل الرجوع الى المصدر الاصلي كنص رسمي صادر عن مصدر اسرائيلي مسئول او من خلال سجلات الامم المتحدة .

١٠ — عندما اورد الكتاب وثيقة جاليلي نقلا عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص ص ٣٣ — ٣٤ ، لم يوضح لنا اسباب تسميتها بهذا الاسم ، وذلك تكملة للعمل الذي بذل في هذا الصدد .

١١ — الخرائط الواردة في نهاية الكتاب مفيدة ولكن لم يذكر المصدر ولو كان مصدرها ما يطلق عليه البعض « سري » ولم يتيسر الرجوع الى مصدر غير سري ، فهناك خرائط وردت في كثير من المصادر وكان من الاجدر ذكرها ، لا سيما اننا في عصر تغير فيه ما يسمى بالسرية ، واصبح من السهل معرفة كثير من الحقائق ونشرها .

ان الملاحظات السابق ذكرها تبين اننا نسعى للكمال ، وهذا لا يقلل من اهمية الكتاب باعتباره مصدرا مفيدا لصانع القرار السياسي يبين اهمية العمل العلمي في اتخاذ القرارات ، ويبدو ان الكتاب قد اعد في عجالة ليتيسر الاستفادة منه ، مما يبين ان الاعمال القادمة ستكون اكثر شمولا وفائدة .

وفي النهاية اننا نهنىء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام بهذا الكتاب ونأمل أن يكون بداية الابحاث ودراسات اخرى عن نفس الموضوع، كما نصدر الجهد الذي بذله السيدان محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان في اعداد هذا الكتاب الذي يعد عملا مفيدا من الدرجة الاولى في هذه المرحلة من مراحل تطور الصراع العربي الاسرائيلي ، كما نهنىء زميلنا الدكتور علي الدين هلال على هذه المقدمة القصيرة التي تحتوي على جوانب مفيدة ، لا سيما ان الذين اشتركوا في الاعداد والتقديم يعدون من الاعلام البارزة في مجال الدراسات السياسية والعسكرية التي تصدر عن مؤسسة الاهرام .

محمد علي العويني

اللواء حسن البدري ، واللواء طه المجذوب ، والعميد أ.ح. ضياء الدين زهدي ،
حرب رمضان : الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ، أكتوبر ١٩٧٣
(الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٤) .

كانت حرب ١٩٦٧ حربا اسرائيلية ، بقرارها ، وبدايتها ، وادارة عملياتها ، والنتائج المترتبة عليهـا . لذا كان من الطبيعي ان تكون الكتب التي صدرت حولها في اسرائيل كثيرة متعددة الاشكال (دراسات عسكرية ، دراسات سياسية ، البومات صور .. الخ) . ولقد ظهر في اسرائيل بعد الحرب مباشرة أعداد كبيرة من هـذه الكتب ، كما كتب الغربيون ، المبهورون بالانتصار الاسرائيلي ، العديد من الكتب التي استقوا معلوماتها مـن مصـادر اسرائيلية ، اذ كانت المصادر العربية صامتة . ولم ينته عام ١٩٦٧ حتى كانت المكتبات العالمية مليئة بعشرات الكتب الغربية والاسرائيلية التي تمجـد بطولة الجيش الاسرائيلي ، وتحلل الاسباب المعنوية والتنظيمية والتكنولوجية التي جعلته قادرا على تحقيق نصر مدهش وحاسم في فترة زمنية أذهلت العالم بقصرها .

وصمت العرب . ولم يصدر في سنوات ما بعد الحرب أي كتاب عسكري قيم يمكن للقارىء ان يفيد منه ، ولو لم تصدر المؤسسـة العربية للدراسات والنشر في بيروت كتاب العميد الركن حسن مصطفى « حرب حزيران ١٩٦٧ ، ج١ الجبهة المصرية ، ج٢ الجبهة الشرقية » بعد اكثر من خمس سنوات من اندلاع الحرب ، لما كان في المكتبة العربية اي مرجع رصين عن الحـرب الثالثة . ولكان على القارىء العربي أن يكتفي بالغث من الكتب ، أو أن يحاول اكتشاف الحقائق مـن بين آلاف الاكاذيب المسطرة في الكتب الاجنبية .

وكان الكثير من النقاد العسكريين يبرر هـذا الصمت . فالحرب اسرائيلية مائة في المائة ، وليس لدى العرب ما يقولونه عنها . ولكن هؤلاء النقاد أنفسهم عاجزون اليوم ، وبعد مرور عام على اندلاع حرب ١٩٧٣ ، عن تبرير عدم ظهور كتب عسكرية حولهـا ، مـع انها كانت حربـا عربيـة في قرارها وبدايتها ، وكانت عربية الى حد مـا في نتائجها ، وكانت بمجملها اول حرب عربية منذ اندلاع الصراع العربي — الاسرائيلي .

لقد أغرقت الاسواق العربية بعـد وقف القتال مباشرة عشرات الكتب . ولكن نظرة علمية جادة اليها تدلنا على ان بوسعنا تقسيمها الى فئتين : فئة تمثل محاولة اوليـة وسريعة لتلمس بعض حقائق الحرب وتقديمها الى القارىء بشكل مبسط وغير تكاملي (مثل كتاب النهار ، وكتاب الشرارة الصادر عن دار الصياد وكتاب عن قصص المعارك في حرب تشرين التحريرية الصادر عن قيادة الجيش السوري ، ١٩٧٤) ، وفئـة تمثل محـاولة تجارية بحتة ، تستهدف تحقيق الربح السريع ، عن طريق تقديم « أي شيء » مهما كانت قيمته ، للقارىء العربي المتعطش للمعرفة . واذا كانت الفئة الاولى تقدم جزءا من الحقيقة فقط ، فان الفئة الثانية تسيء الى الحقيقة ، ولا تخدم سوى ناشرها ، ولا ترتفع الى مستوى الحدث الكبير الذي يمثل صفحة من أروع صفحات التاريخ العربي الحديث ، ان لم تكن أروعها على الاطلاق .

ولولا ظهور كتب عربية رصينة عن الحـرب مثل : « حرب رمضان » الذي صدر عن الشركة المتحدة للنشر والتوزيع في القاهرة مع مطلع عام ١٩٧٤ ، و« العرب في الحاضر » الذي كتبه الكاتب المصري محمود حسين بالفرنسية ، وأصدره فـي باريس في أيـار ١٩٧٤ ، ثم قامت دار الطليعة البيروتيـة بترجمته ونشـره في حزيران ١٩٧٤ ، و « عادت القنيطرة » الذي كتبه عدنان ملوحي ونشرته دار احياء العلوم ، بيروت ، ١٩٧٤ ، و « حرب اكتوبر » الصادر عن المركز القـومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، و « أبطال الطيران » بقلم العقيد الطيار علي زيكوه والصادر عن الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، القاهرة ، لبقي القراء العرب ضائعين بين محاولات التلمس ، وصفقات التجار .

ويتسم كتاب « حـرب رمضان » بأنه صورة مأخوذة عن الواقع . فلقد كتبه ثلاثة ضباط كبار شاركوا في الحرب الرابعة وعاشوا أحداثها ، ثم قابلوا عددا من الضباط والجنود ليأخذوا منهـم التفاصيل الدقيقة والشهادات الحية ، وأفادوا من

المعلومات المتوفرة في بعض المؤسسات والهيئات العلمية المصرية ، مثل : ادارة البحوث الفنية برئاسة الجمهورية ، وأكاديمية ناصر العسكرية العليا ، ومكتب عمليات القيادة العامة الاتحادية ، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، والمركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية فخرج كتابهم جامعا للمعلومات النظرية والحقائق العملية. ولقد قدم للكتاب الرئيس محمد انور السادات ، ووزير الحربية المصري المشير احمد اسماعيل علي، فأضفيا عليه بذلك طابعا شبه رسمي .

« السلام بالحرب » هكذا يبدأ الفصل الاول من الكتاب ، ملخصا بكلمتين الهدف العربي الاساسي لهذه الحرب ، انه **السعي لتحقيق السلام العادل بقوة السلاح بعد ان فشلت كافة السبل السياسية والدبلوماسية في ذلك**، واصطدمت بتعنت اسرائيل، ورفضها لكل الحلول والمبادرات ، واصرارها على حل وحيد هو **السلام الاسرائيلي** . والحقيقة ان المناورة السياسية الخارجية العربية بعد الحرب الثالثة كانت انجح بكثير من المناورة السياسية الخارجية الاسرائيلية . فلقد استطاع العرب بفضل مواقفهم السياسية المنطقية ، واعتمادهم على فكرة سياسية مقبولة، اكتساب تأييد العالم وعزل اسرائيل عن حلفائها السابقين ، على حين حجب الانتصار الحقائق عن الاسرائيليين ، وحرمهم من وضوح الرؤية ، ودفعهم الى السير على سبيل سياسي مسدود ، انتهى بهم الى العزلة الدولية التامة ، وحرمهم من امكانية شن هجوم اجهاضي مسبق ، ولم يترك لهم عند اندلاع القتال سوى حليف واحد هو الولايات المتحدة .

ولقد بنى القادة الاسرائيليون موقفهم السياسي على منطلقات خاطئة : ١) عجز العرب عن شن الحرب واصابتهم بالردع والتفكك ، ٢) التفوق التكنولوجي الاسرائيلي ، ٣) عدم رغبة الاتحاد السوفياتي في مساعدة مصر بعد خروج الخبراء في تموز ١٩٧٢ ، ٤) عدم رغبة السوفيات في دعم العرب بشكل يضايق الولايات المتحدة ويدفع الكونغرس الاميركي الى عدم الموافقة على بيع المواد الغذائية او تقديم المساعدة التكنولوجية والمالية اللازمة لتطوير الاقتصاد السوفياتي ، ٥) عدم فاعلية سلاح النفط ، وعجز العرب عن استخدامه .

وكان الموقف الاسرائيلي يتمثل في المماطلة والرفض ، والابقاء على حالة «اللاحرب واللاسلم»، وخلق قوة مسلحة رادعة تتم تحت مظلتها عملية الضم الزاحف وفرض الامر الواقع في المناطق المحتلة ، وطرح حلول سلمية بشروط تعجيزية يرفضها العرب ، واعتبار الوضع الراهن المستند الى حدود آمنة بديلا لاي سلام .

ويمكن القول ، ان المواقف السياسية التي وقفتها الدول العربية منذ حرب ١٩٦٧ كانت رغم طابعها السلمي جزءا من الاعداد للحرب . فلقد أقنعت العالم كله بعدالة المقولة السياسية العربية « ازالة آثار العدوان » ، وبرهنت على ان العسكرية الاسرائيلية الثملة بنشوة الانتصار هي حجر العثرة الوحيد أمام السلام العادل في هذه المنطقة الحساسة من العالم . ويذكر الكتاب « ان حرب رمضان وان نشبت في اكتوبر ١٩٧٣ ، الا ان بدايتها لم تقع في السادس من ذلك الشهر ، بل سبقته بأكثر من ست سنوات » (ص ١٧) .

والى جانب هذا الاعداد السياسي فقد قامت مصر وسورية باعداد عسكري دؤوب ، لاعادة بناء قواتهما المسلحة ، وشارك السوفيات في هذه العملية مشاركة جدية ، وكانت المساعدات الاقتصادية العربية عاملا مساعدا وضروريا — وان يكن غير كاف — لبناء القوات المسلحة العصرية ، واعادة تدريبها وتزويدها بأحدث الاسلحة ، خاصة وان الجهد الذي بذلته مصر وسورية في هذه العملية كان يتجاوز امكاناتهما الاقتصادية، ويحد من قدرتهما على التنمية ، ويفرض على شعبيهما ظروفا حياتية وانمائية قاسية .

ولم يكن بوسع القادة المصريين والسوريين القبول ببقاء حالة « اللاحرب واللاسلم » التي تستغلها اسرائيل ، وكان لا بد من تحطيم هذه الحالة ، ولقد قام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بتقديم المثل خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) . وكان امام القيادتين المصرية والسورية احتمالان : الاعداد لحرب استنزاف مماثلة لحرب الاستنزاف السابقة ، او تحطيم الجمود العام بخرق « الحدود الآمنة » الاسرائيلية والتقدم مسافة محددة داخل الارض المحتلة ، وتدمير القوات الاسرائيلية المتمركزة فيها ، وفرض حقائق جديدة تجبر العالم على التدخل . وكان القرار المتخذ هو

تطبيق الحل الثاني . ويمكن اعتبار القرار بحد ذاته نقطة تحول في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، فهو أول قرار هجومي تتخذه القيادة العربية منذ حرب ١٩٤٨ . ولم يكن بوسع هذه القيادة اتخاذه لو لم تكن قد امنت ربح المناورة السياسية الخارجية .

ويذكر الكتاب التدابير المتعددة التي اتخذتها القيادة العربية لخلق الظروف اللازمة للنجاح (الاعداد المادي والمعنوي للقوات ، التدريب على العبور مع خرق التحصينات ، التدريب على صد الهجمات المعاكسة المدرعة بوحدات المشاة المجهزة بأسلحة مضادة ، الاستعداد لاحباط هجمات الطيران المعادي بشبكة صواريخ ارض ــ جو ، الاعداد الهندسي لمسرح العمليات ، خداع العدو ، التنسيق بين الجبهتين) ثم يذكر التدابير التي استخدمت لتحقيق المفاجأة ، والتي ساعدت على نجاحها أوهام الاسرائيليين وقناعاتهم بعدم قدرة العرب على اتخاذ قرار القتال ، وعجزهم عن خوض المعركة الحديثة في حالة اتخاذ مثل هذا القرار . كما يذكر الكتاب التدابير التي طبقت لاختيار يوم وساعة العبور بشكل علمي وفق انسب ظروف الارصاد الجوية والاحوال الجومائية والهيدروغرافية .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك الى معركة العبور ، فيسهبون في وصف اقتحام قناة السويس والاستيلاء على رؤوس الجسور وتعزيزها وصد الهجمات المعاكسة التكتيكية المعادية . ويذكرون خلال الوصف مهمات الطيران ، والمدفعية ، والمشاة ، والمهندسين ، ووحدات الصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للدبابات ، وقوات الصاعقة . ثم يتحدثون عن المرحلة الثانية « تطوير الهجوم شرقا وتوقفه ». ويذكرون ان هذا التطوير تم « لتخفيف الضغط على القوات السورية » (ص ١٤٦) وانه جرى في وقت سابق للوقت المخطط له بغية اجبار العدو على سحب قواته من الجبهة السورية ، ونقل جزء من جهده الى الجبهة الجنوبية .

والحقيقة ان العدو الاسرائيلي الذي فشل في الايام الاولى في تطهير رؤوس الجسور المصرية ، ركز قواته الجوية على الجبهة السورية ، ودفع جزءا كبيرا من احتياطاته نحو هذه الجبهة نظرا لخطورتها ، واندفاع القوات السورية فيها بشكل يهدد المناطق الحيوية والاهلة بالسكان في سهلي الحولة وطبرية ، ولقد استطاع الاسرائيليون تحقيق بعض النجاح على هذه الجبهة ، ولكنهم فشلوا في حسم المعركة . وعندما طور المصريون هجومهم نحو الشرق اضطرت القيادة المعادية الى سحب جزء من قواتها البرية ودفعها نحو الجنوب ، وتركيز جهد القوات الجوية على الجبهة المصرية ، ولكن قيامها بهذا العمل قبل حسم الموقف على الجبهة السورية، ووصول الوحدات العراقية الى سورية، واعادة تسليح الجيش السوري بواسطة الجسر الجوي السوفياتي ، جعلها عاجزة عن اجراء الحشد الكامل ضد المصريين ، واجبرها على الاحتفاظ بقسم كبير من قواتها في الشمال لتأمين توازن الجبهة ، والوقوف في وجه اي هجوم عربي تشنه القوات السورية ــ العراقية . واخيرا ينتقل المؤلفون الى معارك الدبابات على الضفة الشرقية للقناة (١٥ ــ ١٧ تشرين الاول) وثغرة الدفرسوار (١٦ ــ ٢٢ تشرين الاول) وتوسيع الثغرة من قبل الاسرائيليين بعد قرار وقف القتال (٢٣ ــ ٢٨ تشرين الاول) وبطولة القوات المصرية ــ المغربية المدافعة عن مدينتي السويس والادبية ودورها في منع العدو من توسيع نطاق الجيب او احتلال مدينة السويس .

ويخصص الكتاب فصولا خاصة لقوات الدفاع الجوي وغابة الصواريخ التي اكتسبت شهرة كبيرة في هذه الحرب ، وجردت الطيران الاسرائيلي من حرية العمل ، وللقوات الجوية التي قامت بعمليات هجومية ــ دفاعية وغطت القوات المقاتلة على مسارح العمليات ، والقوات البحرية التي قامت بواجبها رغم سيطرة العدو الجوية ، ونفذت مهمة الخنق الاستراتيجي عند مضيق باب المندب ، واثبتت « ان مبررات اسرائيل في التمسك بمنطقة شرم الشيخ واهية مثل خيط العنكبوت » (ص ٢٣٨).

وفي نهاية الكتاب فصل خاص عن الصراع السياسي (من ١٧ تشرين الاول ١٩٧٣ الى ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٤) وهي الفترة التي قامت بها الحكومة المصرية بجهود سياسية بدأت عندما القى الرئيس انور السادات خطابه خلال القتال، وانتهت مع توقيع اتفاق فصل القوات . وتقول مقدمة هذا الفصل « ان الجهود السياسية التي بدأت اثناء القتال ، وفي اعقاب توقفه ، في محاولات متعاقبة ومكثفة لتهدئة الموقف وتهيئة المناخ المناسب لحل

الازمة سياسيا ، هذه الجهود لم تبدأ من فراغ . ولكنها كانت انعكاسا طبيعيا وضروريا لحقائق الموقف العسكري في جبهتي القناة والجولان ، والموقف السياسي العام » (ص ٢٤٣) .

وبالرغم من غزارة المعلومات والدروس التي يقدمها الكتاب ، وبالرغم من شرحه المسهب لسير المعارك الحربية ، وميكانيكية العلاقة الجدلية بين الحرب والسلام ، فان فيه اكثر من خلل يفقده بعض أهميته .

ويتمثل **الخلل الاول** في الاسلوب العاطفي الذي استخدمه المؤلفون عند الكتابة ، وضعف التحليل العسكري ، والاكتفاء بسرد الاحداث كما وقعت ، وعدم التوثيق حتى في حالة اقتباس جمل او استشهادات . ولا تشمل ملاحظة التوثيق الباب السابع « وتحطمت الاسطورة بعد الظهر » فهو موثق بشكل مخالف لكل أبواب الكتاب .

أما **الخلل الثاني** فهو عدم التطرق الى موازين القوى خلال كل مرحلة من مراحل القتال ، ومن المعروف عسكريا ان موازين القوى هي التي تحدد حجم النصر او الهزيمة ، وتفقد الانتصار في بعض الحالات كل اهميته (اذا كان تفوق المنتصر ساحقا) وتعطي الفشل بعض المبررات اذا كان ميزان القوى مختلا الى درجة لا تسمح بالصمود دفاعيا او تحقيق الخرق هجوميا ، او استثمار الفشل عند المطاردة.

ويأتي **الخلل الثالث** من عدم التوسع في توضيح الدور الفعلي الذي قامت به القوات العربية المشاركة في القتال ، وابراز اهمية حركتها الاستراتيجية من العمق الاستراتيجي البعيد الى مسارح العمليات .

والخلل الاخير ، والاكبر برأينا ، هو ان اسم الكتاب اكبر من مضمونه . ان عنوان « حرب رمضان ، الجولة العربية ــ الاسرائيلية الرابعة ، اكتوبر ١٩٧٣» يشمل منطقيا كل الجوانب العسكرية للحرب على الجبهات الشمالية والجنوبية والجبهة الثالثة التي فتحتها الثورة الفلسطينية وراء خطوط العدو . ولكن الكتاب الذي يتحدث باسهاب عن خط بارليف واقتحامه ، والحرب في سيناء، لا يتطرق الى الجبهتين الشمالية والثالثة الا عرضا ويجمل مسهبة خلال الحديث ، مع ان دور الجبهة الشمالية في الحرب لا يحتاج الى برهان، كما ان الاسرائيليين انفسهم اعترفوا ، على لسان معلقهم العسكري الجنرال الاحتياطي حاييم هرتسوغ ، بأهمية الجبهة الثالثة وقدرتها على تخريب مؤخرات العدو لو ان الحرب امتدت فترة اكبر من الزمن ، ولقد كان بوسع المؤلفين ان يتجاوزوا هذا الخلل لو انهم جعلوا عنوان الكتاب « حرب رمضان على الجبهة المصرية » لانه العنوان الوحيد الذي يؤمن تطابق الشكل مع المضمون .

هـ . أ .

تقريران

[١]

الغرب بعد حرب تشرين الاول

حرب السادس من تشرين خلفت بصمات منقوشة بعمق على خارطة مستقبل العالم الصناعي الغربي . هذا العالم المتمثل بحلف الاطلسي والمنظمة الاقتصادية الاوروبية كان الى ما قبل تشرين عالم التحكم بعملات العالم ، باسواقه ، بتجارته ، بأسعار البضائع الصادرة منه والواردة اليه . غير ذلك كان عالم العلاقات المتفوقة والتحكم بالاوضاع الاقتصادية في اجزاء كثيرة من افريقيا واميركا اللاتينية وغرب آسيا ، بفضل نفوذ شركاته الكبرى التي تستخرج وتستولي على نسب عالية من خامات الاقطار النامية وبفضل تقدم التكنولوجيا فيه مما جعله مصدر الانتاج الرئيسي لسلع استهلاكية كثيرة في العالم يقرر اسعارها على هواه وحسب مشيئته . وما كان هذا العالم حتى تشرين ليحجم عن اتباع اي اسلوب عمل يحفظ له تسلطه الاقتصادي على الشطر الاخر من العالم ، وما كان ليتردد في سبيل ذلك عن الاخذ بكل اساليب الضغط بما فيها « الابتزاز » . فلكم حرم على تلك الدول ناتجاته من الالات والاسلحة والحبوب الا بشروط . ولكم حرم عليها الخبرة العلمية الا بشروط . ولكم منع عنها المساعدات المالية والاقتصادية الا بشروط .

ولقد ساعد عالم الغرب على الوصول الى تفوقه العلمي والصناعي حصوله على ما يحتاج اليه من وقود ومواد خام من العالم النامي بأبخس الاسعار . ان وصوله الى مجتمعات الرفاه ، تحقق في المقام الاول بفضل حصوله على طاقة رخيصة .

الان وقد شحت الطاقة وارتفع سعر الوقود بارتفاع سعر البترول اولا وبنقص ما يصل للغرب منه ثانيا ، صار هذا العالم يواجه احرج ازماته منذ الثلاثينات من هذا القرن . ذلك ان امورا كثيرة وخطيرة اصبحت تترتب على هذا الواقع الجديد، واغلب الظن ان يتعرض هذا العالم لهزات اجتماعية عنيفة وربما لتغيرات اجتماعية جذرية . فاذا ما انخفض الانتاج الصناعي في اقطار العالم الصناعي نتيجة الانخفاض نسبة الطاقة المتوفرة لديه ، فان مسلسلا كاملا من الاحداث الاجتماعية والاقتصادية لا بد ان يعقب ذلك . البطالة في صفوف الطبقة العاملة لا بد ان يتسع مداها . القوة الشرائية ستضعف والدخل الحكومي من الضرائب التي تحصل عليها الحكومات من الشركات ومن المبيعات ومن اجور الناس سيقل ، فينبثق عن ذلك ركود اقتصادي ما يلبث ان يؤدي الى ارتجاج في البنيان الاقتصادي والاجتماعي في الاقطار الصناعية والرأسمالية .

وكان المسؤولون في اوروبا الغربية واليابان يدركون عند اتخاذ القرار العربي بتخفيض انتاج البترول ، والقرارات الاخرى التي اتخذتها معظم الدول المصدرة للبترول برفع اسعاره ، ان هذه القرارات آتية يوما ما ، وان ما فعلته حرب حزيران ليس سوى تقريب الموعد . ومن شدة وقع تلك القرارات على الدول الصناعية ، وفي مقدمتها فرنسا وانجلترا والنمسا وايطاليا وبلجيكا واليابان راحت تسعى وبكل سرعة الى ارضاء العرب . كذلك راحت بعض منها تسخر هذه التطورات للوصول الى اهداف استراتيجية اوروبية مهمة ، مثل ترسيخ جذور الانفصال عن الولايات المتحدة الامريكية ، في سبيل التخلص من تسلطها السياسي والاقتصادي على اوروبا الغربية ، ومثل توطيد اقدام الاقتصاد الاوروبي لكي لا يظل تابعا لاقتصاد الولايات المتحدة ، تقرر له اميركا

فترات ركوده وانتعاشه على هواها . ومنهـــا التحرر من « عبودية » حلـــف الاطلسي الـــذي اصبحت اميركا لوحدها فيه اقوى من كل حليفاتها معا . وكانت المناسبة الرائعة التي انتظرتها بعض دول العالم الصناعي لتحقيق هذه الاهداف ، حرب تشرين بالذات حينما قررت الحكومة الاميركية نيابة عن الحلف ودون الحصول على رأيه وموافقتـــه مساعدة اسرائيل بكل الوسائل بما في ذلك نقـل العتاد الحربي اليها من مستودعات اميركا الحربية في الاقطار الاوروبية ، واعلان حالة التأهب الذري ووضع العالم كله على حافة الدمار التام . يضاف الى ذلك ان دولا غربية كثيرة اصبحت عاجزة عن تنفيذ برامجها الاجتماعية والاقتصادية داخل اقطارها لان شركات الاحتكار الضخمة فيها التي اصبحـت اقوى من الحكومات نتيجـــة لسياسة الاندمـــاج الرأسمالي بين اميركا واوروبا وسياسة التداخل الاقتصادي الذي فرضته برامج المنظمة الاقتصادية الاوروبية ... هذه الشركات وعلى رأسها شركات البترول العملاقة تملك من النفوذ ما جعلها تفرض ارادتها على الحكومات سواء كـــانت اشتراكيـــة الميول او رأسمالية الاتجاه . الحكومات الغربيـــة التي كانت تنتظر مناسبة اقص اجنحة الشركـــات الاحتكارية ، وجدت ضالتها في حرب تشرين وراحت باسم الازمة الاقتصادية المرتقبة تطالب بصلاحيات اضافية وسلطات طوارىء . اكثـــر من ذلك ان الوضع السيء الذي قبض بيد حديدية على عنـــق الانظمة الديمقراطية البرجوازية ، اخذ ولاول مرة يقلب الموازين والاساليب التي تعود عليها الساسة « الديموقـــراطيون » . فاذا كانـــوا دائما يلعبون ورقة استغلال نقاط الضعف عند الانسان العـــادي فلا يقولون له سوى ما يحب سماعه ، اصبحـــوا الان يواجهونه بصراحة لم يكن يعهدها فيهم ، على اساس ان الوضع لا يحتمل المواربة او التمويه. وفي كل قطر اوروبي ، ظهر رئيس الوزراء في بضعة اشهر على التلفزيون اكثر مما ظهر في سنوات ، ليقول للناس بلهجة حزينة وصوت عميق وبخطـــوط الارهاق المحفورة على وجنتيه ، ان بلاده تنتظرها ايام عسيرة وان التقشف والبطالـــة يقفان لهـــا بالمرصاد وان على الشعب ان يصمد ويتعـــاون ويضحي في سبيل تفويت الفرصة على الهـــزات الاقتصادية المتوقعة .

في طبيعة الحال ، اشياء كثيرة اخرى كـــانت ضمن حلقات هذا المسلسل الخطير . منها ان دولا غربية كانت تعاني من بوادر الازمات الاقتصاديـــة قبل تشرين ولا تجد الشجاعة لاطلاع الناس علـــى الحقائق .. سارعت الى الاستفادة من حـــرب تشرين وقرارات الدول المنتجة للبترول بالحد مـــن انتاجه ورفع سعره ، لتحويـــل مسؤوليتها عـــن تدهور الاقتصاد في اقطارها الى تلك القرارات ومن اصدر تلك القرارات . منها ايضا قضية المساعدات للاقطار النامية . فالمساعـــدات كانت حتـــى الان وسيلة اخرى من وسائل الضغط على حكومـــات الاقطار النامية والاستغلال والاستثمار المالي فيها. وعندما استقر في وعي الحكومات الغربية ان الدول النامية نتيجة لحرب تشرين اصبحت تبحث عن طرق اخرى للحصول على المساعدات تعتمد على توثيق وتصعيد التعاون فيما بينها ، راحت تفكر في عمليات انقاذ سريعة لكي يكون لها فيما ستؤول اليه الامور نصيب . من تلك العمليات ، النظر في امكانيـــات فتح ابواب السوق الاوروبية المشتركة للـــدول الافريقية دون قيود كثيرة ، والموافقة على بيـــع الاسلحة ، والقبرع باستثمارات مالية جديدة مجردة من القيود تماما . واخيرا ، هناك مسألة مـــا يتوقعه نفر ليس بقليل من مفكري الغرب بصـــدد التغيرات التي ستطـــرأ علـــى الاساس الفكـــري والعقائدي لاقطار الديمقراطية الرأسمالية . ففي هذا المجال يرى هؤلاء المفكرون ان نقص الطاقـــة في عالم رأس المال معناه اهتزاز كل المبـــادىء والقيم التي تقوم عليها تلك المجتمعات .

اذن ، ليس بالامر البسيط ما احدثته حـــرب تشرين على المستوى الاوروبي والعالمي . وليس من الممكن وهذا هو الحال ، ان يقف اعداء العرب مكتوفي الايدي وهم يرون العرب يلوحون بايديهـــم في وجه العالم الصناعي الغربي ، بقوة وتصميم ، منذرينه بضرورة التعقل والكـــف عـــن مساعـــدة اسرائيل والبحث عن حلول عادلة منصفة لقضايا الشرق الاوسط . لقد جن جنون هؤلاء وحـــاولوا اول الامر وبكل وسائلهم الشيطانية ايهام العالـــم الغربي بان العرب لا يملكون اسلحة قوية ضده ولا ضد اسرائيل. فلما فشلوا في ذلك راحوا يستعملون كلمة « ابتزاز » بمناسبة وغير مناسبة . فلمـــا فشلوا في ذلك ايضا ، راحوا يهددون بالاحتـــلال

العسكري للاقطار العربية المنتجة للبترول . وفي هذا الشأن فشلوا ايضا فشلا ذريعا . .

قالت صحيفة الصنداي تايمز البريطانية يوم ٢٥ تشرين الثاني من العام الفائت ، ردا على صرخات الاستفزاز الصهيونية « ان استعمال كلمة ابتزاز في وصف القرارات العربية ، يتصاعد بدون سبب معقول . واذا قررنا اتهام العرب بالابتزاز يكون لزاما علينا اتهام كل دولة تلجأ الى الضغط لحماية مصالحها لدى دولة اخرى بالابتزاز . ولان هذا كان موقف الحكومات دائما وابدا على مدى التاريخ ، فمن العبث الان محاولة الصاق هذه التهمة بالعرب من دون شعوب الارض جميعا. وكل ما يميز الاجراءات العربية عن غيرها ، انها قادرة على اصابة الخصوم بالشلل الكلي » . والكاتبان الاميركيان ايفانز ونوفاك ، قالا في مقالة عنوانها « حقائق باردة وراء ضغط البترول » في عدد ٢٨ تشرين الثاني من صحيفة الهرالد تربيون الاميركية « من السخف اطلاق صرخة الابتزاز لان الدول العربية استعملت ، وبعد تردد طويل ، الاداة الوحيدة التي تحقق قوتها الوطنية . وكل دولة ، بما فيها نحن ، استعملنا ادوات قوتنا الوطنية للوصول الى اغراضنا . ولسنا نعتقد ان الاميركيين من الغباء بحيث يحرمون على العرب حق استعمال اداتهم الوحيدة التي تعبر عن قوتهم الوطنية بعد ان زودت اميركا اسرائيل بملايين الدولارات من الاسلحة لاحكام قبضتها على الاراضي العربية » .

اما بصدد الدعوة لاستعمال العنف المسلح ضد اقطار البترول العربية ، من اجل السيطرة على مناطق آبار البترول فيها ، فقد لقيت هذه الدعوة الحمقاء ادانة واسعة النطاق من الصحف ومن كبار رجال الرأي الغربيين ، بحيث تم وأدها ساعة ظهورها . قال هانس أدولف جاكوبسون رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة بون الالمانية « عدفنا الاساسي الان ، هو محاولة حل الازمة سياسيا ، بحيث تستبعد الحلول العسكرية بصورة تامة » . وقال اركول جرازيادي ، كاتب ورجل قضاء من سكان روما « الحرب ؟ بأسلحة من نشن الحرب وبأموال من ؟ معنى ذلك فيتنمة الوضع في الشرق الاوسط » . البروفسور الهولندي يان تنبرخن ، استاذ الاقتصاد في جامعة روتردام والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٩ ، قال « انا ضد التدخل العسكري في كل الحالات . انني اتفهم اسباب استعمال العرب للبترول كسلاح سياسي . فنحن كثيرا ما استعملنا اسلحتنا الاقتصادية لخدمة اغراضنا . ان ازمة الطاقة الحالية تجربة اولى في عملية كانت ستحدث قريبا وقبل مضي وقت طويل . وكلما برعنا في ادخال التوفير على استغلال كمية الطاقة التي نملكها ، كلما برعنا في تكييف اقتصادنا على الظروف الجديدة وفي العثور على مصادر طاقة جديدة . فالجواب ليس السلاح ، وانما التكيف الاقتصادي لحل مشكلة طويلة المدى». وقال البروفسور ساموليسون الاميركي ، والحائز ايضا على جائزة نوبل ، قال في صحيفة النيويورك تايمز الامريكية يوم ٤ كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان دول الاوبك ستظل الدول الوحيدة التي تزود العالم بالبترول حتى بعد اقرار معاهدة سلام في الشرق الاوسط . واعتقد جازما ان النار لا تطفأ بالنار ».

وليس خافيا ما حدث بين الولايات المتحدة وحلفائها في حلف الاطلسي من خلافات عميقة بعد حرب اكتوبر . وان كان يبدو على السطح ان سبب الخلاف الرئيسي هو عدم استشارة اميركا لحلفائها عندما اعلنت حالة التأهب الذري ، فان السبب الحقيقي هو استهتار اميركا ، حتى بعد مضي شهر على بدء الحرب ، بالاوضاع الجديدة التي حلت بالعالم نتيجة للانتصار العربي في ميداني الحرب والسياسة بصورة لم يتوقعها احد ونتيجة لنجاح العرب في وضع سلاح النفط موضع التنفيذ . ذلك ان اوروبا الغربية وجدت نفسها في طرفة عين تواجه احتمالات صعبة للغاية ، فاقنعت نفسها موقتا على الاقل بان حل مشكلة الشرق الاوسط بعدل من شأنه خدمة مصالحها اكثر من التحالف العسكري مع اميركا التي تحتل فيه على اية حال مركز التفوق والتسلط . ثم ان العرب استنزفوا على ما يبدو معين صبرهم ، مما حدا باوروبا الغربية الى النظر بجد ورزانة في ما يريده العرب عموما والفلسطينيين بوجه خاص .

والحق ان ازمة الثقة الاميركية الاوروبية او ثورة الاحتجاج والرفض الاوروبية ، على اميركا ، وصلت ابعادا جديدة بعد تشرين . ان دولا اوروبية معينة اصبحت تدرك ان الوقت حان لايجاد نوع من التوازن داخل حلف الاطلسي ، بحيث تكون المجموعة الاوروبية فيه ندا للولايات المتحدة

الاميركية . هذه الدول تعتقد ان الدول المنتمية للمنظمة الاقتصادية الاوروبية صارت تتمتع بقدر من القوة والتضامن يؤهلها للتمتع بلقب اوروبا الحقيقية او اوروبا الواحدة . وبدافع من هذا الاحساس ، فانها ترفض الانجرار وراء الحروب الاميركية التي لا تعرض امنها القومي للخطر . في حين ان اميركا ترى العكس . فهي تعامل الطرف الشرقي لحلف الاطلسي كما لو كان طفلا رضيعا يحتاج لرعاية الام ووصايتها . يوم ٢٩ تشرين الاول من عام ١٩٧٣ قالت صحيفة الغارديان البريطانية « ان حلفاء اميركا الغربيين يحق لهم المشاركة في اتخاذ القرارات ، على الاقل في الحالات التي تعرض العالم للحروب الذرية . ان على الولايات المتحدة ان تدرك ان عمليات حافة الحرب سواء كان لها ما يبررها ام لا ، تهمنا جميعا . اننا نستحق ان ندلي برأينا » . وقال انطون سامسون ، وهو مؤلف انجليزي ، في الاوبزرفور الاميركية يوم السادس من كانون الاول « يكاد كل فرد في واشنطن ان يدرك ان حلف الاطلسي اصبح منذ شهر واحد فقط اضخم مما كان . السبب في ذلك ان ازمة الشرق الاوسط ثبتت وجود طرف الحلف الشرقي . لقد كان الشرق الاوسط منذ الخمسينات عاملا مؤثرا في السياسة الاوروبية الخارجية وحافزا فعالا في اتحاد الاوروبيين . والواقع ان حرب ٥٦ خلقت الوحدة الاوروبية وحرب ٧٣ دعمتها » . وقال ارنولد توينبي في الاهرام بتاريخ ٧ كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان ارتباط اوروبا بالسياسة الاميركية يشكل مخاطرة غير مقبولة . في الخامس والعشرين من تشرين الاول استخدمت الولايات المتحدة بعض قواعدها العسكرية في اوروبا في عملية لا صلة لها بالهدف الذي من اجله وضعت القواعد الاوروبية تحت تصرفها . ومع ذلك فان اوروبا ستعاني اكثر من الولايات المتحدة نتيجة لحظر البترول الذي كان الجواب العربي على مساندة اميركا لاسرائيل . واما ما لا يمكن السماح به ابدا بالنسبة لاوروبا الغربية فهو التورط في حرب سياسية اميركية في الشرق الاوسط ليست حربها » .

ان المراقب الصحفي في الغرب كثيرا ما يعثر على دلائل جديدة تثبت ان سلاح البترول سلاح ماض وبتار .. سلاح في غاية الخطورة . وكثيرا ما يعثر ايضا على ادلة تثبت ان العرب استعملوا هذا السلاح بذكاء وفطنة . فالدول التي وقفت من نزاع الشرق الاوسط على الحياد ولم ترجح كفة على كفة ، كان عليها ان تقاسي قليلا من انخفاض بسيط في كمية البترول العربي المباع لها ، لان الحياد في القضايا التي يقف العدل كالشعاع الساطع في جانب طرف من اطرافها ، هروب من مواجهة الحق لا مبرر له . واما الدول المنحازة لاسرائيل ، فقد انقطع البترول العربي عنها بعض الوقت . وكان هذا منطقا مقبولا . والدليل على ان سياسة محاسبة الدول التي اطلقت عليها صفة الحياد اعطت مردودا ، هو في هذه الاعلانات والبيانات التي صدرت عن مجموعة دول اوروبا الاقتصادية والتي لم يعد مجال لتفسيرها تفسيرات شتى . فهي من الوضوح بحيث لا تقبل تأويلا . منها بيان بروكسل في السادس من تشرين الثاني عام ١٩٧٣ بتوقيع تسعة وزراء خارجية ، ومنها بيان كوبنهاجن بتاريخ ١٦ كانون الاول بتوقيع تسعة رؤساء دول . الاول طالب اسرائيل بالانسحاب من جميع الاراضي العربية التي تحتلها منذ حزيران عام ١٩٦٧ واعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين كما ينص على ذلك قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، والثاني كرر نفس العبارة مع الذهاب خطوة ابعد من الخطوة السابقة ، وذلك بتعهد اوروبا الغربية بعمل كل ما تستطيعه لتنفيذ قرار مجلس الامن الدولي وانجاح مؤتمر جنيف والاعتراف بالامم المتحدة مشرفا على مؤتمر جنيف ، وليس الدولتين الكبريين اميركا والاتحاد السوفياتي ، نزولا عند ما يريده العرب بهذا الصدد . هذا الى ان عدة دول من الدول الموقعة على بيان كوبنهاغن هي من الدول التي تنطبق عليها صفة الحياد مثل ايطاليا والمانيا والدنمارك .

يوم ٣ كانون الاول من العام الماضي ، وفي مجلة نيوزويك الاميركية ، عمد فريق من المحررين الاقتصاديين في المجلة الى تبرير تخلي اوروبا الغربية واليابان عن اميركا نتيجة لسياستها في الشرق الاوسط بالقول « ان العرب لم يكونوا بحاجة الى اية اجراءات متطرفة في سبيل ايقاع الفرقة بين اوروبا واميركا . ولعل اعظم فرقة احدثوها هي التي وقعت بين الولايات المتحدة واليابان . وقد بلغ استسلام اليابان للمطالب العربية حد قول ناطق بلسان وزارة خارجية

اليابان ان بلاده لو تجاهلت التهديدات العربية لكان في ذلك نهاية المعجزة اليابانية » . وقالت الهرالد تريبون الاميركية بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني « ان البترول العربي كان الى الان انجح سلاح سياسي في التاريخ . فلم يحدث ابدا في السابق ان تمخضت نتائج مأساوية عن حجب سلعة تجارية » . وعندما اعلن شميت رئيس وزراء المانيا الغربية عن منح ايطاليا يوم اول سبتمبر عام ١٩٧٤ قرضا مقداره الفا مليون دولار لانقاذها من ورطتها الاقتصادية ، قالت الصحيفة الايطالية كوريير دلا سيرا « ان مباحثات شميت وكولمبو حققت نصرا اوروبيا ، لان من شأنها مساعدة اوروبا على الصمود في مجال المواجهة الاقتصادية مع اميركا ، وعلى الاخص بعد ان قرر فورد الرئيس الجديد للولايات المتحدة اتخاذ اجراءات مشددة جدا لمكافحة التضخم النقدي في اميركا ، الامر الذي سيؤدي الى تقليص مبيعات اوروبا في اسواق اميركا .

ولعل موقف انجلترا بالذات ، من هذا كله ، كان المفاجأة الكبرى لاميركا . انجلترا بعد تشرين قررت ربط مصيرها بمصير اوروبا ، بدل اميركا . قالت صحيفة الفاينانشال تايمز البريطانية في الثالث عشر من كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان غضب اميركا على حلفائها الغربيين ، نتيجة لرفض سياستها في الشرق الاوسط ، كان منصبا في المقام الاول على بريطانيا . فان اميركا تعودت ان ترى في بريطانيا الوسيط الذي يضمن عدم ابتعاد اوروبا عن اميركا . وينسى الاميركيون ان دخول انجلترا للسوق الاوروبية المشتركة ، كان يدافع عن مصالحها ولتوافق هذه المصالح مع المصالح الاوروبية ، وليس لتحويل اوروبا إلى حليف قوي لاميركا » .

وعندما اكتشفت اميركا الاتجاه البريطاني الجديد ، راحت تسعى الى ادخال اليابان في حلبة الصراع ، بمحاولة اشراكها في حلف صناعي قوى يقوم بدور حفظ التوازن بين اميركا وحلفائها الغربيين . لكن هيث وبومبيدو افسدا على كيسنجر مساعيه . ففي مؤتمر كوبنهاجن تقرر انشاء لجنة للطاقة ، وليس فريق عمل واسع الصلاحيات كما اقترحت اميركا . اميركا كانت تسعى الى مجابهة ازمة الطاقة بفريق عمل اميركي اوروبي ياباني يكون تحت امرتها ، لكن اوروبا التي تنبهت للحيلة الاميركية ، طالبت بتشكيل لجنة مشتركة للطاقة تكون اصوات كل الاطراف فيها متساوية .

هذا الى ان اوروبا الغربية ، وخاصة فرنسا ، تعتقد حاليا ان حلا ما يجب ان يفرض على اسرائيل . ويرئس هذا الاتجاه فرنسا وانجلترا ، بينما يرئس الاتجاه الاخر الذي يريد لاوروبا ان تقف في المؤخرة على مسرح الاحداث المقررةبالنسبة لصراع الشرق الاوسط ، كل من المانيا وهولندا . ويقال ان قضية الشرق الاوسط كادت تعصف بمؤتمر كوبنهاجن بين الرابع عشر وصباح السادس عشر من شهر كانون الاول من عام ١٩٧٣ لولا المساومات المنهكة التي نجحت اخر الامر في انقاذ المؤتمر . وبصدد الشرق الاوسط اتخذ هذا المؤتمر قرارا اقوى من قرار وزراء خارجية دول السوق الاوروبية في بروكسل قبل ذلك باربعين يوما ، كما اتخذ قرارا مهما اخر له علاقة بالشرق الاوسط ينص على انه يتعين على وزراء خارجية دول السوق التسع في حالات الازمات الدولية اللقاء بسرعة لتقرير موقف اوروبا الغربية من تلك الازمات . كذلك كادت احداث الشرق الاوسط ان تعصف بمؤتمر بروكسل . قال جون غشكو من وكالة الانباء البلجيكية بتاريخ ١٢ كانون الاول « ان مؤتمر وزراء خارجية حلف الناتو الذي انعقد في بروكسل بين ١٠ و ١٢ كانون الاول كان مؤتمرا فريدا في تاريخ الحلف . فلاول مرة ، بدل التحدث عن مشاكل الدفاع وتهديدات حلف وارسو صرف كل الوقت في معالجة الخلافات الداخلية » . وحقا كانت قضية الشرق الاوسط مركز الثقل في مباحثات بروكسل وكوبنهاجن . وليس في هذا غرابة . فاوروبا الغربية صارت لا ترى في اميركا الصخرة التي تستطيع الركون اليها . وبينما قال نكسون متباهيا يوم ٧ تشرين الثاني ان اميركا ستحل مشاكل الطاقة الخاصة بها بوسائلها الخاصة وبدون الاعتماد على احد ، قال كيسنجر في لندن وبروكسل يومي ١٠ و ٢٠ كانون الاول ان اميركا بحاجة الى عمل مشترك مع حلفائها لحل ازمة الطاقة التي تعصف بالغرب كله .

وان كانت اقطار كثيرة في اوروبا قد عانتالامرين في أواخر العام الماضي ومطلع هذا العام من القرارات العربية الخاصة بقطع البترول او رفع أسعاره او تخفيض انتاجه ، فان اميركا لم يكن

حظها بأحسن من ذلك . لقد حاولت حكومة نكسون بكل طاقتها وبكل ما في جعبتها من الاعيب ، مسنودة بذلك من الصحف الاميركية التي تمقت العرب ، التظاهر بأن أزمة البترول لا تعنيها ، لان نصيبها من البترول العربي قليل ولانها قادرة على استنباط مصادر جديدة للطاقة . لكن كل تلك المحاولات ذهبت سدى . ومنذ ذلك الوقت واميركا ترزح تحت شبح ثقيل جدا اسمه شبح الطاقة وأزمة الطاقة . وهي بالذات القطر الذي يعاني أكثر من غيره من أهوال البطالة والتضخم النقدي. قالت صحيفة الواشنطن بوست في افتتاحيتها بتاريخ ١٩ تشرين الثاني من عام ١٩٧٣ « العجز في الوقود في العام القادم سيؤدي الى بطالة عالية . والخطأ ليس خطأ شيوخ البترول ، بل خطأنا نحن لاننا لم نحزم أمرنا بعد . واميركا تمر الان بمرحلة احتياجات متصارعة، البترول ليس سوى حاجة واحدة منها » . كما نقلت الانباء يوم ٢٢ تشرين الثاني تصريحا للمستر روجرز مورتون وزير داخلية اميركا جاء فيه قوله « ان نقص الوقود في اميركا سيبلغ قبل مضي الربع الاول من العام القادم ٢٠ بالمئة وسيضطرنا ذلك الى تخفيض القوة الكهربائية في البلاد الامر الذي سيسبب للشعب صعوبات جمة » . وبعد ذلك بحوالي عشرة شهور قالت صحيفة التربيسون الاميركية على لسان ولتر لفي الخبير الدولي في شؤون البترول ، وبالضبط في عددها الصادر يوم ٢ أيلول ١٩٧٤ « ان محاولات مجموعة الدول المنتجة للبترول تخفيض انتاج البترول من جديد سيصيب بالضرر الفادح زاد العالم من البترول ونظامه المالي ، ومع وجود قوى تضخم لا يمكن التحكم بها ، من المحتمل ان يتعرض مستقبل العالم غير الشيوعي السياسي والاقتصادي لمخاطر جسيمة للغاية » .

وليست أزمة الطاقة وقفا على السيارات والمصانع كما يتبادر الى الذهن عند قراءة الانباء اليومية الصغيرة ، عن صدور قوانين لتخفيض سرعة السيارات والطيارات والحد من التدفئة في البيوت والمباني العامة ، والحد من استعمال الكهرباء او تحريم السواقة يوما او يومين في الاسبوع . ان قضية انخفاض الطاقة في العالم الصناعي اعمق من ذلك وأبعد . الحكومات الاشتراكية المتمسكة ببعض مبادىء الاشتراكية في العالم الديموقراطي البرجوازي التي تحاول على طريقتها تخفيف سطوة شركات البترول والاحتكار ، هذه الحكومات القليلة العدد اغتنمت الفرصة لتضعف نفوذ تلك الشركات على أدوات الحكم ورجال الاعمال الكبار منهم والصغار . وقد اعترف السيد ج. واجنر رئيس ادارة شركة شل الهولندية الملكية في مجلة تايم بتاريخ ١٠ كانون الاول بأن « الصدمة العربية لا بد أن تؤثر على شركات البترول العالمية ، لجعل حياتها أصعب . من ناحية ، اصبح نفوذ هذه الشركات اضعف في اقطار انتاج البترول التي صارت تعمد الى انشاء شركاتها الخاصة بها . ومن ناحية اخرى ، اصبح عملاء الشركات العالمية أصلب وأقسى . فرنسا مثلا هددت بأن تقدم للمحاكم شركات البترول التي تحاول عدم تنفيذ اتفاقياتها معها . وحكومة سويسرا قررت اجراء تحريات واسعة لتتأكد من ان شركات البترول لن تستغل الوضع الحالي لتحقيق مآربها » . ولقد وقعت شركات البترول منذ تشرين في اضطراب مخيف . كانت سفنها تتحرك من مكان الى آخر باسلوب المفاجأة . السفينة التي كانت ، على سبيل المثال ، تحمل بترولا من ايران الى اميركا ، كانت في منتصف الطريق تتسلم برقية تأمرها بالتوجه الى ايطاليا ، وقبل الوصول الى شواطىء ايطاليا كانت تتسلم برقية اخرى تأمرها بتغيير وجهتها نحو اليابان . مما يدل على ان الحكومات ، وربما لاول مرة في تاريخ علاقاتها مع شركات البترول ، كانت تتدخل لتفرض ارادتها على تلك الشركات . ولعل كثيرين منا يذكرون الخلافات العنيفة بين الحكومة البلجيكية وشركات البترول طيلة العام الحالي ، وكيف لجأت الحكومة الى القضاء أكثر من مرة .

ولعل أهم ما ستتمخض عنه حرب تشرين ، بالنسبة للعالم الصناعي الغربي ، هو انتهاء احتكاره لثروات العالم . قبل تشرين كاد اليأس يدب في أوصال مفكري العالم الشرفاء والمخلصين الذين كلما فتحوا بابا يتسرب منه للعالم شعاع من أمل بامكانية حل مشكلة سد الفجوة الاقتصادية والعلمية الفاصلة بين عالمي الثراء والفقر ، كلما أغلقت دول الانتاج والاستهلاك والاستعمار في وجوههم أبوابا . فجأة وبعد حرب تشرين ، أوجد العرب عن وعي او غير وعي واقعا دوليا جديدا يحمل في طياته معالم بارزة لطريق جديد قد يكون

الطريق الموصل الى توزيع ثروات العالم توزيعا عادلا بين جميع الشعوب. ان أزمة الطاقة ، سواء وجدت الحلول لها أو لم توجد ، بينت للعالم الصناعي ان الطاقة التي في حوزته في المستقبل ، ستقل عاما بعد عام . نتيجة لذلك فان العالم الامبريالي سيجد نفسه مضطرا للحد من اعمال ابتزازه واستغلاله لمواد الاقطار النامية الخام واحلام تعاليه على العالم التي اوحت اليه والى عملائه في العالم الثالث انه مانح النعم والبركات .

هذا الفرق الكبير بين طاقات العالمين المتطور والنامي ، وبين أهدافهما ومثلهما ، قد حكم عليه بالزوال . لقد تحقق هذا بضربة واحدة ، وليس في هذا القول مبالغة . الساسة العرب وهم يتخذون قراراتهم في اعقاب حرب تشرين لوضع العالم أمام حقائق كان يجهلها او يتجاهلها ، ما كانوا وهم يتخذون تلك القرارات يرون ابعادها على حقيقتها . وهذه الابعاد أخذت بعد السادس من تشرين تتضح شيئا فشيئا .

العالم الديموقراطي البرجوازي ، وهو عالم الرأسمالية والاحتكار والاستعمار القديم والحديث ، سعى دائما الى اجهاض الافكار الثورية الاجتماعية والسياسية بين جماهير شعوبه بمنحها بعض المكاسب المادية بين الحين والاخر من جهة ، وبمنحها حرية التعبير والرأي بشرط عدم السعي لاجراء تغييرات مجتمعية جذرية من جهة اخرى . وكلما ازداد ضغط الافكار الثورية الاجتماعية والسياسية التي تطالب باقامة مجتمعات العدل وتوزيع الثروات بين الناس بالقسطاس ومنح فرص العمل والتعلم للناس بالتساوي ، كلما تصاعدت عمليات اجهاض هذه الافكار بتوفير امكانيات مادية اوفر للناس . ولما أصبحت الافكار الاشتراكية في الاوطان الغربية والاوطان النامية قوة لا يستهان بها ولا يمكن صدها لا بالحديد ولا بالكلام المعسول ، راح العالم الديموقراطي البرجوازي يبحث عن أساليب اخرى يخدر بها شعوبه وشعوب العالم الثالث ، تعتمد على طوفان من بضائع الاستهلاك تغرق العالم في مباهجها وعلى رفع المرتبات والاجور حتى يتمكن الناس من اقتنائها وعلى تمنين العالم الثالث بالقروض والمساعدات . ونجح التخطيط ، واذا بالانسان الغربي يتحول الى اداة انتاج واستهلاك يعمل ويشتري ولا يجد متسعا من الوقت لاشياء أهم من الشراء واقتناء السيارات والركض وراء مشاغله الخاصة به والتي لا علاقة لها اطلاقا بحاجات مجتمعه وعالمه . نتيجة لذلك ، انغمست الشعوب الغربية في لجة من الشبع والرفاه المادي وهي لا تحسب حساب الثمن الذي دفعته والذي يصفه العارفون بأنه التخمة التي تمهد للموت .

في هذه الاثناء ، كان العالم النامي غارقا في مآسيه لا يدري كيف يخرج منها . فالاوضاع الاقتصادية فيه لا تتحسن لان ما يأخذه من الدول الصناعية بيده اليمنى يعيده لها اضعافا بيده اليسرى . وهكذا ظل الحديث عن تضييق الفجوة بين الطرفين حبرا على ورق رغم مئات الندوات الدولية التي عقدت من أجل ذلك على المستويات المحلية والاقليمية والعالمية وباشراف المنظمات الدولية ووكالاتها . ولكن في أيامنا هذه ، صار الناس يلمحون بوادر تغييرات مهمة في هذا المضمار . افريقيا مثلا اثبتت انها تفضل المساعدات العربية المالية على مساعدات الغرب . والدول المتطورة صارت لا تقاوم ما يجمع عليه ممثلو دول العالم الثالث في المؤتمرات الدولية التي تبحث قضايا تكاثر السكان وانتاج الغذاء وسد الفجوة الكبيرة الفاصلة بين عالمي الصناعة والنمو. آخرها ، على سبيل المثال ، مؤتمر بوخارست العاصمة الرومانية الذي عقد في النصف الثاني من شهر آب من عام ١٩٧٤ والذي شارك فيه ثلاثة آلاف مندوب عن مائة وخمسين قطرا على مستويات الحكومات ومنظمات الشباب ومنظمات النساء والمؤسسات الانسانية . فلأول مرة في تاريخ هذه المؤتمرات الدولية ، تتخذ قرارات قدمتها وأصرت عليها دول افريقية وآسيوية واميركية جنوبية ، ووقعت عليها دول الصناعة دون رفض او اعتراض او تهديد . وبينما كانت الدول الصناعية تحاول جعل قضية الحد من النسل حجر الزاوية في اية اجراءات يتفق عليها للتغلب على المشاكل الناجمة عن تكاثر السكان في العالم ، فان دول العالم النامي ناضلت في المؤتمر بقوة وايمان لجعل المؤتمر يتبنى شعارات وقرارات اجدى وافعل ، ومنها تغيير النظام الاقتصادي العالمي وتوزيع ثروات العالم بالعدل بين الشعوب .

القرار العربي بتخفيض انتاج البترول أرهب حكومات الغرب لانها تعلم ان وصول مجتمعات

الرخاء والاستهلاك الى الطريق المسدود معناه القضاء على مخططاتها واهدافها واطماعها . وحكومات البرجوازية لا تحرص على التمسك بالحكم الا للمحافظة على مصالح الطبقات التي تمثلها . وسلاحها دائما هو الوعود الرنانة وملء المعد . وعندما ووجهت بامتحان عسير ، ظهرت وعودها كفقاعات الهواء وراحت مبادؤها ومثلها تهوي واحدا بعد الاخر . كانت تتبجح دائما بتفوقها العلمي على اجزاء العالم الاخرى على اساس انه الضمانة ضد التقهقر الاقتصادي والاجتماعي . عند الامتحان ثبت ان هذه الضمانة لا وجود لها . كانت دائما تنكر على العرب حقهم في الدفاع عن قضاياهم العادلة ، بحجة ان العرب ظالمون يغطون تأخرهم بالاعتداء على دولة ديموقراطية صغيرة مسالمة . وأمام التجربة الحقيقية ثبت ان اهتمامهم باسرائيل ينتهي عند طلوع العرب على العالم طلعة الجنود المظفرين القادرين على فرض ارادتهم على من يسيء اليهم . فجأة صار وصف العرب بالبرابرة أمر محرم على الانواء . صار حق اسرائيل بالبقاء من شأن اسرائيل وحكومة اميركا فقط . صارت شعارات ادانة اليهود التي ظهرت في اميركا على السيارات من شأن اصحابها فقط .

ملامح التغيير المقبل على عقليات الناس تشير الى ان الناس سيقبلون قريبا على مرحلة فكرية جديدة تكون محاسبة النفس وانظمة الحكام من اعمدتها الراسخة. والمراقب المقيم في الغرب اصبح يرى البدايات منذ الان . ولا ريب على هذا الاساس ، ان الانسان الغربي سيدرك خلال وقت ليس ببعيد كيف تحقق رفاهه المادي على حساب الملايين من اهل الارض الذين لا يعثرون حتى على رغيف الخبز . وسيدرك انه كان مبذرا في كل شيء ، لانه كان يملك الكثير من كل شيء . قال مسمير رئيس وزراء فرنسا في ٢٠ كانون الثاني من عام ١٩٧٣ « ان هدف القانون الذي يخفض سرعة السواقة على الطرق هو زرع روح التوفير عند الناس » . وأغلب الظن ان الانسان المبذر اذا ما فرضت عليه أوضاع جديدة تحتم عليه التوفير في استهلاكه للطعام والوقود والمشتريات الاخرى ، سيتعرض لتغيير جذري في وعيه الانساني يحصنه ضد استغلال المستغلين ويصب سلوكه الاجتماعي في قوالب جديدة . قال الكاتب الاميركي انتوني لويس في الهرالد تريبون بتاريخ ٤ كانون الاول من عام ١٩٧٣ « هناك بديل واحد لوهم الطاقة اللامتناهية والرخاء اللامتناهي في اميركا . ذلك هو الاخذ بأخلاق التوفير . ليس التوفير القائم على تخفيض درجة الحرارة في البيوت ، وانما التوفير عن طريق التمييز بين الخيارات الاجتماعية الصائبة والخيارات الاقل صوابا ، الامر الذي يحتم البحث عن قيم حياتية وخلقية جديدة . على سبيل المثال، سيكون جنونا استمرار الادارة الاميركية في تنفيذ مشروع بناء اوتوستراد جديد عبر البلاد . ان تغيير عادات الاميركيين في مجال استهلاك الطاقة أمر ليس سهلا ، بل عملية معقدة جدا . لكن الصعوبة تزول اذا بدأنا بتغيير القيادة في البلاد . بكلمات اخرى يجب ان نحصل على قادة لا يدغدغون خواصرنا بالوعود الفارغة حول الرخاء والكفاية ، وانما يحثوننا على اتباع حياة افضل ، حياة مشاركة العالم الثالث كل ما نملك . هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على الكابوس الداروينى المحلق فوق رؤوسنا » . وقال الكاتب والمفكر السويسري دنيس دي روجيمونت « العرب أثبتوا ان اوروبا لا مكان لها على مستوى الحكومات . ففي كل مؤتمر قمة اوروبي جديد ، نكشف عن المزيد من خلافاتنا . العرب جعلونا نعمد الى الهروب . من ناحية اخرى فان شبح كارثة اقتصادية يمكن ان يكون الهزة القوية التي تحتاجها اوروبا . على اساس هذا لا بد من توجيه الشكر لشيوخ البترول وأمرائه . لقد كنا دائما اشبه بالعجزة الذين لا يغيرون معيشتهم الا اذا وقعت كارثة . الان صار بامكاننا تغيير نمط معيشتنا بشد احزمتنا وبالتركيز على البحث العلمي وبالسعي لبناء وحدة اوروبية غير مزيفة » .

وبعد ، هل يواكب العرب هذه التطورات والتحولات المذهلة والعميقة ، باسراع الخطو على درب انهاء الوجود الامبريالي الصهيوني في الشرق الاوسط ، ودعم الثورة الفلسطينية دون تردد او تحفظ ، واداء دورهم الحضاري في عالم اليوم ؟ فهم يملكون كل شيء .. المال والسلاح والمنطق والتأثير . اذا وعوا قيمة ما يملكون ، واذا سارعوا الخطى في مجالات رفع المجتمعات العربية الى مستوى العصر ، واذا انقذوا بفائض اموالهم افريقيا وليس الحكومات والدول التي تمثل عالم الصناعة المسيطر على مصائر الشعوب ، اذا فعلوا كل ذلك اخذهم الاخرون مأخذ الجد في مقبل الايام أيضا .

عقيل هاشم

[٢]

ايران ، الحل « البديل والمكمل » لاسرائيل

شكلت المنطقة العربية بثرواتها الكبيرة، وموقعها الاستراتيجي في ملتقى القارات الثلاث ، مركزا هاما جذب انظار المخططين الاستعماريين منذ ان كان الاستعمار . ولقد كانت هذه المنطقة قبل اكتشاف حقول النفط الكبيرة ، وقبل خروج الولايات المتحدة من عزلتها، بؤرة اهتمام الدول الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا والمانيا) . وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية ، وظهر الاتحاد السوفياتي كدولة عملاقة ، وتضاءلت القوة الاقتصادية لفرنسا وبريطانيا ، وبدأ الاستعماران الفرنسي والبريطاني مرحلة الانحسار ، وظهرت الثروات المعدنية الهائلة في البلدان العربية التي غدت اكبر مستودع لمصادر الطاقة في العالم ، حتى قررت الامبريالية الاميركية الجديدة احتلال مواقع الاستعماريين القدماء ، وتثبيت مواقعها ، والحفاظ على مصالحها الكبيرة على ارض العرب .

وكان الاسلوب الاميركي مغايرا في شكله للاسلوبين الفرنسي والبريطاني . فهو لم يعتمد على الاحتلال العسكري المباشر ، الذي لم يعد ممكنا في عصر تصفية الاستعمار ، بل اعتمد على التحالف مع الطبقات الحاكمة المسيطرة ، بعد ربطها مصلحيا مع الامبرياليين . وكان هدفه الاستراتيجي العام مبنيا على منع الوحدة العربية ، والحفاظ على وضع التخلف الاقتصادي ـ الثقافي الموروث في الوطن العربي ، لان ظهور دولة عربية متحدة متقدمة فكريا واجتماعيا ، ومتكاملة اقتصاديا ، يعني تهديد مصالحه الحيوية ، ونهاية النهب الامبريالي الذي لا يمكنه ممارسته الا في ظل التخلف والتجزئة .

ولتحقيق هذا الهدف ، سار الامبرياليون على خطين متوازيين : يتمثل اولهما في جر الدول العربية المستقلة حديثا الى الاحلاف والمشاريع الاميركية ، باسم محاربة الشيوعية ، مع ايمانهم المطلق بأن هذه الاحلاف ، مهما قويت وامتدت ، لا يمكن ان تكون حاجزا عسكريا فعالا امام قوة المعسكر الاشتراكي الضخمة المتنامية . أما الخط الثاني فيتمثل في خلق رأس جسر امبريالي يضمن منع الوحدة العربية ، ويعرقل النمو الاقتصادي ـ الاجتماعي العربي ، ويؤمن ضرب حركة التحرر الوطني العربية اذا ما نمت هذه الحركة ودخلت مع الامبريالية في تناقض حاد يهدد المصالح الامبريالية بشكل خطير . وعندما التقت مصالح الامبريالية الاميركية ، مع مصالح الصهيونية العالمية الراغبة في جمع اليهود الذين شردتهم الحرب العالمية الثانية وسياسة هتلر العنصرية ، ومصالح الدول الاوروبية الراغبة في التخلص من معضلات ايواء واطعام ملايين اللاجئين اليهود المشردين في انحاء اوروبا المدمرة ، ظهرت اسرائيل الى الوجود ، وكانت « الحل الذهبي » الذي يلائم الشرق والغرب ، وقرر العالم المتعب من الحرب ، والمثقل بآثام تعذيب اليهود ، تشريد الشعب العربي الفلسطيني في ارجاء العالم العربي ، ليحل اللاجئون اليهود محله .

وكانت الامبريالية الاميركية تخطط للنصف الثاني من القرن العشرين ، فهي تعرف ان شهر العسل مع الانظمة والطبقات العربية الحاكمة لا يمكن ان يدوم ، وان التناقض بين الناهبين الخارجيين ، والقوى الداخلية المستفيدة من جهة ، والجماهير العربية المنهوبة ، والتواقة للحرية والوحدة والتطور ودخول حضارة العصر من جهة اخرى ، لا بد وان يتفجر يوما . وان الحل الامثل لمجابهة هذا التفجر ، هو خلق دولة قوية متقدمة عصرية ، تلعب دور « الشرطي » لحماية مصالح الامبريالية عند اللزوم .

ولكن هذه الدولة ـ اسرائيل ـ جوبهت منذ نشأتها بمعارضة جيرانها العرب . وكان وجودها تحديا مصيريا لامة تعيش مرحلة النهوض القومي ، وتمتلك من الامكانات البشرية والاقتصادية ما يؤهلها للخروج من التخلف ، ويجعلها دولة عصرية كبرى . ولقد لاحظ الامبرياليون ، منذ عام ١٩٥٥ ، ان وجود اسرائيل لم يؤمن الاستقرار في المنطقة بل زادها اضطرابا ، كما انه لم يؤد الى قهر حركة التحرر الوطني العربية ، بل زادها على العكس امتدادا وتجذرا ، والاخطر من هذا كله، ان مشاعر العداء ضد الغرب، قد ازدادت بين صفوف الجماهير العربية ، التي أعتبرت الغرب مسؤولا عن العدوان الاسرائيلي ، وسببت انهيار سمعة الدول الغربية

ومكانتها في الوطن العربي ، ودفعت الحكومات العربية الراديكالية الى احضان الاتحاد السوفياتي.

وكانت بداية فشل المخطط الامبريالي في العام ١٩٥٥ مع صفقة الاسلحة الشرقية لمصر وسورية ، ثم بناء السد العالي في مصر من قبل الاتحاد السوفياتي بعد حرب ١٩٥٦ ، وتزايد التغلغل السوفياتي في مصر وسورية اولا ، وفي العراق والجزائر واليمن الجنوبي بعد ذلك . وكانت كل هذه الظواهر تشكل خطرا على مصالح الامبريالية الاميركية ، التي شعرت ان خلق اسرائيل ، الذي منع تنمية الدول العربية المجاورة لها ، ولعب دورا جغرافيا وعسكريا في عرقلة الوحدة ، لم يقم رغم ذلك بكل مهماته ، بل أدى في بعض المجالات (المجال النفسي، وانتشار الفكر الراديكالي، وزيادة التغلغل السوفياتي) الى نتائج سلبية تتعارض مع اهداف المخطط الامبريالي . وكان من الاسباب التي شنت اسرائيل من اجلها حرب ١٩٦٧ ، اقناع الاميركيين بأنها قادرة على لعب دورها البوليسي الذي خلقت من أجله .

وبالرغم من النتائج الباهرة التي حققتها القوات المسلحة الاسرائيلية في حرب ١٩٦٧ ، فان الدول العربية لم تركع ، وازدادت مشاعر المرارة ضد الولايات المتحدة ، وازداد ارتباط الدول العربية الراديكالية بالاتحاد السوفياتي اقتصاديا وعسكريا، وازداد حرج موقف حلفاء الولايات المتحدة في الوطن العربي ، ولم يعد هؤلاء الحلفاء قادرين على المجاهرة بميولهم الغربية ، او ارتباطهم بالولايات المتحدة التي تسلح عدو الأمة العربية ، وتساعده على اذلالها ، وتكرس احتلاله لاراضيها ، واختل الاستقرار في منطقة الشرق الاوسط — وهذا أمر يقلق بال الامبرياليين الراغبين في الحفاظ على « الوضع الراهن » . وزاد من عدم الاستقرار ظهور الثورة الفلسطينية كعنصر فعال ، وكرد مادي على ادعاءات اسرائيل **بعدم وجود شعب فلسطيني**.

ولقد وعت الامبريالية الاميركية كل هذه الحقائق، وفهمت ان الغطرسة الاسرائيلية ، والاطماع التوسعية الصهيونية ، تتعارض بشكل جذري مع رغبة واشنطن في الاحتفاظ بمرتكزاتها الثقافية ، ومصالحها الاقتصادية ، وصداقاتها ، مع بعض الحكام العرب . لذا كان خط السياسة الخارجية الاميركية ازاء الصراع العربي — الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ ، مبنيا على مبدأ « حماية أمن اسرائيل لا حماية توسعها » . بيد ان هذا المبدأ لم يدفع واشنطن نحو خط معتدل بالنسبة الى الصراع العربي — الاسرائيلي ، ولم يمنعها من دعم اسرائيل اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . ويرجع السبب في ذلك الى سيطرة الصهيونية على غالبية أعضاء الكونغرس ، ونجاح الدعاية الاسرائيلية في اقناع بعض اجهزة الادارة الاميركية بقدرتها على ردع العالم العربي المصاب بالشلل ، والحفاظ على حالة اللاحرب واللاسلم التي ستؤدي الى ابتعاد الدول العربية بالتدريج عن الاتحاد السوفياتي ، ووقوفها مكشوفة ومستعدة للركوع ، ودفع ثمن هزيمة حزيران ١٩٦٧ .

ولكن هذه القناعة لم تكن كاملة ، ويبدو ان بعض أجهزة الادارة الاميركية رأت ، حتى قبل حرب ١٩٧٣ ، ان الانتصار الاسرائيلي لن يؤتي أكله ، بل سيدفع العرب نحو مزيد من التلاحم الداخلي لمواجهة التحدي ، ونحو مزيد من الارتباط بالاتحاد السوفياتي . ولم تكن هذه الاجهزة بحاجة لذكاء كبير لاكتشاف خلل الفكرة الصهيونية الاساسي المتمثل في « **محاولة تطبيق الاستعمار في عصر تصفية الاستعمار** » . وكانت كل المعطيات المحلية والعالمية تؤكد لها بأن انتصار اسرائيل على الدول العربية،بشكل حاسم وتاريخي امر متعذر لا تسمح به طبيعة الاشياء ، وان من الضروري البحث عن بديل — وكان هذا البديل ايران .

من هنا جاء اهتمام الولايات المتحدة بتدعيم القوة العسكرية الايرانية . وتزويدها باسلحة قادرة لا على مجابهة جاراتها فحسب ، بل على القيام بعمليات هجومية وراء البحار (طائرات بعيدة المدى، اسطول بحري ، قوات محمولة بالهليكوبتر...)(١)

---

١ — تملك ايران قوة جوية ضاربة تضم ١٥٩ طائرة مقاتلة من بينها ٦٤ طائرة فانتوم « ف — ٤ د آي » و٨٠ طائرة من طراز « ف — ٥ أ » ، وهناك ٧٠ طائرة فانتوم « ف — ٤ اي » قيد التسليم . وفي سلاحها البحري ٣ مدمرات و٤ فرقاطات مسلحة بصواريخ سطح — سطح ، وصواريخ سطح — جو ، و ١٠ زوارق دورية ، و٤ مراكب انزال بالاضافة الى عدد من طائرات

(تتمة الحاشية على الصفحة التالية)

ويكشف الجدول التالي ، الخاص بنفقات ايران العسكرية بملايين الدولارات من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٧٣ التزايد الكبير في هذه النفقات بعد حرب ١٩٦٧ ، وفي السبعينات بصورة خاصة .

عام	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩
النفقات	٦٦٫٥	٦٣٫٤	٦٠٫٠	٥٦٫٩	٦٤٫٧	١٩٠٫٠	١٠٥٫٧	١٢٧٫٢	٢٠٢٫٧	٢٢٦٫٧
عام	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
النفقات	١٨٢٫٩	١٨١٫٠	١٨٠٫١	١٨٣٫٠	٢٠١٫٢	٢٥٠٫١	٢٨٥٫٨	٣٦٦٫٣	٤٦٥٫٧	٥٣٠٫٩
عام	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣						
النفقات	٦١٩٫٥	٦٨٦٫٧	٩١٥	٢٠١٠٫٠						

(Sipri World armement and disarmement year book 1972, and Military Balance 1973 - 1974).

وهكذا اصبح لدى الولايات المتحدة «شرطيان» ، احدهما مكلف بقمع مصر وسورية والاردن (عند اللزوم) ، والاخر مكلف بقمع العراق والمملكة العربية السعودية ، وامارات الخليج العربي ، والكويت ، وتأمين استمرار تدفق النفط عبر الخليج العربي والبحر الاحمر اذا ما ارتفعت حدة العداء العربي الى درجة استخدام سلاح النفط بشكل يقلق الولايات المتحدة نفسها (تأميم وقطع) .

ويبدو ان الاختيار الاميركي « للشرطي » الايراني أفضل من اختيارها « للشرطي » الاسرائيلي . فايران دولة كبيرة ، تملك قدرة بشرية واقتصادية تسمح لها ببناء قوة عسكرية ضخمة دون ان يشكل ذلك عبئا على المكلف الاميركي(٢)، كما هي الحالة بالنسبة الى اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك فان ايران ، على عكس اسرائيل ، دولة يعيش شعبها على ارضه منذ الاف السنين ، وليس هناك من يجادل في حقها بالوجود ، ولا يشكل تسليحها تحديا قوميا ودينيا مباشرا لجيرانها ، الا اذا تصرفت ازاءهم بروح عدوانية .

ولقد تلاقت المصالح الامبريالية مع طموحات الشاهنشاه محمد رضا بهلوي شاه ايران ،الراغب في بناء دولة قوية لا تلعب دورا محليا فحسب ، بل دورا عالميا ايضا . وكما استغل الامبرياليون المشاعر الدينية عند اليهود ، وعقد نقصهم ، وخوفهم من العودة الى حياة التشرد والبوغرومات والمذابح الجماعية ، وافران الابادة ، لخلق الحوافز المعنوية داخل القوات المسلحة الاسرائيلية ، فانهم يستغلون اليوم ذكريات الفتح العربي — الاسلامي ، وتحطيم الامبراطورية الفارسية على يد العرب ، كقاعدة للتعبئة المعنوية داخل القوات المسلحة الايرانية .

ان التقاء مصالح الامبريالية الاميركية في الوطن العربي مع مصالح الشاه ، يمثل حجر الزاوية في سياسة الولايات المتحدة لتسليح ايران . ولقد بدأت هذه السياسة بالتبلور منذ ان ظهرت ضرورة ايجاد حل « بديل ومكمل » للدور البوليسي الاسرائيلي، ولقد جاءت نتائج حرب ١٩٧٣ ، وعجز العسكرية الاسرائيلية عن الحاق الهزيمة بالجيوش العربية ، وتزايد التلاحم العربي خلال المعركة ،

الهليكوبتر الملحقة بالبحرية ، وهناك ٦ طائرات دورية بحرية و ٢٠٢ طائرة هليكوبتر « أ هـ — ١ جي » و ٤ حوامات « ب هـ — ٧ » قيد التسليم. أما القوات المحمولة جوا فهي تتألف من لواء محمول جوا ولواء قوات خاصة ، وهي تتصرف بأعداد كبيرة من طائرات الهليكوبتر وطائرات النقل الموجودة او قيد التسليم .
(Military Balance, 1973 - 1974)

٢ — يبلغ سكان ايران ٣٠٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولقد وصل دخلها القومي لعام ١٩٧٢ الى ١٥٫٠٩ مليار دولار . على حين لا يزيد عدد سكان اسرائيل من الاسرائيليين عن ٣ ملايين نسمة ، ولا يزيد دخلها القومي (١٩٧٢) عن ٦٫٨٥ مليار دولار .
(Military Balance, 1973 - 1974)

واستخدام سلاح النفط بشكله الاولي ، لتؤكد ضرورة وجود هذا الحل « البديل والمكمل » ، وتزيد اهتمام الامبريالية الاميركية بتقوية العسكرية الايرانية .

وتلاقي السياسة الاميركية ازاء ايران تشجيعا كبيرا في اوساط «المجموعة الصناعية ـ العسكرية» المسيطرة في الولايات المتحدة . فهي تضمن بيع كميات كبيرة من الاسلحة لزبون مضمون يدفع نقدا، وتمتص فائض العملة الاجنبية الناجم عن ارتفاع أسعار النفط الايراني بنسبة ٣٠٠٪ ، وتخلق قوة عسكرية قادرة على حماية المصالح النفطيةالاميركية في الشرق الاوسط ، وتمنع الدول العربية من استخدام نفطها كسلاح اقتصادي فعال ، وتضع امام الدول العربية التقليدية تحديا عسكريا يدفعها الى التفكير الجدي بتقوية جيوشها وتطوير تسليحها ، وشراء كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات الاميركية ، الامر الذي يضاعف امكانات تأثير البيت الابيض على سياسة هذه الدول ، ويؤمن امتصاص مليارات الدولارات الفائضة التي تملكها .

ولقد كان خبراء البنتاغون يعتقدون ان مصانع الاسلحة الاميركية ستحتكر بشكل كامل تقريبا اسواق السلاح في الدول العربية البترولية ، نظرا لقيود الحظر التي فرضتها فرنسة على تجارة الاسلحة بعد حرب ١٩٦٧ ، ونظرا لوجود اسباب ايديولوجية تمنع هذه الدول من شراء السلاح السوفياتي . ولكن قيام فرنسة فاليري جيسكار ديستان برفع الحظر الفرنسي عن بيع الاسلحة الى الشرق الاوسط في ٢٨ آب ١٩٧٤ ، سيشجع المملكة العربية السعودية والكويت وامارات الخليج على شراء سلاح فرنسي لجيوشها ،ولجيوش دول المجابهة ايضا، وسيجعل فرنسة قادرة على منافسة الولايات المتحدة بالنسبة الى مبيعات البند الثاني ، بعد ان كانت تنافسها في مبيعات البند الاول فقط . اما بالنسبة الى العراق ، فانها ستفكر جديا ولا شك بشراء السلاح الفرنسي الى جانب السلاح السوفياتي طالما انه سيكون بوسعها استخدام هذا السلاح في المعركة ضد اسرائيل ، كما سيكون بوسعها تقديمه الى دول المواجهة لتستخدمه ، دون قيود ، في معركة التحرير المصيرية .

ان تكديس الاسلحة المتطورة في ايران امر بالغ الخطورة ، وخاصة اذا اغرت القوة العسكرية المتعاظمة الشاه الى سلوك سياسات مغامرة في منطقة الخليج العربي الحساسة . وقد لا يستطيع الشاه تهديد الدول العربية المجاورة بحرية كاملة ، والدخول معها بصراع طويل الامد ، نظرا لوجوده على مقربة من الاتحاد السوفياتي ، وعدم رضا الشعب عنه ، ووجود أقليات بلوشية وكردية وعربية تنتظر انشغاله خارجيا لتخلق له المتاعب في الداخل ، ولكن وجود قوة عسكرية ايرانية كبيرة على الجناح الشرقي للوطن العربي، يشكل في حد ذاته تهديدا يجبر العرب على اقتطاع جزء اضافي من امكاناتهم وتكريسها للتسليح، بدلا من تكريسها للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ويمنع الدول العربية من حشد كل قواتها العسكرية في الصراع مع اسرائيل ، ويفرض عليها تجميد قسم من هذه القوات لصد الخطر الكامن في الشرق .

ان خطوط اللعبة الاميركية واضحة للعيان ، فهي تحاول ، بميكافيلية لا ريب فيها ، تسليح ايران والدول العربية النفطية بآن واحد . ولقد كان بوسعها ان تبرر عملها في الماضي بانها « لن تسمح للسلاح الاميركي بان يقتل في الشرق الاوسط » ، ولكن احداث قبرص ، واقتتال حلفاء الامس من اتراك ويونانيين ، بسلاح اميركي ، يسقط هذه الحجة ، ويبدد الدافع الاخلاقي الاميركي المزعوم ، ويكشف الدافع الاقتصادي للعملية .

ولا يمكن ان تنجح الخطة الاميركية ، وتحقق كل اغراضها السياسية والاقتصادية ، الا اذا استطاع البنتاغون تأمين التفوق العسكري الايراني على السعودية والكويت ودول الخليج والعراق معا . وقد كان من الممكن تحقيق ذلك لو ان الولايات المتحدة تحتكر اسواق السلاح في هذه الدول . ولكن وجود الاتحاد السوفياتي وقدرته على تزويد العراق اساسا ، والكويت جزئيا باسلحة متطورة ، ووجود فرنسة وقدرتها على تزويد الدول الاربع بمثل هذه الاسلحة ، وامتلاك هذه الدول لرصيد كبير من المال ، يحرم الولايات المتحدة من امكانية خلق ايران الاقوى من جاراتها العربية .

ان الطاقات الاقتصادية والبشرية للدول العربية الاربع(*) كفيلة بمجابهة التحدي الجديد ، والحل الاميركي « البديل والمكمل » ، ولكن التسليح الاميركي لايران يبقى مع ذلك عاملا هاما يستحق الانتباه والدراسة ، لانه يؤثر بشكل غير مباشر على ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ، ويمنع الدول العربية من تحقيق الحشد اللازم لمعركة التحرير . الامر الذي يضع ايران الشاه ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في معسكر العدو .

سلمى حداد

---

* يبلغ عدد سكان هذه الدول الاربع حوالي ١٩٫٦٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ويبلغ دخلها القومي السنوي ١٣ مليار دولار (الارقام لعام ١٩٧٢) « **ميزان القوى العربي الاسرائيلي ١٩٧٤** » ، مركز الابحاث ، بيروت .

يصدر حديثا عن مركز الابحاث

كتاب

دروس الحرب الرابعة

بقلم

المقدم الهيثم الايوبي

ويحتوي هذا الكتاب خلاصة الدروس التي يمكن استنباطها من مجريات حرب تشرين الاول على صعيدي الاستراتيجية والاستراتيجية العليا ، استنادا الى اعترافات القادة والمنظرين العسكريين الاسرائيليين ، وملاحظات المراسلين العرب والاجانب الذين شهدوا معارك الحرب الرابعة عن كثب . وهو يحدد الخطوط العريضة التي يمكن الاستناد اليها لفهم ادارة العمليات في هذه الحرب ، واعداد استراتيجية عربية مستقبلية جديدة ، تاخذ بعين الاعتبار العوامل العالمية والمحلية التي تحدد معطيات الصراع العربي — الاسرائيلي .

سعر النسخة ٢ ل.ل. ، تضاف اليها أجور البريد الجوي :
٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول .

أطلب نسخك من قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

فلسطين في الامم المتحدة

حققت منظمة التحرير الفلسطينية في الشهر الفائت كسبا سياسيا كبيرا في جعلها مجلس جامعة الدول العربية يتبنى قرارا في ٩/٢ بادراج قضية فلسطين كبند مستقل في جدول اعمال الدورة الحالية للجمعية العامة للامم المتحدة . وقد وصف الاخ عبد المحسن ابو ميزر ، الناطق الرسمي باسم المنظمة ، هذا القرار بانه « أخطر قرار اتخذته الجامعة العربية منذ ربع قرن » واضاف « ان خطورة القرار تكمن في انه اتخذ بالاجماع وان القضية ستطرح طرحا جديدا امام الجمعيةالعمومية منفصلة عن قضية الشرق الاوسط باعتبارها قضية تحرر وطني » .

وقد نص قرار الجامعة العربية (وفا ٩/٦) على ما يلي : « ١ — الموافقة على طلب ادراج قضية فلسطين بندا مستقلا في جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها التاسعة والعشرين. ٢ — التأكيد على المبادىء الاتية في اي مشروع قرار يقدم في الموضوع : أ — تأكيد الحقوق الانسانية الثابتة للشعب الفلسطيني ورفض اي اهدار او اغتصاب لها . ب — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره دون اي تدخل خارجي وتأمين استقلاله الوطني وحقه في العودة . ج — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العمل بجميع الوسائل لنيل حقوقه الاساسية طبقا لاهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة . ٣ — ان تعمل الوفود العربية لدى الامم المتحدة على دعوة منظمة التحرير الفلسطينية لعرض وجهة نظرالشعب الفلسطيني اثناء بحث القضية في الجمعية العامة للامم المتحدة » .

لقد اعطى قرار الجامعة العربية افاقا جديدة للنضال الفلسطيني متسعة باتساع العالم كله ، كذلك — في حال نجاح الدول العربية والصديقة بادراج هذا البند مستقلا في جدول اعمال الجمعية العامة — فقد وضع القرار القضية الفلسطينية على عتبة مرحلة جديدة ابرز سماتها ان المجتمع الدولي يعود فيها الى البحث في جذر القضية للمرة الاولى منذ العام ١٩٥٢ عندما طويت القضية — باعتبارها قضية فلسطين — من جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة واهمل جوهرها ، في الوقت الذي كان يجري التركيز ، منذ ذاك ،على مشتقاتها بعد ان اصبحت تدرج منذ دورة العام ١٩٥٢ ضمن تقرير مفوض وكالة غوث اللاجئين العام ، وبعد العام ١٩٦٧ في اطار « الوضع في الشرق الاوسط » . اما الان فأن بحث « قضية فلسطين » يفترض العودة الى الجذور ، ليس بما ترتب على احداث العام ١٩٤٨ من نتائج (قيام اسرائيل وتشريد الشعب الفلسطيني واقتسام الارض الفلسطينية) فحسب ، وانما منذ ان كانت فلسطين قضية تحت الانتداب البريطاني ثم في ظل الاحتلال الاسرائيلي .

لقد اوضح الاخ فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ، في تصريح له في القاهرة (٩/١) ان منظمة التحرير تأمل من طرح قضية فلسطين في الامم المتحدة « اولا : الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير . ثانيا : اعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وطبقا لروح ميثاق الامم المتحدة ونصه . ثالثا : الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في العودة الى اراضيه ودعم استقلاله الوطني » . وبطبيعة

الحال ان تحقيق هذه الاهداف — المطاليب يتطلب نضالا سياسيا فلسطينيا مدعوما بجهد عربي ومن جانب الدول الصديقة كي تخرج الجمعية العامة بقرارات تلبي هذه المطاليب ضمن منظومة واحدة عنوانها « قضية فلسطين » ، ذلك ان الجمعية العامة قد اتخذت في دوراتها خلال السنوات الاربع الماضيات عددا من القرارات التي تنسجم في خطوطها العريضة مع بعض هذه الاهداف التي ذكرت ، غير انها ادرجت جميعا تحت بند الوضع في الشرق الاوسط ، مما يشير الى ان جوهر القضية ظل غائبا عن البحث ما دامت هذه القرارات غير مقرونة بهذا الجوهر وباساس القضية . ونذكر هنا بعض هذه القرارات التي اتخذتها الجمعية العامة .

لقد اعترفت الجمعية العامة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، لاول مرة في الدورة الخامسة والعشرين في العام ١٩٧٠ واعيد تأكيد هذا الاعتراف في الدورات السادسة والعشرين والسابعة والعشرين والثامنة والعشرين في الاعوام ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ على التوالي . وقد اكد القرار الذي اتخذ في ١٩٧٣/١٢/٧ (الدورة ٢٨) « ان شعب فلسطين مؤهل لحقوق متساوية ولتقرير المصير » كما اعلنت الجمعية العامة « ان الاحترام الكامل لتحقيق الحقوق الثابتة لشعب فلسطين وخاصة حقه في تقرير المصير لازم من اجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » .

اما بالنسبة للاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في العودة الى اراضيه ، فقد اعترفت الجمعية العامة بحق « اللاجئين الفلسطينيين » بالعودة الى وطنهم منذ اتخاذها القرار ١٩٤ (٣) في كانون الاول ١٩٤٨ ، وفي الدورة السابعة (الدورة ٢٨) اعلنت الجمعية العامة « ان تمتع اللاجئين الفلسطينيين العرب بحقهم في العودة الى مواطنهم وممتلكاتهم والذي اعترفت به الجمعية العامة بالقرار ١٩٤ (٣) في ١١ كانون الاول ١٩٤٨والذي كررت الجمعية العامة تأكيده منذ ذلك التاريخ هو امر لا غنى عنه من اجل تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ، ومن اجل ممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير ». ومع هذه الايجابية الظاهرة في القرار الذي يربط بين « عودة اللاجئين » وممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير » فان جهدا سياسيا موجها يمكن ان يسفر عن تكريس اصطلاح « عودة شعب فلسطين » في قاموس الامم المتحدة بديلا عن « عودة اللاجئين » .

اما الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فقد اعترف بها القرار ٢٧٨٧ (٢٦) الذي اتخذته الجمعية العامة في الدورة السادسة والعشرين والذي نص على ما يلي : « ان الجمعية العامة ... « اذ تعيد التأكيد على الحقوق الثابتة لجميع الشعوب ، وفي شكل خاص شعوب زمبابوي وناميبيا وانغولا وموزامبيق وغينيا (بيساو) والشعب الفلسطيني ، في الحرية والمساواة وتقرير المصير وشرعية كفاحها لاستعادة هذه الحقوق ، تؤكد شرعية كفاح الشعوب من اجل تقرير المصير والتحرر من السيطرة الاجنبية والاستعمارية والاستعباد الاجنبي ، خاصة في جنوب افريقيا وتحيد اشعوب زمبابوري وناميبيا وانغولا وموزامبيق وغينيا (بيساو) ، كذلك الشعب الفلسطيني بجميع الوسائل المنسجمة مع ميثاق الامم المتحدة».

وهكذا ، استنادا الى التجربة السابقة ، يجوز التأكيد ان الجمعية العامة ستتخذ قرارات تنسجم تماما مع ما تأمله منظمة التحرير ، خاصة اذا اخذ بالاعتبار ان عدد الدول المؤيدة للحق الفلسطيني آخذ في الازدياد مع تصاعد وتيرة النضال الفلسطيني العسكري والسياسي . وان اطلالة على عمليات التصويت التي تمت منذ العام ١٩٧٠ على القرارات المتعلقة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير تؤكد هذه الحقيقة . فقد نال القرار المتعلق بهذا الشأن في العام ١٩٧٠ ٤٧ صوتا وعارضه ٢٢ وامتنع عن التصويت ٥٠ ، بينما كانت النسب في العام ١٩٧١ هي على التوالي ٥٣ ، ٢٣ ، ٤٣ ، وفي العام ١٩٧٢ هي ٦٧ ، ٢١ ، ٣٧ وفي العام ١٩٧٣ هي ٨٧ ، ٦ ، ٢٣ . وكانت الدول التي عارضت القرار في الدورة الاخيرة بالاضافة الى الولايات المتحدة واسرائيل — وهما الطرف الاساسي في العداء — دولا هامشية عديمة التأثير هي باربادوس وبوليفيا وكوستاريكا ونيكاراغوا .

هذه الحقيقة ، حقيقة رجحان الكفة في المجتمع الدولي لمصلحة الحق الفلسطيني وما يسفر عن ذلك من احتمال اعتراف الامم المتحدة بمنظمة التحرير كممثلة للشعب الفلسطيني وما يترتب على

ذلك من انعطافات حادة في مستقبل القضية الفلسطينية وانعكاسات ذلك كله سلبا على اسرائيل اثار ردود فعل يائسة في اسرائيل عبر عنها وزير خارجيتها بجال الون في خطاب له امام الكنيست (اذاعة اسرائيل ٩/٩) قال فيه « في هذه الساعات بالضبط تجري اتصالات مع جميع عواصم دول العالم التي لنا معها علاقات دبلوماسية لنشرح لها مدى الخطورة الكامنة في مبادرة جامعة الدول العربية ، بواسطة دول عربية ، والتي تسعى لطرح بند فلسطين على جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة وذلك مع تأكيد السلبية والعدوان في الميثاق الفلسطيني، والضرر الذي سيلحق بالجو المطلوب في الوقت الذي توجهت اطراف النزاع الى طريق الجهود السياسية . وانا لا استطيع ان التزم امام اعضاء الكنيست بأن تثمر هذه الجهود . ولاسفي الشديد فان منظمة التحرير الفلسطينية حظيت في السنوات السبع الاخيرة باعتراف متزايد ايضا في عواصم كثيرة في العالم ومنها دول صديقة » .

ان الشهرين القادمين سيشهدان صراعا سياسيا عنيفا ، فاسرائيل تدرك خطورة تمرير قرار في الجمعية العمومية للامم المتحدة يتعلق بجذر القضية الفلسطينية ، فهي نفسها اكتسبت شرعيتها الدولية بقرار من الامم المتحدة . وقد عبرت الاذاعة الاسرائيلية عن هذا الادراك بتعليق (٩/٤) جاء فيه ان « مغزى هذا القرار سيكون منح مكانة لمنظمة التحرير الفلسطينية ويعترف بها كحركة تحرر وطني، وتعطى مكانة مراقب في الامم المتحدة، وبعدها تشترك في المناقشات ، والخطوة التالية ستكون تأليف حكومة واقامة دولة فلسطينية » .

الجبهة الاردنية

حفل الشهر الماضي بكثير من الحديث عن مسألة « فك الارتباط على الجبهة الاردنية » وقد ظهرت هذه المسألة وكأنها ملحة وعاجلة منذ صدر بيان الاسكندرية ، الاردني — المصري المشترك في ١٨ تموز الماضي ، والذي اتفق فيه الجانبان « على ضرورة التوصل الى اتفاق فك الارتباط على الجبهة الاردنية ، كخطوة اولى نحو الحل السلمي العادل » . وقد فسر ذلك البيان بانه ضوء اخضر فتح الطريق امام النظام الاردني ليخوض تجربة المفاوضات العلنية مع اسرائيل من أجل التوصل الى تسوية ما تتعلق بفلسطين الوسطى (الضفة الغربية) . وقد رجح ذلك التفسير انذاك من خلال واقعين : الاول الاستجابة الإسرائيلية السريعة لبيان الاسكندرية ، والتي تمثلت في القرار الذي اتخذته الحكومة الاسرائيلية في ٧/٢١ والذي نص على « ان الحكومة الاسرائيلية ستقوم بالخطوات اللازمة لتبدأ مع الاردن مفاوضات من اجل التوصل الى اتفاق سلام » ، والثاني المؤشرات التي كانت تدل على ان « فك الارتباط » رغبة اميركية ، جرى التعبير عنها باكثر من وسيلة ، غير ان تضمينها الاساسي كان في توجهات السياسة المصرية نحو دعم هذه المسألة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان كل الدلائل تشير الى ان بقع الالتقاء بين التوجهات المصرية والاخرى الاميركية ازاء الموقف من التسوية ، خاصة المتعلقة بالجبهة الاردنية ، آخذة في الاتساع .

لقد كشفت « الاهرام » (٨/١٢) جانبا من التصور الاميركي لفك الارتباط ، فقد كتبت أن كيسنجر كان قد عرض على رئيس وزراء الاردن تسوية جزئية مع اسرائيل تقوم على انسحاب من جزء من الضفة الغربية للاردن يتركز في قطاع اريحا وبعمق يتراوح بين ١٠ و ١٢ كيلو مترا . ويردف هذا التصور موافقة مصرية على « ان الاردن يمكنه ان يمثل الفلسطينيين في الضفة الشرقية وفي الضفة الغربية بصفة مؤقتة بشرط ان يكون ذلك سببا لاقناع اسرائيل بالانسحاب من هذه الضفة » كما ذكر ذلك اسماعيل فهمي ، وزير خارجية مصر ، في مقابلة تلفزيونية مع محطة أن. بي. سي. (٨/١٦) .

الى اي مدى وجدت هذه التوجهات استجابة لدى اسرائيل ؟ . تقضي الاجابة على هذا السؤال تمهيدا بتأكيد قضية اساسية هي انه على الرغم من انطباق المصلحتين الاميركية والاسرائيلية في المنطقة العربية فان هامشا من التعارض يبرز احيانا متعلقا بكيفية النظرة الى هذه المصلحة والوسائل الكفيلة بالحفاظ عليها . وبقدر ما يتعلق الامر بالموضوع المطروح هنا ، فان المصلحة

الاميركية وكذلك الاسرائيلية تقضيان بمنع وضع فلسطين الوسطى تحت سلطة وطنية فلسطينية مستقلة . وقد عبرت « معاريف » (٨/١٢) عن هذه الحقيقة بقولها « ان الولايات المتحدة واسرائيل توصلتا الى النتيجة نفسها وهي انه ينبغي استبعاد امكان انشاء دولة فلسطينية بين اسرائيل والاردن » . ومع وجود هذه المصلحة المشتركة فان هامش التعارض ينبثق من اختلاف وجهة النظر بالوسائل التي تمنع قيام اي سلطة وطنية فوق الارض الفلسطينية . ففي الوقت الذي تتجه فيه السياسة الاميركية ، حسب معطياتها الظاهرة ، نحو تمكين النظام الاردني من العودة الى بعض الارض الفلسطينية ، تجد اسرائيل ان الوقت لا يزال مبكرا لتقديم « تنازلات اقليمية » لمصلحة النظام الاردني ، وتشير كثير من الدلائل الى انها لا تزال متمسكة ببقائها في فلسطين الوسطى ما دامت موازين القوى الراهنة تبيح لها استمرار الاحتلال . ويتعزز هذا الاتجاه في السياسة الاسرائيلية نتيجة الاوضاع الداخلية في اسرائيل . فمن الواضح ان هناك انقساما في الرأي داخل اسرائيل بالنسبة لمسألة التسوية مع الاردن ، ويهدد هذا الانقسام اذا دفع الى مداه الائتلاف الحكومي الراهن كما ينذر بأثارة المشاكل في وجه الحكومة ذات اغلبية الصوت الواحد مما يعرض بقاءها للتهديد . وقد وصفت الاذاعة الاسرائيلية في برنامجها العبري (٩/٨) هذا الانقسام في الرأي الذي تبلور كما يبدو في جلسة الحكومة بتاريخ ٩/٨ ، فقد ذكرت الاذاعة « اذا حاولنا ترتيب الامور التي قيلت اليوم في الحكومة ، تبرز مجموعتان من الوزراء : المجموعة الاولى تحاول ان تكون المفاوضات مع مصر اولا . وان اهم حجج هذه المجموعة انه يمكن التحدث مع مصر عن تسوية جزئية اخرى ، وبالطبع مقابل ثمن ملائم . وبالنسبة للاردن فقد طرحت اقتراحات مثل فصل القوات وتنازلات من جانب واحد على اسرائيل ان تقوم بها دون اي مقابل . وتؤكد مجموعة الوزراء هذه حقيقة ان اي تنازل اقليمي في الضفة الغربية يستوجب خوض انتخابات . وبالمقابل هناك المجموعة الثانية التي تزعم انه يجب ان تكون المفاوضات مع الاردن اولا . كذلك يزعم اعضاء هذه المجموعة الوزارية انه اذا لم تجر في هذه المرة مفاوضات مع الاردن فان الامر قد يدفع نحو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة لشؤون الفلسطينيين ومن ثم تعقيد الوضع السياسي اكثر » .

ان فك الارتباط ، الذي يعني سياسيا انسحابا اسرائيليا من بعض اجزاء الضفة الغربية وعودة الادارة الاردنية اليها ، يتم في حالة واحدة فقط هي قيام ظروف محلية (فلسطينية على الاخص وعربية) ودولية تجعل الاحتلال الاسرائيلي امرا متعذرا ، عندها تجد اسرائيل نفسها مضطرة الى المفاضلة بين خيارين : التسليم بقيام سلطة وطنية فلسطينية الى جانبها او عودة النظام الاردني الى حكم الارض الفلسطينية ، فتختار اسرائيل البديل الذي يتمشى مع مصلحتها ، تعني عودة الارض الفلسطينية الى القبضة الاردنية . وهكذا في ظل موازين القوى الراهنة لا نرى ان الخيار الثالث — استمرار الاحتلال — قد سقط الان ، ولم تنضج الظروف المحلية والدولية بعد التي تلزم اسرائيل بالانسحاب . ونتوصل الى النتيجة : ان منع قيام السلطة الوطنية الفلسطينية ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، هي ادامة الاحتلال ، وبذلك يسقط بالتأكيد بديل « فك الارتباط » على الجبهة الاردنية ، وهو بديل غير مضطرة له اسرائيل . وقد اكد اسحق رابين ، رئيس الحكومة الاسرائيلية ذلك في تصريح له (٨/١٩) بقوله « ان المرحلة المقبلة نحو السلام ليست اتفاقا على فصل القوات بل انها سلام حقيقي فقط . ولا توجد اتفاقات فك ارتباط غير الاتفاقات التي عقدت » .

هل استجابت الولايات المتحدة لهذا التوجه الاسرائيلي ؟ يعلمنا تاريخ العلائق الاميركية — الاسرائيلية ان حل التعارضات الناشئة بين الطرفين يحسم عادة لمصلحة وجهة النظر الاسرائيلية . ونذكر هنا بما كتبته صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية في ١٩٧٢/١/١٣ عندما ظهر تعارض في الموقفين الاميركي والاسرائيلي من مسألة فتح قناة السويس وما سمي حينذاك بالمحادثات عن كثب « ان جميع الخطوات الاميركية حتى تلك التي أعدت للضغط على القدس ترتكز على ان اسرائيل هي مصلحة وطنية للولايات المتحدة ... ولا يعني هذا ان هناك وفاقا تاما بين اسرائيل والولايات المتحدة ، ولكن عدم الاتفاق ناتج عن اختلاف الرأي بالنسبة الى

السؤال : ماذا يقوي اسرائيل ، الاراضي أم التسويات » ، نذكر بهذا القول الذي يحدد بدقة سياسة اميركه تجاه اسرائيل ونستحضر الالتزام الاميركي ببقاء « اسرائيل قوية » (اذاعة اسرائيل ٨/١٠ ذكرت ان كينيث كيتنغ ، السفير الاميركي في اسرائيل سلم رابين رسالة من فورد اكد فيها الاخير « استمرار السياسة الاميركية تجاه اسرائيل » وقال ان الولايات المتحدة سوف تلتزم بكل تعهداتها نحو اسرائيل ، وسوف تمدها بمعونة مالية وعسكرية طويلة الاجل) ، ونصل الى النتيجة وهي ان وجهة النظر الاسرائيلية قد تغلبت في هامش التعارض على وجهة النظر الاميركية ، وأبلغ كيسنجر الصحافيين المصريين (أ. ش. أ. ٨/١٤) ان هناك مصاعب أمام مسألة فك الارتباط في الجبهة الاردنية تنبع من الموقف الداخلي في اسرائيل لان هذه المسألة تثير الكثير من المشاكل .

وعلى الرغم من ان البيان المشترك عن محادثات الملك حسين والرئيس الاميركي فورد الصادر في ٨/١٨ نص على انه « تم الاتفاق على ان هذه المشاورات [بين الاردن واميركه] ستستمر بهدف معالجة المشاكل التي تشكل اهتماما خاصا للاردن **في وقت مناسب** بما في ذلك اتفاق اردني — اسرائيلي حول فك الارتباط » ، على الرغم من هذا النص فقد ظهر واضحا ان مسألة « فك الارتباط » قد دفعت الى الوراء ، ولم يحن بعد « الوقت المناسب » لها . وقد تأكد ذلك في مؤتمر صحافي عقده حسين في واشنطن (٨/١٨) ذكر فيه ان مباحثات كيسنجر الحالية مع المبعوثين العرب والاسرائيليين ، لم تحدد بعد اذا كانت الخطوة المقبلة في البحث عن سلام دائم في الشرق الاوسط ستكون مفاوضات اردنية — اسرائيلية او مباحثات مصرية أخرى حول الانسحاب الاسرائيلي من سيناء. وقد ذكرت « الاهرام » (٨/١٨) « ان الولايات المتحدة ابلغت حسين انها ترى ضرورة تأجيل موضوع فصل القوات على الجبهة الاردنية الى وقت محدود على الاقل ، الى حين تسوية كل المشاكل التي يمكن ان تترتب على هذه الخطوة » . وقد جاءت زيارة رابين الى الولايات المتحدة في الشهر الماضي تكريسا لوجهة النظر هذه. فقد أعلن رابين لدى عودته الى تل ابيب (٩/١٥) ان اسرائيل توصلت الى اتفاق مع الولايات المتحدة حول « الشريك المقبل » في « مفاوضات السلام » وقال ان اسم هذا « الشريك » لن يعلن الا بعد اسابيع . غير ان وكالات الانباء نقلت عن مراقبين في اسرائيل «ان رابين اتفق مع المسؤولين الاميركيين على محاولة بدء مفاوضات جديدة مع مصر تتبعها مفاوضات مع الاردن » .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

كان هذا الشهر شهر الزيارات بالنسبة لعدد من كبار المسؤولين العرب الى واشنطن لمقابلة الرئيس الاميركي الجديد فورد والدكتور كيسينجر وغيرهما من كبار المسؤولين الاميركيين . وكانت أهم هذه الزيارات هي التي قام بها وزير الخارجية المصري في الاسبوع الثاني من شهر آب لبحث الخطوات القادمة بالنسبة للتسوية السلمية في الشرق الاوسط وانعقاد مؤتمر جنيف للسلام ، بالاضافة الى مشكلة ما يسمى بفصل القوات على الجبهة الاردنية والعلاقات الثنائية المصرية الاميركية . وجاءت زيارة فهمي الى العاصمة الاميركية في الوقت الذي كان فيه الرئيس فورد يلقي خطابه السياسي الاول امام جلسة مشتركة لمجلسي النواب والشيوخ الاميركيين. ومما لفت الانتباه حضور الوزير المصري — اسماعيل فهمي — هذه الجلسة لانه كان الاجنبي الوحيد الذي شارك في هذا الحدث الاميركي السياسي الداخلي المحض والذي لا سابقة له في التقاليد البرلمانية الاميركية . وتطرق فورد في خطابه الى مشكلة الشرق الاوسط مؤكدا من جديد الخطوط العامة لسياسة حكومته وموضحا بذلك الجو العام الذي جرت فيه المحادثات الاميركية مع الزعماء العرب الذين زاروا واشنطن هذا الشهر . وجاءت اشارة فورد الى مشكلة الشرق الاوسط استمرارا للتأكيدات التي كان قد أطلقها عند استلامه السلطة بالاستمرار على خطى الرئيس السابق نيكسون والالتزام بسياسته « المتوازنة » فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي ، لذلك تعهد في خطابه بأن تكون جهوده في هذا المضمار استمرارا نشيطا لسياسة نيكسون كما التزم بتشجيع استمرار المفاوضات بين الفرقاء المعنيين من اجل الوصول الى « تسوية كاملة وعادلة ودائمة » للنزاع . وبالاضافة الى اجراء المحادثات مع فورد وكيسينجر ترأس فهمي (مع كيسينجر) أول اجتماع تعقده لجنة التعاون الاميركية — المصرية لدراسة الاجراءات التطبيقية والعملية المطلوبة لتنفيذ الاتفاقات التي كان قد تم عقدها بين مصر واميركا في السابق وخاصة اثناء زيارة الرئيس نيكسون لمصر . ومن المعروف ان هذه الاتفاقات تشمل مجالات التجارة والاستثمار والزراعة واعادة تعمير منطقة قناة السويس ، بالاضافة الى التعاون العلمي والطبي بين البلدين ، والمساعدات الاميركية لمصر في مجال استخدام المفاعلات الذرية لاغراض سلمية .

وقد أدلى الوزير فهمي بعدد من التصريحات أثناء زيارته كان اهم ما فيها النقاط التالية :

(١) تأكيده على أن العلاقات المصرية — الاميركية سوف تصبح أقوى وأمتن من السابق ، لان الرئيس فورد ينوي التحرك بحرية وبطريقة ايجابية ازاء مشكلة الشرق الاوسط ، متحررا من قيود فضيحة ووترغيت وهمومها ، مما سيمكنه من الحصول على تأييد الكونغرس الاميركي لسياسته .

(٢) تجديد الرئيس فورد الدعوة الى الرئيس السادات لزيارة الولايات المتحدة هذا العام .

(٣) ان محادثاته مع فورد وكيسينجر كانت شاملة وتناولت الموقف الدولي مع تركيز خاص على أزمة الشرق الاوسط . وقد أبدى فهمي ارتياحه الكبير لهذه المحادثات .

(٤) ان فورد اكد له بأن السياسة الاميركية ستسير في الخط ذاته الذي انتهجته اميركا بعد حرب اوكتوبر ١٩٧٣ بهدف تحقيق سلام دائم وثابت في الشرق الاوسط . هذا بالاضافة الى تدعيم العلاقات الطيبة بين البلدين .

(٥) ان من حق الفلسطينيين الاشتراك في مؤتمر جنيف « كما هو الحال تماما بالنسبة الى الاسرائيليين » وان اقرار السلام في الشرق الاوسط بدون ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية مستحيل.

(٦) ان الضفة الغربية أمانة في يد الملك حسين كما ان غزة أمانة في يد مصر . وبناء عليه سيكون بامكان الاردن « تمثيل الفلسطينيين في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الاردن بصورة مؤقتة لان في ذلك محاولة لاقناع اسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية » .

(٧) بأنه ليس في استطاعة اسرائيل الاستمرار في احتلال الاراضي العربية بالقوة وتجاهل الحقوق المشروعة للفلسطينيين . وعلى هذا الاساس فان مصر تنصح كل الاطراف باتخاذ موقف معتدل في مؤتمر جنيف للسلام الذي سيعقد خلال العام الحالي ،

كما انها تعمل على تنسيق مواقف الدول العربية كي تذهب كجبهة واحدة الى مؤتمر جنيف .

وبالنسبة للجانب الامريكي فقد أدلى كيسينجر بعدد من التصريحات خلال زيارة فهمي أكد فيها :

(١) ان بلاده ستفي بكل التزاماتها المتعلقة بتحقيق السلام في الشرق الاوسط وهذا يعني تعاونه تعاونا تاما مع الوزير فهمي للوصول الى تسوية للازمة .

(٢) ان احتمال انعقاد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي وارد جدا حيث سيجري البحث في مسألة اشتراك الفلسطينيين في أعمال المؤتمر .

(٣) انه سيقوم قريبا بجولة جديدة في الشرق الاوسط في شهر تشرين الاول .

(٤) ان التوصل الى سلام دائم في الشرق الاوسط وليس مجرد وقف اطلاق نار مسألة ضرورية للسلام العالمي . ولن يكون هناك اي سلام بالنسبة للعرب « بدون عودة الاراضي والعمل على معالجة المظالم التي تعرض لها الشعب الفلسطيني بطريقة عادلة » . ولن يكون هناك اي سلام بالنسبة لاسرائيل ايضا « بدون الاعتراف بشرعية وجودها وأمنها كأمة من قبل جيرانها » .

(٥) ان الاردن واسرائيل سيتفقان على فصل قواتهما ربما في الشهر المقبل .

وعلى اثر انتهاء زيارة فهمي صدر بيان مشترك مصري — اميركي رسمي جاء فيه :

(١) ان الرئيس فورد قدم تعهدات شخصية حول استمرار سياسة الولايات المتحدة بالنسبة لازمة الشرق الاوسط وحول مواصلة جهودها الاكيدة للتوصل الى السلام في المنطقة .

(٢) ان محادثات فهمي كانت مساهمة بناءة في المشاورات الجارية الان بصدد المرحلة التالية من المفاوضات من أجل التوصل الى السلام الدائم والعادل في المنطقة .

(٣) الاتفاق على ان مثل هذا السلام يجب ان يأخذ بعين الاعتبار المصالح المشروعة لكل شعوب الشرق الاوسط بمن فيهم الشعب الفلسطيني « وحق الوجود لكل الدول في المنطقة » .

(٤) الاتفاق على ضرورة استئناف مؤتمر جنيف لاعماله في أقرب وقت ممكن .

(٥) ان الرئيس الاميركي سيكرس نفسه لتقوية علاقات الصداقة الناميـة بين الولايات المتحـدة ومصر . وبهذا الصدد حدد البيان النقاط التي تم الاتفاق عليها في المجالات الاقتصادية وأهمها :

(أ) ضرورة استكمال وضع الخطط المحددة بشأن انشاء جهاز مشترك يضم ممثلين عن رجال الاعمال في كلا البلدين وذلك قبل نهاية شهر تشرين الثاني المقبل .

(ب) الاتفاق على وسائل تشجيع تدفق رساميل الاستثمارات الخاصة لتعزيز القطاع الصناعي في مصر ، وارسال الولايات المتحدة في القريب العاجل خبراء في هذا الميدان الى مصر .

(ج) دراسات مفصلة لعدد من المشاريع التي يمكن ان تشارك فيها الشركات الاميركية في مصر .

(د) المساعدات الاميركيـة لاعادة فتح قنـاة السويس وتعمير المدن الرئيسية هناك .

(هـ) تحسين الاتصالات بين البلدين في مجالات التنمية الزراعية والتعاون الفني لتحديث الزراعة المصرية بالاضافة الى الاجراءات التفصيلية المتعلقة بالتعاون العلمي والتقني والثقافي والتعليمي والفني .

وجدير بالملاحظة ان البيان المشترك كان اول بيان من نوعه يتكلم عن « حق الوجود لكل الدول في المنطقة » بدلا مـن الصيغة المعتادة القائلـة بالاعتراف بحق كل الشعوب في المنطقة في السيادة والاستقلال . وتعنـي الصيغة الجديدة ضمنـا الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود وليس مجرد حق الشعب الاسرائيلي في ذلك .

ذكرت الانباء الصحفية التي تواترت حول زيارة فهمي ان مصر تسعى الى الحصول على مساعدات غذائية اميركية قيمتها ٧٥٠ مليون دولار تشمل القمح والزيوت وغيرها من المواد الغذائية على اساس قروض طويلة الامد وعلى شكل هبات ومساعدات . كما ذكرت هذه الانباء ان فهمي وافق في اجتماعاته مع كيسينجر على ان تتناول المرحلة المقبلة مـن المفاوضات الاسرائيلية العربية موضوع التوصل الى اتفاق جزئي بين اسرائيل والاردن . وقالت صحيفة الاهرام بضرورة اقتحام العرب لابواب الكونغرس الاميركي لضمان تنفيـذ بنود الاتفـاق المصري — الاميركي الذي وقعه وزيرا خارجية البلدين .

وتجدر الاشارة بهذا الصدد الى ان الرئيس فورد رفض علنا اقتراح نقل السفارة الاميركية في اسرائيل من تل أبيب الى القدس في الوقت الحاضر « لكي لا تعرقل هذه المسألة مفاوضات السلام » مما يعني ضمنا عدم اعتراف اميركا الرسمي بالقدس الموحدة عاصمة لاسرائيل . ومن جهة اخرى صرح سايمون وزير الخزانة الاميركي ان بلاده « تدرك الدور التاريخي والفريد الذي تقوم به مصر كمركز للزعامة السياسية والثقافية في الشرق الاوسط كله » . ولذلك ستقدم الولايات المتحدة الى مصر مساعدات اقتصادية تبلغ قيمتها ٢٥٠ مليون دولار كما ستزودها بالمنتجات الزراعية على أساس قروض طويلة الاجل وستعمل على زيادة التسهيلات التي يقدمها بنك الاستيراد والتصدير الاميركي الى مصر كما ستؤيد حصول مصر على أكبر قدر من القروض من البنك الدولي للانشاء والتعمير ومن صندوق النقد الدولي والمنظمات الدولية المشابهة الاخرى . كذلك اكد سايمون ان الامل ضئيل في تدني اسعار النفط قبل انخفاض حدة التوتر بين الدول العربية واسرائيل . ولذلك فانه يعمل مع كيسينجر على اعداد سياسة جديدة بالنسبة للمصالح الاقتصادية والسياسية الاميركية في الشرق الاوسط .

● كانت الزيارة الهامة الثانية لواشنطن هي زيارة الملك حسين التي جاءت على اثر محادثات تمهيدية أجراها وزير خارجيته زيد الرفاعي . ومن المؤكد ان محادثات الملك حسين مع الرئيس فورد والدكتور كيسينجر شملت بالتحديد مطالب الاردن باجراء فصل للقوات على جبهته بالاضافة الى المشكلات العامة المتعلقة بالتسوية السلمية والعلاقات الثنائية بين البلدين وتسليح اميركا للاردن . وكان موضوع السلاح مجال محادثات الملك مع وزير الدفاع الاميركي . وأدلى الملك حسين بعدد من التصريحات اثناء زيارته قال فيها :

(١) انه مرتاح اشد الارتياح لهذه المحادثات التي جرت في جو من الصداقة والصراحة واستندت الى الرغبة المشتركة في اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة .

(٢) ان الاردن على استعداد للتفاوض مع اسرائيل لفك الارتباط وانه يرحب بوساطة كيسينجر ودبلوماسيته المتنقلة لتحقيق ذلك .

(٣) ان المباحثات الاميركية — العربية الحالية لم تحدد بعد ما اذا كانت الخطوة المقبلة في البحث عن السلام الدائم في الشرق الاوسط ستكون المفاوضات الاردنية — الاسرائيلية او اجراء مباحثات اضافية حول انسحاب اسرائيل من سيناء .

(٤) انه لا يعتقد ان مؤتمر جنيف سينعقد في المستقبل القريب لانه من الضروري اعطاء فترة من الزمن لوزير الخارجية الاميركي كي يعمل « على ضوء التغيرات التي حدثت مؤخرا » .

(٥) انه بدون اجراء فك ارتباط اردني — اسرائيلي لا يمكن لمباحثات السلام مع اسرائيل أن تبدأ .

(٦) ان محادثاته مع وزير الدفاع الاميركي حول تزويد الاردن بالسلاح كانت « مرضية جدا » .

(٧) انه ليس بامكانه التفاوض لحساب منظمة التحرير الفلسطينية وهو لا يقبل تعيينه وصيا على الضفة الغربية خلال اجراء مفاوضات فصل القوات مع اسرائيل في الجبهة الاردنية .

(٨) انه اذا طلب منه رؤساء الدول العربية صراحة ان يترك لمنظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية التفاوض حول الضفة الغربية فانه سيعتبر نفسه في حل من مسؤولياته ولن يشترك بأية مفاوضات مقبلة .

(٩) انه يخشى تجدد القتال مع اسرائيل في الاشهر الستة المقبلة ما لم يتم تحقيق تقدم نحو تسوية الازمة في المنطقة .

(١٠) ان الاردن يضع شرطا مسبقا للاشتراك في مؤتمر جنيف وهو انسحاب اسرائيل الى عمق معقول من المواقع التي تحتلها الان لوادي الاردن .

(١١) انه في وسع منظمة التحرير ان تذهب الى مؤتمر جنيف لكنها « لا تستطيع التفاوض على مستقبل الضفة الغربية او حتى على مستقبل اية أراض فلسطينية تجري استعادتها او حول مستقبل الشعب الفلسطيني لان كل هذه القضايا يجب ان يقررها الفلسطينيون بأنفسهم » .

وبالنسبة للجانب الاميركي فقد صرح الرئيس فورد أمام الملك حسين بأن بلاده تتعهد بتقديم الدعم الكامل للمبادرات الدبلوماسية الجارية لتحقيق السلام في الشرق الاوسط . كذلك صرح كيسينجر

قائلا ان الولايات المتحدة مهتمة اهتماما كبيرا باحراز المفاوضات الاردنيـــة — الاسرائيلية تقدمـــا وان اهتمامها بذلك يشبه تماما الاهتمام الذي أبدته بالتقدم الذي أحرزته المفاوضات المشابهة الاخرى التي جرت سابقا . وان حكومته ستبذل كل جهدها للمساعدة على احراز مثل هذا التقدم على الصعيد الاردني — الاسرائيلي .

وعلى اثر انتهاء زيارة الملك حسين صدر بيان مشترك كان أهم ما فيه قوله بأنه تم الاتفاق بين الطرفين على استمرار المشاورات حـــول تحقيق اتفاق لفك الارتباط بين الاردن واسرائيل في الوقت المناسب . وهذه الفقرة في البيـــان تدعم المطلب الاردني حول مسألة فصل القوات وايجاد موطىء قدم للنظام الهاشمي في الضفة الغربية بدون ان تحسم الموقف نهائيا لصالح سياسة الملك حسين .

والجدير بالذكر ان انباء صحفية عديدة ومتضاربة ترددت عن زيارة الملك حسين ونتائجها وكان أهم ما جاء في هذه الانباء ما يلي :

(١) ان الولايات المتحدة أبلغت الملك حسين ضرورة تأجيل موضوع فصل القوات على الجبهة الاردنية لفترة محدودة تسمح بتسوية المشاكل التي يمكن أن تترتب على تنفيذ هذه الخطوة وتطويقها .

(٢) ان مفاوضات فعلية جرت في الواقع بين الجانب الاسرائيلي والجانب الاردني (آلون وسفير اسرائيل في واشنطن من جهة وزيد الرفاعي من جهة ثانية) تحت اشراف كيسينجـــر وان المفاوضات توصلت الى اتفاق محدد بين الطرفين على مسألة فصل القوات . ويقول هذا النبأ ان الملك حسين لم يأت الى واشنطن من كندا الا بعد ان حققت مفاوضات زيد الرفاعي مع الجانب الاسرائيلي بعض النجاح .

(٣) ان جوزيف سيسكـــو هو الذي سيقوم بالتنقل بين الاردن واسرائيل لاتمام المفاوضات على الطريقة الكيسينجرية لتحقيق فصل القوات على تلك الجبهة . وقد جاء هذا النبأ بعد تصريح ادلى به كيسينجر قال فيه بأنه يجب الا يتوقع العالم منه ان يلعب دورا شخصيا في حل كل المشـــكلات الدولية .

وجدير بالذكر ان اسرائيل عبرت عن انزعاجها من المقطع الوارد في البيان الامريكي — الاردني المشترك حول بحث موضوع فصل القوات . وبناء عليه بعث وزير الخارجية الاسرائيلي يغال آلون برسالة الى كيسينجر اعرب فيها عن دهشته للمقطع المذكور خاصة وان اسرائيل كانت قد اكدت للحكومة الامريكية معارضتها للانسحاب من خط وادي الاردن على اساس اتفاق جزئي . وقد بعث كيسينجـــر برسالة جوابية شرح فيهـــا الاسباب التـــي دعت الحكومة الامريكية الى الموافقة على ايراد المقطع المذكور في البيان المشترك . وعلى اثر ذلك صرح آلون أمام البرلمان الاسرائيلي ، الذي اجتمـــع خصيصا لمناقشة هذا المقطع من البيان الاردني — الامريكي ، قائلا بأن الحكومة الامريكية تؤيد فكرة فصل القوات الاسرائيلية — الاردنية ولكنها لـــم تلتزم مطلقا بتأييد اي مشروع اردني محدد لتحقيق ذلك .

● الزيارة العربية الثالثة الهامة الى واشنطن قام بها وزير خارجية سوريا عبدالحليم خدام بهدف « متابعة الجهود الرامية الى اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة على اساس انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي المحتلة وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني » على حد تصريح الوزير قبل سفره . كما بين ان زيارته تأتي تنفيذا للاتفاق الذي تم بين الرئيسين الاسد ونيكسون (اثناء زيارة الاخير الى سوريا) بأن يقوم مسؤول سوري كبير بزيارة واشنطن لمتابعة جهود السلام . وأكد خدام بأن سوريا تقدر الجهود المبذولة في هذا المضمار وترى انه من الضروري اتاحة الفرصة اللازمـــة والوقت الكافي لجهود السلام على الرغم مـــن الاستفزازات الاسرائيلية ومحاولاتهـــا خنق فرص السلام وبترها . وعلى اثر اجتماع خدام بالرئيس فورد والدكتور كيسينجر صرح الناطق باسم البيت الابيض ان الرئيس الامريكي يرى في زيارة خدام تأكيدا للاهمية التي تعلقها الولايات المتحدة على دور سوريا في عملية احلال السلام فـــي الشرق الاوسط وان فورد ابلغ الوزير السوري تصميمه على تعزيز العلاقات السورية الامريكية وسروره لما طرأ من تقدم على هذه العلاقات منذ استئنافها في حزيران الماضي . وأكد الناطـــق بأن الحكومـــة الامريكية مستعدة لتقديم كل مساعدة ممكنة لسوريا على الرغم من انها لم تربط نفسها بأي التزام معين تجاه سوريا فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية . وصرح خدام من جانبه بأن محادثاته في واشنطـــن

كانت بناءة ومفيدة وهدفت الى اعطاء الجهود السلمية الجارية حاليا فرصة للتوصل الى سلم عادل ودائم في المنطقة . وجدير بالذكر ان بيانا مشتركا لم يصدر عن المحادثات السورية الاميركية الا ان الوزير السوري شدد في تصريحات اطلقها في طريق عودته على ضرورة انعقاد مؤتمر جنيف بأسرع ما يمكن على الرغم من خطورة الوضع الحالي في الشرق الاوسط وتوتره . وعند وصوله الى بيروت اكد ان سوريا ستبذل كل الجهود لعقد المؤتمر في اسرع وقت بحيث يؤدي الى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ وضمان حقوق الشعب الفلسطيني . وشدد على ذلك بقوله « اننا نريد ان ينعقد مؤتمر جنيف غدا اذا امكن لان الجمود في الوضع يؤدي الى نتائج خطيرة وكل ما من شأنه تجميد الوضع يخدم العدو » . هذا وقد صدر تصريح على لسان الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية قال فيه ان محادثات خدام مع المسؤولين الاميركيين « كانت بناءة وودية ومثمرة ».

وترددت انباء صحفية تقول ان سوريا وضعت شرطين لتجديد الاتفاق حول وجود المراقبين التابعين للامم المتحدة في مرتفعات الجولان . ذكرت هذه الاخبار ان خدام ابلغ واشنطن بأن حكومة بلاده تطالب بموعد محدد لاستئناف محادثات السلام في جنيف بالاضافة الى ضمانات اميركية رسمية بتأمين المزيد من الانسحاب الاسرائيلي من الجولان . وكنوع من الرد على الموقف السوري صرح شمعون بيريز وزير الدفاع الاسرائيلي قائلا ان سوريا تعتبر مطلبها بوجوب انسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة وحل المشكلة الفلسطينية . بمثابة انذار نهائي . كما صرح ضابط اسرائيلي كبير قائلا بأنه على الرغم من ان ليس لدى اسرائيل معلومات خاصة تفيد ان سوريا تنوي بدء الحرب في المستقبل القريب مع ذلك فان اسرائيل لن تنسحب من مرتفعات الجولان مما يعني انه عليها الاستعداد للحرب مع سوريا في المستقبل القريب.

● قام بالزيارة العربية الهامة الاخيرة الى واشنطن عمر السقاف المسؤول عن الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية حيث قابل كلا من الرئيس فورد والدكتور كيسينجر . وصرح السقاف بأن محادثاته « كانت مفيدة جدا وانها دارت حول العلاقات الثنائية بين البلدين وحول الوضع في الشرق الاوسط بشكل عام . كما اكد ان تقدما كبيرا قد تم تحقيقه في المحادثات بالنسبة لازمة الشرق الاوسط . واعرب عن امله « بأن يواصل كيسينجر جهوده من أجل التوصل الى حل نهائي مبني على العدل وعلى حقوق سكان المنطقة». كذلك اكد الوزير السعودي ان الطرفين السعودي والاميركي متفقان حول كل القضايا التي تم بحثها . أما كيسينجر فقد وصف محادثاته مع السقاف بقوله انها « كانت ودية جدا وحارة جدا » واكد انه تم احراز تقدم كبير بالنسبة لتنسيق مواقف البلدين اذ « اننا توصلنا الى تفاهم جيد حول ما يمكن ان نقوم به وحول الموعد الذي سنقوم به » . وقد اكد الجانب الاميركي ان النفط كان احد المواضيع الرئيسية التي جرى البحث فيها وان الرئيس فورد وجه دعوة رسمية الى الملك فيصل لزيارة الولايات المتحدة .

● على صعيد اخر لا بد من الاشارة الى بعض التطورات ذات الطابع الدولي التي طرأت مؤخرا:

١ — انسحاب اليونان العسكري من الحلف الاطلسي وتوتر علاقاتها توترا شديدا مع الولايات المتحدة واتخاذها اجراءات تحد من حرية التصرف الاميركي بالقواعد الموجودة على الارض اليونانية. وجاء كل ذلك نتيجة موقف الحكومة الاميركية من الغزو التركي لجزيرة قبرص ودورها التخريبي في الكارثة التي حلت بالجزيرة الصغيرة . وقد اثار الانسحاب اليوناني مخاوف اسرائيل اذ ان تزويدها بالسلاح من الولايات المتحدة سيكون صعبا بدون استخدام القواعد العسكرية الاميركية خارج البر الاميركي . ومما زاد الوضع سوءا بالنسبة لاسرائيل تبدل السياسة البرتغالية خاصة وان الديكتاتورية السابقة في البرتغال قامت وحدها في السماح للجسر الجوي الاميركي بالتزود في الوقود اثناء نقل الاعتدة العسكرية الى اسرائيل خلال حرب اوكتوبر ١٩٧٣ . وقد ذكرت مصادر اميركية مطلعة ان اسرائيل اعربت للحكومة اليونانية الجديدة عن قلقها الناتج عن انسحاب اليونان من الحلف الاطلسي خاصة وان اراضي اليونان استخدمت بصورة سرية خلال حرب اوكتوبر لنقل الاسلحة الاميركية الى اسرائيل بموافقة الحكومة العسكرية السابقة . ونتيجة لهذه التطورات تصاعدت الدعوات في اسرائيل لاعطاء تسهيلات

الى اميركا بديلة عن التسهيلات العسكرية التي كانت تحظى بها في اليونان . اي تريد هذه الدعوات احلال اسرائيل محل اليونان في الشبكة العسكرية الامبريالية الاميركية العالمية .

٢ ـ اعلان الحكومة الفرنسية لقرارها برفع الحظر عن بيع السلاح الى دول الشرق الاوسط ، أي عمليا لدول المواجهة مصر وسوريا والاردن واسرائيل . واعتبر المراقبون ان القرار سيفيد الجانب العربي بصورة عامة ان اراد الاستفادة من شراء الاسلحة الفرنسية . في حين ان اعتماد اسرائيل على السلاح الاميركي يضع حدودا على امكانات استفادتها استفادة تامة من قرار الحكومة الفرنسية الجديد. وقد صرحت بعض المصادر الاسرائيلية بأنها تعتبر هذا القرار خطيرا جدا ومعاديا لاسرائيل لان الدول النفطية الغنية قادرة على شراء الاعتدة والاسلحة الفرنسية بكميات كبيرة ودفعها الى دول المواجهة اذا دعت الحاجة الى ذلك . وقد ترددت انباء صحفية بأن فرنسا تعهدت ببيع مصر نحو ٥٠ طائرة من نوع ميراج ف ـ ١ وتزويد سوريا بشبكة رادار حديثة . الا ان مصدرا فرنسيا رسميا نفى ان تكون فرنسا قد وقعت اي اتفاق مع مصر او سوريا بهذا الشأن . طبعا ولا يمنع هذا النفي ان تكون الحكومة الفرنسية قد تقدمت بمثل هذا التعهد من حيث المبدأ الى الدولتين العربيتين المعنيتين .

٣ ـ ورود انباء صحفية عن استعداد الولايات المتحدة ومنظمة التحرير لاجراء مباحثات مباشرة حول القضية الفلسطينية . وذكرت هذه الانباء ان الشرط الذي تصر عليه المنظمة من اجل اجراء مثل هذه المحادثات هو ان تكون علنية ، في حين ان كيسينجر يشترط سرية مثل هذه الاتصالات اذا تمت على مستوى عال . في الواقع ذكرت هذه الانباء ان كيسينجر عبر عن استعداده أمام أكثر من زعيم عربي للاجتماع بياسر عرفات شريطة ان يبقى خبر اللقاء سريا . وقد علقت وزارة الخارجية الاميركية على لسان ناطقها الرسمي على هذه الانباء قائلة بأنها لا تستبعد اجراء اتصالات في المستقبل القريب مع منظمة التحرير . الا ان الناطق رفض الدخول في التفاصيل باستثناء التشديد على ان الموقف الاميركي كان يدعو دوما الى أخذ المصالح المشروعة للشعب الفلسطيني بعين الاعتبار في اية تسوية للنزاع في المنطقة . وقد أثارت هذه الانباء قلقا كبيرا في اسرائيل مما دعا الحكومة الاسرائيلية الى توجيه طلب الى الحكومة الاميركية تستوضحها فيه صحة ما يتردد عن احتمال اجراء مفاوضات بين منظمة التحرير والولايات المتحدة . وقد عكس السفير الاسرائيلي في باريس هذا القلق عندما اجاب على سؤال صحفي حول احتمالات لقاء كيسينجر وعرفات بقوله « ان هذا اللقاء لم يتم حتى الان وارجو الا يتم » .

(٣) المناطق المحتلة

ما أنفك الرأي العام والجماهير الشعبية في الضفة الغربية وقطاع غزه ، عن متابعة التطورات ورصد الاحداث والوقائع الفلسطينية ، سواء على صعيد المناطق المحتلة او على الصعيدين العربي والدولي . ومن خلال ما انشغلت به صحف الضفة الغربية وما كرست من اهتمام ملحوظ ، نجد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت الاحتلال ، والمقاومة لتسلطه البغيض ، قد تابعت التطورات الفلسطينية ، وخاصة التطورات السياسية منها . ولا غرو في ذلك ، ان تفرد العديد من افتتاحيات الصحف العربية في الضفة الغربية الحديث عن زيارة وفد الثورة الفلسطينية الى العاصمة السوفياتية وبعض عواصم الدول الاشتراكية الاخرى . كما كان لحادث اعتقال المطران هلاريون كبوجي مطران الروم الكاثوليك في القدس ، اوسع الاثر واعمقه لدى اوساط جماهير الارض المحتلة . والان ، حيث تأخذ القضية الفلسطينية مكانها الطبيعي في الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة ، ما تزال صحف الضفة الغربية والرأي العام الفلسطيني ، داخل الوطن وخارجه ، يتابع باهتمام كبير تطورات عرض القضية وردود فعل مختلف الدول ومواقفها من الحق الفلسطيني في تقرير المصير وبناء كيانه الوطني المستقل*.

الزيارة التاريخية لموسكو

عكس اهتمام الجماهيرية الفلسطينية عموما ، وجماهير الارض المحتلة بشكل خاص ، بزيارة وفد منظمة التحرير لموسكو ، تقديرا كبيرا لدور الاتحاد السوفياتي الصديق للشعب الفلسطيني والامة العربية . وخلال ايام الزيارة الفلسطينية الى موسكو ، كانت صحف الضفة الغربية تبرز في صدر افتتاحياتها وصفحاتها عناوين اساسية حول الزيارة. وكان من الواضح تماما ان اهتمام صحف الضفة الغربية الملحوظ ، بزيارة موسكو ، يؤكد مدى ما تعلقه الجماهير الفلسطينية ، على تطوير وتمتين العلاقة مع الاتحاد السوفياتي حليف الشعوب ، وخاصة في هذه المرحلة التي يناضل فيها الشعب الفلسطيني بدعم من كل اصدقائه وحلفائه ، وعلى رأسهم الاتحاد السوفياتي ، لاستعادة هويته الوطنية وبناء كيانه المستقل .

فتحت عنوان « شتان ما بين مشرق ومغرب »، علقت صحيفة الشعب الصادرة في ٧٤/٧/٣٠ ، على اهمية الزيارة وتوقيتها فقالت « ان زيارة عرفات لموسكو تنفرد هذه المرة من حيث الاهمية القصوى بأمرين : موضوعيا — انه سيحل ضيفا على ليونيد برجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي كأي رئيس دولة، فضلا عن ان المحادثات مع وفد فلسطين سيقوم بها وزير الخارجية اندريه غروميكو ، وتوقيتا — تأتي الدعوة والاستجابة في وقت وظرف هامين جدا بالنسبة لاحداث المنطقة وما يدور فيها ومن حولها او من حيث العلاقات الفلسطينية — السوفياتية على اسس واضحة ذات ابعاد خطيرة وحاسمة ». وبعد ان قارنت « الشعب » بين العلاقات الاردنية — الاميركية — الاسرائيلية من جهة ، والعلاقات الفلسطينية — السوفياتية من جهة اخرى ، وزيارة الوفد الفلسطيني الى موسكو وزيارة كل من زيد الرفاعي وييجال آلون لواشنطن ، مضت « الشعب » قائلة « ومع انه شتان ما بين مشرق ومغرب ، الا ان الزيارة الفلسطينية تنطوي على حقوق شعب يطالب ويصر عليها ويتداول وجهات النظر مع عملاق صديق هو الاتحاد السوفياتي تكشف طبيعة الزيارات المضادة ممن لا يملك ولا يستحق لبحث باطله مع عملاق عدو هو الولايات المتحدة الاميركية » .

وعادت « الشعب » مرة اخرى للتعليق على انباء الزيارة منوهة بالتحالف مع الاتحاد السوفياتي ومنددة ، في آن معا ، بالولايات المتحدة وسياساتها الشرق اوسطية ، تقول : « وفي الجانب الاخر يبقى الاتحاد السوفياتي حليفا عملاقا للحق العربي الفلسطيني خاصة والحق العربي عامة . وما يلقاه اليوم في موسكو وفد منظمة التحرير من تكريم يقوم على الاعتراف الكامل بالحق الفلسطيني المشروع ، وبمنظمة التحرير ممثلة وحيدة لشعبها في كل مكان وعن افتتاح مكتب للمنظمة — كمفوضية — رسمية ، الى جانب ما

---

* سوف نقوم في العدد القادم من « شؤون فلسطينية » بتغطية شاملة لهذا الموضوع من جميع جوانبه .

تناقلته الانباء من تزويد الفلسطينيين باسلحة حديثة ومتطورة « هذا كله يعطي العرب الصورة المضادة والقناعة الامينة الصادقة بان الاتحاد السوفياتي يقف في خندق العروبة دفاعا عن الحق في حين تقف الولايات المتحدة بكل ثقلها في خندق الاعداء من اقربين وابعدين » (الشعب ٧٤/٨/٤) .

وبعد ان انهى وفد المنظمة زيارته لموسكو ، واصدر البيان الختامي مع الجانب السوفياتي ، استعرضت « الشعب » عبر افتتاحيتها الرئيسية ، المنجزات العامة التي تم التوصل اليها مع السوفيات واثرها على مستقبل النضال الفلسطيني ، والدور الهام الذي تلعبه العلاقات الفلسطينية ـ السوفياتية ، في الوقوف في وجه المشاريع الامبريالية الهادفة الى فرض الاستسلام على الشعوب العربية ، وقالت « الشعب » في افتتاحيتها هذه « ان بيان موسكو الصريح كان ردا على ان بيان النجزئة في الاسكندرية كما يعتبر انذارا لواشنطن وهي تمارس لعبتها القديمة الجديدة بين طفليها المدللين ، الاردن واسرائيل ، في اعقاب اختتام الون زيارته وبدء الرفاعي لها ، وما قيل من ان اميركا تعمل على ايجاد ما اسمته بالحل الوسط بين الجانبين ، ذلك الحل المهزلة الذي يتطوع به من ليس مؤهلا باي شكل بالتدخل بشؤون المنطقة العربية والفلسطينية لانه طرف منحاز ومرفوض ، واي اتفاق بين الاردن واسرائيل على هذا السبيل الامبريالي او ذاك ، لا يعدو اتفاقا بين من لا يملك مع من لا يستحق ومن قبل القاتل الاميركي لشعبنا والعدو الوحيد لامتنا » .

اعتقال المطران كبوجي

اعلن ، في ٧٤/٨/١٨ ، ان المطران هيلاريون كبوجي ، مطران طائفة الروم الكاثوليك في القدس، قد تم اعتقاله على يد رجال الشرطة الاسرائيلية . وقالت الشرطة في معرض اعلانها عن اعتقال المطران ، انه متهم بالتعاون مع المقاومة الفلسطينية وانه « ممثل لحركة فتح في القدس والضفة الغربية » ، وانه قام بنقل الاسلحة والمتفجرات من قيادة فتح في لبنان الى الفدائيين بالضفة الغربية ، وان هذه الاسلحة والمتفجرات استخدمت في الاعمال الفدائية التي وقعت مؤخرا في المناطق المحتلة وعلى الاخص في مدينة القدس .

وادعت سلطات الاحتلال انها عثرت لدى تفتيش سيارة المطران ، على مخابىء سرية تحتوي على كميات كبيرة من الاسلحة في معظمها بنادق سريعة الطلقات ومسدسات اتوماتيكية وقنابل يدوية ومتفجرات واجهزة تفجير . وقالت الشرطة كذلك ان المطران سيحاكم امام المحكمة المركزية في القدس بتهمة حيازة اسلحة ومتفجرات بطريقة غير مشروعة وبتهمة الانتماء الى المنظمات « الارهابية » .

وقد ادى اعتقال المطران الى موجة عنيفة من ردود الفعل داخل فلسطين المحتلة وخارجها . ففي القدس وسائر مناطق الضفة الغربية ، بدى الوجوم والاستنكار العام على وجوه المواطنين . وقد قام عدد من القساوسة وكبار رجال الكنائس في الضفة الغربية بالاتصال بالسلطات المحتلة بهدف الافراج عن المطران المعتقل .

ويذكر ان بطريركية الروم الكاثوليك قد اصدرت في لبنان بيانا يشجب عملية اعتقال المطران كبوجي. وجاء في بيان البطريركية : « ما كنا لنعجب مما اذاعته اليوم وكالات الانباء العالمية عن توقيف سيادة المطران هيلاريون كبوجي الجزيل الوقار ، الوكيل البطريركي العام للروم الكاثوليك في القدس . وان في هذا الخبر وملابساته دسيسة جديدة المقصود منها الايقاع بشخص عربي مسيحي كبير ضمن المخطط الاسرائيلي المعروف لتهويد مدينة القدس وتهجير اهلها بوسائل الارهاب المختلفة. وكما جاء في الانجيل المقدس : « يضربون الراعي لتتبدد الرعية » . ولا شك ان هذه الاجراءات التعسفية هي ضمن مخطط عام للمس بالسلطات الكاثوليكية بعد المواقف المعروفة لقداسة الحبر الاعظم البابا بولس السادس لمصلحة حقوق الشعب الفلسطيني التي كان المطران هيلاريون من كبار المدافعين عنها » .

ويذكر كذلك ان مصدرا اعلاميا في منظمة التحرير الفلسطينية قد اذاع بلاغا حول نفس الحادث جاء فيه : « ان سلطات الاحتلال التي دأبت باستمرار على اتباع سياسة تخريب الثقافة الوطنية ، وتدنيس المقدسات ، تستفز بهذه السياسة المشاعر الوطنية والدينية لسائر القوى تحت ظل الاحتلال . ومن الجدير بالذكر انها ليست المرة الاولى التي تقدم فيها هذه السلطات على جريمة التعرض للشخصيات الدينية . فقد قامت باعتقال وابعاد

القس ايليا خوري والشيخ عبد الحميد السائح خارج الوطن المحتل ، ولا يزال الشيخ هاشم الخزندار في غزة سجينا لدى العدو الصهيوني . ان الجهات المسؤولة في منظمة التحرير الفلسطينية تعمل الان على متابعة هذه القضية باهتمام كبير ، وتتصل بكافة الجهات المعنية بما فيها مقر البابوية في روما والهيئات الدولية والامم المتحدة » .

ومن ناحية اخرى فقد أبرزت صحف الضفة الغربية حادث الاعتقال هذا ، وخصته بعدد من الافتتاحيات والتعليقات الرئيسية . فقالت صحيفة الشعب : « من حيث لا يتوقع احد او يحتسب ابدا ، قامت سلطات الاحتلال باعتقال المطران كبوجي مطران الروم الكاثوليك وألصقت به تهمة أمنية خطيرة » . وتضيف الصحيفة قائلة : « ان رابين رئيس الوزراء نفسه هو الذي أمر باعتقاله بعد أن كان الاتجاه منصرفا الى الاكتفاء بابعاده . ان الناس في الاحتلال يعرفون ان الرجل لم يكن من موالي السلطة او اتباعها وله مواقف طالما ازعجتها سواء في خطبه ايسام الاحاد او وقفته المعروفة في كلية الفرير ودفاعه عن عروبة القدس ، ورده المباشر على تخرصات المطران ريا » (الشعب ٧٤/٨/٢٠) .

وكانت الشعب قد كتبت بتاريخ ٧٤/٨/١٩ وبعد الاعلان عن اعتقال المطران مباشرة ، قائلة : « في القدس والاراضي المحتلة ولدى تلقي الناس نبأ القاء القبض على المطران كبوجي سادهم الوجوم وفاجأهم ما زعم حوله من شبهات واتهامات . وقد جرت أمس عدة اتصالات بين رجال الدين المسلمين بهذا الصدد ، كما تقيم الطائفة اليوم في الدير صلاة على نيته للخلاص من المحنة التي يراد له ان يجتازها » (الشعب ٧٤/٨/١٩) .

اما صحيفة الفجر ، فقد كتبت حول الموضوع نفسه — بعد أن أبرزت نبأ الاعتقال في صدر صفحتها الاولى ومن خلال عنوانها الرئيسي — تقول على لسان الاب بطرس جرايجري : « ان المطران كبوجي انسان وطني ويصر على حرية وعروبة وطنه . وقد صرح بذلك علنا في اجتماعات شعبية في رام الله والقدس حيث اكد ضرورة انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة بما في ذلك القدس ، وقد نشر حديثه في حينه بالصحف مما دعا السلطات للتفكير بالايقاع به » . وبين الاب بطرس جرايجري الذي اعتقل مع المطران في البداية وحقق معه ، الكيفية التي تمت فيها عملية اعتقال المطران، وكذب ادعاءات سلطات الاحتلال عن ضبط اسلحة في سيارة المطران واعترافه بذلك . وفي ختام حديثه أعلن الاب بطرس ان الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين من ابناء طائفة الروم الكاثوليك سوف يسيرون على خطى المطران في مناهضة الاحتلال والدفاع عن عروبة الاراضي المقدسة . (الفجر ٧٤/٨/٢٠) .

ونقل تقرير خاص لوكالة الانباء الفلسطينية (وفا) من الاراضي المحتلة ، على لسان الاب بطرس جرايجري قوله اثناء مقابلة له مع ابناء طائفة الروم الكاثوليك : « ان سلطات الاحتلال لا تريد لاحد ان يرفع صوته عاليا » . وكشف ان المخابرات الاسرائيلية قد حققت معه عدة مرات ، وكانت تعامله بأسلوب مشين لا يليق برجل الدين . وقال الاب بطرس : ان الهدف من وراء اعتقال المطران كبوجي « ابعاده واهانته » لمواقفه المناهضة لسياسة تهويد القدس . وتساءل : هل من يعمل من اجل الاماكن المقدسة مسلما او مسيحيا صار مجرما ؟! وأفاد تقرير (وفا) ان ابناء طائفة الروم الكاثوليك في القدس قد نظموا مسيرة صامتة تعبيرا عن تضامنهم مع المطران كبوجي . وأضافت الانباء الواردة من الارض المحتلة ، ان سلطات الاحتلال تروج حاليا لابعاد المطران كبوجي الى خارج فلسطين المحتلة ضمن مخططها الرامي الى تفريغ مدينة القدس من رؤسائها الروحيين وأصحابها الشرعيين . وفي نابلس قدم المواطنون المسلمون والمسيحيون مذكرة احتجاج موجهة الى فالدهايم السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة والى مكتب الصليب الاحمر الدولي في جنيف يناشدون فيها التدخل السريع لاطلاق سراح المطران كبوجي .

وورد من مصادر الثورة الفلسطينية ، ان الانباء الواردة من الاراضي المحتلة تقول بأن المنشورات الثورية المعادية للاحتلال قد عمت مختلف مدن الضفة الغربية منددة بالاحتلال وباعتقال المطران كبوجي .

ويذكر ان سلطات الاحتلال قد أعلنت في الاول من (سبتمبر) تجديد فترة توقيف المطران كبوجي ١٢ يوما اضافية بناء على طلب الشرطة الاسرائيلية. وخلال هذه الفترة سيقدم قرار الاتهام الى المحكمة.

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

١ ــ ردود الفعل الاسرائيلية على عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة

أثار قرار الدول العربيــة ، الذي اتخذ خلال اجتماعات الدورة الاخيرة للجامعة العربية ، بشأن عرض القضية الفلسطينية كبند مستقل على جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة التي افتتحت الشهر الماضي ، ردود فعل اسرائيلية عديدة ، لجهة تأثير هذه الخطوة على أوضاع اسرائيل خاصة وأزمة الشرق الاوسط عامة . ويتضح مــن مجمل التصرفات والتعليقــات التي صدرت حول هــذا الموضوع ان اسرائيل ، على الصعيد الرسمي على الاقل ، تنظر بخطورة بالغة الى مثل هذا التطور ، اذ قام المسؤولون الاسرائيليون ، بعد أن تأكدوا من ان القضية الفلسطينية ستعــرض على الامم المتحدة ، بعقد سلسلة من المشاورات لبحث أنسب الطرق للتصدي لتلك المحاولة . وكانت أول خطوة اتخذتها السلطات الاسرائيلية على اثر ذلك قيام وزير الخارجية ونائب رئيس الحكومة يغال آلون بارسال رسائل الى « عدد من الدول الصديقة » طالبا منها الوقوف الى جانب اسرائيل فــي الامم المتحدة ، عند طرح هــذا الموضوع (معاريف ، ٧٤/٨/٦) .

يتفق معظم المعلقين الاسرائيليين على ان امكانات نجاح الفلسطينيين في الحصــول على قرار يؤيــد حقوقهم في الامم المتحدة كبيرة للغاية ، ذلك لان الامم المتحدة « بتركيبها الحالي ، ستوافــق على اي مشروع قرار مؤيد للعرب ، خاصة اذا كان هذا القرار مصاغا بحكمة ويعتمد بشكل ما على قــرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ ، الذي كان من المفروض اقامة دولتين ، يهودية وعربية ، بموجبه » (افتتاحية معاريف ، ١٩٧٤/٩/٣) ، بينما أشار مراسل دافار (٧٤/٩/٣) للشــؤون العربية ان « حسابــات (الفلسطينيين) هي انه يمكن الحصول على اكثرية واضحة تؤيــد قرارا يصاغ بــروح القــرارات الفلسطينية التي اتخذت في مؤتمر القمة الاسلامية في لاهور ومؤتمر القمة الافريقية ، ثم الزام الدول الغربية باتخاذ مواقف اكثر وضوحا » . ويبدو ايضا ان المسؤولين الاسرائيليين قد فقدوا الامل في منع اتخاذ قــرار في الامم المتحــدة يعترف بحقــوق الفلسطينيين ، اذ « ليس لدى اي شخص شك بأن العرب سيؤمنون أكثرية لاقتراحاتهم ، فتحت تصرفهم تقف كل دول افريقيا والكتلة الشرقية وكما يبدو معظم دول أوروبا وأمريكا الجنوبية ، الذين لن يجرأوا على التحــرش بالمال والنفــط . ففي « البرونه » التي جرت في مؤتمر الدول غير المنحازة في الجزائر ، صوتت ٩٠ دولة ، من بين ١٣٥ دولة عضوا في الامم المتحدة ، الى جانب مشروع قرار يدعو الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينيــة وبحقوق الفلسطينيين » (ماتي غولان ــ هآرتس ، ٧٤/٩/٦) . ولهذا تم الاتفاق في المشاورات التي جرت في القدس بأن المشكلة ليست الاعتراف او عدم الاعتراف بمنظمة التحريــر الفلسطينية وانما كمية وماهية الاعتراف الذي سيمنح لحقوق الشعب الفلسطيني « خاصة وان كل الدلائل تشير الى ان العرب يتجهون هذه المرة للحصول على قرارات أكثر تفصيلا ووضوحا وتطرفا . وفي القدس لم يستطوا من الحسبان تقديم مشروع قرار للاعتراف بحــق الفلسطينيين في استقلالهم الوطني ــ وقد ترسم ضمن هذا القرار حدود الضفة الغربية وكأنها حدود الدولة التي يتم ضمنها تنفيذ هذا الحق » .

ومن ناحية ثانية ، تبدي دوائر اسرائيلية عديدة تخوفها من نتائج حصول الفلسطينيين على اعتراف عالمي بحقوقهم وتأثير ذلك على اسرائيل من جهة والمنطقة بأسرها من جهة اخرى ، وتعتبر ان هذه الخطوة موجهة في الاساس ضد اسرائيل وتمسها بشكل مباشر . فاعتراف الامــم المتحدة بحقــوق الفلسطينيين « لا يتضمن الاعتراف فقط من قبل الامم المتحدة ومعظم الدول المنتمية لها بمنظمة التحرير الفلسطينية . ان مغزاه قد يكون اكثر من ذلك : انه يعني اضفاء صبغة شبه رسمية على اهداف منظمة التحرير الفلسطينية ، مع كل ما لذلك من مغزى بالنسبة لمركز اسرائيل ومواقفها» (يهوشواع تدمور ــ دافار ، ٧٤/٩/٤) . كذلك فان هذه الخطوة قد تكون فاتحة لخطوات أخرى ، و « من

المستحسن ان نعرف ان منظمة التحرير الفلسطينية لن تكتفي بالاعتراف بها فقط ـ انها تسعى الى اكثر من ذلك : الى قرار صريح بشأن اقامة دولة فلسطينية ، مرفقا بنداء لاسرائيل لتنفيذ قرارات الامم المتحدة » . ويبدو ان اليوم الذي سيصدر فيه تفسير معتمد « لقرارات الامم المتحدة » لن يكون بعيدا ، اي حدود ١٩٤٧ ، بناء على موقف « المعتدلين » في منظمات التخريب ، وهو أمر سيحظى بالتأكيد بموافقة الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الشيوعي . ان معنى هذا ان امامنا معركة قاسية جدا ، ستكشف جذور الخلاف في المجال الفلسطيني ، عندما سيقف في مواجهتنا المتطرفون من بين الفلسطينيين او اولئك الذين يسيرون في اعقاب الخط الذي يقرره المتطرفون » (المصدر نفسه) .

اضافة الى ما ذكرنا ، يبدو ان الاتجاه الى عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة واحتمالات صدور قرارات معينة لجهة الاعتراف بحقوق الفلسطينيين قد دفع اسرائيل الى اعادة النظر في مواقفها من المحاولات الجارية لتسوية الازمة في المنطقة ، وخاصة في موقفها من الاردن . وعلى الرغم من بعض التصريحات التي دعت الى الاسراع في المفاوضات في الاردن ، « لانه على اسرائيل والاردن ان تفهما ان الطريق المسدود الذي وصلت اليه المحادثات بينهما، يضعف كليهما سوية» (اريئيل غيتاي ـ يديعوت احرونوت ، ٧٤/٩/٦) وعلى الرغم من تصريح وزير الاعلام الاسرائيلي ، أهرون ياريف (في مقابلة مع دافار ، ٧٤/٩/١٣) بأنه لا يؤيد اتخاذ اية خطوة من جانب اسرائيل تمس بالبيان المصري الاردني لجهة اعتراف مصر بحق الاردن ايضا في تمثيل الفلسطينيين ، فان معظم ردود الفعل الاخرى اشارت الى ان صدور « قرارات فلسطينية » في الامم المتحدة يضعف موقف الاردن بشكل جدي . « فمن الواضح ان مثل هذا الوضع يمس أسس المملكة الاردنية في صميمها ، لانه من الصعب التصور كيف يمكن ان يستمر هذا البلد في البقاء اذا كان ٦٠ ٪ من سكانه او أكثر ممثلين ـ وفقا لقرار دولي ـ بواسطة هيئة اخرى مختلفة عن الحكومة الشرعية في عمان » (غيتاي ، المصدر السابق) . كذلك « فانه اذا اتضح انه ليس لدى الاردن تفويض عربي للبحث مع اسرائيل بشأن مستقبل المناطق (المحتلة) وسكانها ، فمن الواضح ان لا فائدة هناك من المفاوضات والاتفاقيات معه حول مستقبل تلك المناطق وسكانها ، ولا حتى لاتفاقات جزئية بهذا الشأن » (حفاي ايشد ـ دافار ، ٧٤/٩/٤) ، وكان ايشد قد صرح في مقابلة له مع الاذاعة الاسرائيلية (ر ا ا ، ٧٤/٩/٣) ان الاتجاه لعرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة « هو مناورة من جانب الفلسطينيين . ان منظمة التحرير تحاول ان تناور للحصول على تأييد اميركي ضد الاردن ، بمساعدة « الفزاعة » السوفياتية . بل اكثر من هذا ، ان هناك مناورة بين الاميركان وبين السوفيات ، وبين كل هؤلاء وبين مصر ، وكل هذا ضد الاردن ، لان الجهة المطالبة بالتمثيل الفلسطيني امام اسرائيل هي الاردن » . أما يهوشواع بورات ، احد المستشرقين الاسرائيليين ، صرح أيضا بأنه « من ناحية الفلسطينيين والعراق ودول عربية أخرى ، هناك نية لعزل الاردن ، واظهاره كعنصر لا مكانة له ، وانه ليس باستطاعته الحصول على حلفاء في العالم العربي او في العالم الثالث ، حول كل ما يتعلق بقضية فلسطين » (المصدر نفسه) .

وتعلق اسرائيل اهمية كبرى على موقف اميركا من بحث القضية الفلسطينية وتبدي شكوكها بشأن هذا الموقف وامكان حدوث تغيير فيه يميل الى اقامة صلات ما مع الفلسطينيين او منحهم اعترافا من قبل الولايات المتحدة، خاصة وان التقييم الاسرائيلي للخطوات الفلسطينية المقبلة يركز على ان الفلسطينيين يسعون أولا الى الاعتراف بحقوقهم من قبل الامم المتحدة ومن ثم طرح انفسهم كعامل مستقل له علاقة خاصة بالازمة في المنطقة، والانطلاق من هذا الموقف للمطالبة بحقوقهم . وتزداد شكوك الاسرائيليين في ضوء تصرفات الولايات المتحدة خلال الآونة الاخيرة وموقفها من الفلسطينيين . « فحتى الجمعية (العمومية) الاخيرة صوتت الولايات المتحدة بشكل شبه تقليدي ، سوية مع اسرائيل ، ضد كل مشروع قرار يذكر حقوق الفلسطينيين او يشير اليها . ولكن انزلاقا جديا حدث في موقف الولايات المتحدة خلال السنة الاخيرة ، اذ صوتت الى جانب اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر الصليب الاحمر في جنيف وفي مؤتمرات بودابست وكراكاس ، اي عمليا ، في كل مرة أثير فيها الموضوع . ان اعترافا رسميا (طريق التصويت)

في الجمعية العمومية ، لجهة التمثيل او الحقوق ، هو بحد ذاته ، بالطبع ، مسألة اخرى . ولكن على الرغم من ذلك فقد ظهر شك بأن الاتجاه الذي ظهر في المؤتمرات المختلفة سيجد تعبيرا عنه في الجمعية » (ماتي غولان — هآرتس ، ٧٤/٩/٦) . وكانت اسرائيل قد استقسرت من الولايات المتحدة حول صحة الانباء التي ترددت بشأن لقاءات بين مسؤولين امريكيين وفلسطينيين ، غير انها لم تحظ برد على استفساراتها تلك . كذلك كان قد اعلن في حينه ان هذه المسألة ستكون بين تلك التي سيبحثها رابين مع فورد اثناء زيارته الاخيرة الى اميركا .

اما بشأن موقف الاتحاد السوفياتي ، فمن الواضح انه يؤيد موقف المنظمة وهو الذي يقف ، بحسب رأي معظم المعلقين الاسرائيليين ، وراء طلبها لادراج القضية الفلسطينية على جدول اعمال الامم المتحدة ، وذلك بعد ان « اوضح لعرفات انه بدون موافقة الاميركيين لن يستطيع الاشتراك بشكل او بآخر في مؤتمر جنيف ، ولكن بعد اتخاذ قرار بهذا الشأن في الامم المتحدة سيصعب على كيسنجر ان يعارض دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مرحلة معينة من المؤتمر » (دوف ايغل — دافار ، ٧٤/٩/٦) .

وقد عقد الكنيست جلسة استثنائية يوم ٧٤/٩/٩ ، بناء على طلب المعارضة (ليكود) ، لمناقشة « تقصير » الحكومة الاعلامي وعدم تصديها بصورة جدية ، بحسب رأي المعارضة ، لمحاولة طرح القضية الفلسطينية على الامم المتحدة . وبعد جلسة قصيرة هاجم فيها النائب اريدور الحكومة بسبب مواقفها تلك ورد عليه وزير الخارجية معلنا انه لا يجوز اعتبار الفلسطينيين وكأنهم جميعا ارهابيون ، وانهم وحدة اثنية لها أمانيها وآمالها ، تم تحويل الموضوع الى لجنة الخارجية والامن لدراسته .

٢ — « الجبهة الوطنية الفلسطينية » في المناطق المحتلة : نشاطها ، أهدافها ، وحملة الاعتقالات ضدها

شنت السلطات الاسرائيلية خلال الاشهر الاربعة الاخيرة اوسع حملة اعتقالات في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، وقد بدأت هذه الحملة في أواخر شهر نيسان الماضي واستهدفت أعضاء الجبهة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، الذين مارسوا نشاطهم ضد الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ . واعترفت المصادر الاسرائيلية بهذه الحملة، اذ أعلنت صحيفة دافار (٧٤/٥/١٤) عن اعتقال زعماء الشيوعيين في الضفة الغربية ، ولكنها لم تذكر عدد المعتقلين . واكتفت بذكر ابرزهم : حسني حداد من بيت لحم ، دكتور فرحان من نابلس ، محمد عباس عبد الحق ، محمود شقير ، غسان حرب ، سليمان النجاب ، حسين ابو غربية ، خليل حجازي وعادل البرغوثي. بينما ذكرت صحيفة الاتحاد (٧٤/٤/٢٦) — نقلا عن صحيفة الشعب الصادرة في القدس العربية — أسماء اخرى ، من بينها ابراهيم الجولاني وطاهر عرفة وماجد ابو سرية ، وعادل الرجب وعمار الشرباتي والصحافي المعروف غسان طهبوب ، وعمر عودة .

وقد استمرت حملة الاعتقالات هذه عدة ايام ، حتى شملت معظم اعضاء الجبهة الوطنية في الاراضي المحتلة ، ووصل عدد المعتقلين الى اكثر من ٣٩٠ شخصا (الاتحاد ، ٧٤/٥/٧) . وتميزت جميعها بأنها اعتقالات سياسية تعتمد على أوامر اعتقال ادارية يصدرها وزير الدفاع ضد هؤلاء الاشخاص ، حيث يتم تجديدها كل بضعة اشهر .

تبرير الاعتقالات

منذ اليوم الاول لبدء حملة الاعتقالات والصحف الاسرائيلية تحاول تبريرها ، استنادا الى ادعاءات دوائر الامن ، بأنها تعتمد على الشك في محاولة انتقال الحزب الشيوعي في الضفة « الذي يكون العمود الفقري للجبهة الوطنية » (دافار ، ٧٤/٢/٧) من مجال الدعاية المعادية لاسرائيل الى مجال النشاط الفدائي ، خاصة بعد ان اتضح في الاونة الاخيرة ، حدوث تغير في سياسة الحزب في اتجاه ممارسة « الارهاب » ، وقد أدى هذا التغيير الى رد فعل عنيف من جانب سلطات الامن (دافار ، ٧٤/٥/١٤) .

وحاول احد المعلقين ، الربط بين نشاط الجبهة الوطنية وبين موجة العمليات الفدائية في اسرائيل والمناطق المحتلة التي سبقت الاعتقالات . وقال انه قبيل « يوم الاستقلال » ، في اواخر نيسان ، استعدت قوى الامن لامكانية حدوث نشاط (فدائي) متزايد . وبأمر من المستويات العليا تم اعتقال عشرات من الشبان العرب والتحقيق معهم . (داني روبينشتاين — دافار ، ٧٤/٥/٥) .

وحاول روبينشتاين ابراز خلفية هذه الاعتقالات ، معلنا عن وجود غليان كبير بين مجموعات من الشباب العربي ، وخاصة في الضفة الغربية والقدس الشرقية . وقال ان اماكن تجمع الشبان العرب كانت دائما ولا تزال بمثابة بؤر لتنظيم الشبكات السرية . ففي اماكن مثل كلية النجاح في نابلس ، ودار المعلمين في رام الله ، والصفوف الجامعية في كلية بير زيت ، لم تطأ قدم زائر اسرائيلي تقريبا . والجو هناك مليء بالعداء العميق لاسرائيل . حتى ان جزءا كبيرا من الشبان يرفض بصورة مبدئية ، تبادل الحديث مع اي اسرائيلي . ويضيف الكاتب ان المجموعات المتطرفة ابان الحكم الاردني ، مثل القوميين العرب ، والبعث والشيوعيين ، كانت تعتمد في غالبيتها على شبان من هذه المؤسسات وعلى شريحة واسعة من المعلمين ، وخريجي الكليات المختلفة ، الذين يمارسون مهنة التدريس في جميع مدارس الضفة .

ولكن روبينشتاين يعترف بأن هذه المجموعات فضلت طوال سني الاحتلال ممارسة نشاط سري ذي طابع ايديولوجي . « ولكن أحداث الاسابيع الاخيرة اثارت الشك لدى اوساط اسرائيلية ، بأن النشاط السياسي السري قد خلق في اعقابه تنظيما بهدف القيام بأعمال تخريبية اكثر جدية ... وابرز مثال على ذلك هو الحزب الشيوعي الاردني ، الذي يصدر منذ عدة سنين صحيفة سرية ، هي «الوطن»، تدعو الى التحرر من الاحتلال الاسرائيلي » .

ويضيف الكاتب ان الشيوعيين برروا طوال الوقت اعمالا تعبر عن « المعارضة الشرعية للاحتلال » ولكن هذه المعارضة اعتمدت على توزيع المناشير ومحاولات خلق تمرد مدني ، وليس على التخريب . ومن المحتمل جدا ان تكون الاحداث السياسية في المنطقة قد حثت الشيوعيين على تكثيف نشاطهم. « ان الشيوعيين والمقربين اليهم من رجال البعث هم المجموعات الاقوى تنظيما في المناطق . وأعمالهم موجهة بحذر من الخارج — وخاصة من مراكز الحزب الشيوعي والبعث في سوريا ولبنان . ثمة من يعتقد ان التعليمات من هذه المراكز تتمثل في زيادة النشاط من اجل خلق خلفية ملائمة من ناحيتهم لتقوية المطالب العربية في اي مفاوضات مع اسرائيل . لذلك يبدو ان موجة التخريب الاخيرة التي تجتاح اسرائيل والمناطق ، ليست كالماضي ، من ثمار تخطيط وعمل المنظمات الفلسطينية المادية، وانما هي انتاج جديد من شبيبة تتمتع بثقافة اوسع وذات تنظيم سياسي وايديولوجي يساري » .

وتحت عنوان « الشيوعيون في الضفة أصبحوا عدائيين » كتبت صحيفة يديعوت احرونوت (٧٤/٥/٢) ، « ان الحكم العسكري الاسرائيلي ، تحلى بصبر كبير تجاه نشاط الشيوعيين ، من خلال الافتراض ، بأن هذا الحزب لن يمارس الارهاب والعنف . ولكن أحداث الايام الاخيرة برهنت العكس : فقد اكتشفت قوى الامن شبكات تخريب شيوعية ، خططت ونفذت ، كما يبدو ، عمليات التخريب الاخيرة في القدس والضفة الغربية » .

وتضيف الصحيفة « ان الحزب الشيوعي بقي بعد حرب الايام الستة ، كما كان من قبل — صغيرا ، منظما ، سريا وبعيدا عن النشاط التخريبي . وانه استمر في نشاطه السري ، حتى بعد طرد بعض زعمائه : رشدي شاهين من نابلس (طرد في عام ١٩٦٨) ونعيم الاشهب » .

الجبهة الوطنية — أهدافها

أقيمت الجبهة الوطنية الفلسطينية في أواسط عام ١٩٧٣ ، في المناطق المحتلة، حول الخلايا الشيوعية هناك . (أهود يعري — دافار ، ٧٤/٧/٢) . وتضم الجبهة ايضا ، عدا الشيوعيين ، أعضاء حزب البعث والقوميين العرب سابقا . وقد انتظموا جميعا في هيئة واحدة اطلقوا عليها اسم « الجبهة الوطنية الفلسطينية » .

وقد اعترف اعضاء الجبهة علنية بانشائها ، ونشروا قبل اعتقالهم بيانا طويلا ، فصلوا به آراءهم . ويمكن تلخيص نقاطه الاساسية على النحو التالي ، كما نقلها داني روبنيشتاين في دافار ، ١٩٧٤/٩/١ :

● ان نضال الجبهة هو جزء من النضال العربي والعالمي .

● اذا اعتبرت مشكلة الفلسطينيين في الماضي مشكلة لاجئين بحاجة الى اعادة تأهيلهم (بمثابة مشكلة اجتماعية) ، فان الامر يختلف الان . فهي مشكلة شعب يطالب بحقه في تقرير مصيره في وطنه.

● منذ معركة الكرامة (آذار ١٩٦٨) ، التي كانت نقطة تحول ، بدأ الاعتراف بحقوق الفلسطينيين . واستطاعت منظمة التحرير الفلسطينية كسب الاعتراف والتأييد في جميع انحاء العالم ، حتى اصبح معترفا بها بأنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . لذلك ارتقت منظمة التحرير الفلسطينية الى مستوى حركة تحرر قومية ، ولن يتحقق حل في الشرق الاوسط بدون حل المشكلة القومية للفلسطينيين . وهذا الحل لا يمكن ان يتحقق دفعة واحدة وانما على مراحل . وهم يتم بموجب القرارات الدولية ومؤتمر جنيف . ان القرار الاول والاساسي هو قرار التقسيم في عام ١٩٤٧ ، الذي يعترف بحق اسرائيل في الوجود ، ولكن على اسرائيل ان تتخلى عن الفكرة الصهيونية ، لانها هي التي تخرب انشاء علاقات بين الشعبين .

● ان القرار ٢٤٢ لا يلزم الفلسطينيين ، طالما ان اسرائيل لم تنفذ قرارات الامم المتحدة السابقة، وطالما تسيطر على مجالات اوسع مما خصص لها في عام ١٩٤٧ .

● تؤمن الجبهة بانشاء دولة فلسطينية على أرض فلسطين بحيث تكون دولة ديمقراطية ، ذات طابع اشتراكي ، ولها علاقات وحدوية مع العالم العربي — وخاصة مع الاردن — وتحترم الحقوق الدولية .

● تعارض الجبهة كل فكرة تتعلق باقامة دولة محمية في الضفة الغربية ، كما تعارض مشاريع التأهيل التي « تبعث على الشك » ، وستناضل ضد مشروع حسين ، وضد اي مشروع اسرائيلي .

● تعتبر الجبهة نفسها ممثلة عن المناطق في اي مفاوضات . ورد في البيان ايضا : « ان الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة هي ذراع لمنظمة التحرير الفلسطينية وممثلة القوى الوطنية في الارض المحتلة . انها ستقود الشعب وتكتله من حول منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لشعبنا في المناطق وخارجها . وكل محاولة (تمثيل) اخرى باستثناء الجبهة والمنظمات (منظمة التحرير الفلسطينية) محظورة ، لانها ستخطىء الهدف وتكون أداة في أيدي الاستعمار الاميركي » .

ويحاول الكاتب تعليل الانتظام المتأخر للجبهة الوطنية ، بعد مرور سبع سنوات على الاحتلال الاسرائيلي ، فيقول ان النشيطين العرب ، المعادين للحكم الهاشمي وللزعامات التقليدية في المناطق المحتلة ، أدركوا ، بعد احداث الحرب ، ومؤتمر جنيف واتفاقات الفصل والحديث عن مراحل سريعة أخرى ، انهم اذا لم يسرعوا بالعمل ، فسيتأخرون. انهم يخشون اليوم ، أكثر من الماضي ، من الوصول الى قرار بشأن حل ، من وراء ظهورهم . وبصورة طبيعية جدا ترأس الجبهة نشيطو الحزب الشيوعي المنظم، حيث ضموا اليهم عناصر ذات طابع مشابه.

كما يمكن التعرف على مبادىء الجبهة الوطنية من خلال الرسالة التي بعثت بها الى منظمة التحرير الفلسطينية في تاريخ ١٩٧٣/١٢/١ (ونشرتها الاتحاد ، ١٩٧٤/٢/١٩) ، شارحة فيها موقفها من أهم القضايا التي تواجه الفلسطينيين في هذه المرحلة . وتعتبر هذه الرسالة بمثابة وثيقة ، تبين موقف الجبهة وآراءها ، منذ تأسيسها . وأهم ما ورد في هذه الرسالة :

١ — ترى الجبهة الوطنية ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الهيئة الوحيدة القادرة على تمثيل الشعب الفلسطيني .

٢ — تدعو الجبهة الى اشتراك المنظمة في مؤتمر جنيف ، قائلة ان « البديل لعدم اشتراك المنظمة هو نظام الحكم الاردني » .

ويرى احد المعلقين الاسرائيليين ان الجبهة الوطنية بالاضافة الى كونها فرعا من حركة المقاومة في الداخل فان لها تعاونا وثيقا مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي — راكح ، الهدف منه نقل نضال الجبهة الوطنية ، ومجال عملها الى القطاع العربي الاسرائيلي . « ان الكتلة الشيوعية الاردنية — الفلسطينية — الاسرائيلية ، هي التنظيم السياسي الوحيد ، الذي يعمل الان داخل « الخط الاخضر » (اسرائيل حدود الهدنة ١٩٤٩) ، وخارجه (حدود ١٩٦٧) ، ووراء الخط البنفسجي ايضا (حدود ١٩٧٣) » . (أهود يعري — دافار ، ٧٤/٧/٢).

ويمكن تلخيص أهداف الجبهة الوطنية ، في ثلاثة أمور : رفض الاحتلال الاسرائيلي ، ورفض عودة الحكم الاردني الى المناطق ، والاصرار على ممارسة السيادة الوطنية الفلسطينية بعد التحرر من الاحتلال الاسرائيلي . وقد عبرت الجبهة الوطنية عن هذه المبادىء في صحيفتها « فلسطين » التي صدرت حديثا . والجدير بالذكر ان الاعتقالات بدأت في الاسبوع نفسه الذي صدرت به الصحيفة . (افتتاحية الاتحاد ، ٧٤/٥/٣) .

حملة الاعتقالات

كان الهدف الحقيقي لحملة الاعتقالات هذه هو ضرب الجبهة الوطنية في الداخل كتنظيم سياسي ، وشل نشاطاتها عن طريق وضع اعضائها في السجون . والدليل على ذلك هو طابعها ، حيث تعتبر جميعها اعتقالات سياسية ، كما ذكرنا ، لم يجر خلالها توجيه اية تهمة الى احد من المعتقلين رغم ادعاءات السلطة واتهامها اياهم بمحاولة ممارسة العمل « التخريبي » .

وقد قامت صحيفتا الاتحاد ، وزو هاديريخ ، اللتان تصدران عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي — راكح ، بكشف هدف هذه الاعتقالات منذ بدئها . كما نشطت هاتان الصحيفتان في تغطية اخبار هذه الحملة ، بصورة شاملة ، بينما تجاهلتها الصحف الاسرائيلية ، ووسائل الاعلام هناك ، ولم تعرها أي انتباه يذكر واقتصر ما ورد بشأن الجبهة على بعض الاخبار القصيرة ، والتعليقات التي كتبها بعض الكتاب اليساريين .

فقد نشر الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان ، في صحيفة يديعوت احرونوت ، (٧٤/٧/١٧) ، تعليقا قصيرا حول هذه الاعتقالات ، واصفا اياها بأنها اعتقالات سياسية بحتة ، ومنددا بجهاز الامن ، الذي يستغل دافع « الامن » للقيام بمثل هذه الحملة ، بدون أن يقوم اي شخص بالتدقيق فيها ، أو نشر اخبارها .

حملة الاستنكار في الضفة الغربية وفي اسرائيل

تسود الضفة الغربية حملة استنكار شديدة منذ بدء الاعتقالات ، وخاصة بسبب التعذيب الذي يلقاه المعتقلون في السجون . وشملت موجة الاستنكار هذه جميع مدن الضفة ، وشاركت فيها إلبلديات والنقابات ومختلف الهيئات الشعبية . ففي القدس أبرقت نقابة اصحاب المهن الهندسية الى الحاكم العسكري العام محتجة على حملة الاعتقالات التي شملت اثنين من اعضائها هما المهندسان حسين حداد من بيت لحم ، ومحمد عباس عبد الحق من نابلس ، كما أرسلت لجنة اصحاب المهن والحرف بالقدس كتابا الى وزير الشرطة محتجة فيه على الاعتقالات، وخاصة اعتقال طالبات وطلاب لا تتجاوز أعمارهم ١٥ عاما . وفي نابلس ارسل الموظفون والعمال في قسم الهندسة في البلدية ، برقية الى الحاكم العسكري العام مطالبين بالافراج عن المعتقلين . وأعد أطباء نابلس ونقابتهم العامة برقية يستنكرون فيها الاعتقالات الاخيرة التي شملت زميلهم الدكتور فرحات ابو ليل (الاتحاد ، ٧٤/٥/١٧) . وهناك عدة أمثلة اخرى على برقيات الاحتجاج وعمليات الاستنكار ، نشرتها صحيفة الاتحاد في أعدادها خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة . وأبرز ما فيها ، عمليات اعتصام النساء في رام الله ونابلس. (الاتحاد ، ٧٤/٥/١٤) . وقد قام ذوو المعتقلين بارسال نداء الى الصحف ومختلف الهيئات الشعبية في اسرائيل ، نشرته صحيفة الاتحاد (٧٤/٦/٢١)، وصفوا فيه وضع المعتقلين وذوائع اعتقالهم ، ودعوا الرأي العام الى التضامن معهم في سبيل الافراج عن ذويهم . كما قامت الهيئة الاسلامية في القدس بارسال مذكرة الى الرئيس الاميركي ، خلال زيارته لاسرائيل ، ومن بين ما طالبت به فيها ، الافراج عن المعتقلين من ابناء الضفة (المصدر نفسه) . كما قام رؤساء ١٥ بلدية في الضفة بارسال مذكرة الى رئيس وزراء اسرائيل ، مطالبين فيها بالغاء الاعتقالات الادارية (الاتحاد ، ٧/٣٠/ ٧٤) .

لقد أصرت سلطات الامن في البداية على اخفاء مكان اعتقال المعتقلين، وعلى عدم السماح لعائلاتهم بزيارتهم . ولم يسمح لمحاميهم كذلك بزيارتهم الا بعد حصول هؤلاء على أمر من المحكمة العليا . وقد التقى المحاميان حنا نقارة وعلي رافع ، في سجن نابلس ، ببعض المعتقلين ، ووقفا على عمليات التعذيب التي تعرضوا لها (الاتحاد ، ٧٤/٦/٧). بعد ذلك ، وجه نقارة ورافع برقية الى السكرتير العام للامم المتحدة ، الدكتور كورت فالدهايم ، اثناء وجوده في اسرائيل ، طلبا منه فيها التدخل في سبيل ايقاف عمليات التعذيب ، واطلاق سراح المعتقلين السياسيين (الاتحاد ، ٧٤/٦/١١) .

وعقدت عصبة حقوق الانسان والمواطن في اسرائيل ، مؤتمرا صحافيا ، في تل ابيب بتاريخ ٧٤/٦/١٨ ، أدلت فيه ببيان واف عن الاعتقالات ، والتعذيب الذي يلقاه المعتقلون . افتتح المؤتمر رئيس العصبة ، البروفيسور يسرائيل شاحاك ، الذي قال ان هدف المؤتمر ايصال قضية الاعتقالات والتعذيب في المناطق المحتلة الى الجمهور الاسرائيلي عن طريق وسائل الاعلام. وكشف النقاب على ان عدد المعتقلين الاداريين في سجون اسرائيل يبلغ حوالي ٤٠٠ شخص (الاتحاد ، ٧٤/٦/٢١).

اما على صعيد البرلمان الاسرائيلي ، فقد قدم النائب الشيوعي (راكح) ماير فلنر ، اقتراحا لجدول اعمال الكنيست ، باسم الكتلة الشيوعية ، حول الاعتقالات الادارية وأساليب التعذيب ضد المعتقلين . ورد وزير الدفاع شمعون بيرس على الاقتراح ، فاعترف بحقيقة الاعتقالات السياسية . ولكنه زعم ان المقصودين هم ٩٠٠ شخص ثلثهم من الشيوعيين . ونفى الوزير مسألة التعذيب . كما تحدث الوزير بيرس عن حوادث الاخلال بالامن في الضفة الغربية في الفترة الاخيرة ، وحاول ربط ذلك بالاعتقالات ، مخفيا حقيقة الاعتقالات الادارية . (الاتحاد ، ٧٤/٧/٥) .

٣ ــ اعتقال المطران كبوجي يربك السلطة الاسرائيلية

قام المدعي العام الاسرائيلي ، جبريئيل باخ ، بتقديم لائحة اتهام ضد المطران هيلاريون كبوجي ، مطران القدس لطائفة الروم الكاثوليك ، الى المحكمة المركزية في القدس ، بتاريخ ٧٤/٩/٣ ، تمهيدا لمحاكمته . وكانت السلطات الاسرائيلية قد أعلنت عن اعتقال المطران كبوجي في ٧٤/٨/١٨ ، بعد ان اتهمته بالتعاون مع الفدائيين ونقل الاسلحة والذخائر الى فلسطين المحتلة .

يبدو ان سلطات اسرائيل كانت في حيرة من أمرها ، في بداية الامر ، بشأن الخطوات التي ينبغي اتخاذها بحق المطران ، بعد ان حام الشك حوله ، نظرا لمكانته كممثل لطائفة الروم الكاثوليك، اكبر الطوائف المسيحية في اسرائيل، والى العلاقات الحساسة القائمة بين اسرائيل والطوائف المسيحية ، ومن ثم رد الفعل التي يمكن ان تحدث في العالم العربي وفي العالم المسيحي ، وخاصة في الفاتيكان . ويبدو ان دوائر الامن لم تستطع اتخاذ قرار في هذا الشأن ، واستقرت على الرأي ، بأنه يجب طرد المطران من البلد، لان قضية اعتقاله يمكن ان تعود بالضرر على اسرائيل . ولكنها في الوقت نفسه طرحت القضية على الحكومة للبت بها . وتروي داغار (٧٤/٨/١٩) ، بعد اعتقال المطران بيوم واحد ، ان رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، اطلع على كل مرحلة من مراحل التحقيق مع المطران كبوجي ، وهو الذي اتخذ في النهاية قرار اعتقاله ، بعد وقوع اختلافات في الرأي بين السلطات المختلفة بشأن معالجة هذه القضية .

وكان المطران كبوجي قد اعتقل في المرة الاولى في الثامن من آب (اغسطس) الماضي ، اي قبل اعتقاله الاخير بعشرة ايام . وقد حدث ذلك بعد مرور عشرة ايام على عودته ــ طريق رأس الناقورة ــ من الزيارة التي قام بها للاردن وسوريا ولبنان . « في ذلك اليوم نصبت قوات الامن كمينا أمام بيته . وفي الصباح ، عندما خرج في طريقه الى مبنى البطريركية ، اعتقلته قوات الامن داخل سيارته ... وقد أمر سائقه بالتوجه الى مبنى الشرطة في المسكوبية . وهناك كان في انتظار رجل الدين عدد من كبار المحققين في القيادة القطرية في الشرطة .

« وفي ساعات بعد الظهر ، بعد تحقيق متواصل، أحضر المطران كبوجي الى سيارته . وبدأ رجال المهمات الخاصة في شرطة اسرائيل ، بحضوره ، تفتيش السيارة ...

« وأمام عينيه ، سحب رجال الشرطة المواد المتفجرة التي كانت مخبأة في سيارته. ولكن المطران كبوجي لم يعتقل . وسمح له بالعودة الى بيته ــ وهناك بقي حرا ، حتى يوم أمس » (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٨/١٩) حيث تم اعتقاله بناء على قرار من رئيس الحكومة ، كما اشرنا .

وذكرت المصادر الاسرائيلية ، انه عثر في سيارته اثناء التفتيش على ٤ رشاشات من نوع كلاشينكوف،

مسدسين ، عشر قنابل ، عشرات المخازن ، الاف الطلقات ، قوالب من المواد الناسفة ، مشعلات كهربائية ، واجهزة توقيت (دافار ، ٧٤/٨/١٩) .

وبعد اعتقاله تحدثت دوائر الامن الاسرائيلية عن ثلاثة حوادث اثارت الشك حوله ، وجعلته موضع المراقبة :

● اتضح لهذه الدوائر ان المطران يحصل على المال ، ولكنها لم تستطع التأكيد اذا كان هذا المال من مصادر الكنيسة ، او من مصدر آخر .

● تقدم بشكوى الى الشرطة ، قبل اربعة اشهر تقريبا، بصدد سرقة ربع مليون دولار كانت بحوزته.

● قبل شهرين ، عند عودته من لبنان طريق رأس الناقورة ، طلب منه موظف الجمارك ، معرفة ما في السيارة . وقد استاء جدا من هذا الطلب وهدد « باحداث ضجة » اذا فتشت سيارته .

وفي النصف الثاني من الشهر الماضي عاد كبوجي من لبنان مرة اخرى . ولكن سلطات الامن لم تعتقله واكتفت بمراقبته (المصدر نفسه) .

لائحة الاتهام

نشرت دافار (٧٤/٨/٤)، تلخيصا للائحة الاتهام الموجهة ضد المطران ، فاعلنت انها تشمل ثلاثة بنود اساسية ومنها تفصيل كامل للاسلحة والمواد الناسفة التي وجدت اثناء تفتيش سيارته . كما تشمل لائحة الاتهام ١٩ شاهدا من جانب الادعاء ، معظمهم من رجال الشرطة وقوات الامن ، وستة مواطنين من القدس الشرقية .

« يتهم الادعاء المطران كبوجي بالامور الاتية :

● اجراء اتصال مع عميل اجنبي .

● حمل اسلحة والاحتفاظ بها بصفة غير قانونية.

● تقديم خدمة « لمنظمة غير قانونية » .

« وورد في لائحة الاتهام ان المطران كبوجي ، التقى خلال زياراته المتتالية لبيروت بعملاء أجانب ، وبينهم من يدعى « ابو جهاد » ، الذي يعتبر بمثابة الساعد الايمن لعرفات ... الاخير الذي التقى معه ، حسب قول الادعاء، هو المدعو «ابو فراس» من كبار المشرفين على النشاط العسكري لمنظمة « فتح » في الضفة الغربية والقدس .

« كما ورد في لائحة الاتهام ، ان المتهم اتخذ على عاتقه مسؤولية نقل حقائب مليئة بالاسلحة والمواد التخريبية ، بواسطة سيارته ، وقد كرر هذا العمل عدة مرات . وقد وصلت هذه الاسلحة والمواد الى أهدافها، واستخدمت في عمليات تخريبية في القدس » .

وفي صباح ٧٤/٩/٤ احضر المطران كبوجي الى المحكمة من اجل تمديد اعتقاله ، واستمرت الجلسة ساعتين ونصف ، اعلن خلالها محاميه ، عزيز شحادة ، انه يعارض بنود الاتهام ، وليس من صلاحية المحكمة محاكمة المتهم لكونه يتمتع بحصانة ديبلوماسية . وهنا عرض المحامي جواز سفر المطران الذي يحمل ختما من وزارة الخارجية . وطلب اخلاء سبيل المتهم بكفالة .

كما تحدث المطران كبوجي في المحكمة ، مطالبا نقله من السجن الى المقر البطريركي او الى منزله ، لكونه يتعرض للاهانات والمس بكرامته من جانب السجانين (راا ، ٧٤/٩/٤) . وقد رفضت المحكمة طلب اخلاء سبيله بكفالة ، واستجابت لطلب المدعي العام ، بتمديد مدة اعتقاله حتى الانتهاء من بحث قضيته . كما قررت المحكمة عدم التدخل في قضية نقل المطران من سجنه . اما بالنسبة لحصانته الديبلوماسية فقد اشارت المحكمة الى عدم وجود علاقات ديبلوماسية بين اسرائيل والفاتيكان ، « ولذلك لا يجوز ان تمنح الدولة حصانة ديبلوماسية لممثل دولة اجنبية ، دون ان تكون هناك معاملة بالمثل بين الدولتين » (راا ، ٧٤/٩/٥) .

منذ اعتقاله ، والمطران كبوجي يتعرض لحملة تعليقات واسعة في مختلف الصحف ووسائل الاعلام الاسرائيلية ، اتفق الجميع بها على تبرير عملية الاعتقال والمحاكمة ، محاولين تشويه دوافعه والحط من كرامته . بعد ان وصف ، « بالخداع والفساد ، والتهريب وتعاطي المخدرات » . وقد شارك في هذه الحملة بعض الوزراء ايضا ، حيث اعلن وزير شرطة اسرائيل ، شلومو هيلل في مقابلة مع معاريف (٧٤/٨/٣٠) ، « ان المطران ليس صاحب مبدأ ، ولا يمكن القول في اي شكل من الاشكال ان افعاله جاءت من خلال تماثله مع اهداف « المخربين » . وانما نتيجة التهديدات ضده » . ولكن لائحة الاتهام تناقض اقوال الوزير هذه ، فلا تشير الى اي ضغط او تهديد من هذا النوع .

رجال الدين يعملون ضد اسرائيل

ما من شك في ان نظرة عدد لا بأس به من كهنة الروم الكاثوليك في المناطق المحتلة ، تجاه اسرائيل ، كانت ولا تزال سلبية جدا (ميخائيل شيشار — معاريف ، ٧٤/٨/٢٧) . فالمطران كبوجي ليس اول رجل دين يعتقل بتهمة العمل ضد اسرائيل ، فقبل ١٢ سنة اعتقل وطرد الكاهن القبطي يواكيم الانطوني ، بتهمة التجسس لصالح الاردن . وفي عام ١٩٦٣ ، اعتقل القس ايليا خوري بتهمة التعاون مع المقاومة ، حيث تم طرده بعد ذلك . ولكن اعتقال المطران كبوجي لاقى اهتماما أكبر ، نظرا لمكانته ، وحجم النشاط الذي مارسه . فقد تحدث حاكم لواء القدس رفائيل ليفي، وهو احد كبار الموظفين الاسرائيليين الذين تعرفوا على المطران كبوجي بحكم منصبه ، مبرزا فترتين في حياة كبوجي منذ الاحتلال الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ . « حتى قبل عامين ، عمل المطران ضد اسرائيل ، مستغلا مركزه الديني لممارسة نشاط سياسي بارز معاد للدولة . فمثلا : خلال فترة طويلة كان يوقع على مذكرات ضد سلطات اسرائيل، الى جانب شخصيات اسلامية . ويوم وفاة عبد الناصر ، توجه الى رؤساء الاساقفة في القدس الشرقية طالبا منهم قرع الاجراس ورفع الاعلام السوداء اثناء الجنازة .

« وفي العامين الاخيرين ، قل اهتمامه بالقضايا السياسية ، مدعيا مرارا انه مشغول جدا بقضايا ابناء رعيته » .

« المطران الفدائي »

رفضت اسرائيل طلب رؤساء الاساقفة الثلاثة الذين اوفدهم البطريرك حكيم ، للاطلاع على قضية اعتقال المطران كبوجي ، بالافراج عنه مقابل طرده من البلد ، واصرت على محاكمته ، متجاهلة جميع ردود فعل الرأي العام في المناطق المحتلة وفي الخارج . غير ان هناك من يحذر من نتيجة هذا الموقف :

« ان المطران متهم بجرائم خطيرة ، وليس من شك في ان اطلاق سراحه بدون محاكمته سيمس بمصداقية الحرب الاسرائيلية ضد الارهاب والتخريب . من ناحية قانونية ، يبدو ان الطريق مفتوحة للتصرف مع المطران ككل متهم اخر . انه صاحب جواز خدمة من الفاتيكان ، واصحاب جواز كهذا لا يتمتعون بحصانة ديبلوماسية . اضف الى ذلك ان المطران ليس متهما عاديا وقضيته تتعدى قضايا الامن الجارية التي تعالجها قوات الامن » (داني روبينشتاين ، دافار ، ٧٤/٨/٢٧) .

ويضيف روبينشتاين قائلا : « باستثناء قضايا الامن ذاتها ، يصعب علينا ان نعرف مدى الضرر الذي يمكن ان تلحقه قضية المطران كبوجي باسرائيل . فالتهمة الموجهة له استطاعت حتى الان ان تلصق به في عدة أماكن لقب « المطران الفدائي » . واذا وجد مذنبا — ومحكمته ستحظى بالطبع باهتمام واسع — فربما سيؤدي هذا الى تعزيز وتثبيت مكانة « المخربين » . لا يعرف اي شخص كيف ستجري المحاكمة ، وماذا سيعلن المتهم خلالها . على اي حال ، من الواضح انها لن تكون محاكمة عادية ، وليس معروفا مدى الاعتزاز الذي سيحدث اذا اتضح ان رجل الكنيسة ، صاحب المكانة السامية ، قدم هو ايضا مساهمة نشيطة « للنضال القومي في سبيل تحرير فلسطين » .

« اضف الى ذلك ، أن العلاقات القائمة بين الدولة اليهودية والطوائف المسيحية في اسرائيل وفي العالم كله ، هي علاقات معقدة وحساسة . ان طائفة المطران كبوجي هي اكبر الطوائف المسيحية في اسرائيل ... فقد حظي المطران حكيم في الماضي ، والمطران ريا في هذه الايام ، بمعاملة خاصة في اسرائيل كممثلين لفئات عربية واسعة ، تفوق مهامهم الكنسية . ولقد تورطت السلطات الاسرائيلية بقضية مأساوية بارزة في علاقاتها مع طائفة الروم الكاثوليك ، وهي قضية اقرت وكفر برعم ... ان قضية كبوجي تضايق ليس من الوجهة الامنية فقط ، وانما ، وبمدى اكبر من ناحية سياسية واجتماعية . ولذلك فان اعتبارات مصلحة اسرائيل يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار » .

كما يحذر ميخائيل شيشار (معاريف ، ٧٤/٨/٢٧) من امكانية تبلور رأى عام عالمي معاد لاسرائيل ، نتيجة محاكمة المطران كبوجي ، فيقول « يبدو انه لن تكون هناك صعوبة في كسب تأييد الرأي العام ، غير المطلع على التطورات ، واثارة الاستنكار ضد اسرائيل ، بسبب الخطوة التي اتبعتها ضد المطران . هكذا كان سيحدث تجاه كل

دولة اخرى ، فكم بالحري تجاه اسرائيل ، بعدما تثور المشاعر المعادية لليهود عند المسيحيين — وحتى عند ابناء ديانات اخرى — بسبب اعتقال رجل دين مسيحي . ولكن لهذا السبب بوجه خاص، فان السؤال الذي يجب ان يطرح نفسه الان : ما هي الاعمال التي ينبغي ان يقوم بها المسؤولون عن القضية — بالاضافة الى الاجراءات القانونية التي يلزمها الاعتقال — من اجل منع تيقظ مشاعر معادية للاسرائيليين ، ذات خلفية دينية ، نتيجة لاعتقال كبوجي ؟

« ان القاعدة المتبعة عندنا هي « ان الهجوم افضل دفاع » . ويبدو انه ينبغي تطبيقه بصورة مفيدة ، وحذرة ، في هذه الحالة بوجه خاص . انني اصر على هذا الامر ، بسبب الهمس الذي بدأت اسمعه ، « لا يستحسن » التورط مع الفاتيكان ، وينبغي « انهاء القضية بهدوء » ، وكأنما لا نعالج هذه القضية في دولة ذات سيادة ... اذا تصرفنا هكذا ، لن نحل مشكلة كبوجي فحسب وانما ستزداد الاتهامات ضد اسرائيل ، لانها وجهت تهما باطلة ضد شخصية مسيحية هامة » .

وهاجمت صحيفة معاريف في افتتاحيتها يوم ٧٤/٩/٤ « تلك التهديدات التي تسمع من بيروت ، بواسطة المراسلين اللطفاء ، ضد اسرائيل ، بانه من الافضل لها عدم تقديم المطران كبوجي الى المحاكمة ، لانه سيستغل محاكمته لاجراء حساب سياسي مع المحتلين الاسرائيليين في القدس الشرقية . سيعترف بجميع التهم المنسوبة له ، ويدعي بحق رجل دين في منطقة محتلة، في المساهمة بالحرب ضد المحتلين .

« مقابل ذلك ، اسنا متأكدين ابدا من ان الكنيسة التي يمثلها ، ستخرج بسلام من محاولة تحويل قاعة المحكمة الى حلبة صراع سياسي . ان القاعدة المتبعة في اسرائيل هي منح حرية العبادة لكل كنيسة وكل دين . ولكن هذه القاعدة مشروطة بفصل كامل ومطلق بين شؤون الدين وشؤون السياسة ، وكم بالحري — قضايا القتل . ان الكنيسة التي تكون حليفا للقتلة ، عليها الا تنتظر المعاملة المتسامحة التي يستحقها رجال دين حقيقيين » .

واضافت الصحيفة :

« اذا اراد كبوجي اقناع الرأي العام العالمي بأن كنيسته هي قناع لمنظمة سرية ، سيحقق امرا واحدا فقط : ستفقد كنيسته الاستفادة من الامتيازات المحفوظة لها الان ، وسنعاملها ككل منظمة سرية تشكل خطرا على سلامة الجمهور » .!

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

تصريحات الرئيس انور السادات الحربية

عندما تكون حالة العداء قائمة بين مجتمعين او دولتين او كتلتين تكون حالة الحرب هي القاعدة ، وحالة السلم هي الاستثناء . ولا يتم الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلم ، الا اذا تم حل التناقض التاريخي الذي يقع في قاعدة العداء ، ويغذي كل اشكال النزاع . وبالرغم من ان الحرب — بالمعنى الحرفي للكلمة — لا تشغل سوى فترة قصيرة نسبيا من حقبة النزاع الطويلة ، فان حالات « الحرب الكامنة » ، و « الحرب الخفية » ، و « الحرب الخبيثة » ، و « الحرب الباردة » تشغل الجزء الاطول من هذه الحقبة ، وتكون بمجملها مرحلة اعداد للصدام المسلح الشامل — الحرب العسكرية .

وتتجسد هذه الحالات باشكال متباينة ، كالدعاية ، والدعاية المضادة ، والتجسس ، والمقاطعة الاقتصادية ، واغلاق الحدود، والتخريب وتشجيع العناصر الداخلية المناوئة للسلطة ، والمناورات الكبيرة، والتعبئة العامة، والتهديدات، والتلويح بالقوة ، والمناورات السياسية الخارجية، وتسريب المعلومات عن امتلاك اسلحة جديدة ... الخ . وتدخل في اطار هذه الاشكال أمور عديدة تم رصدها خلال الشهر الماضي (٨/١٥ — ٩/١٥) : كالتصريحات الحربية الاسرائيلية ، والتصريحات العربية المضادة ، والاعلان عن شراء أنواع متطورة من الاسلحة ، وتمارين التعبئة الاسرائيلية (٢٥ — ٧٤/٨/٢٦) ، ومناورات اسرائيل في سيناء (٢٦ — ٨/٢٧) ، والجولان (١٠ — ١٢/ ٩) ، وزيارة رئيس وزراء العدو اسحاق رابين الى واشنطن ، وزيارة الرئيس حافظ الاسد الى رومانيا وبلغاريا ، والتقارب المصري — الليبي والمصري — العراقي ، وزيارة رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات الى موسكو ، وما كتبته الصحافة السوفياتية خلال هذه الزيارة وبعدها، والاعلان عن احتمال حصول الولايات المتحدة على قاعدة بحرية في حيفا ، وعودة شحن الاسلحة السوفياتية الى مصر ، ووصول طائرات « ميغ — ٢٣ » الى سورية ، واحتمال وصولها الى العراق ومصر ، وتصريحات رابين في ٩/١٥ حول الاسلحة التي ستحصل عليها اسرائيل ، لذا فان من الممكن اعتبارها أعمالا حربية ، حتى لو لم تأخذ الطابع العسكري ، كما يمكن ادراجها تحت بند الاستعداد لمؤتمر جنيف ، الذي يمثل بدوره مرحلة من مراحل الاعداد للحرب الخامسة .

ويهمنا هنا التحدث عن تصريحات الرئيس انور السادات الاخيرة ، لعلاقتها الكبيرة بشؤون الحرب والسلام في المنطقة . وينبع اهتمامنا بتصريحات الرئيس السادات من الوزن البشري والعسكري الضخم الذي تملكه جمهورية مصر العربية حاليا ، والدعم الاقتصادي — السياسي الذي يقدمه الملك فيصل للرئيس المصري ، وانعكاس هذا الوضع على وزن السياسة المصرية الخارجية ، وعلاقات مصر مع الدول العربية الاخرى ، ومختلف مبادرات السلام وقرارات الحرب .

في اليوم الذي بدأت فيه اسرائيل تمارين التعبئة العسكرية (٨/٢٥) تحدث الرئيس انور السادات في الاسكندرية عن مسائل الحرب والسلام في الشرق الاوسط ، خلال لقائه مع اعضاء الوفود المشتركة في « اللجنة التحضيرية لمؤتمر كل الشعب العربي». وتركزت المواضيع العسكرية في حديثه بأربع نقاط :

١ — « ان اي عدوان على اية مدينة من مدن القناة يعطينا الحق في ضرب عمق اسرائيل . ونحن نملك السلاح لضرب عمق اسرائيل . ولا داعي للتأخير في تعمير مدن القناة . وآن الاوان لان يعود اهل القناة الى حياتهم العادية » . وتعتبر هذه النقطة ردا على الفكرة القائلة ، بأن تعمير مدن القناة سيقدم للاسرائيليين رهينة كبيرة ، وسيجعل القيادة السياسية المصرية تحجم عن اتخاذ قرار الحرب خوفا من الضربات الرادعة المعادية التي تلحق اضرارا جسيمة بالسكان والممتلكات ، ويقيد حرية العمل المصري ، ويزيد حرية العمل الاسرائيلي .

ويتبلور رد الرئيس المصري حول مسألة موازنة الردع الجوي الاسرائيلي بالردع الصاروخي —

الجوي العربي . والحقيقة ان اسرائيل كانت تملك بعد حرب ١٩٦٧ ، قدرة ردعية جوية كاملة ، اذ كان بوسعها ضرب اهداف حيوية في عمق الاراضي العربية ، دون ان تخشى ضربة مضادة مماثلة . ولكن هذا الوضع لم يمنع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر من شن حرب الاستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) . وردت اسرائيل على هذه الحرب بضرب اهداف مصرية مدنية وعسكرية (مدرسة بحر البقر ، معسكر الهاكستيب ، مصنع ابي زعبل ، معسكرات الدهشور والمعادي ، ومستودعات الطيران في الخانكة ، وغيرها) بالاضافة الى ضرب مدن القناة (بور سعيد ، الاسماعيلية ، السويس) وتدمير مصانع تكرير البترول وبعض منابع النفط على الشاطىء الغربي لخليج السويس . ولقد دفع هذا العمل القيادة السياسية المصرية الى اخلاء مدن القناة من اكثر سكانها ، وترحيلهم الى داخل البلاد ، لتحرير القيادة العسكرية من الردع ، ومنحها حرية عمل اكبر .

ومع تكامل شبكة الصواريخ المصرية على طول قناة السويس ، وارتفاع مستوى كفاءة الدفاع الجوي المصري بفضل ادخال الطائرة « ميغ — ٢١ م ف » الى الخدمة ، وتكثيف تدريب الطيارين المصريين ، ووصول اعداد كبيرة من الخبراء والطيارين السوفيات الى مصر ، تناقصت حرية عمل الطيران الاسرائيلي الذي سيطر على اجواء المنطقة سيطرة كاملة منذ حصوله في عام ١٩٦٩ على طائرات الفانتوم « ف — ٤ اي » ، وطائرات سكاي هوك « أ — ٤ اي/هـ » . ولكن هذه الحرية لم تختف نهائيا ، اذ بقي بوسع الطيران الاسرائيلي القيام بمهمات ضد اهداف بالعمق المصري ، اذا ما قرر التضحية ببعض الطائرات ، ورأى ان الغرض المادي او المعنوي الذي سيحققه القصف يستحق مثل هذه المجازفة . وبالاضافة الى ذلك ، فان حرية عمل الطيران الاسرائيلي ضد اهداف تقع على اراضي البلدان العربية المجاورة ، كانت كاملة وبلا حدود ، الامر الذي حرم مصر من امكانية الحصول على مساعدة سورية على الاقل عن طريق شن حرب استنزاف سورية منسقة مع حرب الاستنزاف المصرية .

ولقد نجم عن هذا الوضع ، ان سلاح الطيران المعادي الذي فقد جزءا من حرية عمله في الاجواء المصرية ، حافظ على قدرته الردعية . ولقد استغل هذه القدرة ضد سورية ولبنان بعد توقف حرب الاستنزاف المصرية (اب ١٩٧٠) ، وكان يدمجها مع العمل الجوي ضد اهداف سورية — لبنانية — اردنية خلال الحرب التي شنها على القواعد الخارجية لقوات الثورة الفلسطينية . ومع خروج الخبراء السوفيات من مصر (تموز ١٩٧٢) ، ظن المراقبون العسكريون العالميون ان الطيران المعادي استعاد قدرته على العمل والردع بالنسبة الى مصر ايضا ، نظرا لاعتقادهم بعجز الطواقم المصرية عن ادارة شبكة الدفاع الجوي وصيانتها، ولذا فانهم لم يأخذوا بجدية كافية شعار « العمق بالعمق ، والنابالم بالنابالم » الذي طرحه الرئيس السادات.ولقد اثبتت حرب ١٩٧٣ خطأ تصوراتهم، واستطاعت الصواريخ ارض — جو والطائرات تحديد عمل الطيران المعادي ، كما استطاعت الصواريخ ارض — ارض تعديل الردع الجوي .

ويشير الرئيس انور السادات الى هذه النقطة عندما يقول بان العدوان على مدن القناة يعطيه الحق بضرب عمق اسرائيل . ويستنتج من قدرته على موازنة الردع ، ضرورة اعادة تعمير مدن القناة واسكانها ما دامت حمايتها مؤمنة بالصواريخ ارض — جو ، وما دام العدو لا يملك حرية ضربها ، لان أهدافه المدنية المتكاثفة على شريط ساحلي ضيق ، ستتعرض لضربات مماثلة ، وما دامت الصواريخ ارض — ارض المصرية والسورية قادرة على ايصال الدمار الى العمق ، وما دام وصول الطائرة « ميغ — ٢٣ » الى سورية واحتمال وصولها الى مصر والعراق سيجعلان القاذفات العربية قادرة على ضرب أعماق اسرائيل تحت حماية مظلة جوية واقية لا تستطيع طائرات الفانتوم مجابهتها .

وليس ضرب أهداف في عمق اسرائيل امرا نظريا، فلقد اعترفت اسرائيل خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ان الصواريخ ارض — ارض السورية قصفت اهدافا مدنية وتجمعات عسكرية في سهلي الحولة وطبرية ، وان غاراتها على دمشق والمدن السورية الاخرى كانت ردا على هذا القصف . وفي حديث الرئيس انور السادات مع صحيفة « أخبار اليوم » (١٩٧٤/٨/٣) سئل « ألم نضع في حساباتنا ان نضرب اسرائيل في العمق ؟ » فاجاب الرئيس « طبعا كان هذا محسوبا » . وكنا مستعدين للرد

في عمق اسرائيل ايضا . وأعلنت هذا بعد ذلك في خطابي أمام مجلس الشعب خلال القتال » . ثم قال « كانت صواريخنا موجهة الى ثلاث مدن رئيسية في اسرائيل استعدادا للضرب الفوري في العمق اذا لجأ الاسرائيليون الى حرب العمق ». وعندما قال الصحفي متسائلا « تردد اننا أطلقنا سلاحا جديدا » أجاب الرئيس « هذا صحيح ، وكان ذلك يوم ٢٢ تشرين الاول ، قبل وقف اطلاق النار . وهو سلاح له قوة تدميرية نظيعة . لكن الصواريخ وحدها لم تلعب الدور الاول . ان المدفعية المصرية الرهيبة لعبت أخطر الادوار » .

ان الصواريخ ارض — ارض لم تلعب في الحرب الرابعة الدور الاول . ولكنها منعت الطيران المعادي ، على كل حال ، من ان يلعب الدور الاول في العمق ، وهذا باعتقادنا انجاز ضخم يضع دور الصواريخ ، حتى في الحرب الرابعة ، في مصاف الادوار الاولى . وما دامت الصواريخ قادرة على لعب هذا الدور ومنع العدو من قصف العمق ومدن القناة ، فلماذا لا تبنى هذه المدن ، ويرجع اليها سكانها ، وتعود اليها الحياة الطبيعية ؟ هذا هو ما أراد الرئيس السادات قوله في هذه الفقرة من حديثه .

٢ — والنقطة الثانية في حديث الرئيس السادات (٨/٢٥) هو ان الحرب الرابعة ، وما رافقها من انجازات وتضامن عربي ، وامتلاك العرب لطاقات وقوى تجعلهم « القوة السادسة في العالم » ، قد استطاعت زحزحة الولايات المتحدة « عن انحيازها الاعمى لاسرائيل » ودفعتها الى الالتزام بخط متوازن ، والبحث عن « حل سلمي عادل ومشرف للقضية بعدما اعادت حساباتها نتيجة الحرب . لذلك لا يمكن بلبلة المواطن العربي والقول ان هذا بيع القضية لاميركا » .

لقد استطاعت الحرب الرابعة بالفعل رفع قيمة العالم العربي في العالم أجمع ، وحركت قضية النزاع المتجمدة ، ووضعتها على رأس جدول اهتمامات الدول كلها ، بعد ان كاد العالم ان ينساها . ونقلت العرب من حالة امتلاك القوة الى حالة الوعي بامتلاك القوة والقدرة على استخدامها . واصبح بوسع المعسكر العربي استخدام القوة العسكرية بتنسيق كامل مع القوى الاقتصادية والسياسية والمالية في سبيل تحقيق أهدافه العادلة . ولكن هل أدى كل ذلك الى تبديل الموقف الاميركي ؟ هذا هو السؤال المطروح.

لقد كانت أهداف السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط هي : ١ — الحفاظ على «الوضع الراهن » الذي يؤمن لها استمرار النهب الامبريالي لثروات المنطقة ، ٢ — ابعاد النفوذ السوفياتي عن الشرق الاوسط، ٣ — احتلال المواقع السياسية — الاقتصادية — الثقافية التي اضطرت الدولتان الاستعماريتان القديمتان (فرنسة وبريطانية) لتركهما بعد الحرب العالمية الثانية . ولا تزال الاهداف الاميركية نفسها دون تبديل بعد حرب١٩٧٣ . واذا كانت تعتقد في السابق ان الحفاظ على « الوضع الراهن » الذي يضمن مصالحها ، لا يتم الا عن طريق خلق اسرائيل « الاقوى من جيرانها »، فان هذا الاعتقاد لا يزال قائما . ولا ادل على ذلك من دعمها العسكري لاسرائيل ، واستعدادها لان تقدم للدولة الصهيونية معونات عسكرية بمقدارها ٦ مليارات من الدولارات خلال السنوات الخمس المقبلة (بمعدل ١٢٠٠ مليون دولار سنويا) (النهار ٩/١٦) ، وتعزيز العسكرية الاسرائيلية بأحدث ما تنتجه الترسانة العسكرية الاميركية (٥٠ طائرة فانتوم ، و٢٠٠ — ٢٥٠ دبابة « م — ٦٠ » ، وطائرات هليكوبتر « هيوكوبرا » وقنابل ذكية « سمارت بومب »، ومدفعية، ومعدات اليكترونية، وصواريخ من مختلف الانواع). واذا كانت تعتمد في الماضي على اسرائيل وحدها للحفاظ على المصالح الاميركية وردع العرب وضرب حركة التحرر الوطني العربي الوحدوية ، فان الولايات المتحدة تهدد الان بالتدخل العسكري المباشر لحماية مصالحها (احتلال منابع النفط) ، وتمارس أساليب أشد خبثا لمحاربة حركة التحرر الوطني العربي الوحدوية، وترسم الخطط لحرب ايديولوجية عربية — عربية ، قد تتحول الى صدام مسلح عربي — عربي ، باسم حماية الوطن العربي من الشيوعية . ولم يعد البيت الابيض يتطلب من « اسرائيل القوية » لعب دور « الشرطي » فحسب ، ولكنه يود ايضا ان تكون اسرائيل القوية ، وايران القوية ، حافزا يدفع الدول العربية الغنية الى شراء مزيد من الاسلحة الاميركية المكدسة بكميات كبيرة ، منذ انتهاء الحرب الفيتنامية — الاميركية ، شريطة ان

لا يؤثر ذلك على ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ، او ميزان القوى العربي ـ الفارسي، الامر الذي ينعش الاقتصاد الاميركي ويمنع ركوده ، ويزيد وزن التأثير السياسي الاميركي في البلدان العربية المستوردة للاسلحة . وتكمن الخدعة الاكبر في ممارسة هذه السياسة التسليحية وادعاء الرغبة في اتباع سياسة متوازنة في الشرق الاوسط ، في ان واشنطن تهب اسرائيل أسلحة حديثة متطورة لتنشيط المصانع الحربية الاميركية ، وارضاء « المجموعة العسكرية ـ الاقتصادية » المسيطرة في اميركا ، وتعوض خسائرها المادية التي تمثلها هذه الهبة عن طريق الارباح الناجمة عن بيع الدول العربية الغنية أسلحة قديمة مكدسة . وهكذا يبقى الاقتصاد الاميركي ، ومصانع السلاح بصورة خاصة ، المستفيد الاول والاخير من لعبة « البعبع الاسرائيلي » القديم الجديد، و « البعبع الايراني » الذي نمت انيابه ومخالبه منذ اواخر الستينات .

ولم تتخل الولايات المتحدة عن هدفها في ابعاد التغلغل السوفياتي بعد حرب ١٩٧٣ ، وهي تتبع حتى الآن اسلوب الضغط السياسي ـ الاقتصادي التي اتبعتها منذ صفقة السلاح السوفياتي التي عقدتها الحكومتان المصرية والسورية (١٩٥٥) ، ثم كرستها بعد حرب ١٩٦٧، عندما ارادت اقناع العرب بأن حل النزاع في الشرق الاوسط لا يتم عن طريق القوة العسكرية التي يحصلون عليها من السوفيات، بل عن طريق الضغط الاميركي على اسرائيل . ولقد استمر اتباع هذا الاسلوب خلال مباحثات فصل القوات ولا يزال مستمرا حتى الان. وحقق نجاحات متفاوتة الحجم في بعض البلدان العربية ، ولكنه أصاب في بلدان عربية أخرى فشلا واضحا ، وادى على العكس الى زيادة التغلغل السوفياتي فيها .

ولا يزال هدف احتلال مواقع الفرنسيين والانكليز في الوطن العربي مستمرا . وتطبق الولايات المتحدة لتحقيقه الاساليب السابقة نفسها ، مع زيادة في التكالب والاندفاع ، تتناسب مع تزايد الثروات العربية ، وتراكم الاموال الفائضة العربية في البنوك العالمية ، وارتفاع مستوى حاجة العالم لمصادر الطاقة العربية ، واتجاه الوطن العربي نحو تنفيذ المشروعات الانمائية والاعمارية الكبيرة . وتحاول واشنطن منع اوروبا من استعادة بعض مواقعها في البلدان العربية ، وتخريب المواقف الاوروبية المؤيدة للعرب في مجالي استخدام سلاح النفط ، والنزاع العربي ـ الاسرائيلي . ولقد وصل بها الحد الى تهديد اوروبا بحرمانها من المظلة النووية، وكشفها دفاعيا امام حلف وارسو ، اذا ما أصرت على اتباع سياسة شرق اوسطية مستقلة عن السياسة الاميركية .

ويعني كل هذا ، ان الولايات المتحدة لم تتخل عن أهدافها الامبريالية المتناقضة مع أهداف الامة العربية، بل عدلت الاساليب المستخدمة لتحقيق هذه الاهداف . كما انه يعني ان الولايات المتحدة تحاول الحصول على ثمن عال للتبدل الجزئي الذي لحق بموقفها بالنسبة الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وهي تستخدم في ذلك ابتزازا مكشوفا يتمثل في تقوية اسرائيل عسكريا ، واجبارها على تقديم بعض التنازلات، ومطالبة العرب بتأمين أهداف الاستراتيجية الاميركية ، والا فان « اسرائيل القوية » جاهزة للتدخل ، والضغوط الموجهة اليها يمكن ان تتوقف.

الا ان هذا كله لا ينفي آثار حرب تشرين الاول على السياسة الاميركية . فلقد استطاعت الاسلحة العربية المتعددة (العسكرية والاقتصادية والسياسية) كشف التناقض القائم بين المصالح الاميركية والمصالح الاسرائيلية . وكان لمواقف الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية وبلدان العالم الثالث وعدد من بلدان القارة الاوروبية دور في مساعدة العرب على استخدام أسلحتهم . بيد ان القوى الاميركية التي اقتنعت بخطر هذا التناقض على المصالح الاميركية لا تزال محدودة ، ولا يمكن التوصل الى زيادتها عن طريق تخفيف ضغط العرب على اميركا ، او فك ارتباطهم مع الاتحاد السوفياتي ، بل عن طريق متابعة هذا الضغط ، وزيادة التلاحم مع الاتحاد السوفياتي والدول المعادية للامبريالية .

٣ ـ لقد قال الرئيس السادات في حديث ٨/٢٥ « ان مصر لا تقبل أي حل جزئي ولن أخرج من المعركة » وليس هذا الموقف جديدا . فلقد صرح الرئيس المصري أكثر من مرة انه يرفض الحلول الجزئية ، ويرفض الحل الذي يضمن لمصر استعادة سيناء اذا لم يضمن في الوقت نفسه استعادة الجولان والضفة الغربية ، وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة . ويتطابق هذا الرفض مع الخط القومي الذي يسير عليه الرئيس

الاسد . وهو يعني ان الرئيس السادات متمسك بالحل الشامل ، ويرى انه الخط الوحيد الذي يمكن اتباعه خلال الصراع مع العدو الاسرائيلي . ولقد صرح في مطلع شهر ايلول (سبتمبر) : « ليس عندي مشكلة بالنسبة الى سيناء ... مشكلتي هي الجولان والقدس ... الذي يعلم والذي لا يعلم يجب ان يعلم ويفهم انه بتحليل استراتيجي بسيط جدا عندما اوافق على انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، سينسحبون فورا الى حدودهم ... انا ليس عندي مشكلة ... ومع ذلك يأتي البعض ويقول بسخافة ان مصر ستنهي الحرب وحدها... مصر عليها التزام قومي لا تتنازل عنه ... انها مستشعرة مسؤولياتها العربية تماما ، ولا يمكن ان تفرط ابدا بأي شبر من الارض العربية » (النهار ١٩٧٤/٩/٧).

وتكمن أهمية هذا الخط السياسي القومي ، في ان التأكيد على ان الضغط الاميركي عجز عن فصل الدول العربية عن بعضها ، وان أساليب اسرائيل في الاستفراد بالدول العربية للحصول على اتفاقات صلح منفرد ، قد فشلت تماما ، وان على القوات المسلحة الاسرائيلية ان تجابه في أية حرب مقبلة وضعا صعبا يتمثل في القتال على أكثر من جبهة . الامر الذي تحاول العسكرية الاسرائيلية تحاشيه .

٤ ــ والنقطة العسكرية الاخيرة في طرح الرئيس السادات قوله « اما ان يسفر المؤتمر عن حل سلمي عادل ومشرف او نعيد حساباتنا من جديد ونبدأ معركتنا من جديد » . وتدل هذه النقطة على مدى وعي الرئيس المصري لجدلية الحرب والسلام. لقد قال في حديثه مع جريدة النهار (٩/٧) « أنا فاتح على كل الجبهات : الحرب والسلم وبناء الدولة ». وهو يرى ان من الضروري ذهاب العرب الى جنيف « والمبادأة لا تزال في ايديهم » حتى يستطيعوا العودة الى الحرب اذا ما ادى التعنت الاسرائيلي الى احباط محاولات السلام . ولقد سأل أحد الصحفيين الاجانب الرئيس السادات خلال زيارته الى بور سعيد في ٩/١٠ « هل لديه أمل في حل سلمي ، فاجاب بالايجاب » وأكد ان رؤيته للخطوة الاسرائيلية القادمة هي « انسحاب اسرائيل وفقا لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، والتنفيذ الفوري الكامل لهذا القرار » . وعندما سأله الصحفي عما سيحدث في حالة عدم تنفيذ اسرائيل لهذا القرار ، أجاب بقوله : « سنعود الى الحرب مرة اخرى » (الاهرام ١٩٧٤/٩/١١).

*

هذه هي أهم النقاط العسكرية التي طرحها الرئيس السادات خلال الشهر المنصرم . وهي بمجملها تكرار لنقاط كان قد طرحها قبل حرب ١٩٧٣ وخلالها وبعدها . وتعكس هذه النقاط طبيعة العلاقات السياسية الاقتصادية العسكرية كما يراها قائد دولة يخطط للحرب والسلم والبناء بآن واحد ، ويفكر بأن يجعل عبور القناة عبورا للتاريخ .

وبالرغم من وضوح خط الرئيس المصري المتطابق مع الخط السوري ، فان الاسرائيليين يريدون على ما يبدو دفن رؤوسهم في الرمال لتجنب رؤية الحقيقة . ومن حسن حظ العرب انه لا يزال في معسكر العدو أشخاص مثل دوف يتون ، معلق الشؤون العربية في الاذاعة الاسرائيلية . فلقد علق يتون على تهديدات الرئيس أنور السادات خلال جولته في منطقة السويس ، بأن مصر ستستانف القتال اذا لم تنفذ اسرائيل قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، واعتبر ان هذه التهديدات نابعة من أسباب مصرية داخلية وانه « كلما أصبحت الاوضاع بالنسبة الى النظام الحاكم في مصر وفي العالم العربي متعبة أكثر ، يكثر الرئيس السادات من استخدام هذه اللهجة ، والقول بأن الحرب لم تنته بعد » (ر.أ.أ. ، ١٩٧٤/٩/١٢) . وحبذا لو كان دوف يتون مستشار رئيس حكومة العدو للشؤون العربية ، لان وجوده في مثل هذه الموقع وتحليلاته الغيبية الماثلة ، ستجعله أفضل حلفاء العرب ، وستساعد الجيوش العربية على تحقيق المفاجأة ، تماما كما ساعدتها تحليلاته قبل ثلاثة أيام من اندلاع الحرب الرابعة ، والتي أكد فيها ان الحشود السورية على حدود وقف اطلاق النار قبل حرب تشرين الاول « تعود الى المشكلات الداخلية » و « ان هناك محاولات جرت للاطاحة بالرئيس الاسد ، كما ان هناك سوء تفاهم مع « المخربين »، وخلافات حزبية داخلية . وحل هذه المشكلات، كان ولا يزال ، هو محاولة خلق جو من التوتر على الحدود » .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٨/١٦ — ١٩٧٤/٩/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٨/١٥	—	جفعات اولجا/ غرب مدينة الخضيرة(١)	تفجير	عبوات مشركة	غيرمحدد	—	—	—	—	رقم٧٤/٢١١	٨/١٦
٢	٨/ ٤	—	حيفا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	— ١	اعطاب سيارة اودي لاحد رجال المخابرات الصهيونية	—	—	—	رقم٧٤/٢١٢	٨/١٦
٣	٨/ ٥	—	يروحيم/تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	— —	اشعال النيران في المستودع الرئيسي لمعمل نويمس للكلسات واتلاف محتوياته	—	—	—	رقم٧٤/٢١٣	٨/١٦
٤	٨/ ٤	—	معسكر الشاطىء	كمين	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢١٤	٨/١٧
٥	٨/١٥	—	ايلات(٢)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران في مبنى البلدية واتلاف وحرق ملفات رئيس البلدية	—	—	—	رقم٧٤/٢١٥	٨/١٧
٦	٨/١٦	—	نتانيا/شمال تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير قسم من أحد الملاهي الليلية	—	—	—	رقم٧٤/٢١٦	٨/٢٠
٧	٨/١٣	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	— —	تم اكتشاف العبوة قبل انفجارها بدقائق في مقر الحاكم العسكري	—	—	—	رقم٧٤/٢١٧	٨/٢٠
٨	٨/٢٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير منزل رئيس بلدية العفولة واصابة مبنى مجاور بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢١٨	٨/٢١

٩	٨/٢٠	٢١٤٠٠	(شارع يافا حي محني يهودا) القدس(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	ادعى العدو باكتشاف العبوة قبل انفجارها	—	—	رقم٧٤/٢١٩	٨/٢١
١٠	٨/١٨	—	بين تل ابيب وحيفا(٤)	كمين	—	غيرمحدد	—	تدمير سيارة واعطاب اخرى وقتل وجرح من فيهما	—	—	رقم٧٤/٢٢٠	٨/٢١
١١	٨/٢٤	—	—	—	—	—	—	حرق سيارة محمود ابو الزلف صاحب جريدة القدس ومحررها المسؤول	—	—	رقم٧٤/٢٢١	٨/٢٥
١٢	٨/٢٣	—	شمال مدينة اريحا	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	—	دامت المعركة ثماني ساعات متواصلة	٣	—	رقم٧٤/٢٢٢	٨/٢٥
١٣	٨/٢٥	—	كفار سابا/شمال شرق تل ابيب(٥)	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	—	تدمير مبنى مقابل مبنى رقم ٨ في شارع روجي واصابة عدد من المباني بأضرار	—	—	رقم٧٤/٢٢٣	٨/٢٦
١٤	٨/٢٥	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	اصابة خبير عسكري بجراح بالغة اثر محاولته تفكيك عبوة في سوق محني يهوذا في شارع عيتس حاييم	—	—	رقم٧٤/٢٢٤	٨/٢٦
١٥	٨/٢٣	—	بين طوباس وجنين(٦)	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	—	نفس مجموعة البلاغ رقم ٧٤/٢٢٢ تخوض مزيدا من الاشتباكات اثناء تقدمها نحو هدفها المحدد	٤	—	رقم٧٤/٢٢٥	٨/٢٧
١٦	٨/٢٧	—	بين حيفا وتل ابيب	تفجير	قنبلة موقوتة	غيرمحدد	—	اصابة مطعم هباتشيم بأضرار	—	—	رقم٧٤/٢٢٦	٨/٢٧
١٧	٨/٢٧	—	شلومو/رمات منشية	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	—	اصابة عدد من مباني المستوطنة بأضرار	—	—	رقم٧٤/٢٢٧	٨/٢٧
١٨	٨/٢٦	—	المنطقة الصناعية في مدينة ديمونا(٧)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	—	نشوب حريق هائل في المعامل	—	—	رقم٧٤/٢٢٨	٨/٢٨
١٩	٨/٢٩	—	يافا(٨)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	—	تدمير قسم كبير من مبنى مطعم فورد في شارع ياقوت	—	—	رقم٧٤/٢٢٩	٨/٢٩
٢٠	٨/٢٤	—	عين سارة/الخليل	اقتحام	—	—	—	حرق كافة اوراق ومستندات مكتب العمل الصهيوني	—	—	رقم٧٤/٢٣٠	٨/٢٩

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة جرحى	خسائر المقاومة مفقود	خسائر المقاومة	المصدر : البلاغ العسكري	المصدر : تاريخه
٢١	٨/٢٩	—	شارع النصر في مدينة نابلس	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٣١	٨/٣٠
٢٢	٨/١٥	—	كريات حاييم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير قسم من منزل أحد رجال المخابرات واصابة مبان اخرى بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٢	٨/٣٠
٢٣	٨/١٥	—	نهاريا	تفجير	عبوة ناسفة	— —	ادعى العدو انه تم اكتشافها وتفكيكها	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٢	٨/٣٠
٢٤	٩/ ١	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في عدد من المراكز التجارية في السوق المركزي	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٣	٩/١
٢٥	٩/ ٢	—	رمات غان(٩)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في ناقلة وقود وامتدادها الى محطة للوقود	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٤	٩/٢
٢٦	٩/ ٢	—	حي روميما/ القدس(١٠)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير سيارة واصابة المباني المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٥	٩/٤
٢٧	٩/ ٥	—	شارع أكروكريس/ تل ابيب(١١)	تفجير			اشعال النيران في مصنع بيليو للشوكلاته واتلاف جميع محتوياته				رقم٧٤/٢٣٦	٩/٥
٢٨	٩/ ٥	—	نتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	— —	تدمير الكابل الرئيسي للهاتف	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٧	٩/٦
٢٩	٨/٢٨—٢٧	—	بين نتانيا وطولكرم	اعدام	—	١ —	الاستيلاء على سلاح الجندي الفردي	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٨	٩/٧
٣٠	٩/ ٨	—	معشوفات/طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير محطة المياه المركزية	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٩	٩/١٠
٣١	٩/ ٩	—	شارع اشتمبر/ بتاح تكفا	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مركز الشرطة واصابة عدد من افراده	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٠	٩/١٠

٣٢ — ٩/ ٩	—	غزة	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤١	٩/١٠
٣٣ — ٩/١٠	—	شارع عمر المختار/غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٢	٩/١٠
٣٤ — ٩/١٠	—	كريات شائول/ تل ابيب(١٢)	غيرمحدد	غير محدد	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٣	٩/١١
٣٥ — ٩/١٠	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مبنى الحاكم العسكري واصابة عدد من السيارات وباص	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٤	٩/١١
٣٦ — ٩/١١	—	نحال العريش/ سيناء	تفجير	ألغـــام	غيرمحدد	تدمير آليتين للعدو وقتل وجرح من فيهما	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٥	٩/١١
٣٧ — ٨/٣١	١٩٤٠٠	حي وادي التفاح/الخليل	اعدام	—	١	تم اعدام أحد رجال المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٦	٩/١٢
٣٨ — ٩/١١	—	مستوطنة بيريي/ صفد(١٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران في عدد من المباني وامتدادهـــا الى احراش الحمضيات	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٨	٩/١٢
٣٩ — ٩/١١	—	غزة	اشتباك	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارتين ومقتل جميع افراد الدورية	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٩	٩/١٤
٤٠ — ٨/٢٩	—	قرب تل فليحه/ بئر السبع	تفجير	ألغـــام	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٠	٩/١٤
٤١ — ٩/١٥	٧٤٥٥	شارع لامبرديا/ تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	تمكن العدو من اكتشاف العبوة داخل السوبر ماركت وتفكيكها	—	—	—	رقم٧٤/٢٥١	٩/١٦
٤٢ — ٩/ ٢	٢١٤٥٠	مستعمرة حانوتا/ الجليل الاعلى	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	—	٢	٢	—	جبهة النضال الشعبي	٩/٣
٤٣ — ٩/ ٤	—	عين زيف/جنوب عرب فسوطة	اقتحام	أسلحة مختلفة	٢ ٢	—	٢	—	١	الجبهةالديمقراطية لتحرير فلسطين	٩/٤

١ — ادعى العدو بأن خمسة اولاد أصيبوا بجروح من جراء لعبهم بصاعق وجدوه على شاطىء البحر . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٠٩ ، ١٩٧٤/٨/١٦ ، ص ٤٣١).

٢ — اعترف العدو بالحادث وادعى بان النيران انطلقت من تلقاء نفسها واعتقد ايضا بأن المنفذ قد يكون أحد المحتاجين لمساعدة اجتماعية لم ينل مطلبه . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٠٨ ، ١٩٧٤/٨/١٥ ، ص ٣٩٢).

٣ — راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٦ ، ١٩٧٤/٨/٢٤ ، ص ٦٢٩) .

٤ — اعترف العدو بالحادث وادعى ان شخصا سكب زيتا على الطريق مما أدى الى هذه الحوادث . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل — العدد ٦١٣، ١٩٧٤/٨/٢١ ، ص ٥٤٣).

٥ — اعترف العدو بالحادث في معرض ادعائه بان تم اعتقال فدائيين بالقرب من تانيا يحملان عبوتين ناسفتين . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٨ ، ١٩٧٤/٨/٢٧ ، ص ٧٠٠).

٦ — اعترف العدو بالحادث . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٨ ، ١٩٧٤/٨/٢٧ ، ص ٧٠٦).

٧ — ادعى العدو بأن الحادث قد يكون من فعل أحد العمال الذين فصلوا من المعمل ، وقد قدر العدو بأن الحريق قد سبب خسارة تزيد عن ربع المليون ليرة اسرائيلية . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٩ ، ١٩٧٤/٨/٢٨ ، ص ٧٢٤).

٨ — ادعى العدو بأن القاء القنبلة يعود الى نزاع جيران (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٠ ، ١٩٧٤/٨/٢٩ ، ص ٧٦٩).

٩ — اعترف العدو بالحادث (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٤ ، ١٩٧٤/٩/٣ ، ص ٦٨).

١٠— ادعى العدو بأن صبيان وجدا عدة صواعق كهربائية انفجرت بهما . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٤ ، ١٩٧٤/٩/٣ ، ص ٧٩).

١١— اعترف العدو بالحادث (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٦ ، ١٩٧٤/٩/٥ ، ص ١٣٦).

١٢— ادعى العدو بأن القنبلة وضعت تحت السيارة لان صاحبها شريك في ناد للقمار . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٣١ ، ١٩٧٤/٩/١١ ص ٢٩٤).

١٣— ادعى الناطق العسكري الاسرائيلي بان النيران شبت من « محرقة » لم تطفأ كما يجب (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٣١ ، ١٩٧٤/٩/١١ ، ص ٢٩٤).

ملاحظـــة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٨/١٦ — ١٩٧٤/٩/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٨/٢٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اصابة مبنى رئيس بلدية العفولة باضرار	—	—	—	ن.عدد٦١٣،ص٥٤٦	٨/٢١
٢	٨/٢٨	—	هضبة الجولان	اشتباك	اسلحة مختلفة	—	—	—	—	٢	—	ن.عدد٦٢١،ص٨٠٤	٨/٣٠
٣	٨/٢٩	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	لم تصب السيارة العسكرية باضرار وكذلك افرادها	—	—	—	ن.عدد٦٢١،ص٨٠٤	٨/٣٠
٤	٩/ ٢	—	بين زرعيت وحانيتا	اشتباك	اسلحة مختلفة	—	—	—	٢	—	—	ن.عدد٦٢٤،ص٧٨	٩/٣
٥	٩/ ٤	—	شمال فلسطين المحتلة/سوطة	اشتباك	اسلحة مختلفة	٢	٢	—	٢	—	—	ن.عدد٦٢٥،ص١٠٤، ١١٠، ١١١	٩/٤
٦	٩/ ٨	—	زرعيت	قصف	قذائف مدفعية	—	—	—	—	—	—	ن.عدد٦٢٩،ص٣٢٧	٩/٩
٧	٩/١٠	—	غزة	القاء مواد متفجرة	مواد متفجرة	—	—	القاء المواد المتفجرة على سيارة للتلفزيون الاسرائيلي	—	—	—	ن.عدد٦٣١،ص٢٩٣	٩/١١
٨	٩/ ٩	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	القاء قنبلة على سيارة عسكرية	—	—	—	ن.عدد٦٣١،ص٢٩٣	٩/١١
٩	٩/١٠	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	انفجرت العبوة تحت سيارة اوتوبيس كانت ترابط أمام مقر الحاكم العسكري	—	—	—	ن.عدد٦٣٢،ص٣٢٢	٩/١٢

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

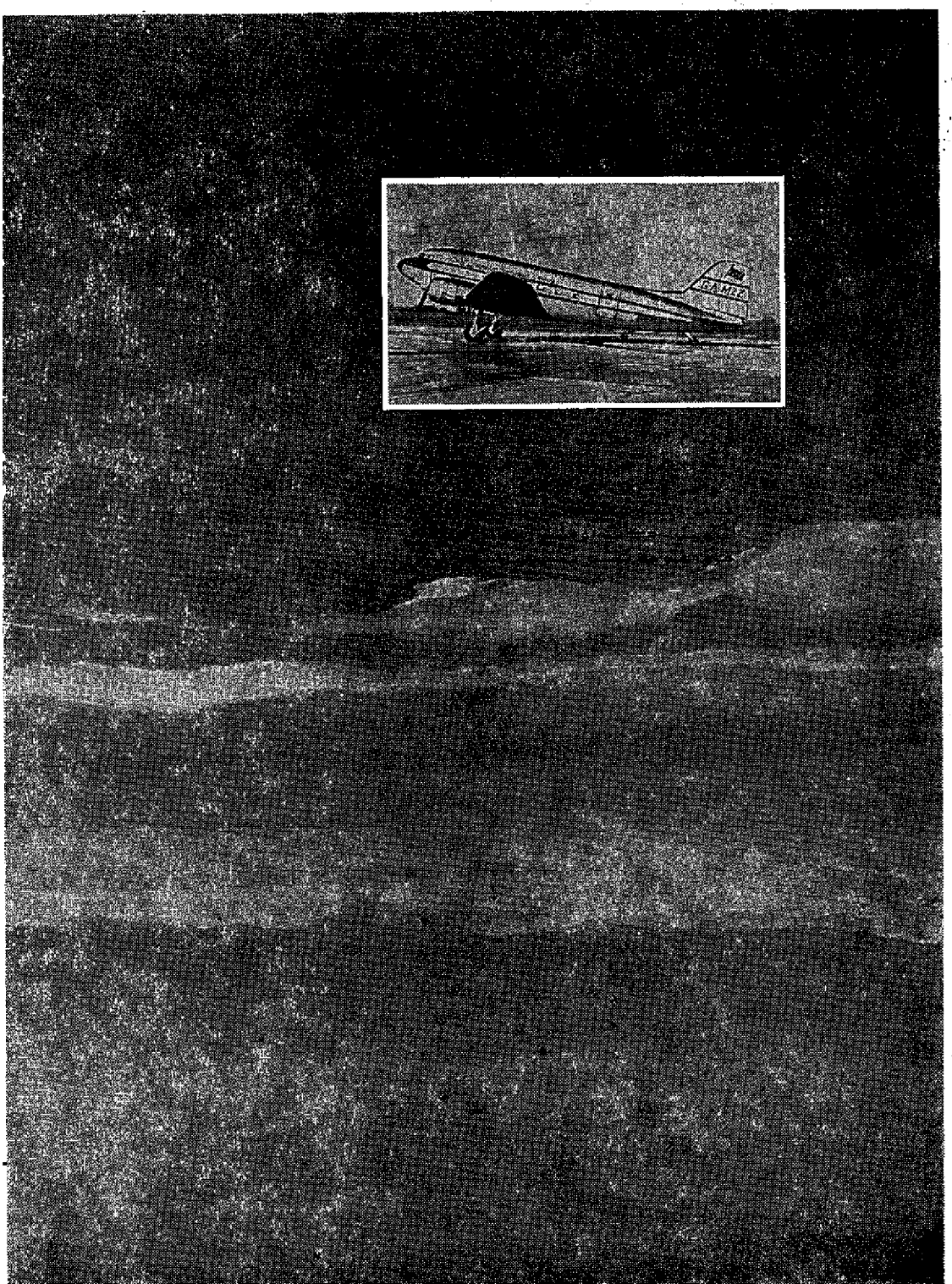

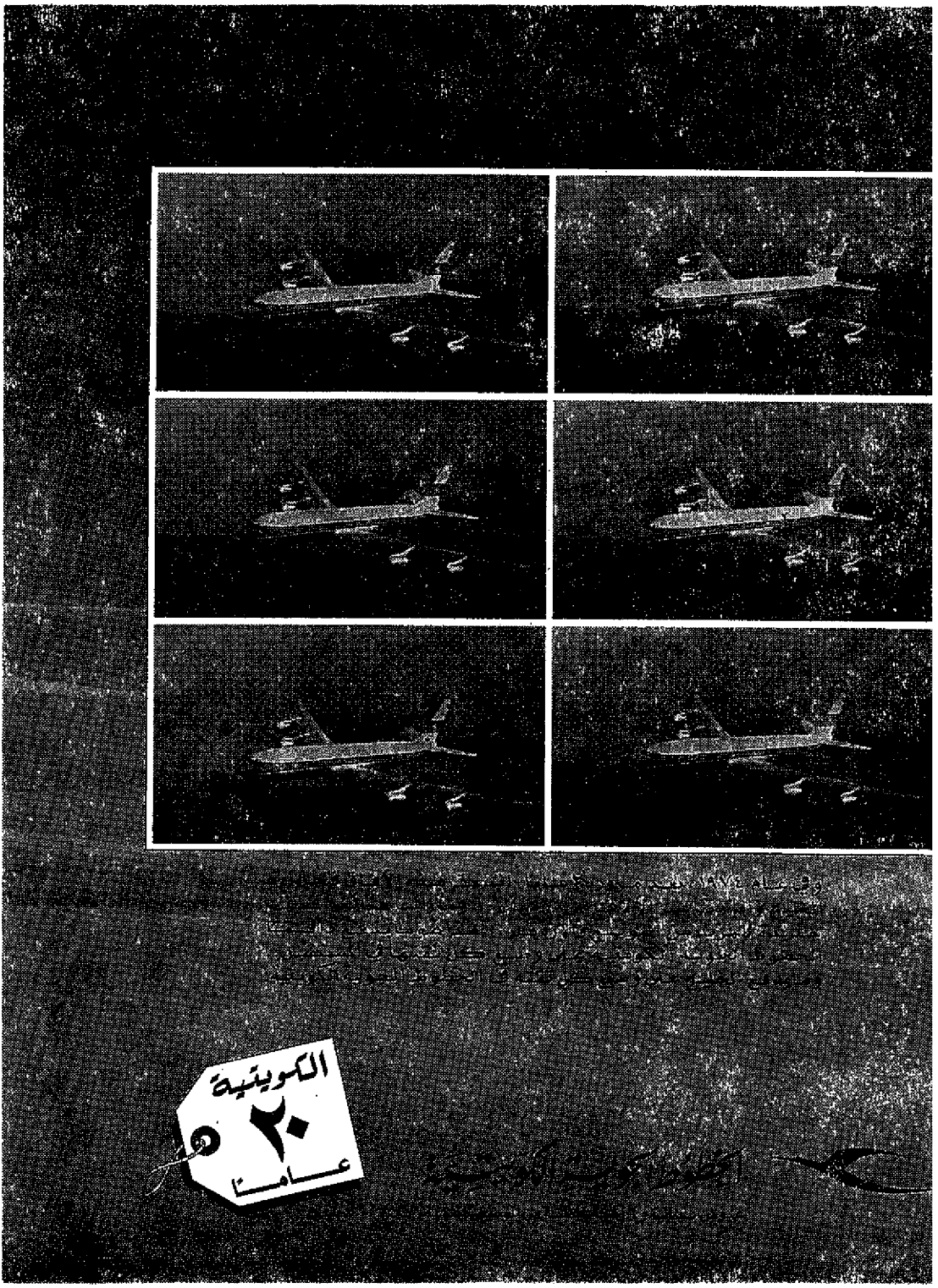
الكويتية
٢٠
عاماً

قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات العربية والتقدمية ، تعالج الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والعلمية في الوطن العربي ، من خلال نظرة مستقبلية وبروح البحث العلمي .

رئيس التحرير : الدكتور عبد الوهاب الكيالي

هيئة التحرير :

د. احسان عباس
محمد عمارة
د. وليد خدوري
د. عبد العزيز الاهواني
د. عبدالله عبد الدايم
د. منيف الرزاز
طارق عزيز
رجاء النقاش

للاشتراكات يرجى مراسلة ادارة المجلة، ص.ب ٥٤٦٠، بيروت ـ لبنان

تقرأ في العدد السادس (عدد خاص)

ـ حرب اكتوبر والمستقبل العربي — د. عبد الوهاب الكيالي
ـ موقع حرب اكتوبر من مجرى الصراع العربي الاسرائيلي — د. احمد صدقي الدجاني
ـ اكتوبر والنفط والفوائض المالية العربية — د. نقولا سركيس
ـ الوضع الاستراتيجي العام بعد سنة من عبور الهزيمة — المقدم الهيثم الايوبي
ـ من اكتوبر الى اكتوبر
هل من جديد على الساحة الاسرائيلية — محمود سويد
ـ توازن القوى بعد حرب اكتوبر — منير شفيق
ـ ٣٥ كتابا عن حرب اكتوبر
ـ ٥ وثائق عن اكتوبر ،

سعر النسخة ٣ ليرات لبنانية او ما يعادلها

صدر المجلد السنوى
لعام ١٩٧٣

السياسة الدولية

مرجع هام
للعاملين فى
الحقل السياسى
والإعلامى

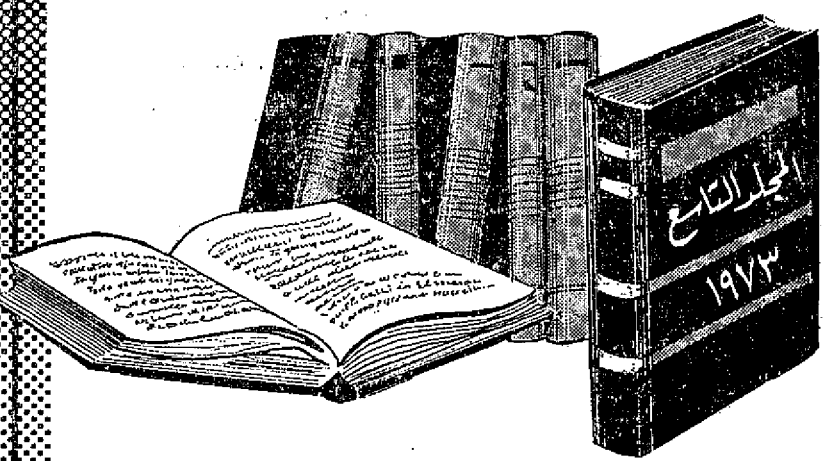

١٠٠٠ صفحة
١٠٠ قرش

وتطلب مجلدات السياسة الدولية من قسم الإشتراكات بمؤسسة الأهرام

صوت فلسطين

شهرية فلسطينية سياسية
تعالج مختلف جوانب القضية بآراء حرة

- مجلة « الوحدة الوطنية الفلسطينية » يصدرها جيش التحرير الفلسطيني ، جيش الوحدة الوطنية ، ويشارك في تحريرها عدد من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين والعرب الذين يمثلون اتجاهات شعبنا الفلسطيني ويعبرون عنها بوضوح .
- تسلط الضوء على الواقع الفلسطيني بصراحة وجرأة ، تعالج السلبيات وتبرز الايجابيات، وتطرح تصورات المثقفين الثوريين لتقويم مسيرة الثورة .
- تلتزم بارادة الغالبية العظمى لجماهير شعبنا الفلسطيني ، وتنطلق من شعارات منظمة التحرير في الوحدة الوطنية والتعبئة القومية والتحرير .
- تغطي أحداث الوطن المحتل ، وتطورات القضية في الساحات الفلسطينية والعربية والدولية عبر أبوابها الثابتة :
- مع الاحداث .
- قضايا وآراء .
- دراسات سياسية واقتصادية .
- دراسات عسكرية .
- ملف الأدب والفن .
- صوت فلسطين .

يقرأها شهريا ٢٠٠ ألف مواطن فلسطيني وعربي وتوزع في مختلف انحاء الوطن العربي .

- الاشتراك السنوي : للافراد ٢٥ ل.س. او ما يعادلها ، للمؤسسات الرسمية ٥٠ ل.س. او ما يعادلها ، يضاف اليها أجور البريد الجوي .
- سعر النسخة : سورية ولبنان ١٥٠ ق.س.ل. وما يعادلها في بقية الاقطار العربية ، مصر ١٠٠ مليم .

العنوان : دمشق ــ صالحية ــ شهداء ــ بناية عصاصة ص ب ٢٥٧٧

هــاتف ٣٣٤٠٦٥

المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 65, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣½ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا